المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الدراسات العليا
قسم الدعوة والاحتساب

الاختلاف بين الدعاة
(أسبابه - موضوعه - آثاره - علاجه)

رسالة مقدمة لقسم الدعوة بكلية الدعوة والإعلام
لنيل درجة الدكتوراه

إعداد
محمد بن سليمان البراك

إشراف
أ. د. عبد الله بن محمد المطلق

١٤١٨هـ
الجزء الأول

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الدراسات العليا
قسم الدعوة والاحتساب

الاختلاف بين الدعاة

(أسبابه – موضوعه – آثاره – علاجه)

رسالة مقدمة لقسم الدعوة بكلية الدعوة والإعلام
لنيل درجة الدكتوراه

إعداد
محمد بن سليمان البراك

إشراف
أ. د. عبد الله بن محمد المطلق

١٤١٨هـ

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على ما منح من النعماء، والشكر له على عظيم الآلاء، جعل المؤمنين إخوة وألف بين قلوبهم، فصاروا بالإيمان إخوة متحابين بعد أن كانوا قبل الإسلام أعداء متناحرين.
أحمده وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه، وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله سواه، وأستهديه سبيل الذين أنعم عليهم، وأشكره وقد وعد الشاكرين بالمزيد من الآلاء، وأعوذ به من شر نفسي وسيئات عملي، وأعتصم به من الأهواء المردية والفتن المضلة فما خاب من اعتصم به ولاذ بحماه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أشهد بها مع الشاهدين، وأدخرها عند الله ليوم الدين.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين وحجةً على العباد أجمعين، أرسله على حين فترة من الرسل فأوضح الحجة وأبان المحجة وترك الأمة على مثل البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، ورضي عن أصحابه الذين استقاموا على النهج وقصدوا الحق، فكانوا إخوة متحابين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واجتنب سبيل الأهواء.

أما بعد:

فإن من أهم ما بُعث به النبيﷺ بعد توحيد الله تعالى، جمعَ كلمة المسلمين ولَمَّ شعثِهم وتسويةَ صفوفهم، وما شرع الله في دينه المساواة بين القوي والضعيف وذي الحسب ومَنْ دونه إلا ليتم بين عباده التآلف، وما جمع النبيﷺ بين المهاجرين والأنصار وآخى بينهم وقضى على ما كان بين الأوس والخزرج من نعرات الجاهلية إلا لكي يتحدوا ويكونوا صفا واحدا، وما استاءت اليهود من شيء بعد هجرة النبيﷺ كاستيائهم من اجتماع المسلمين وتآلفهم بعد ما كان بينهم من الفرقة والقتل، حتى شَرِقُوا بريقهم وأضمروا العداوة للمسلمين ودبروا المؤامرة تلو المؤامرة لتعود الفرقة جذعة كما كانت، فتستمر لهم السيادة، وقد حذر الله المؤمنين من كيدهم وأمرهم أن يكونوا على حيطة من عدوهم، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم}[1]

([1]) سورة آل عمران (١٠٠ـ١٠١)

وحين كان المسلمون يدا واحدة مجتمعين على الحق، ظهروا مع قلتهم على أعدائهم من كفار أهل الكتاب والمشركين، وفي فترة وجيزة لم يعرف في التاريخ لها سابقةٌ فتحوا البلاد وقهروا الملوك والسلاطين، وسادوا الدنيا وظهر دين الله على الدين كله وأهل الكفر كارهون، وأصبحت الظعينة تسير من خراسان إلى الأندلس لا تخاف إلا الله، وخمدت نار المجوسية وخنست النواقيس والصلبان إلى غياهب أوربا.

واستمر مد الإسلام ينمو ويتعاظم ورايته تعلو والمسلمون أعزة يخشاهم الملوك وتقنع منهم الدول ــ مهما عظمت ــ بالعافية والسلامة، حتى ظهر فيهم داء الاختلاف وتجارت بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، فتعددت مذاهبهم واختلفت أراؤهم وأدخلوا في دين الله ما ليس منه، فأدركتهم سنة الله تعالى في خلقه التي أخبر عنها عز شأنه بقوله: {ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}([1]).

فتبدلت حالهم بعد القوة ضعفا وبعد العز ذلا وطمع فيهم عدوهم، ولولا أن الله تكفل بنصر دينه وبقائه مهما تكالب عليه الأعداء وأجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم، لغابت شمسه واضمحل شأنه واستؤصل أهله.

وقد وعد سبحانه أهل دينه بالنصر والتمكين إن هم استقاموا عليه وتمسكوا به: فقال سبحانه: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}([2])

وصح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي قائمةً بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله وهم ظاهرون على الناس»([3]). فلا تمكين في الأرض ولا استخلاف فيها إلا بالإيمان بالله واتباع شرعه.

ورغم ظهور الحق وتوافر الأدلة على تأييده، ظهورا قامت به الحجج على العباد وانتفت عنهم المعاذير، إلا أنه قد يحال بين كثير من الناس وبين الأخذ به والتزامه، إما لقلة العلم والفقه في دين الله، أو لاتباع الأهواء ومغريات الحياة، ولذلك أوجب الله تعالى على المسلمين أن يكون من بينهم

([1]) سورة الأنفال (٥٣)

([2]) سورة النور (٥٥)

([3]) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب «فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه» رقم الحديث(١٠٣٧)

جماعة تقوم بتبليغ الدين وإرشاد الضالين، وعلى يديها تكون هداية التائهين، فقال تعالى في محكم التنزيل: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}(١).

ولأن الله متم أمره فقد "جعل في كل زمانٍ فترةٍ من الرسل، بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسنَ أثرهم على الناس، وأقبحَ أثرَ الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"(٢).

وهؤلاء هم العلماء الداعون إلى الله على بصيرة المقتفون لسنة نبيه محمد ﷺ الذين مدحهم الله وأثنى على عملهم فقال تعالى: {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين}(٣).

وما من شك في أن الأمة الإسلامية اليوم تعيش صحوة إسلامية مباركة، وعودةً صادقة إلى دين الله، ورغبةً أكيدةً في استئناف حياةٍ إسلاميةٍ، خاليةٍ من شوائبِ البدعِ والانحرافاتِ، مقتفيةٍ آثار النبيﷺ وأصحابه الكرام، يقودها إلى هذه المقاصد النبيلة دعاةُ صادقون في دعوتهم مستهدون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ متبعون في فهمهما طريقة السلف الصالح، ومع أن لهم جهودا مثمرةً وعملا مسددا، إلا أن ثمة عوائق تقف في طريقهم، وتكدر صفو دعوتهم، وتبدد كثيرا من جهودهم، وذلك بما يطفو بين الحين والآخر من اختلاف بين المسلمين، يختلط بسببه الحق بالباطل، ويصعب معه التمييز بين دعاة الهدى ودعاة الضلال.

وإذا كان أمر الاختلاف بين المسلمين عظيم، وخطره على الأمة جسيم فإن هذا الخطر يعظم أثره حين يتجاوز عامة المسلمين إلى خاصتهم الذين يُلتمس عندهم جمعُ كلمة الأمة ولْمُّ شتاتِها ومداواةُ أمراضها، ألا وهم الدعاة إلى الله الذين باختلافهم يتعمق الاختلاف بين المسلمين وتتعدد أسبابه ويستعصي علاجه، وهو من أول ما يجب أن يهتم به الدراسون ويولونه عنايتهم فيبينون أسبابه وآثاره وطرق الوقاية منه.

---

(١) سورة التوبة (١٢٢)

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة ص (٨٥) للإمام أحمد، ت: د. عبد الرحمن عميرة، دار اللواء ط (٢) ١٤٠٢هـ

(٣) سورة فصلت (٣٣)

ورغم أن بضاعتي في العلم مزجاة وزادي منه قليل رأيت حقا علي أن أبحث هذا الموضوع وأوليه عنايتي، وأن يكون موضوع رسالتي في الدكتوراه، لا سيما وأني قد حصلت على درجة الماجستير من قسم الدعوة في كلية الدعوة والإعلام بالرياض، وبعد إجالة النظر وإطالة سوانح الفكر واستشارة أهل الدراية الذين يستنار بآرائهم ممن لهم قدم في العلم راسخة وباع فيه طويل، هداني الله إلى بحث هذا الموضوع تحت عنوان (الاختلاف بين الدعاة – أسبابه – موضوعه – آثاره – علاجة) مستمدا من الله تعالى العون، وقد دفعني إلى اختياره أسباب عدة من أهمها ما يلي:

١– الأهمية البالغة للكتابة في هذا الموضوع وذلك لبروز آثار الاختلاف السيئة على الساحة مما يؤكد الحاجة إلى الكتابة الجادة في هذا الموضوع.

٢– محاولة التعرف على أسباب الاختلاف وإبراز آثاره السيئة التي تقف حجر عثرة أمام دعوة الحق وتحجب نور الإسلام وتبدد كثيرا من الجهود التي يبذلها الدعاة، عسى أن يكون لهذه المحاولة دور في تجنب وقوع هذه الآثار.

٣– جدة الموضوع حيث لا أعلم أحدا كتب فيه على نحو متكامل، وغاية ما كتب فيه إنما هو رسائل مختصرة لا تفي ولو بجزء يسير مما يحتاجه الموضوع من دراسة.

٤– اشتباه الأمر على كثير من الناس وعدم تفريقهم بين دعاة الهدى ودعاة الضلال فأقبل بعضهم على دعاة الضلال ظنا منهم أنهم دعاة هدى وأهل استقامة، وأعرضوا بالمقابل عن دعاة الحق المقتفين لمنهج السلف بسبب تنفير أهل الضلال منهم، ولذلك حرصت في هذه الرسالة على تجلية الموقف الصحيح من المسائل المختلف فيها على ضوء الكتاب والسنة لأن ذلك يعين الكثيرين على التمييز بين دعاة الحق ودعاة الضلال.

– مكان البحث من الدراسات السابقة:

على الرغم من الأهمية الكبرى لمشكلة الاختلاف بين الدعاة، إلا أن القارئ قلما يعثر على دراسة متكاملة، تعالج هذه المشكلة وتحيط بها من جوانبها المختلفة مع كثرة ما كتب حديثا حول موضوع الدعوة مما يعد في الغالب تكرارا لمسائل لا تنال من حيث ترتيبُ الأولويات القدر الذي يناله موضوع الاختلاف بين الدعاة.

ومع أن بعض الباحثين قد تنبه لأهمية دراسة هذا الموضوع وضرورة المبادرة لعلاج ظاهرة الاختلاف بين الدعاة، وأدركوا ما تعانيه المكتبة الإسلامية من نقص في الأبحاث الجادة حوله، فنشط منهم من تصدى لبعض جوانب منه، إلا أن الملاحظ في كتاباتهم أنها كانت على نحو مختصر، إضافة إلى اقتصارها على جوانب محدودة من الموضوع.

ومن ثم يجيء دور هذه الدراسة التي تتناول ظاهرة الاختلاف بين الدعاة من جميع جوانبها،

فتبين أسبابها، وواقعها، ومدى تأثيرها على الدعوة، وكشف أبعاد هذا المعوق، وبيان الضوابط اللازمة له، والآثار الناجمة عنه، بهدف تقديم رؤية واضحة تساهم في رفع الاختلاف بين الدعاة.

- منهج البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث وهو يعالج موضوع الاختلاف بين الدعاة استخدام المناهج التالية:

١- المنهج الاستقرائي:

تظهر أهمية استخدام هذا المنهج في دراسة موضوع الاختلاف بين الدعاة من خلال تتبع بعض قضايا الاختلاف الجزئية والانتقال منها إلى القضايا الكلية، ولا يعني هذا التتبع استقصاء جميع حالات الاختلاف بين الدعاة، بل يكتفى بدراسة نماذجَ متنوعةٍ يستنبط منها كلياتٌ عامةٌ وقواعد كلية من حالات محدودة تجعل الفكر يقيس ما سيأتي على ما مضى وتفيد في تكوين مفاهيمَ عامةٍ معتمدةً على الدليل الشرعي المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢- المنهج التاريخي:

لا يقتصر هذا المنهج على السرد التاريخي لحالات الاختلاف بين الدعاة فحسب ولكنه أيضا محاولة لفهم الحاضر على ضوء الأحداث والتطورات الماضية، كما أنه يعطي رؤية حقيقية متماسكة للعلاقة بين الدعاة في الماضي والحاضر وتنوع أسباب الاختلاف قديما وحديثا، وتوقع النتائج المستقبلية على ضوء نتائج الدراسة الحالية.

٣- المنهج المقارن:

يعتمد هذا المنهج على إجراء المقارنة بين الأفكار والأسباب والآثار التي يؤدي إليها الاختلاف بين الدعاة، وذلك للخروج من هذه المقارنة بنتائج يستفاد منها في صياغة الأفكار التي يتوصل إليها الباحث.

أما في صياغة هذا البحث فيمكن إجمال جوانب المنهج في النقاط التالية:

- حرصت في هذا البحث على أن أنهج نهجا علميا غير مشوب بتعصب أو هوى أو انتصار لرأي شخصي.
- حرصت على أن أصدر كل مسألة مختلف فيها ببيان أدلتها من الكتاب والسنة وأقوال العلماء المعتبرين سلفا وخلفا وذلك لبيان القول الحق الذي ينبغي أن يصار إليه، ومن ثم يكون النقد للمخالف معتمدا على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة.
- حرصت على معرفة هدي السلف وطريقتهم في التعامل مع حالات الاختلاف التي جرت في عهدهم، وذلك لا عتقادي أنهم القدوة في فهم نصوص الشرع وأن من بعدهم عالة عليهم في هذا الشأن.

- المسائل التي بسببها وقع الاختلاف بين الدعاة في الوقت الحاضر حرصت على أن أبحث عن نظائر لها مما جرى في حياة السلف لكي يتبين موقفهم منها وكيف تصرفوا حيالها فيقتدى بهم؟

- الذي أعتقده أن العلماء هم الدعاة وأنه لا دعوة من غير علم، ومن المعلوم أن العلماء تتفاوت مراتبهم بحسب ما عندهم من العلم فلا يعني ورود لفظ الدعاة بمفرده أو عبارة العلماء والدعاة أنني أقول بالتفريق بينهم وأن العلماء غير الدعاة والعكس، بل القصد من ذلك التفريق بين كبار العلماء وطلاب العلم الذين لم يبلغوا هذه المنزلة فدعوة هؤلاء بقدر ما عندهم من العلم.

- عند نقل كلام الأشخاص أو الفئات حرصت على أن يكون النقل من كلام الشخص نفسه أو من كلام أتباعه، ولذلك عند الكلام عن الجماعات الإسلامية حرصت على استقاء المعلومات عن أي جماعة مما كتبه المنتمون إليها بشكل عام وما كتبه مؤسسها أو قياداتها بوجه خاص، رغبة مني في الانصاف وعدم نسبة قول أو رأي إلى جماعة وهي تقول بخلافه.

الحواشي والتوثيق:

١- عزوت الآيات إلى سورها مع ذكر أرقامها.

٢- عزوت الآحاديث إلى مصادرها فما كان منها في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت ببيان موضعه ورقمه، وما كان في غيرهما من كتب الحديث حرصت على بيان درجته من الصحة اعتمادا على تصحيح أهل العلم المتقدمين منهم والمتأخرين، وإذا تكرر ورود الحديث في موضع آخر اكتفيت بالتخريج المتقدم مع ذكر رقم الحديث وأنه سبق تخريجه

٣- حرصت على التعريف بالأعلام الذين وردت أسماؤهم في البحث وذلك في أول موضع يرد فيه اسم العلم .

٤- عند توثيق النقول التي احتجت إلى الاستشهاد بها فرقت بين ما نقلته بنصه وما تصرفت فيه باختصار أو تغيير في الألفاظ، فما كان بنصه أوردت في الحاشية اسم الكتاب والمؤلف ومكان النقل، وما كان بتصرف أوردت عبارة انظر أو يراجع قبل إيراد اسم الكتاب والمؤلف.

خطة البحث:

اشتملت خطة هذا البحث بعد المقدمة العامة على تمهيد وأربعة أبواب:

التمهيد: الاختلاف(تعريفه ــ أنواعه ــ أحكامه).

واشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: تعريف الاختلاف وتعريف الدعوة.

المبحث الثاني: أنواع الاختلاف.

الباب الأول: الاختلاف بين الدعاة (واقعه وأسبابه).

وقد اشتمل على فصلين.

الفصل الأول: واقع الاختلاف بين الدعاة.

وقد اشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: واقع الاختلاف بين الجماعات الإسلامية.

المبحث الثاني: واقع الاختلاف بين الأفراد.

الفصل الثاني: أسباب الاختلاف بين الدعاة ويشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: الأسباب الداخلية.

المبحث الثاني: الأسباب الخارجية.

الباب الثاني: موضوع الاختلاف بين الدعاة.

واشتمل على فصلين.

الفصل الأول: الاختلاف العقدي.

واشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: حول حقيقة توحيد الألوهية.

المبحث الثاني: حول حقيقة توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الثاني: الاختلاف الفقهي.

واشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: فقه العبادات.

المبحث الثاني: الفقه السياسي للدولة الإسلامية.

الباب الثالث: آثار الاختلاف بين الدعاة.

واشتمل على فصلين.

الفصل الأول: آثاره على الدعوة والدعاة.

واشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: فساد ذات البين.

المبحث الثاني: الحزبية والتعصب.

الفصل الثاني: آثاره على المدعوين.

واشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: الوقيعة في العلماء (تحطيم القدوة العلمية).

المبحث الثاني: ظهور البدع.

الباب الرابع: علاج الاختلاف بين الدعاة.

واشتمل على فصلين.

الفصل الأول: الوقاية من أسباب الاختلاف بين الدعاة.

واشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: حسن الإعداد للداعية بما يكفل وقايته من أسباب الاختلاف.

المبحث الثاني: الوحدة الفكرية أهميتها وكيفية المحافظة عليها.

الفصل الثاني: التعامل مع الاختلاف بين الدعاة.

واشتمل على مبحثين.

المبحث الأول: ما ينبغي أن يكون عليه الدعاة حال اختلافهم.

المبحث الثاني: رد المسائل المتنازع فيها إلى الله والرسولﷺ.

الخاتمة:

وتضمنت الحديث عن خلاصة البحث وأهم النتائج والتوصيات.

شكر وتقدير:

وفي الختام فإني أرى حقا علي أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أعانني على استكمال هذا البحث، وأول الشكر وآخره ومبدأ الحمد ومنتهاه لله سبحانه وتعالى، فله الحمد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا حمدا لا منتهى لحده ولا مبلغ لأمده.

ثم الشكر بعد ذلك لشيخي الفاضل أ.د. عبدالله بن محمد المطلق على ما بذل من جهد ووقت في قراءة هذه الرسالة وإبداء الملحوظات التي أفدت منها كثيرا وكان لها أبلغ الأثر، وقد أفادني بعلمه الجم وفهمه الثاقب وتوجيهاته السديدة ورأيه الصائب، فجزاه الله عني خير الجزاء، ورفع درجته في الدارين.

والشكر كذلك لصاحبي الفضيلة المناقشين الكريمين على ما بذل من جهد وأمضيا من وقت في قراءة هذه الرسالة وتقويمها.

كما لا يفوتني أن أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكلية الدعوة والإعلام بالرياض ممثلة في القائمين عليها وأخص بالشكر فضيلة عميد الكلية ووكيليها على تمكيني من تسجيل هذه الرسالة.

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا القول: إن هذا البحث ما هو إلا خطوة في طريق طويل، ومحاولة تحتاج إلى أن تعقبها محاولات، ليس بالقول الفصل، ولا العلاج النهائي الذي لا يُحتاج معه إلى غيره، وإن كنت قد أفرغت في جمعه وسعي وبذلت غايتي، وهو مع ذلك عمل بشري يعتريه ما يعتري عمل البشر من النقص والزلل، فما كان منه صوابا فمن الله والفضل له وحده، وما كان منه خطأ فمني ومن الشيطان.

وأسأل الله وحده وهو خير مسئول، أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون مقربا لي عنده زلفى يوم تبعثر القبور ويحصل ما في الصدور، وأن يغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وخطاي وعمدي وكل ذلك عندي وما هو أعلم به مني.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على من بعثه ربه رحمة للعالمين.

المدخل للدراسة

الاختلاف (تعريفه ـــ أنواعه ـــ أحكامه)

قبل الدخول في ثنايا البحث وطرق موضوعاته يجدر بنا أن نُعرف بمصطلحاته التي حولها تدور الدراسة، لأن فهم هذه المصطلحات يحدد نطاق الدراسة بما انعقدت من أجله.

ومن نظر في عنوان البحث تبين له أنه يقتصر على دراسة الاختلاف بين الدعاة إلى الله تعالى، ومن ثم فإننا بحاجة إلى بيان المقصود بالاختلاف والدعاة.

ومن خلال هذا التمهيد فإنني سأبين المراد بالاختلاف لغة واصطلاحا، وأبين علاقة كلمة الاختلاف بالألفاظ القريبة الصلة بها، التي قد تستخدم أحيانا لتؤدي معناها.

ثم أبين المراد بالدعوة لغة واصطلاحا، لأنه على ضوء هذا التعريف يتحدد نطاق عمل الداعية.

يعقب ذلك بيان أنواع الاختلاف وما يتضمنه من أنواع وأحكام.

المبحث الأول: تعريف الاختلاف

تعريف الاختلاف:

الاختلاف لغة: مصدر اختلف[١]، واختلف ضد اتفق[٢]، وتخالف الأمران واختلفا لم يتفقا وكل ما لم يتساو، فقد تخالف واختلف، والخلاف المضادة، وخالفه إلى الشيء: عصاه إليه أو قصده بعد ما نهاه عنه[٣].

اصطلاحاً:

قال الجرجاني[٤] في تعريف الاختلاف بأنه: منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل[٥].

وعرفه طه العلواني: بأن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله أو قوله[٦].

الفرق بين الاختلاف والخلاف:

فرق ابن الهمام[٧] بين لفظ الاختلاف والخلاف، فزعم أن لفظ الاختلاف يستعمل في القول الذي بني على دليل، أما الخلاف فإنه يطلق على القول المرجوح في مقابلة الراجح [٨] أما عطية محمد سالم فزعم أن استعمال اختلف يكون في حالة المغايرة في الفهم الواقع من تفاوت وجهات النظر، أما خالف فيستعمل في حالة العصيان الواقع عن قصد [٩] وفي كلام بعض العلماء عدم اعتبار هذا التفريق فما يعبر عنه في موضع بالاختلاف يعبر عنه في موضع آخر بالخلاف[١٠].

---

[١] الموسوعة الفقهية (٢/٢٩١) إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ

[٢] القاموس المحيط للفيروز أبادي، مادة (خلف) الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ مؤسسة الرسالة

[٣] لسان العرب لابن منظور مادة (خلف) دار صادر، بيروت

[٤] علي بن محمد الحسيني الجرجاني، متكلم بارز و متصوف مشهور، ولد في جرجان سنة ٧٤٠هـ وتوفي في سنة ٨١٦ هـ انظر كتاب التعريفات ص (١) و الأعلام لخير الدين الزركلي (٥/٧) دار العلم للملايين، بيروت، ط(٧) ١٩٨٤م

[٥] كتاب التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني ص (٦) عام ١٩٧٨م مكتبة لبنان

[٦] أدب الاختلاف، طه جابر فياض العلواني ص (٢١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط (٣) ١٤٠٧ هـ.

[٧] محمد بن عبد الواحد كمال الدين، المعروف بابن الهمام، إمام من علماء الحنفية، عارف بأصول الديانات والتفسير والفرائض والفقه، ولد بالإسكندرية وتوفي بالقاهرة سنة ٨٦١هـ وغيرهما. انظر الأعلام(٦/٢٥٥)

[٨] انظر شرح فتح القدير لمحمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام (٦/٣٩٤) بولاق، وحاشية ابن عابدين (٤/٣٣١) الطبعة(١) دار الكتب العلمية، بيروت

[٩] انظر موقف الأمة من اختلاف الأئمة، عطية محمد سالم ص (١٦) مكتبة دار التراث ط (١) ١٤١٠هـ.

[١٠] انظر مثلاً في كلام الشاطبي في الموافقات حيث يقول في السبب الرابع من أسباب نقل الخلاف وماقبله وما بعده " أن يتوارد الخلاف على محل واحد، كاختلافهم في أن المفهوم له عموم أولاً، وذلك أنهم قالوا لا يختلف القائلون بالمفهوم أنه عام فيما سوى

تعريف الاختلاف:

الاختلاف لغة: مصدر اختلف[1]، واختلف ضد اتفق[2]، وتخالف الأمران واختلفا لم يتفقا وكل ما لم يتساو، فقد تخالف واختلف، والخلاف المضادة، وخالفه إلى الشيء: عصاه إليه أو قصده بعد ما نهاه عنه[3].

اصطلاحاً:

قال الجرجاني[4] في تعريف الاختلاف بأنه: منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل[5].

وعرفه طه العلواني: بأن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله أو قوله[6].

الفرق بين الاختلاف والخلاف:

فرق ابن الهمام[7] بين لفظ الاختلاف والخلاف، فزعم أن لفظ الاختلاف يستعمل في القول الذي بني على دليل، أما الخلاف فإنه يطلق على القول المرجوح في مقابلة الراجح [8] أما عطية محمد سالم فزعم أن استعمال اختلف يكون في حالة المغايرة في الفهم الواقع من تفاوت وجهات النظر، أما خالف فيستعمل في حالة العصيان الواقع عن قصد [9] وفي كلام بعض العلماء عدم اعتبار هذا التفريق فما يعبر عنه في موضع بالاختلاف يعبر عنه في موضع آخر بالخلاف[10].

---

(1) الموسوعة الفقهية (٢٩١/٢) إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ

(2) القاموس المحيط للفيروز أبادي، مادة (خلف) الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ مؤسسة الرسالة

(3) لسان العرب لابن منظور مادة (خلف) دار صادر، بيروت

(4) علي بن محمد الحسيني الجرجاني، متكلم بارز و متصوف مشهور، ولد في جرجان سنة ٧٤٠هـ وتوفي في سنة ٨١٦ هـ انظر كتاب التعريفات ص (١) و الأعلام لخير الدين الزركلي (٧/٥) دار العلم للملايين، بيروت، ط(٧) ١٩٨٤م

(5) كتاب التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني ص (٦) عام ١٩٧٨م مكتبة لبنان

(6) أدب الاختلاف، طه جابر فياض العلواني ص (٢١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط (٣) ١٤٠٧ هـ.

(7) محمد بن عبد الواحد كمال الدين، المعروف بابن الهمام، إمام من علماء الحنفية، عارف بأصول الديانات والتفسير والفرائض والفقه، ولد بالإسكندرية وتوفي بالقاهرة سنة ٨٦١هـ وغيرهما. انظر الأعلام(٢٥٥/٦)

(8) انظر شرح فتح القدير لمحمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام (٣٩٤/٦) بولاق، وحاشية ابن عابدين (٣٣١/٤) الطبعة(١) دار الكتب العلمية، بيروت

(9) انظر موقف الأمة من اختلاف الأئمة، عطية محمد سالم ص (١٦) مكتبة دار التراث ط (١) ١٤١٠هـ.

(10) انظر مثلاً في كلام الشاطبي في الموافقات حيث يقول في السبب الرابع من أسباب نقل الخلاف وماقبله وما بعده " أن يتوارد الخلاف على محل واحد، كاختلافهم في أن المفهوم له عموم أولاً، وذلك أنهم قالوا لا يختلف القائلون بالمفهوم أنه عام فيما سوى

والذي يظهر لي بعد تأمل نصوص الكتاب والسنة أن الكلمة يتحدد معناها بحسب سياق الكلام الذي ترد فيه، فقد ترد كلمة اختلف في سياق يتبين منها النهي عن الاختلاف عموماً دون تحديد لفئة معها دليل يؤيدها فيما اختلفت فيه مع الفئة الأخرى، مثل قوله تعالى: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم}[١] ومثل قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري[٢] عن عبد الله بن مسعود[٣] قال: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت النبيﷺ يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ وذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «كلاكما محسن، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[٤].

وقد يكون هذا الحديث دليلاً صريحاً في عدم التفريق بين اللفظين حيث إن الاختلاف وقع بين قارئين قراءة كل منهما صحيحة تلقاها من النبي ﷺ.

وكذلك لفظ (خالف) لا يقتصر استعماله على من كان خلافه ناتجا عن عصيان واقع عن قصد بل يشمل أعم من ذلك كما لو خالف معتمدا على دليل، فلا يذم فاعله أو يمدح إلا بمعرفة أسباب الاختلاف ودوافعه، ولعل المراد يتضح بإيراد بعض النصوص

المنطوق به، والذين نفوا العموم أرادوا أنه لا يثبت بالمنطوق به، وهو مما لا يختلفون فيه أيضاً وكثير من المسائل على هذا السبيل، فلا يكون في المسألة خلاف، وينقل فيها الأقوال على أنها خلاف " فالذي عبر عنه أولا بالخلاف عبر عنه ثانيا بالاختلاف، الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي (١٥٧/٤) ط (١) دار الكتب العلمية بيروت

[١] سورة آل عمران (١٠٥)

[٢] الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله وهو صحيح البخاري، اتفقت الأمة على إمامته في الحديث، قال ابن خزيمة فيه: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري، ولد في بخارى سنة ١٩٤هـ ونشأ يتيما، وقام برحلة طويلة في طلب الحديث زار فيها خراسان والعراق ومصر والشام، توفي في خرتنك على بعد فرسخين من سمرقند سنة ٢٥٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٣٩١/١٢-٣٩٢-٤٢١-٤٦٥) الإمام: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط(١) ١٤٠١هـ وطبقات الشافعية (٢١٢/٢-٢١٨-٢٣٢) والبداية والنهاية (٣٠/١١-٣٣) الحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط(١) ١٤٠٨هـ

[٣] عبد الله بن مسعود بن غافل الهذ كان من السابقين الأولين شهد بدرا وهاجر الهُجرتين، روى علما كثيرا، كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ مات بالمدينة سنة ٣٢هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤٦١/١-٤٦٢-٤٦٦) والبداية والنهاية (١٨٢/٧-١٨٣) والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٢ ٣ ٣-٢٣٥) الحافظ: ابن حجر العسقلاني، تحقيق:علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، ط(١) ١٤١٢هـ

[٤] صحيح البخاري،كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود(٢٤١٠) دار السلام للنشر والتوزيع ط (١) ١٤١٧هـ.

الشرعية مثل قوله تعالى: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}[١].

أي يخالفون أمر الرسول ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، ويتركون العمل بمقتضاه[٢].

وكذلك ما رواه البخاري عن ابن عمر[٣] ﷺ عن النبي ﷺ قال: «جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري»[٤].

وما رواه البخاري أيضاً عن معاوية[٥] أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين والله المعطي وأنا القاسم ولاتزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»[٦].

فالمخالف هنا مذموم لأنه قد خالف الحق والدليل .

وقد يكون الخلاف محمودا مأموراً به إذا كان خلافاً لأهل الكفر والمعاصي والبدع، فعن عمرو بن ميمون[٧] قال: " قال عمر ﷺ «إن المشركين كانوا لا يفيضون من جمع

---

[١] سورة النور (٦٣)

[٢] انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ إسماعيل بن كثير (٣٠٧/٣) دار المعرفة، بيروت (١٤٠٣هـ) وفتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني (٥٩/٤) دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ واستدل الشيخ عطية محمد سالم بهذه الآية على التفريق بين لفظ الاختلاف والخلاف وقال: " وعليه قوله تعالى {فليحذر الذين يخالفون عن أمره} ولم يقل {يختلفون في أمره} " أ هـ والاختلاف في أمر الله أو أمر رسوله قد يكون فاعله مذموماً وليس معه دليل فتأمل قوله تعالى {ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد} سورة البقرة (١٧٦)

[٣] عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولد سنة ثلاث من البعثة، هاجر وهو ابن عشر سنين، عرض على النبي ﷺ يوم بدر وأحد فلم يجزه ثم أجازه في الخندق، مات سنة ٧٤ هـ وقيل ٧٣ هـ.انظر سير أعلام النبلاء (٢٠٣/٣-٢٠٤) والبداية والنهاية (٧/٩-٩) والإصابة (١٨١/٤-١٨١)

[٤] رواه البخاري واللفظ له، كتاب الجهاد والسير معلقا ب (٨٨) ورواه الإمام أحمدُ مسندا (٥١/٢)

[٥] معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب القرشي الأموي، ولد قبل البعثة بخمس سنين، أسلم عام الفتح، صحب النبي ﷺ وكتب له وولاه عمر على الشام، وأقره عثمان واستقل بالشام ثم أضاف إليها مصر ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين، مات بدمشق سنة ٦٠هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١١٩/٣-١٢٠، ١٦٢) والبداية والنهاية (١٢٥/٨- ١٥٢) والإصابة (١٥١/٦-١٥٥)

[٦] رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قوله تعالى: فأن لله خمسه وللرسول، رقم الحديث (٣١١٦)

[٧] عمرو بن ميمون الأودي الكوفي، الإمام الحجة أبو عبد الله الكوفي، أدرك الجاهلية وأسلم في حياة النبي ﷺ على يد معاذ بن جبل

حتى تشرق الشمس على ثبير فخالفهم النبي ﷺ فأفاض قبل أن تطلع الشمس [١].

وعن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب»[٢].

تبين مما تقدم أن الخلاف والاختلاف من حيث اللفظ هو كما قال الشيخ صالح بن حميد " ليس بينهما فارق يعول عليه ويستعملهما العلماء في مدوناتهم بمعنى واحد، وإن تكلف بعضهم في التفريق بينهما، وقصارى الأمر ألا مشاحة في الاصطلاح"[٣].

وقد أوردت لفظ (اختلف) و (خالف) في سياقات متعددة تبين منها أن اللفظ يتحدد معناه باعتبار السياق الذي ورد فيه، ورأيت الاكتفاء بإيراد بعض النصوص لأن فيها ما يكفي للاستدلال لهذه المسألة .

الألفاظ ذات الصلة:

الجدال – المراء – النزاع:

لو بحثنا في القواميس والكتب التي اهتمت بالتعاريف وفي كلام أهل العلم قد لا نجد من فسر الجدال والتراع بالاختلاف، لكننا نجد من فسر الجدال بالمراء، ومن فسر المراء بالاختلاف، كما نجد من فسر التراع بالجدال، مما يعني وجود علاقة بين هذه الألفاظ.

وسأذكر تعريف الجدال والتراع ثم أذكر أمثلة يتبين منها وجود هذه العلاقة بين هذه الألفاظ .

الجدال:

هو: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالا، ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام.

والجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة المناظرة والمخاصمة، ويقال إنه لجدل إذا كان

وقدم الشام معه ثم سكن الكوفة، مات سنة ٧٤هـ وقيل ٧٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٤/١٥٨-١٦١) والإصابة(٥/١٥٥-١٥٤)

[١] رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، رقم الحديث (٣٨٣٨)

[٢] رواه البخاري، كتاب اللباس، باب قص الشارب، رقم الحديث (٥٨٩٢)

[٣] أدب الخلاف، صالح بن عبد الله بن حميد ص (٩) مكتبة الضياء ١٤١١هـ

شديد الخصام[١] والجدال اللدد في الخصومة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه[٢].

وعرفه الجرجاني بأنه: عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها[٣].

ويلاحظ من تعريف الجرجاني أنه فسر الجدال بالمراء، كما فسره بذلك أيضاً الإمام البخاري رحمه الله حيث قال في تفسير قوله تعالى:{ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}[٤] قال: " والجدال المراء"[٥].

وفي تفسير قوله تعالى{أفتمارونه على ما يرى}[٦] نقل الإمام البخاري تفسير إبراهيم النخعي[٧] للجدال بأنه المراء فقال: وقال إبراهيم: {أفتمارونه} أفتجادلونه[٨].

وبه فسره الحافظ ابن حجر[٩] عند شرحه لحديث ابن عباس[١٠]: أنه تمارى هو والحر

---

(١) لسان العرب باب (اللام) فصل (الجيم) (١١/١٠٥)

(٢) المفردات في غريب القرآن،لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ص (٨٩-٩٠) تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت

(٣) التعريفات للجرجاني ص (٧٨)

(٤) سورة البقرة (١٩٧)

(٥) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج (٣/٥٠٧) الحافظ: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، ط(١) ١٤٠٧هـ

(٦) سورة النجم (١٢)

(٧) الإمام الحافظ فقيه العراق إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي أدرك جماعة من الصحابة ورأى عائشة و لم يحدث عن أحد منهم، وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما قال عنه الشعبي لما علم بموته " ما ترك بعده خلف " توفي سنة (٩٦هـ)، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٤/٥٢٠) وما بعدها

(٨) فتح الباري (١٨/٤٧١)

(٩) هو الحافظ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، ويعرف بابن حجر، ولد سنة ٧٧٣ بمصر في أسرة اشتهر أسلافها بالعلم والأدب والفضل، أقبل على الحديث فرحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما فقصده الناس للأخذ عنه، له مصنفات كثيرة من أشهرها: فتح الباري في شرح صحيح البخاري و تهذيب التهذيب، و الإصابة في تمييز الصحابة وغيرها، توفي سنة ٨٥٢ هـ انظر الإصابة (١/٥-٧-١٣-١٥) والأعلام (١/١٧٨)

(١٠) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي، ابن عم رسول الله ﷺ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، ترجمان القرآن وإمام المفسرين في التفسير، دعا له النبيﷺ بأن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين، كان يقال له حبر العرب لكثرة علمه، كان مقدما عند الخلفاء الراشدين يستشيرونه في كثيرمن الأمور،مات سنة ٦٨هـ. انظر البداية والنهاية (٨/٣٢٥-٣٣٧) والإصابة (٤/١٤١-١٤٣)

ابن قيس[١] في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب[٢] فدعاه ابن عباس فقال: «إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى»[٣] الحديث

قال الحافظ: تمارى أي تجادل[٤].

وقد فسر الحافظ ابن حجر المراء في موضع آخر بالاختلاف وذلك عند شرحه لحديث أم الفضل بنت الحارث[٥] فقال: قوله «أن ناساً تماروا» أي: اختلفوا[٦].

وكذلك فسره ابن منظور[٧] فقال: والمراء والمماراة والجدل، وماريت الرجل مارته إذا خالفته وتلويت عنه[٨].

ومما يدل على قوة الصلة بين كلمة الجدال والمراء أننا نجد كل واحدة منهما تُفسر بالأخرى وتستخدم مكانها، وقد فسر ابن منظور المراء بالجدال فقال في تعريفه للمراء: المراء: الجدال، والتماري والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة[٩].

أما التنازع: فقد عرفه ابن منظور بأنه: التخاصم، وقال: تنازع القوم: اختصموا وبينهم نزاعة أي خصومة في حق.

---

(١) الحر بن قيس بن الفزاري ابن أخي عيينة بن حصن وفد على النبي ﷺ لما قفل من تبوك مع وفد بني فزارة بضعة عشر رجلا كان من النفر الذين يدنيهم عمر وذلك لأنه من القراء الذين هم أصحاب مجالس عمر، انظر الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (٥٨/٢)وفتح الباري (٢٧٢/١٣)

(٢) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري، كان من أصحاب العقبة الثانية، شهد بدرا والمشاهد كلها، وهو أول من كتب للنبي ﷺ، وكان عمر يسميه سيد المسلمين، مات سنة ٣٠هـ وقيل مات في خلافة عمر سنة ٢٠هـ.انظر سير أعلام النبلاء (٣٨٩/١-٣٩٠-٤٠٢) والإصابة (٢٧/١-٢٨)

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر عليه السلام وقوله (هل اتبعك على أن تعلمن) حديث رقم (٧٤)

(٤) صحيح البخاري، سبق تخريجه حديث رقم (٧٤)

(٥) أم الفضل بنت الحارث بن حزن الهلالية زوجة العباس عم النبي ﷺ واسمها لبابة وهي أخت أم المؤمنين ميمونة قديمة الإسلام فكان ابنها عبد الله يقول كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان، قيل أسلمت بعد خديجة، قال الذهبي: " أظنها توفيت زمن عثمان " سير أعلام النبلاء (٣١٤/٢-٣١٥)

(٦) فتح الباري (٢٧٩/٤)

(٧) هو محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي المصري، ولد سنة ٦٣٠هـ، وسمع من علماء عصره، اختصر الأغاني والعقد الفريد والذخيرة، وغير ذلك، كما جمع كتاب لسان العرب، مات سنة ٧١١هـ انظر لسان العرب (٤/١) والأعلام(١٠٨/٧)

(٨) لسان العرب حرف (الواو والياء) فصل (الميم) (٢٧٨/١٥)

(٩) لسان العرب (حرف الواو والياء) فصل (الميم) (٢٧٨/١٥)

والمنازعة في الخصومة: مجاذبة الحجج فيما يتنازع فيه الخصمان[١].

ويلاحظ في تعريف ابن منظور السابق للنزاع أنه لم يفسره بالاختلاف، لكن الحافظ ابن حجر فسر التنازع بالجدال الذي سبق أن فسره بالمراء وفسر المراء بالاختلاف، فقال في شرحه لقول الإمام البخاري: (باب مايكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع)[٢]، وأما (التنازع) فمن المنازعة وهي في الأصل المجاذبة ويعبر بها عن المجادلة، والمراد بها المجادلة عند الاختلاف في الحكم إذا لم يتضح الدليل[٣].

والذي يظهر لي أن لفظ الاختلاف والجدال والنزاع ليست ألفاظاً مترادفة بل لكل منها معنى خاصاً به بدليل أن قواميس اللغة عرفت كل لفظ منها على حدة، لكن هذه الألفاظ متقاربة تجمعها معان مشتركة، وأنه ربما لتقاربها يتساهل بعض العلماء في استخدام أحد ها مكان الآخر، وأن الجدال ثمرة الاختلاف، والتنازع أشد الاختلاف وهو الخلاف الذي يصحبه قوة في التعامل.

---

(١) المرجع السابق كتاب (العين) باب (النون) (٨/٣٥١-٣٥٢)

(٢) فتح الباري، عنوان الباب للأحاديث التي تبدأ بحديث رقم (٧٢٩٩)

(٣) فتح الباري (١٣/٢٩١)

تعريف الدعوة:

من المهم ذكر تعريف للدعوة والداعية وذلك لأن سؤالاً مهماً لابد من الإجابة عنه قبل بدء هذه الدراسة، وهو من الدعاة الذين تشملهم هذه الدراسة؟ وماالعمل الذي يقومون به؟ وهذا ما سيتبين من خلال التعريفات التالية للدعوة والداعية.

الدعوة لغة:

لو رجعنا إلى المعاجم اللغوية لوجدنا أن كلمة (الدعوة) ترجع إلى عدة معان منها:

- دعا الرجلَ دعواً، ودعاه: ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلاناً أي صحت به واستدعيته.

وتداعى القوم: دعا بعضهم بعضا حتى يجتمعوا.

ودعاه إلى الأمير ساقه.

وقوله تعالى: {وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا}[١] معناه: داعياً إلى توحيد الله ومايقرب منه.

والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة واحدهم داع.

ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين أدخلت الهاء فيه للمبالغة.

والنبي ﷺ داعي الله وكذلك المؤذن.

والداعية: صريخ الخيل في الحروب لدعائه من يستصرخه يقال: أجيبوا داعية الخيل.

وداعية اللبن: مايترك في الضرع ليدعو مابعده.

والدَّعوة والدِّعوة والمَدعاة والمِدعاة: مادعوت إليه من طعام وشراب[٢].

ومن تأمل هذه الألفاظ يبدو له أنها متقاربة تدور كلها حول معنى النداء والطلب والحث على شئ معين.

الدعوة اصطلاحاً:

يتبين من التعريف اللغوي للدعوة أنها الطلب والحث على شيئ معين، ويمكن تحديد

---

[١] سورة الأحزاب (٤٦)

[٢] لسان العرب باب (الواو) فصل (الدال) (١٤/٢٥٨-٢٦٠)

المعنى الاصطلاحي للدعوة على ضوء معناها اللغوي بعد تقييد كلمة الدعوة وتحديد المعنى اللغوي العام للكلمة بإضافتها إلى لفظ الجلالة.

ولو تتبعنا كتب الدعوة التي عرف أصحابها الدعوة إلى الله لوجدناهم قد عرفوها بتعريفات متعددة تختلف تبعاً لاختلافهم في تحديد معنى الدعوة من جهة، وتفاوت نظرهم إليها من جهة أخرى، ومن أجمع التعريفات وأوفاها ماعرف به شيخ الإسلام ابن تيمية[١] الدعوة فقال: الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه[٢].

فهذا التعريف قد شمل الدعوة إلى الدين بمراتبه الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان.

ومن المعاصرين عرفها الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني بأنها: تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة[٣].

وعرفها الدكتور محمد السيد الوكيل بأنها: جمع الناس على الخير ودلالتهم على الرشد بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر[٤].

ولكن هل الدعوة هي التبليغ والبيان؟ أم العلم والتعليم؟ أم التربية والإعداد؟ أم تشمل هذه الأمور جميعاً؟.

إن عمل الدعاة هو الدعوة إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ قال تعالى: {قل هذه سبيلي

---

[١] شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي، ولد بحران سنة ٦٦١هـ وانتقل مع والده إلى دمشق هرباً من غزو التتار، ونشأ في بيت علم وفقه ودين فأبوه وأعمامه وأجداده كانوا من العلماء المشاهير، كان آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، برع في العلم فأفتى ودرس وهو دون العشرين. مات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ له كثير من المؤلفات. انظر البداية والنهاية (١٤/١٥٦ـ١٥٨) والأعلام (١/١٤٤) و اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/١٢ـ١٧) تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل ط (١) ١٤١٢هـ

[٢] مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٥/١٥٧-١٥٨) جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، إشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين.

[٣] المدخل إلى علم الدعوة، محمد أبو الفتح البيانوني، ص (١٧) مؤسسة الرسالة، ط (١) ١٤١٢ هـ

[٤] أسس الدعوة وأدب الدعاة، محمد السيد الوكيل، ص (٩) دار الوفاء، ط (٢) ١٤٠٦هـ

أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}[١].

قال الإمام الشوكاني[٢] عند تفسير هذه الآية:{قل هذه سبيلي}، أي قل يامحمد للمشركين هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي: أي طريقتي وسنتي، وفسر ذلك بقوله: { أدعو إلى الله على بصيرة} أي على حجة واضحة، والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل{ ومن اتبعني} أي ويدعو إليها من اتبعني واهتدى بهديي، قال الفراء [٣]: والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو " وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله: أي الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده "[٤].

وكلام المفسرين حول هذه الآية لايختلف مضمونه عما ذكره الإمام الشوكاني من أن طريقة النبي ﷺ وسنته هي الدعوة إلى الله وأن أتباعه يسيرون على طريقته.

وقد بين الله تعالى في كتابه الأمور التي بعث النبي ﷺ لتحقيقها، والتي تضمنتها دعوته فقال عز وجل:{كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}[٥] وقال سبحانه: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا

---

[١] سورة يوسف (١٠٨)

[٢] الإمام محمد بن علي الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولد سنة ١١٧٢هـ في بلده هجرة شوكان و نشأ بصنعاء، وأخذ في طلب العلم والسماع من العلماء الأعلام وفرغ نفسه واجتهد في طلب العلم، ثم ولي القضاء في صنعاء، له كثير من المؤلفات منها: (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) و(فتح القدير) و(إرشاد الفحول) وغيرها، مات سنة ١٢٥٠هـ انظر الأعلام (٦/٢٩٨) ونيل الأوطار ج(١)ص (ك ـ ل) نشر وتوزيع إدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد

[٣] أبو زكريا يحيى بن زياد بن منظور الأسدي النحوي صاحب الكسائي ورد عن ثعلب أنه قال " لولا الفراء لما كانت عربية ولسقطت لأنه خلصها " أمره المأمون أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، ومن تأليفه: معاني القرآن، وقيل عرف بالفراء لأنه كان يفري الكلام، مات بطريق الحج سنة (٢٠٧) وله (٦٣) سنة، انظر سير أعلام النبلاء (١٠/١١٨-١٢١)

[٤] فتح القدير (٣/٥٩)

[٥] سورة البقرة (١٥١)

من قبل لفي ضلال مبين}[١] وقال: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}[٢].

وفسر قوله تعالى: {يتلو عليهم آياته} أي يعلمهم ألفاظها ومعانيها [٣] والمراد بآياته: القرآن[٤].

وقوله تعالى: {يتلو عليهم آياته} يعم الآيات القرآنية وغيرها فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى والضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به ثم على جميع ماأخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني [٥].

أما التزكية التي هي مما بعث النبي ﷺ لتحقيقها فلا يخرج معناها عن التطهير ويشمل التطهير من دنس الشرك والعقائد الفاسدة ومن دنس الأخلاق الرديئة، يقول القاضي ابن عطية[٦] عند تفسيره لقوله تعالى: {ويزكيهم} معناها: يطهرهم وينميهم بالخير، ومعنى الزكاة لايخرج عن التطهير والتنمية[٧] وقال الحافظ ابن كثير[٨] : {يزكيهم} أي يطهرهم

---

(١) سورة آل عمران (١٦٤)

(٢) سورة الجمعة (٢)

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف الشيخ عبد الرحمن السعدي (١٧٣/١) طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ١٤١٠هـ

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٢٤/١)

(٥) تيسير الكريم الرحمن (١٧٣/١)

(٦) الإمام العلامة شيخ المفسرين أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عطية المحاربي الأندلسي كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية، نشأ في بيت علم وفضل، فأبوه غالب إمام حافظ، ولي القضاء للملثمين بالمرية عام (٥٢٩) توفي في منتصف رمضان سنة (٥٤١هـ) انظر ترجمته في مقدمة تفسيره، المحرر الوجيز (١) ص (أ-ب-جـ) وسير أعلام النبلاء (٥٨٧/١٩-٥٨٨)

(٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣٦١/١) تحقيق المجلس العلمي بفاس ط (٢) (١٤٠٣هـ) مطابع فضالة، المغرب.

(٨) الحافظ العلامة ثقة المحدثين وعمدة المؤرخين عماد الدين ابو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، حافظ مؤرخ فقيه، ولد سنة ٧٠٠هـ في قرية بجدل من أعمال بصرى إذ كان ابوه خطيبا بها، ونشأ في قوم ينتسبون إلى الشرف، وأخذ العلم عن كبار علماء عصره، توفي سنة ٧٧٤هـ، من مؤلفاته: (تفسير القرآن العظيم) و (البداية والنهاية) و (واختصار علوم الحديث) وغيرها. انظرالأعلام (٣٢٠/١) والرد الوافر لابن ناصر الدمشقي، تحقيق. زهير الشاويش ص (١٦٢)

من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور[١].

وخص الشيخ عبدالرحمن السعدي[٢] التزكية بالجانب الأخلاقي فقال: {ويزكيهم} بأن يفصل لهم الأخلاق الفاضلة ويحثهم عليها ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة [٣]، وذلك عند تفسيره للآية في سورة الجمعة، وعند تفسيره للآية التي فيها لفظ التزكية في سورة البقرة قال: { ويزكيهم} أي يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحابب والتواصل والتوادد وغير ذلك من أنواع التزكية"[٤].

وعند قوله تعالى: {ويعلمهم الكتاب} إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله {يتلوا عليهم آياته} المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب -هنا- الكتابة، فيكون قد امتن عليهم بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ.

{وَالْحِكْمَةَ} هي السنة التي هي شقيقة القرآن، ووضع الأشياء مواضعها ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفيذ الأحكام، ومابه تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا العلماء الربانيين [٥].

فقد بين الله تعالى في الآيات السابقة عمل رسوله ﷺ وأنه يشمل التبليغ والبيان والعلم والتعليم والتربية والتكوين، وإذا كان الدعاة هم أتباع النبي ﷺ الذين يدعون

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/١٩٦)

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي، مفسر من علماء الحنابلة من أهل نجد، ولد في مدينة عنيزة بالقصيم، وأخذ العلم عن علماء بلده، توفي بمدينة عنيزة سنة ١٣٧٦هـ. له كثير من المؤلفات منها: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) و (القواعد الحسان في تفسير القرآن) و (الخطب العصرية) وغيرها. انظرتيسير الكريم الرحمن (١/٥ـ٩) والأعلام (٣/٣٤٠)

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/٣٧٨)

(٤) المرجع السابق (١/١٧٣)

(٥) المرجع السابق (١/٤٤٩-٤٥٠)

كما دعا، فإن الإجابة على السؤال الذي سبق طرحه وهو: مَنْ الدعاة الذين نعنيهم بهذه الدراسة؟ قد اتضحت إجابته وهو أن ميدان الدعوة واسع يشمل الداعية الذي يقوم بأي عمل من أعمال النبي ﷺ، فلكل داعية قدرات يوظفها لما يناسبه من عمل مراعياً في ذلك إمكاناته واستعداده من جهة، أو مقدماً أولوية على غيرها من جهة أخرى، على أن لا يقصر مفهوم الدعوة على عمله واختياره[1].

---

[1] انظر المدخل إلى علم الدعوة، محمد أبو الفتح البيانوني ص (٢١) ط (١) (١٤١٢هـ) مؤسسة الرسالة

المبحث الثاني

أنواع الاختلاف وأحكامه

أنواع الاختلاف:

الاختلاف الوارد في كتاب الله تعالى على نوعين[١] هما:

١ – قسم يذم فيه سائر المختلفين مثل ماجاء في قوله تعالى:{ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك}[٢] فبين الله في هذه الآية أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي، ولكن اقتضت حكمته أن لايزالوا مختلفين مخـــالفين للصراط المستقيم متبعين للسبل الموصلة إلى النار[٣] {إلا من رحم ربك} فجعـــل أهـــل الرحمة مستثنين من الاختلاف[٤].

وكذلك قوله تعـــالى:{ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات}[٥] وقوله:{فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون}[٦] وقولـــه: {ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد}[٧].

والنبي ﷺ حين أخبر أن الأمة ستفترق قال فيما رواه أبو داود: «**ألا إن من قبلكم من أهـل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسـبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة**»[٨].

فبين أن عامة المختلفين هالكون مـــن الجـــانبين إلا فرقـــة واحـــدة وهـــم أهـــل الســـنة

---

[١] انظر اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/١٢٦) وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة تصنيف الشـيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٢/٥١٤) تحقيق د. على بن محمد الدخيل الله ط (٢) ١٤١٢هـ دار العاصمة

[٢] سورة هود (١١٨)

[٣] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٤٧٠)

[٤] اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٢٦)

[٥] سورة آل عمران (١٠٥)

[٦] سورة المؤمنون (٥٣)

[٧] سورة البقرة (١٧٦)

[٨] أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب شرح السنة حديث رقم (٤٥٩٧) سنن أبي داود، للحافظ أبي داود سليمان بـــن الأشـــعث السجستاني، دراسة وفهرسة: كمال يوسف الحوت، نشر: مؤسسة الكتب الثقافية،ط(١) ١٤٠٩هـ وقد جزم الشيخ محمـــد نـــاصر الدين الألباني بصحة هذا الحديث واسقصى طرقه ونقل أقوال العلماء المصححين له مثل الحاكم وشيخ الإسلام ابن تيميـــة والشـــاطبي وغيرهم، وفند شبهات من قال بضعفه من المتقدمين والمتأخرين وذلك في كتابه سلســـة الأحـــاديث الصحيحـــة (١/٣٥٨- ٣٦٧) ط(٤)١٤٠٥هـ المكتب الإسلامي.

والجماعة[1].

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي وصف الله أهله بالبغي وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف وفساد ذات البين ويوقع التحزب والتباين [2].

والاختلاف الذي يذم فيه سائر المختلفين ينقسم إلى قسمين [3] هما:

أ- **اختلاف تنوع**: وهو مايكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً، ويدخل في ذلك بالنسبة لعمل الدعاة، مثل أن تكون للدعاة خطط يتبعونها في دعوهم، فيتخذ بعضهم من الوسائل مايراه مناسباً، مراعياً ظروفه الخاصة وإمكاناته المتاحة والمرحلة التي تمر بها دعوته، آخذاً في اعتباره عدم مخالفة أمر من أمور الدين.

فهذا اهتم بالجانب العلمي وأدرك أهمية العلم وحاجة الصحوة إليه ووضع في اعتباره تخريج أعداد من طلبة العلم الذين لاتستغني الأمة عن علمهم وفتاواهم التي تبين لهم ماخفي عليهم من أمور دينهم، مع الأخذ بالاعتبار أن اختلاف التنوع قد يقع بين الدعاة الذين مجال عملهم واهتماهم العلم والتعليم بسبب اختلاف فروع العلم.

وآخر اهتم بالجانب التربوي وأولى اهتمامه بالدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والقيم الرفيعة التي دعا إليها الإسلام ورغب فيها ورتب الأجر العظيم لمن تمسك بها.

فهذه أمثلة لاختلاف التنوع الذي يقع بين الدعاة والذي تشهد ساحة الدعوة أمثلة له في أزمنة مختلفة وأماكن متعددة.

وفي الأصل أن اختلاف التنوع لايذم فيه أحد الطرفين اللذين عملُ كلٍ منهما مشروع له ما يؤيده من أدلة الشرع، إلا إذا بغى أحد الطرفين على الآخر وحاربه وشدد عليه حتى أفضى بهم الأمر إلى العداوة وفساد ذات البين.

ب- **اختلاف التضاد**: وهو القولان أو الرأيان المتنافيان اللذان لايمكن الجمع بينهما مما يكون الحق فيه مع أحد المختلفين دون الآخر، لكن المخالف للحق لديه بعض الحق أو معه دليل يقتضي حقاً ما، فيرد مخالفه كل ما مع خصمه من حق وباطل،

---

[1] اقتضاء الصراط المستقيم (١٢٧/١)

[2] الصواعق المرسلة (٥١٤/٢)

[3] انظر اقتضاء الصراط المستقيم (١٢٨/١)

فيكون هو مبطلاً في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل[١].

وساحة الدعوة تعج بمثل هذا النوع من الاختلاف الذي غالباً مايؤدي إلى التنافر والتقاطع والبغي من فئة على أخرى، مثل ما عليه الحال بين الجماعات التي تقوم بالدعوة والتي لاتخلو مناهجها في الغالب من التلبس ببعض البدع، أو الأخطاء المنهجية، لكنها مع ذلك قد يكون عندها بعض الجوانب الإيجابية كأن يكون لديها اهتمام بالجانب التربوي أو تميز في بذل الجهد والمال من أجل الدعوة.

لكن المطلع على واقع العلاقة بين هذه الجماعات يلحظ غمط بعضهم لبعض، وإنكار بعضهم لما عند الآخر من المحاسن، وغلبة الهوى على أفرادها في تقييمهم لمن خالف طريقتهم ولم يندرج في صفوفهم.

وفي هؤلاء وأمثالهم يقول الإمام ابن القيم[٢] رحمه الله:" والاختلاف المذموم كثيراً مايكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق فلا يقر له خصمه به بل يجحده إياه بغياً ومنافسة، فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه، وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق[٣].

-النوع الثاني من اختلاف التضاد: وهو مايحمد فيه إحدى الطائفتين وهم أهل الحق والإيمان، ويذم فيه أهل البغي والضلال، كما دل عليه قوله تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}[٤].

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٣٠)

[٢] الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكربن أيوب المشهور بـ (ابن قيم الجوزية) ولد بدمشق سنة ٦٩١هـ وسمع الحديث و تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة، كان واسع العلم عارفا بالخلاف ومذاهب السلف، توفي بدمشق سنة ٧٥١هـ انظر البداية والنهاية (١٤/٢٧٠ـ٢٧١) والأعلام (٦/٥٦) وزاد المعاد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط (١/١٥ـ٢٤)

[٣] مختصر الصواعق المرسلة (٢/٥١٥)

[٤] سورة البقرة (٢١٣)

فأخبر سبحانه وتعالى أنه هدى عباده المؤمنين لما اختلف فيه المختلفون.

وكذلك قوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد}[١].

فقوله: {ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر} حمد لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون، وذم الأخرى وهم الذين كفروا[٢].

وكذلك قوله: {هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار} إلى قوله {إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار}[٣].

ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات عدة أقوال للسلف رحمهم الله تعالى في تعيين المختصمين المعنيين بقوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم}.

فقال قتادة[٤]: " اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم.

وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء فنحن أولى بالله منكم، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه وأنزل {هذان خصمان اختصموا في ربهم}.

وفي رواية أخرى عن قتادة قال: " مصدق ومكذب.

وفي رواية أخرى عن مجاهد[٥] وعطاء[١] أن المراد بهذه الآية المؤمنون والكافرون[٢].

---

[١] البقرة: (٢٥٣)

[٢] اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٣/١)

[٣] سورة الحج الآيات من (١٩ إلى ٢٣)

[٤] قتادة بن دعامة السدوسي ولد سنة (٦٠) هـ كان من أوعية العلم وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ قال الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان بالتغير وباختلاف العلماء ت سنة (١١٨) هـ، سير أعلام النبلاء (٢٦٩/١-٢٨٣) والأعلام للزركلي (١٨٩/٥)

[٥] مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي تابعي ولد سنة (٢١) هـ أخذ التفسير عن ابن عباس قال الذهبي: شيخ المفسرين والقراء، توفي سنة (١٠٤) هـ، سير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤-٤٥٧) والأعلام للزركلي (٢٨٧/٥)

وقد ثبت في صحيح البخاري عن قيس بن عباد[٣] قال: سمعت أبا ذر[٤] يقسم قسماً إن هذه الآية {هذان خصمان اختصموا في ربهم} نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة[٥] وعلي وعبيدة بن الحارث[٦]، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة[٧] [٨].

وقد استحسن الإمام ابن كثير قول عطاء[١] ومجاهد فقال: وقول مجاهد وعطاء" إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها وينتظم قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرين يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل"[١٠].

---

[١] عطاء بن أسلم بن صفوان تابعي من أجلاء التابعين ولد سنة (٢٧) هـ ولد باليمن ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهم توفي سنة (١١٤) هـ الأعلام للزركلي (٤/٢٣٥)

[٢] انظر تفسير القرآن العظيم (٣/٢١٢)

[٣] قيس بن عباد القيسي الضبعي له إدراك وقال ابن أبي حاتم: قدم المدينة في خلافة عمر فروى عنه وعن أبي ذر وغيرهما، قال ابن سعد في الطبقات: كان ثقة قليل الحديث: وذكره العجلي في التابعين وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، الإصابة في تمييز الصحابة (٥/٥٣٥-٥٣٦)

[٤] أبو ذر الغفاري الزاهد المشهور الصادق اللهجة مختلف في اسمه واسم أبيه والمشهور أنه جندب بن جنادة بن سكن، كان من السابقين إلى الإسلام يقال: إن إسلامه كان بعد أربعة، قال الآجري، عن أبي داود: لم يشهد بدرا لكن عمر ألحقه بهم، وكان يوازي ابن مسعود في العلم، كانت وفاته بالربذة سنة (٣١) هـ وقيل (٣٢) هـ الإصابة في تمييز الصحابة (٧/١٢٥-١٣٠)

[٥] حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، عم النبي ﷺ وأخوه مولد قبل النبي ﷺ بسنتين، وأسلم في السنة الثانية من البعثة، ولازم نصر النبي ﷺ وهاجر معه، وشهد بدرا، وأبلى فيها بلاء حسنا، لقبه النبي ﷺ أسد الله، وسماه سيد الشهداء، استشهد بأحد سنة ثلاث من الهجرة. انظر سير أعلام النبلاء (١/١٧١) والإصابة (٢/١٢١—١٢٢)

[٦] عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي، أسلم قديماً، وكان مع النبي ﷺ بمكة ثم هاجر وشهد بدراً وبارز فيها عتبة بن ربيعة فضربه عتبة على ساقه فمات بعد ذلك بالصفراء، عقد له النبي ﷺ ثاني لواء بعد أن قدم المدينة، الإصابة في تمييز الصحابة (٤/٤٢٤-٤٢٥) والأعلام للزركلي (٤/١٩٨)

[٧] عتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من عتاة المشركين برز عتبة يوم بدر بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعوا إلى البراز فبرز إليهم حمزة وعبيدة وعلي وبارز علي الوليد وبارز عبيدة عتبة وبارز حمزة شيبة، وقتلوا، البداية والنهاية (٣/٣٣٢-٣٣٣) دار إحياء التراث العربي

[٨] رواه البخاري واللفظ له، كتاب المغازي، باب دعاء النبي ﷺص على كفار قريش، شيبة وعتبة والوليد، وأبي جهل بن هشام وهلاكهم حديث رقم (٣٩٦٩) ورواه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا في ربهم) ورقم الحديث (٣٠٣٣) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

[٩] الإمام القدوة أبو محمد القرشي، مولاهم المكي، أحد كبار التابعين الثقات، كان فقيها عالما بالحديث، ولد في خلافة عثمان رضي الله عنه، نشا بمكة، حدث عن عائشة وأم سلمة وأم هانيء وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم، كان أعلم أهل زمانه بالمناسك، توفي سنة ١١٤هـ وقيل ١١٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء(٥/ ٧٨— ٨٨) والبداية والنهاية (٩/٣٣٥) وتهذيب التهذيب، (٤/١٢٨—١٣٣) للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، ط(٢) ١٤١٣هـ

[١٠] تفسير القرآن العظيم (٣/٢١٢)

والدعاة على قسمين بَيَّنَهُما الله تعالى في كتابه وبينتهما سنة الرسول ﷺ.

دعاة الحق والهدى الذين يقتفون أثر النبي ﷺ ويسيرون على نهجه الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله: {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين}[1] وقوله: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}[2] وقوله: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}[3]، وأثنى عليهم النبي ﷺ وبين ماهم من الأجر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً» ... الحديث[4].

– أما القسم الآخر فهم دعاة الكفر والإلحاد والبدعة، الذين يخالفون دعوة الرسول ﷺ ويصدون عن الحق، الذين وصفهم الله تعالى بقوله: {الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون}[5] وقوله: {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم}[6].

وقد حذر النبي ﷺ من دعاة الضلال الذين ربما يتظاهرون بأنهم على الحق حتى يلتبس أمرهم على من يجهل حالهم، ففي صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان[7] أنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يارسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير

---

[1] سورة فصلت (٣٣)

[2] سورة يوسف (١٠٨)

[3] سورة آل عمران (١٠٤)

[4] رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ورقم الحديث (٢٦٧٤)

[5] سورة الأعراف (٤٥)

[6] سورة محمد (٣٢)

[7] حذيفة بن اليمان العبسي، شهد أحدا والخندق وله بالخندق ذكر حسن، روى عن النبي ﷺ الكثير، وشهد فتوح العراق وله بها آثار شهيرة، توفي بالمدائن سنة ٣٦هـ انظر سير أعلام النبلاء (٢/٣٦١-٣٦٢، ٣٦٦) والإصابة (٢/٤٤-٤٥)

من شر؟ قال: «نعم» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دخن» قلت: ومادخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: «نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها» قلت: يارسول الله صفهم لنا؟ قال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك [1].

فقد وصف النبي ﷺ هؤلاء الدعاة بأنهم دعاة على أبواب جهنم باعتبار مايؤول إليه حالهم، وقوله: «هم من جلدتنا أي من قومنا ومن أهل لساننا وملتنا[2].

وإذا كان هذا حال من هم من جنسنا ويتكلمون بلساننا وظاهر أمرهم أنهم على ديننا فما بالك بمن يصرح بأنه مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة ويعلن عداوتهم ومخالفة سبيلهم، كالرافضة والصوفية، أو المذاهب الهدامة الوافدة من علمانية أو ديمقراطية وماشاكلها.

لاشك أن أهل هذه الدعوات لن تتناولهم الدراسة لأنهم لايد خلون ضمن الدعاة الذين نعنيهم، لكن ذكرهم هنا باعتبارهم القسم المخالف، المذموم بكل حال الذين يثاب من خالفهم وابتعد عن سبيلهم.

---

[1] رواه البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، حديث رقم (٧٠٨٤)

[2] انظر فتح الباري (٤٠/١٣)

حكم الاختلاف:

تبين مما سبق أن الاختلاف له أنواع وأحوال، ولذا فإن الحكم يختلف بحسب حال المختلفين والأمر الذي اختلفوا فيه.

فالقسم الأول من الاختلاف وهو الذي يذم فيه سائر المختلفين، فهؤلاء قال الله فيهم: {ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك}(١) ونهانا عن التشبه بهم فقال: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا}(٢) وبين حالهم فقال: {ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد}(٣) فجعل المختلفين كلهم في شقاق بعيد(٤).

وهذا القسم اختلف أفراده في الأمر الذي بعث الله النبيين ليحكموا فيه بين المختلفين، قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم. . . .} (٥) الآية.

وأصل هذا الاختلاف في التوحيد والتوجه للواحد الحق سبحانه، فالناس لم يختلفوا في أن لهم مدبراً يدبرهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه على آراء مختلفة إلى أن بعث الله النبيين مبينين لأممهم حق مااختلفوا فيه من باطله، فأقر بذلك من أقر به وهم الداخلون تحت مقتضى قوله: {إلا من رحم ربك} وأنكر من أنكر، فصار إلى مقتضى قوله: {وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}(٦) وإنما دخل الأولون تحت وصف الرحمة لأنهم خرجوا عن وصف الاختلاف إلى وصف الوفاق والألفة، وهو

---

(١) سورة هود (١١٨)

(٢) سورة آل عمران (١٠٥)

(٣) سورة البقرة (١٧٦)

(٤) الصواعق المرسلة (٥١٤/٢)

(٥) سورة البقرة (٢١٣)

(٦) سورة هود (١٩)

قوله: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}[(١)].

وقال الربيع بن أنس[(٢)] في قوله تعالى: {فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}[(٣)] أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ماجاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده، وعبادته لاشريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف[(٤)].

وقد لايصل الاختلاف المذموم بأصحابه إلى الكفر ولكنه يدخلهم في سلك المبتدعة، وذلك حين يقع الاتفاق في أصل الدين، والاختلاف في بعض قواعده الكلية وهو المؤدي إلى التفرق شيعا [(٥)]، ويكون هؤلاء المختلفون من أهل القبلة المتوعدون بالنار كما ورد في الحديث عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»[(٦)].

قال الإمام الخطابي[(٧)]: قوله: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة» فيه دلالة على

---

(١) سورة آل عمران (١٠٣)

(٢) الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني، سمع أنس بن مالك وأبا العالية الرياحي وأكثر عنه، كان عالم مرو في زمانه، توفي سنة ١٣٩هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٦/١٦٩ـ١٧٠)

(٣) سورة البقرة (٢١٣)

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/٢٥٠)

(٥) انظر الاعتصام للشاطبي ص (٣٩٥)

(٦) رواه أبو داود في كتاب السنة باب (شرح السنة) ورقمه (٤٥٩٦) والإمام أحمد في المسند (٤/١٠٢) والحاكم (١/١٢٨) وقال الحاكم وقد ذكر قبله الحديث من طريق أبي هريرة: هذه أسانيد جياد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث، ووافقه الذهبي، وقد أطال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني الحديث حول هذا الحديث وذكر طرقه ومن خرجه وحكم بصحته ورد على من ضعفه أو أراد أن يضيف إليه ما ليس منه، وقال: فقد تبين أن الحديث ثابت لاشك فيه، ولذلك تتابع العلماء خلفا عن سلف على الاحتجاج به، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٣٥٨-٣٦٧)حديث رقم (٢٠٤) محمد ناصر الدين الألباني

(٧) الإمام الحافظ اللغوي حمد بن محمد بن إبراهيم، أبو سليمان الخطابي، ولد سنة ٣١٩ هـ، ويقال إنه من سلالة زيد بن الخطاب، كان إماما في الفقه والحديث واللغة، توفي ببست سنة ٣٨٨هـ من تصانيفه: (معالم السنن) و (غريب الحديث) و (شرح الأسماء

أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين، إذ قد جعلهم النبيﷺ من أمته[١].

وهذا القسم الذي يذم فيه سائر المختلفين تقدم أنه ينقسم إلى قسمين:

أ- اختلاف التنوع وهو محمود في الأصل، كأن يكون للأمر طريقان مشروعان ورجل أو قوم سلكوا هذه الطريق وآخرون سلكوا الأخرى وكلاهما حسن في الدين[٢].

والتنوع يكون في الوجوب تارة وفي الاستحباب أخرى، مثل أن يجب على قوم الجهاد وعلى قوم الزكاة وعلى قوم تعليم العلم.

ويكون في الفروض الأعيان وفي فروض الكفايات، وكل تنوع في الوجوب يقع مثله في المستحب، ويزداد المستحب بأن كل شخص إنما يستحب له من الأعمال ما قدر عليه ويفعله وينتفع به[٣].

واختلاف التنوع محمود بين الدعاة إذا قام كل منهم بالأمر المشروع الذي يحسنه، ونظر إلى غيره ممن يقومون بعمل مغاير لعمله على أنهم يكملون جوانب في الدعوة عجز عن القيام بها، ويسدون ثغرة شغل عن سدها، وكل منهم يقدر للآخر عمله ويسدي له النصح إن رأى في عمله خللاً، فيكون لأخيه كالمرآة التي يرى فيها عيوبه.

لكن الأمر يختلف حين يرى كل واحد من المختلفين أن الحق معه وحده، وأنه لابد للجميع أن يلتزموا بما ألزم به نفسه.

وهذا النوع من الاختلاف كل واحد من المختلفين مصيب بلا تردد لكن الذم والإثم واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك، إذا لم يحصل بغي كما في قوله تعالى: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة

الحسنى) وغيرها. انظر سير أعلام النبلاء (١٧/٢٣-٢٤- ٢٧) وطبقات الشافعية (٣/١٨٢-١٨٣) و الأعلام للزركلي (٢/٢٧٣)

[١] معالم السنن لأبي سليمان الخطابي (٤/٧) حاشية مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة

[٢] اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٣٠)

[٣] انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٩/١١٨-١١٩)

على أصولها فبإذن الله}[١] وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم وترك آخرون، وكما في قوله تعالى: {وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما}[٢] فخص سليمان بالفهم، وأثنى عليهما بالعلم والحكم[٣].

ب- اختلاف التضاد وهو القسم الثاني من أقسام الاختلاف المذموم وتبين أن هذا النوع من الاختلاف يكون الحق فيه مع فئة دون أخرى، لكن من خالف الحق معه بعضه.

أما بالنسبة للمخالف الذي معه الحق فإنه لايخلو من حالين هما:

١- بيان الحق الذي يجب اتباعه والأخذ به حيث كان ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه دون بغي أو هوى ففعله هذا واجب وهو مثاب عليه، وإن كان فيه بيان خطأ من أخطأ من العلماء والأمراء[٤].

٢- معاداة المخالف والرد عليه وبيان ماتلبس به من الباطل، مع عدم الإقرار بما معه من الحق، بغياً وهوى، فهو مصيب فيما بين من الحق، مخطئ فيما رد منه، آثم على قدر بغيه وما اتبعه من هواه.

أما المخالف الذي جانب الحق أو بعضه فإنه لايخلو من حالين هما:

١- من أخطأ الحق مع اجتهاده في الوصول إليه، فاسم الذم موضوع عنه وهو محمود في اجتهاده معفو عن خطئه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد كان النبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح في خطبة يوم الجمعة: «خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»[٥] ولم يقل وكل ضلالة في النار،

---

(١) سورة الحشر(٥)

(٢) سورة الأنبياء (٧٨-٧٩)

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٣١-١٣٢)

(٤) انظر الفتاوى (١٩/١٢٣) والصواعق المرسلة (٢/٥١٦)

(٥) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ورقم الحديث (٨٦٧)

بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد في طلبه فعجز عنه، فلا يعاقب، وقد يفعل ما أمر به فيكون له أجر على اجتهاده، وخطؤه الذي ضل فيه عن حقيقة الأمر مغفـور له، وإذا اتقى الرجل ربه مااستطاع دخل في قوله تعـالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}[١][٤].

٢- من خالف الحق وأهله عن قصد وعلم واتبع للهوى، فهذا الصنف له نصيـــب من قول النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه سمعت رســـول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتـة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسـود مربـاد كـالكوز مجخيـا لايعرف معروفاً ولاينكر منكرا، إلا ماأشربه من هواه »[٢].

وقد حذر الله تعالى من اتباع الهوى وبين أنه يؤدي بصاحبه إلى العذاب الشديد فقال تعالى: {ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب}[٣].

وذلك لأن صاحب الهوى يعميه هواه ويصمه فلا يستحضر مالله ورسوله في ذلـــك، ولايطلبه ولايرضى لرضا الله ورسوله ولايغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضـــى إذا حصل مايغضب له هواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضـــب له أنه السنة، وهو الحق والدين[٤].

٢- أما القسم الثاني من الاختلاف والذي تبين أنه ينقسم إلى ممدوح ومذمـــوم، وأن

---

(١) سورة البقرة (٢٨٦)

(٤) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/١٩١-١٩٢) والصواعق المرسلة (٢/٥١٥)

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وإنه يأرز بين المسجدين، ورقم الحديث (١٤٤)

(٣) سورة ص (٢٦)

(٤) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٥/٢٥٦) تحقيق د. محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط (١) ١٤٠٦هـ

الممدوح هم أهل الإيمان والحق الذين خالفوا أهل الضلال والزيغ، فهؤلاء قد فعلـــوا مايجب عليهم مما دلت عليه الآيات والأحاديث وهم الذين تبيض وجوههم يوم القيامـة حين تسودّ وجوه أهل الضلال والزيغ قال تعالى: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون}[١].

قال ابن كثير: وقوله تعالى: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه} يعني يوم القيامـــة حـــين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عبـــاس رضي الله عنهما[٢].

---

[١] سورة آل عمران (١٠٥-١٠٧)

[٢] تفسير القرآن العظيم (١/٣٩٠).

الباب الأول

الاختلاف بين الدعاة واقعه وأسبابه

الفصل الأول

واقع الاختلاف بين الدعاة

أهمية دراسة الواقع:

يقول الإمام ابن القيم:ولايتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتـــوى والحكـــم بـــالحق إلابنوعين من الفهم:

أحدهما فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بـــالقرائن والأمـــارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهوفهم حكم الله الذي حكم به في كتابـــه أوعلى لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع.

ثم يطبق أحدهما على الآخر.

فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله[1].

وكلام ابن القيم وإن كان موجها لمن تولى مهمة القضاء أوالفتيا، إلا أنه وبـــالأخص النوع الأول من الفهم، يشمل كل عمل ديني أودنيوي يحتاج صاحبه للتعـــامل مـــع الآخرين.

إن دراسة الواقع والفقه فيه وفهمه ليست صفة خاصة بالمسلمين، ولكنها صفـــة في كل أمة قوية حية.

وتبدو أهمية هذا الأمر في عالمنا اليوم، حيث نجد الدول القوية تولي هذا الأمر عنايتها وتفرغ له طاقات كبيرة ومواهب متعددة، ويشكل قاعدة أساسية في تخطيطها.

وعلى ضوء دراسته ونتائجه تضع خططها وترسم مناهجها لتحقق أهدافها.

لقد ظهرت في مسيرة الدعوة الإسلامية في هذا العصر، أخطاء وانحرافـــات يعـــود بعضها إلى عدم فهم الواقع، وإلى عدم تقدير الظروف التي تواكب مســـيرة الدعـــوة، أوعدم تقدير نشاط الأعداء وأساليبهم التي يتخذونها للصد عن ســـبيل الله وتعطيـــل مسيرة الدعوة إليه[2].

وفي محاولتنا لحل مشكلة الاختلاف بين الدعاة لابد لنا من معرفـــة واقـــع الدعـــوة الإسلامية في هذا العصر، ومظاهر النشاط الذي تمارس من خلاله الدعوة.

---

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين (٩٤/١) للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي.

[2] انظر دور المنهج الرباني في الدعوة الإسلامية ص(٢٨٥-٢٩٧)عدنان علي رضا النحوي الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ

المبحث الأول

واقع الاختلاف بين الجماعات الإسلامية

يستطيع المتأمل في واقع الدعوة الإسلامية في هذا العصر أن يحدد فصائل مختلفة تتبنى الدعوة إلى الإسلام، ولكنها تختلف فيما بينها في منهج العمل وأساليب التغيير، بناء على التفاوت في تكييف واقع الخلل الذي غشي الأمة والتفاوت في ترتيب الأولويات اللازمة لمواجهته.

وحيث إنه من المتعذر استقصاء كل الجماعات القائمة في هذا الوقت، لصعوبة الحصر وضيق المقام، فسأكتفي بذكر ثلاث جماعات تمثل إتجاهات مختلفة ولكل منها شخصية تميزها.

وهذه الجماعات [1] هي:

١- أنصار السنة النبوية

٢- الإخوان المسلمون

٣- التبليغ

---

[1] حرصت على أن يكون مصدر المعلومات المتعلقة بالجماعات مما كتبه المنتمون لهذه الجماعات وعلى الأخص مؤسسي الجماعات، وذلك رغبة في الإنصاف وعدم نسبة قول إلى غير قائله لا سيما إن كان القائل من خصوم هذه الجماعات، وقد التزمت هذا المنهج في الحديث عن هذه الجماعة والجماعتين اللتين بعدها، ولذلك أرجأت التعليق أو النقد لبعض ما يرد من كلام المنتمين للجماعات إلى موضعه من الرسالة.

١- جماعة أنصار السنة النبوية في مصر:

لابد قبل الحديث عن هذه الجماعة لا سيما وأنها تدعي أنها جماعة سلفية وأنها قائمة على أساس من الكتاب والسنة ملتزمة بهما، من بيان المقصود بالسلفية وذلك حتى يتسنى لمن اطلع على منهج الجماعة معرفة مدى صحة ادعائها بالتزام منهج السلف وطريقتهم.

المراد بالسلفية:

يعني مفهوم السلفية سلفية المنهج، أي العودة بأصول الفهم إلى الكتاب والسنة، وقواعد الفهم المعتبر لدى القرون الثلاثة الأولى المفضلة، ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء من بعدهم قوم تسبق شهادتهم أيمانهم وأيمانهم شهادتهم[١].

وإذا كان هذا الثناء منصرفا للسلف زمانا فإن سلفية المنهج ليست محصورة بزمن دون آخر بل هي ممتدة إلى أن يأتي أمر الله تعالى، فهم الطائفة المنصورة الذين أخبر النبي ﷺ عنهم ففي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة[٢] عن النبي ﷺ قال: لايزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون[٣].

وهم الجماعة الذين سلموا من الافتراق في الدنيا والعذاب في الآخرة، فعن أنس بن مالك[٤] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين

---

[١] رواه البخاري كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها رقم الحديث (٦٤٢٩) ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم الحديث (٢٥٣٣) وابن ماجة، كتاب الأحكام، باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد، رقم الحديث (٢٣٦٢) سنن ابن ماجة، الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: المكتبة الإسلامية، والإمام أحمد (١/٣٨٧ و٤/٢٦٧و ٤/٢٧٦و٤/٢٧٧)

[٢] المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود، أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وبيعة الرضوان، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق. توفي سنة ٥٠ هـ.انظر البداية والنهاية (٨/٥٣) والإصابة (٦/١٩٧-١٩٩)

[٣] رواه البخاري واللفظ له، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ (لا تُزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون) وهم أهل العلم، حديث رقم (٧٣١١) ومسلم كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم(١٩٢١) والإمام أحمد (٤/٢٥٢) والدارمي، باب لا يزوال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، رقم الحديث(٢٤٣٢) سنن الدارمي، الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمزلي، وخالد السبع العلمي، نشر: دار الكتاب العربي، ط(٢) ١٤١٧هـ

[٤] أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري، خادم رسول الله ﷺ وأحد المكثرين من الرواية عنه، شهد بدرا،

فرقة وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»[١] رواه الإمام أحمد وابن ماجة

وعن أبي عامر الهوزني[٢]، عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال: ألاإن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة،وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»[٣] رواه الإمام أحمد وأبو داود.

فالسلف منهجا هم الطائفة المنصورة التي أخبر النبي ﷺ عنها فيما رواه مسلم و الإمام أحمد من حديث ثوبان[٤] وغيره أن رسول الله ﷺ قال:«لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمرالله وهم كذلك»[٥].

وعندما يكون الحديث عن جماعة من الجماعات الإسلامية فإن شخصية المؤسس والعوامل المؤثرة عليه تعطي صورة واضحة عن منهج الجماعة والمبادئ التي تدعو إليها.

لكن الأمر يختلف بالنسبة لمن أراد أن يتحدث عن جماعة تدعي أنها سلفية، فاسم السلفية لايرتبط بالأشخاص، وإنما يرتبط بالمنهج الثابت المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك لأن الأشخاص أو التنظيمات أو الجماعات عرضة للخطأ والصواب[٦].

ودعا له النبيﷺ بكثرة المال والولد ودخول الجنة، استعمله أبو بكر على البحرين، توفي سنة ٩٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٣/٣٩٥ـ٤٠٠) والإصابة (١/١٢٦ـ١٢٩)

(١) رواه الإمام أحمد (٣/١٢٠و١٤٥) وابن ماجة واللفظ له، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم الحديث (٣٩٩٣) وصححه الألباني ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة الأحاديث (٢٠٤و ١٤٩٢) وانظر صحيح سنن ابن ماجة (٣/٣٠٨) محمد ناصر الدين الألباني ط (١)١٤١٧هـ مكتبة المعارف

(٢) أبو عامر الهوزني الحمصي، هو عبد الله بن لحي الحميري شامي من كبار التابعين، ذكره ابن حبان في الثقات، روى عن عمر بن الخطاب وشهد خطبته بالجابية، وأبي عبيدة ومعاذ وبلال وغيرهم. انظر تهذيب التهذيب(٣/٢٤١)

(٣) رواه الإمام أحمد (٤/١٠٢) وأبو داود واللفظ له،كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم الحديث (٤٥٩٧) وتقدم تخريجه ص(٣١)

(٤) ثوبان مولى رسول الله ﷺ، صحابي مشهور، سبي من الحجاز فاشتراه النبي ﷺ وأعتقه فخدمه إلى أن مات ثم تحول إلى الرملة ثم إلى حمص ومات بها سنة ٥٤هـ، انظر سير أعلام النبلاء (٣/١٥-١٦) والإصابة (١/٤١٣)

(٥) رواه مسلم، واللفظ له، كتاب الإمارة، باب قوله:ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » رقم الحديث (١٩٢٠) والإمام أحمد (٥/٢٧٨و٥/٢٧٩)

(٦) انظر منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين ص(٤٤-٤٥) د.صالح بن سعد السحيمي.

أما المنهج فإنه محكوم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، لايوزن بـأقوال الرجال وآرائهم وإنما العكس هو الصحيح.

فما المراد بالسلفية؟ وما أبرز سمات منهج السلف؟.

إن معنى السلفية وحقيقة نسبتها أنها نسبة إلى السلف الصالح من صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى في القرون الثلاثة المفضلة، دون من مالت بهم الأهواء، بعدهم من الخلوف الذين انشقوا عن السلف الصالح باسم أورسم، ومن هنا قيل لهم الخلف، والنسبة إليهم (خلفي).

أما الثابتون على منهاج النبوة فنسبوا إلى سلفهم الصالح فقيل لهم السلف، والنسبة إليهم سلفي[١].

وزعم الباجوري[٢] أن السلف هم من كانوا من أهل العلم قبل نهاية القرن الثالث الهجري، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة الأربعة وكبارعلماء مذاهبهم[٣].

وتعقبه الشيخ محمود خفاجي فقال: وليس هذا التحديد الزمني كافيا في ذلك بل لابد أن يضاف إلى هذا السبق الزمني، موافقة الرأي للكتاب والسنة وروحهما، فمن خالف رأيه الكتاب والسنة فليس بسلفي، وإن عاش بين أظهر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين[٤].

فكل من التزم بعقائد وفقه وأصول هؤلاء الأئمة كان منسوبا إليهم، وإن باعدت بينه وبينهم الأماكن والأزمان، وكل من خالفهم فليس منهم وإن عاش بينهم وجمعه بهم المكان والزمان نفسه[٥].

ووسط هذا الخضم من الفرق والتيارات والأهواء المختلفة لابد من الإشارة بإيجاز للملامح العامة لأهل السنة والجماعة وذلك من خلال بيان الأصول السلفية التي أجمع

---

(١) انظر رؤية واقعية في المناهج الدعوية ص(٢٦) علي بن حسن علي عبد الحميد، دار المنار، الطبعة الأولى١٤١٢هـ وبحمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة ص (٥) د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

(٢) إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري، من فقهاء الشافعية، نسبته إلى الباجور (من قرى المنوفية بمصر) ولد ونشأ فيها وتعلم في الأزهر، تقلد مشيخة الأزهر سنة ١٢٦٣هـ واستمر إلى أن توفي بالقاهرة سنة ١٢٧٧هـ. انظرالأعلام للزركلي(٧١/١)

(٣) شرح جوهرة التوحيد ص(١٥٣) إبراهيم الباجوري سنة ١٣٩٢هـ

(٤) معالم الانطلاقة الكبرى عند أهل السنة والجماعة ص(٥٧) محمد عبد الهادي المصري، دار الوطن الطبعة السابعة ١٤١٣هـ

(٥) معالم الانطلاقة الكبرى عند أهل السنة والجماعة ص(٥٧)

عليها أهل السنة والجماعة والتي تمثل الإطار العلمي للجماعة التي جاءت النصوص بلزومها وحذرت من مفارقتها والتي تتمثل فيما يلي:

١- منهج التلقي عند أهل السنة والجماعة:

إن أول مايميز أهل السنة والجماعة عن غيرهم هو منهج التلقي، ففي سائر أمور الدين، مرجعهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا كلام لأحد يُقدَّم على كلام الله تعالى، ولاهدي لأحد يُقدَّم على هدي محمد ﷺ[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في وصفهم: ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة [٢].

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية هم أهل الحديث والسنة، وذلك لأنهم كما يقول شيخ الإسلام: (ليس لهم متبوع يتعصبون له إلارسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقوله وأحواله وأعظمهم تميزا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها واتباعا لها، تصديقا وعملا وحبا وموالاة لمن والاها ومعادة لمن عاداها، الذين (يروون)[٣] المقالات المجملة إلى ما جاء به الكتاب والحكمة، فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وماتنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف، فما كان من معانيها موافقا للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مخالفا للكتاب والسنة أبطلوه[٤].

---

[١] المرجع السابق ص(٧١) وجماعة المسلمين مفهومها وكيفية لزومها في واقعنا المعاصر ص(٢٧)

[٢] مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(١٥٧/٣)

[٣] لعل أصلها (يردون)

[٤] مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(٣٤٧/٣)

والمرجع في فهم الكتاب والسنة هو النصوص المبينة لها، وفهم السلف الصالح، ومن سار على منهجهم من الأئمة، ولا يعارض ما ثبت من ذلك بمجرد احتمالات[١].

٢ - لامتبوع عندهم في كل ما يقول إلا رسول الله ﷺ:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن أهل الحق والسنة لايكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ، الذي لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ماأمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الناس، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ[٢].

٣ - في باب صفات الله تعالى:

يؤمنون بجميع ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لايتجاوز القرآن والحديث.

قال الإمام أحمد رحمه الله[٣]: لايوصف الله إلا بماوصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لايتجاوزالقرآن والحديث.

ومذهب السلف: أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبماوصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد[٤].

٤- أصول السنة:

يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب

---

(١) مجمل أصول أهل السنة والجماعة ص(٧)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/٣٤٦-٣٤٧)

(٣)الإ. أحمد بن حنبل الشيباني، أمام المذهب الحنبلي في الفقه، وأحد الأئمة الأربعة،ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ فنشأ منكبا على طلب العلم، ورحل إلى سائر الأقطار وأخذ عن علمائها حتى اشتهر بالحفظ والإتقان إلى أن صار من أئمة الحديث والفقه وبلغت شهرته الآفاق خاصة بعد وقفته المشهورة أمام بدعة القول بخلق القرآن، له تصانيف كثيرة في السنة والتفسير والفقه والتوحيد من أشهرها المسند توفي سنة ٢٤١هـ. انظرسير أعلام النبلاء (١١/١٧٧-١٧٩- ١٨٥) والبداية والنهاية (١٠/٣٥٩،٣٦٥،٣٧٤) والأعلام (١/٢٠٣)

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١/٢٦)

رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين.

والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ.

والسنة تفسر القرآن وهي دلا ئل القرآن.

ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها:

- الإيمان بالقدرخيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لايقال لم؟ ولاكيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها.
- لايخاصم أحد ولايناظره ولايتعلم الجدل فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرهامن السنن مكروه منهي عنه.
- ويؤمن بالأثار، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق.
- والإيمان بالرؤية يوم القيامة كما روي عن النبي ﷺ من الأحاديث الصحاح.
- وأن الله تبارك وتعالى يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان والإيمان به والتصديق.
- والإيمان بشفاعة النبي ﷺ وبقوم يخرجون من النار بعد ما احترقوا وصاروا فحما.
- والإيمان قول وعمل يزيد وينقص كما جاء في الخبر.
- وخير هذه الأمة بعد نبيها، أبوبكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان، نقدم هؤلاء كما قدمهم أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا في ذلك .

ثم بعد هؤلاء أصحاب الشورى، علي بن أبي طالب وطلحة[1] والزبير[2] وعبد الرحمن بن عوف[3] وسعد بن أبي وقاص[1] وكلهم يصلح للخلافة وكلهم إمام .

---

[1] طلحة بن عبيد الله بن عمرو القرشي التيمي، أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر وأحد الستة أصحاب الشورى، شهد أ..ا وأبلى فيها بلاء حسنا، توفي سنة ٣٦هـ حيث رمي بسهم يوم الجمل. انظر سير أعلام النبلاء (١/٢٣-٤٠) و الإصابة (٣/٥٢٩ -٥٣٣)

[2] الزبير بن العوام القرشي، ابن عمة رسول الله ﷺ، أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى، حواري رسول الله ﷺ، أسلم مبكرا وهو صغير، هاجر الهجرتين وشهد سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، قتل بعد أن انصرف يوم الجمل سنة ٣٦هـ.انظر سير أعلام النبلاء (١/٤١ـــ٤٨) والإصابة (٢/٥٥٣ـــ٥٥٧)

[3] عبد الرحمن بن عوف بن زهرة القرشي، أحد العشرة المبشرينّ بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى الذين عينهم عمر، أسلم مبكرا

ثم من بعد أصحاب الشورى أهل بدر من المهاجرين، ثم أهل بدر من الأنصـــار من أصحاب رسول الله ﷺ على قدر الهجرة والسابقة (أولا فأولا).

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء، أصحاب رسول اللهﷺ، القرن الذي بعث فيهم.

– والسمع والطاعة للأ ئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به.

– والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر لايترك.

– ولايحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس فمن فعل ذلك فـــهو مبتدع على غير السنة والطريق.

– ومن مات من أهل القبلة موحدا يصلى عليه ويستغفر له ولاتترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيرا كان أوكبيرا وأمره إلى الله عزوجل[٢].

٥ – موقفهم من المخالف:

أهل السنة والجماعة ليسوا بمنجاة من وقوع الاختلاف بينـــهم ســـواء في المســـائل العلمية أو العملية، لكنهم يختلفون عن غيرهم في أهم يضبطون سلوكهم مهما بلغ قـــدر الاختلاف، بينهم بأدب الاختلاف من الود والألفة واحترام بعضهم، رغبة منـــــهم في المحافظة على الجماعة والإئتلاف ونبذ التفرق والاختصام[٣].

وهم لايقرنون بين الخطأ والإثم في التعامل مع المخالف، فليس كل من خالفـــــهم في شيئ من مسائل الإعتقاد بالضرورة أن يكون عندهم آثما أو هالكا[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:(بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد في طلبـه

وهاجر الهجرتين وشهد بدرا وسائر المشاهد، توفي بالمدينة سنة ٣٢هـ. انظر سير أعـــلام النبـــلاء (١/٦٨ـــ٦٩ـــ ٩٢) و الإصابـــة (٤/٣٤٦ـــ٣٤٩)

[١] سعد بن مالك بن أهيب القرشي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم موتا، أول من رمى بسهم في سبيل الله،أحد الســـتة أهـــل الشورى، كان من كبار قادة الفتح في عهد الخلفاء الراشدين، ولاه عمر الكوفة، كان مُجاب الدعوة، وكان ممن اعتزل الفتنة، توفي ســـنة ٥٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١/٩٢ـــ٩٩) و الإصابة (٣/٧٣ـــ٧٥)

[٢] انظرشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم (١/١٧٦-١٨٥) للإمـــام أبي القاسم هبة الله بن الحسن اللاكائي، تحقيق د.أحمد بن سعد الغامدي الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ دار طيبة

[٣] معالم الانطلاقة الكبرى ص(٨٣)

[٤] جماعة المسلمين مفهومها وكيفية لزومها ص(٣٠)

فعجزعنه فلايعاقب، وقد يفعل بعض ماأمر به فيكون له أجر على اجتهاده، وخطؤه الذي ضل فيه عن حقيقة الأمر مغفورله[١].

وفي موضع آخر يقول:(وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا بالأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله:{فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا}[٢].

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة، والعصمة وأخوة الدين، وضرب شيخ الإسلام أمثلة لذلك بخلاف عائشة[٣] أم المؤمنين لابن عباس وغيره من الصحابة في أن محمد ﷺ رأى ربه وقالت: من زعم أن محمد ا رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية [٤] رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وكذلك إنكارها أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحي لما قيل لها: إن النبي ﷺ قال: ماأنتم بأسمع لما أقول منهم، فقالت: إنما قال:إنهم ليعلمون الآن أن ماقلت لهم حق[٥].

ومع هذا فلاريب أن الموتى يسمعون خفق النعال،كما ثبت عن رسول الله ﷺ: «وما

---

[١] بحموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(١٩١/١٩)

[٢] سورة النساء (٥٩)

[٣] أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، زوج النبي ﷺ، تزوجها ﷺ في مكة بعد وفاة خديجة،دخل بها ﷺ سنة ثنتين من الهجرة، كانت أعلم نساء النبي ﷺ بل هي أعلم النساء على الإطلاق، توفى رسول الله ﷺ عنها وعمرها ١٨سنة، توفيت سنة ٥٨هـ انظر البداية والنهاية (٩٨/٨ــ١٠١) والإصابة (١٦/٨ــ٢٠)

[٤] رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم الحديث (٣٢٣٤) ومسلم واللفظ له، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى) وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟ رقم الحديث(١٧٧) والترمذي، باب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، رقم الحديث(٣٠٦٨) الجامع الصـ ح، تحقيق: كمال يوسف الحوت، نشر دار الكتب العلمية،ط(١) ١٤٠٨هـ

[٥] رواه البخاري واللفظ له، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم الحديث(٣٩٨٠) ومسلم كتاب الجنة ونعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه(٢٨٧٤) والنسائي،كتاب الجنائز،باب أرواح المؤمنين وغيرهم، رقم الحديث(٢٠٧٤) شرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشة الإمام السندي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث الإسلامي، نشر دار المعرفة، ط(١) (١٤١١هـ) والإمام أحمد (١٣١/٢)

من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلارد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام»[١] رواه ابن عساكر[٢] [٣].

وما تقدم يعد لمحة موجزة عن أبرز سمات منهج السلف التي يستحق من التزم به ودعا إليه أن ينسب إليه وينظم في سلكه.

ولا يعني اختيار جماعة أنصار السنة النبوية مثالا لأتباع هذا المنهج، اختصاص هذه الجماعة بهذا الوصف دون غيرها، كما لا يعني أيضا تزكية مطلقة لها، والحكم بالتزامها التام بهذا المنهج.

لكن سبب الاختيار هو إعلان هذه الجماعة عن تبنيها لمنهج السلف ودعوتها إليه.

قيام جماعة أنصار السنة المحمدية:

في عام ١٣٤٥هـ تأسست جمعية بمدينة القاهرة باسم جماعة أنصار السنة المحمدية[٤].

وقد أسس هذه الجماعة الشيخ محمد حامد الفقي[٥]، أحد خريجي الأزهر، والذي بدأ دعوته إلى الكتاب والسنة أثناء دراسته بالأزهر، وقد تولى رئاسة الجماعة إلى أن توفي عام ١٣٧٨هـ[٦].

ميدان عمل الجماعة:

١- الخدمات الدينية والثقافية والاجتماعية

---

(١) رواه ابن عساكر بلفظ (مامن رحل يمر بقبر رحل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام)وقال الألباني:ضعيف انظر ضعيف الجامع الصغير وزيادته حديث رقم (٥٢٠٨) تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ)

(٢) الإمام الحافظ محدث الشام علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ابن عساكر، صاحب تاريخ دمشق، ولد سنة ٤٩٩هـ وكان كثير العلم غزير الفضل، توفي سنة ٥٧١هـ، انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٥٤-٥٥٥-٥٧٠) و طبقات الشافعية الكبرى (٧/٢١٥-٢١٦-٢٢٣) والأعلام للزركلي (٤/٢٧٣)

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢٤/١٧٢-١٧٣)

(٤) انظر لائحة جماعة أنصار السنة المحمدية ص(١)

(٥) الشيخ محمد حامد الفقي، ولد في قرية حزيرة نكلا العنب بمحافظة البحيرة بمصر سنة ١٣١٠هـ، درس بالأزهر وتخرج منه سنة ١٩١٧هـ أنشأ جماعة انصار السنة المحمد ية وكان أول رئيس لها، وأصدر مجلة الهدي النبوي، توفي رحمه الله سنة ١٣٧٨هـ انظر مجلة التوحيد، السنة الرابعة والعشرون، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤١٦هـ ص (٥٥-٥٧)

(٦) انظر مجلة الهدي النبوي المجلد (٢٣) رجب وشعبان ص(٦٩- ٧٣)

٢- ميدان المساعدات الاجتماعية[1].

الهيكل الإداري للجماعة:

يتكون هيكل المركز العام للجماعة من:

أ - الرئيس العام للجماعة وهو الذي ينتخب من قبل الجمعية العمومية للجماعة.

ب - الجمعية العمومية للجماعة حيث يمثل كل فرع عضوين فقط ماعدا القاهرة حيث يمثلها خمسة عشر عضوا، والاسكندرية سبعة أعضاء وذلك لاتساع هاتين المدينتين وكثرة سكانها.

ج - مجلس إدارة شئون الجماعة، وهو المجلس الذي ينتخب من بين أعضاء الجمعية العمومية للجماعة.

د - الهيئة التنفيذية لأعمال الجماعة وهي المعينة من قبل أعضاء مجلس الإدارة ومناصبها كما يلي:

١- الرئيس

٢- نائب الرئيس

٣- الوكيل

٤- السكرتير

٥- أمين الصندوق[2].

---

[1] لائحة جماعة أنصار السنة المحمدية ص(١)

[2] الطريق إلى جماعة المسلمين ص(٢٦٣-٢٦٤)

الموارد المالية للجماعة:

تتكون إيرادات المركز العام من:

أ – حصيلة اشتراكات فروع الجماعة

ب – التبرعات والهبات والوصايا

ج – حصيلة إيرادات أملاك الجماعة

د – الإعانات الحكومية

هـ– الموارد الأخرى التي يوافق عليها مجلس الإدارة[1].

أهداف الجماعة:

لخص مؤسس الجماعة الشيخ محمد حامد الفقي أهداف الجماعة برسالة صغيرة بَيَّنَ فيها مقاصد الجماعة، وهي كما يلي:

١– دعوة الناس إلى التوحيدالخالص المطهر من جميع أرجاس الشرك وأدرانه وشوائبه، وإلى حب الله تعالى حبا صحيحا صادقا، يتمثل في طاعته وتقواه والوقوف عند أمره ونهيه.

٢– إرشاد الناس إلى أخذ دينهم من نبعيه الصافيين صريح الكتاب وصريح السنة، فما عداهما من أقوال الناس يحتمل الخطأ والصواب، فالصحيح ماحكما بصحته والباطل ماحكما ببطلانه، أيا كان قائله.

٣– إرشادهم إلى أن نصوص الكتاب والسنة لامحيد عنها البتة وأن دين الله محصور في ظاهر هذه النصوص، التي قضت حكمة الله أن ينضبط بها صلاح خلقه في دينهم ودنياهم، فألزمهم اتباعها، ونهاهم عن اتباع ماتشابه منها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فمن اطمأن قلبه بالإيمان وسعه ماوسع الرسول ﷺ وأصحابه وتابعيهم بإحسان، فكل هراء الصوفية وتأويلاتهم وشطحاتهم، ودعواهم بأن للقرآن والسنة ظاهرا وباطنا، إن هو إلا دجل وكذب صريح على الله ورسوله دسه أعداء هذه الملة للقضاء عليها.

٤– الدعوة إلى حب رسول الله ﷺ حبا صادقا صحيحا يحمل على اتخاذه مثلا

---

[1] لائحة جماعة أنصار السنة النبوية ص(٢)

أعلى، وأسوة حسنة والاقتداء به في عبادته وأحكامه ومعاملاته وأخلاقه، ومجانبة كل مالم يكن عليه أمره وأمر أصحابه، وتقديم قوله على كل قول، أيا ماكان قائله {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب}[1].

٥- إرشادهم إلى أن الحكم بغير ماأنزل الله هلكة في الدنيا وشقوة في الآخرة، وأن الله أعلم بمصلحة عبادة حيث أنزل لهم شرعا يحيط بهذه المصلحة من جميع جهاتها.

ومن زعم لنفسه حق التشريع فقد أعظم الفرية على الله ونازعه رداء الهيمنة على الخلق، وإن استجاب أحد لهذا المدعي كان متخذا له ربا وكان من المشركين{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}[2].

٦- الدعوة إلى مجانبة البدع ومحدثات الأمور والوقوف عند قول الرسول ﷺ «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[3] رواه مسلم وأبوداود وابن ماجة والإمام أحمد

فكل ماجاء به في حياته فهو دين إلى قيام الساعة، ومالم يأت به فليس بدين إلى يوم القيامة لقوله تعالى في آخر آية أنزلها إليه {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}[4].

٧ - محاربة الخرافات والعقائد الفاسدة التي دسها العدو لمحاربة هدى الله الذي حصره في الكتاب والسنة.

٨- إرشاد الناس إلى أن حياتهم الدنيوية والأخروية مرتبطة كل واحدة منها بالأخرى أوثق رباط، وكلتاهما مرتبطتان أقوى رباط بتلاوة القرآن حق تلاوته وفهمه

---

(١) سورة الحشر (٧)

(٢) سورة المائدة (٤٤)

(٣) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور عن عائشة بلفظ (أن رسول الله ﷺ قال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) رقم الحديث (١٧١٨) وأبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم الحديث (٤٦٠٦) وابن ماجة، المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه، رقم الحديث (١٤) والإمام أحمد (٧٣/٦ و١٤٦ و١٨٠ و٢٤٠ و٢٥٦ و٢٧٠)

(٤) سورة المائدة (٣)

وتدبره والعمل به، والحذر كل الحذر من الشرك والكفر الذي يصفه ويحذر منه.

فكل قلب لم يحى بالقرآن فهو ميت، وكل قلب لم يستنر بهدي الرسول فهو مظلم.

وعلى ذلك فاتخاذه حجبا يتوهم أنها تشفي من الأمراض أوتمائم تقي العين، أو اقتناؤه بركة أوقرآته في جنائز الموتى وعلى قبورهم، أوغير ذلك مما هو ليس من غرضه، نقول:إن هذا جميعه من اتخاذ آيات الله هزوا.

٩- إرشادهم إلى أن الله تعالى وصف الخير ووعد فاعله بالخير والمغفرة في الدنيا والآخرة ووصف الشر وأنذر آتيه العنة وسؤ الدار.

١٠- إرشادهم إلى أن الفسوق والعصيان وانتهاك الحرمات بغير مبالاة، مع قطع ما أمر الله به أن يوصل من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصلة الأرحام، إنما هو نتيجة لازمة لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر يشير إلى ذلك قوله تعالى: {ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا}[١].

١١- إرشادهم إلى أن الإلزامات التي ألزم بها عباده: أمرا كانت أونهيا، ليست إلارحمة بهم {يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر}[٢] وأن ما ورد منها في الكتاب أو في السنة إنما هو شيئ واحد لايقبل التجزئة، فمن أخذ منها شيئا وترك شيئا فهو ممن آمن ببعض وكفر ببعض.

١٢- إرشادهم إلى أن الرسول ﷺ إذ يحرم تشريف القبور، ورفع البناء فوقها بقباب ونحوها واتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها، وإقامة التماثيل، ودعاء المقبورين من دون الله والنذر لهم، والطواف حول القبور والتمسح بها، وما إلى ذلك مما حذر منه الرسول وأنذر – فهي الظلم الذي يمقته الله إلى يوم القيامة – مهما حاول المبطلون أن يلبسوها من الحكم ما يوافق أهواءهم، زاعمين أنها بدع حسنة فإنه ﷺ حكم حكما لاينقضه إلا ضال مفسد إذ قال ﷺ: «كل بدعة ضلالة»[٣] رواه مسلم وأبو داود

---

[١] سورة الفرقان (٤٠)

[٢] سورة البقرة (١٨٥)

[٣] جزء من حديث رواه مسلم واللفظ له، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث (٨٦٧) وأبو داود،كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم الحديث (٤٦٠٧) و (٢٩٥٦) والنسائي،كتاب العيدين، باب كيف الخطبة، رقم الحديث(١٥٧٧) وابن

والنسائي وابن ماجة والإمام أحمد.

١٣- إرشاد الناس إلى أن موقفهم من صفات الله وأسمائه يجب أن يكون كموقف الرسول ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، من إيمان بكل صفة جاءت في القرآن وصحيح السنة من الاستواء والفوقية واليد والعين والنزول والضحك وما إليها على ظاهرها، بدون تأويل أوتمثيل أوتعطيل مع استحضار قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[1] عند ذكر أي صفة من الصفات لأن التأويل أو التعطيل،قول على الله بغير علم.

والتمثيل والتشبيه كفر صريح، ولو لم يرد الله من ذكرهذه الصفات بعينها مدلولا بعينه لما ذكرها في القرآن، ولو كان المقصود باليد القدرة وبالعين العلم وبالاستواء الاستيلاء، لما كان هناك داع لتكرارها ولعد ذلك طعنا في بلاغة القرآن، الذي جاء لكل لفظ منه معنى خاص به.

١٤- إرشاد الناس إلى وجوب تمسكهم بالرجولة لتظل لهم القوامةعلى النساء فلا يفلت الزمام من أيديهم.

١٥- إرشاد الناس إلى أن أصل الداءوجرثومته هو سماحهم للنساء بارتياد الملاهي[2].

وقد جاء في لائحة الجماعة زيادة على ماذكره الشيخ الفقي ما يلي:

١- العمل على تنشئة الشباب تنشئة دينية إسلامية وثقافية واجتماعية صحيحة.

٢- التعاون مع مختلف الهيئات العلمية والثقافية لإحياء التراث الإسلامي بكافة أنواعه.

٣- لايجوز للجماعة أن تجادل في الأمور السياسية أو العقائد الدينية[3].

ماحة، المقدمة، باب احتناب البدع والجدل، رقم الحديث(٤٥)و ٦ ١ ٤ ٢ ٠) والإمام أحمد (٣/٣٩٦)

[1] سورة الشورى (٧)

[2] انظر دعوة الجماعة وأهدافها ص(٧-٢٠) بتصرف، الشيخ محمد حامد الفقي، دار نشر الثقافة، ١٤٠٨هـ

[3] لائحة جماعة أنصار السنة المحمدية ص(١-٣)

وسائل الجماعة لتحقيق أهدافها:

١- محاربة الأمية عن طريق:

أ - فتح فصول لمحو الأمية بين جميع المصريين

ب - إعداد مدارس للتعليم الإعدادي والثانوي لتقوية الطلبة

ج - إعانة الطلبة المستحقين لتمكينهم من مواصلة دراستهم

٢- البر بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل من المسلمين بقدرماتسمح به مالية الجماعة

٣- رعاية الأعضاء وأسرهم اقتصاديا وصحيا واجتماعيا

٤- توثيق روابط الإخاء والتضامن بين المركز العام والجمعيات الإسلامية على الصعيد الدولي

٥- توصيل ما تعلم أنه الحق للناس عن طريق الكتابة في مجلتها (التوحيد) وبمحاضرات علمائها وعضات خطبائها، وطبع الكتب المؤيدة للسلف وأهل الحديث

٦- إنشاء المساجد والمدارس والملاجئ ومكاتب لتحفيظ القرآن الكريم

٧ - تيسير أداء الحج والعمرة في رحلات جماعية منتظمة تحت إشراف الجماعة[1]

ثمار دعوة الجماعة:

يصف مؤسس الجماعة ثمار هذه الدعوة بقوله: كان لهذه الدعوة أثرها الطيب وثمرها المباركة ولله الحمد والمنة، فقد أصغى إلى دعوتها كثرة كاثرة، وما زال صوت هذه الدعوة الكريمة يعلو، وصداه يتجاوب حتى تجاوز البلاد المصرية إلى غيرها من البلاد الإسلامية، وما زالت تسير إلى الأمام بخطوات ثابتة وطيدة[2].

ويذكر نائب رئيس الجماعة الشيخ صفوت الشوادفي أن عدد فروع الجماعة المنتشرة في أنحاء الجمهورية يصل إلى خمسة وستين فرعا يتبعها أكثر من ألف مسجد[3].

وكل فرع من فروع الجماعة يمثل وحدة متكاملة وهو صورة عن المركز العام.

---

(1) انظر لائحة جماعة أنصار السنة المحمدية ص(١-٢) ودعوة الجماعة وأهدافها ص(٦)

(2) دعوة الجماعة وأهدافها ص (٤-٥)

(3) مصدر هذه المعومات لقاء شخصي بنائب رئيس الجماعة الشيخ صفوت الشوادفي

يشرف كل فرع على عدد من المساجد التابعة للجماعة في حدود منطقته وما يتبع ذلك من مدارس ومجمعات طبية.

ويتبع بعض المساجد التابعة للجماعة مدرسة لمحو الأمية، ومجمع طبي وصالة للمحاضرات.

قامت الجما عة بتأسيس عدد من المدارس لتحفيظ القرآن الكريم ومحو الأمية.

يتبع الجماعة عدد من المجمعات والمستوصفات الطبية يعمل بها أطباء من أعضاء الجماعة، وتقدم خدماها الطبية بأجرة رمزية.

تعقد الجماعة مؤتمرات إسلامية في فترات مختلفة، تقوم فيها بتوعية الأمة ونشر الفضيلة بينهم.

أصدرت الجماعة مجلتين إسلاميتين شهريتين، أولاهما باسم مجلة (الهدي النبوي) والتي توقفت عن الصدور وتلاها إصدار مجلة أخرى باسم مجلة (التوحيد) وهي لسان الجماعة وتعبر عن آرائها[1].

جماعة أنصار السنة المحمدية بالسودان:

سبق الحديث عن مبادئ المنهج السلفي والسمات المميزة له مما يغني عن إعادته في هذا الموضع وحسبنا هنا التعريف بجماعة أنصار السنة المحمدية بالسودان.

يذكر الشيخ محمد الهدية – رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية في السودان – تاريخ تأسيس الجماعة وبداية الدعوة السلفية في السودان، أن ثلاثة من الرجال هم: يوسف أبو، ومحمد أحمد أبودقن وأحمد حسون تلقوا الدعوة السلفية على يد شيخ من أهل المغرب اسمه عبد الرحمن بن حجر، لم يلبثوا غير فترة وجيزة من التعليم على يديه حتى تأثروا بما ألقاه عليهم من دروس واقتنعوا بها، ولا أدل على ذلك من أن الأول منهم والذي كان أحد زعماء الطريقة التيجانية ومن فقهاء المالكية المتعصبين، يتخلى عن صوفيته وعن تعصبه المذهبي حين وجدحلاوة السنة والتفسير السلفي.

لكن الشيخ المغربي لم يلبث أن رحل من السودان حين أصدر الحاكم البريطاني أمرا

---

(1) انظر الطريق إلى جماعة المسلمين ص(٢٧٠-٢٧٢)

بطرده على إثر فتوى قدمها لضابط مصري كان ضمن جيش هدلستون الذي احتل دارفور.

ظلت الدعوة حبيسة في صدور هؤلاء الثلاثة حتى عام ١٩٣٤م يوم أن فتح الأستاذ أحمد حسون درسا في منزله بأم درمان أَمَّــهُ عدد قليلٌ من الأشخاص كان في مقدمتهم الشيخ محمد الفاضل التقلاوي – أول من تولى رئاسه الجماعة –[1].

وكانوا محارَبين من أهل الطرق الصوفية، ومن أساتذة المعهد العلمي بأم درمان، لكن هذه الحرب عادت بفوائد إيجابية على الدعوة حيث لفتت إليها الأنظار، فازداد عدد المنتمين إليها، فقلما يمر يوم إلا وينضم إلى الدعوة ركب جديد بعد سماعهم للدروس في منزل الشيخ أحمد حسون، مما دفعهم لاختيار لجنة من بينهم برئاسة الشيخ محمد الفاضل التقلاوي، ورفعوا لافتة تحمل اسم جماعة أنصار السنة المحمدية على منزل أحدهم، وأصبح لهم نشاط ملموس حيث صارت لهم مشاركة في الأندية الثقافية، بالمحاضرات الدينية في جميع المواسم.

ثم اتفق رأي الأعضاء على استئجار دار فسيحة في حي راق مهما كلف ذلك، وتكوين لجنة جديدة بنظام جديد لنشر الدعوة في العاصمة وفي الأقاليم.

وفي عام ١٩٤٨م تقدم أعضاء الجماعة بطلب إلى السلطات للموافقة على قيام مركز عام ولجان فرعية، فحصلت الموافقة، ثم أصبح للدعوة هيئة معترف بها قانونا، فنظمت الدروس والمحضرات والنشرات والكتابة في الصحف كلما سنحت الفرصة بذلك.

وفي أثناء غياب الشيخ محمد الفاضل التقلاوي عام ١٩٤٩م حيث عمل مدرسا بالمدرسة العربية بأسمرة، تولى رئاسة الجماعة الأستاذ عبد الله حمد.

وتواصل النشاط وازداد عدد الأعضاء أثناء فترة رئاسته وذلك لحكمته وحثه المتواصل لأصحاب الأقلام والخطباء من أعضاء الجماعة، أن يترفقوا بالناس الذين بعدوا عن هدي السنة النبوية حتى أصبحت غريبة عليهم، وكان لهذا الإسلوب أثر

---

[1] انظر مجلة المجتمع ص(٤٣) عدد (٤٧٩) تاريخ (٢١) جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ

طيب في جذب الناس إلى الدعوة لاسيما الشباب.

وبعد سفر الأستاذ عبد الله حمد، انتخب الشيخ يوسف أبو، رئيسا للجماعة بعد انتقاله إلى أم درمان، بسبب تأزم الأمور بينه وبين أصحاب الطرق الصوفية، مما جعل إقامته بينهم شبه مستحيلة، واستمر رئيسا للجماعة مع صفته عالمها وأستاذها وإمام جمعتها حتى توفاه الله سنة ١٩٥٦م.

ثم اختير الشيخ محمد هاشم الهدية رئيسا للجماعة منذ عام ١٩٥٦م ولازال إلى الآن يتولى مهام منصبه[١].

آثار دعوة الجماعة:

توسعت الدعوة وأصبح لها مساجد ومعاهد ودور وساهمت مساهمة فعالة في إرساء قواعد الإيمان وغزت المدارس والجامعات، وتجاوزت العقبات والعراقيل التي وضعت في طريقها، ولم يشغلها التصدي لخرافات الطرق الصوفية والدعوة إلى التوحيد الخالص، عن المطالبة بتحكيم الشريعة الإسلامية واطراح القوانين الجاهلية، حيث قام قادتها بالاتصال بالحكومة مشافهة ومكاتبة، كما قادت المظاهرات للمطالبة بتحكيم الشريعة الإسلامية مما عرَّضَ قادتها للإيذاء والسجن عدة مرات[٢].

وقد كان لجهود الشيخ محمد الحسن عبد القادر رحمه الله تعالى رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية في مدينة كسلا دور بارز في إقامة أكثر من خمسين مسجدا في الإقليم الشرقي من السودان إضافة إلى المعاهد التابعة لهذه المساجد التي يستمر التعليم بها إلى المرحلة الثانوية.

وقد حرص على إلحاق كثير من الطلاب الذين يتخرجون من هذه المعاهد بالجامعات العربية، خاصة جامعات المملكة العربية السعودية.

وقد كان للعلاقة الطيبة التي تربطه بسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، أهمية خاصة في دعم الدعوة علميا وأدبيا وماديا، وتسهيل معظم الصعاب التي تقف في طريقها، والتأييد لجهوده التي يقوم بها في مجال الدعوة[٣].

---

(١) انظر مجلة الاستجابة ص(١٢-١٤)

(٢) انظر مجلة المجتمع ص(٢٩) عدد(٤٩٣) (٩) شوال (١٤٠٠) هـ

(٣) ترجمة للشيخ محمد الحسن عبد القادر ص (٣) كتبها إبراهيم سعيداي حصلت عليها عن طريق الشيخ صفوت الشوادفي نائب رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر

٣- جماعة الإخوان المسلمين:

إن الدارس لواقع الدعوة الإسلامية في هذا العصر لايمكنه أن يتجاهل أكبر الحركات الإسلامية على الإطلاق، وأن لايستفيد من تجربتها.

ومن أراد التعرف على هذه الجماعة فلا تكتمل معرفته إلا بدراسة شخصية مؤسسها وواضع مناهجها، الشيخ حسن البنا، ومعرفة العوامل التي أثرت في تشكيل شخصيته.

الشيخ حسن البنا:

في أكتوبر عام ١٩٠٦ م في قرية المحمودية بمصر ولد حسن البنا وتربى في أسرة عرفت بالعلم والدين، فأبوه الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا الشهير بالساعاتي كان إماما لمسجد القرية ومن الأزهريين، وقد اشتغل بعلوم السنة وألف عددا من الكتب منها: الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، وشرحه الذي سماه بلوغ الأماني في أسرار الفتح الرباني، وكتابا آخر اسمه: بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن.

وكان أيضا يحترف تجليد الكتب وإصلاح الساعات، لذا لقب بالساعاتي[1].

بدأ البنا تعليمه في مدرسة الرشاد الدينية، وتتلمذ على يد الشيخ الضرير محمد زهران، صاحب المدرسة الذي لايخفى الشيخ البنا إعجابه به فيقول في وصفه: الرجل الذكي الألمعي، العالم التقي الفطن اللقن الظريف، الذي كان بين الناس سراجا مشرقا بنور العلم والفضل يضيء في كل مكان وهو وإن كانت دراسته النظامية لم تصل به إلى مرتبة العلماء الرسميين، فإن ذكاءه واستعداده وأدبه وجهاده قد جعله يسبق سبقا بعيدا في المعارف وفي الإنتاج العام.

ويصف الشيخ البنا المدرسة التي أنشأها أستاذه بقوله: وأنشأ مع ذلك مدرسة الرشاد الدينية في سنة ١٩١٥م تقريبا لتعليم النشئ على صورة كتاتيب الإعانة الأهلية ولكنها في نهج المعاهد الرائعة التي تعتبر دار علم ومعهد تربية على السواء.

---

[1] انظر معا على طريق الدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشهيد حسن البنا - محمد عبد الحليم حامد ص (١٠) دار التوزيع والنشر الإسلامية، والشهيدان صلاح شادي ص (١١) دار الوفاء، المنصورة ط(٣) ١٤١٠ هـ و نظرات في منهج الإخوان المسلمين دراسة نقدية إصلاحية أحمد سلام ص (١٤) ط(٢) ١٤١٣هـ مكتبة الكوثر، الرياض

وفي هذه المدرسة بدأ البنا في حفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبويـــة، مـــع شرحها، والإنشاء، والقواعد، والتطبيق، وطرف من الأدب في المطالعة، أو الإمـــلاء، والمحفوظات من النظم أو النثر.

وأمضى البنا في هذه المدرسة فترة من العمر بين الثامنة إلى الثانية عشر، ومما يـــدل على تعلق التلميذ بأستاذه، أن البنا ترك مدرسة الرشاد حين تركها الشـــيخ زهـــران لشخص آخر لاتتوفر فيه مزاياه، حيث انتقل إلى الإعدادية بعد أن تعهد لوالده بإتمـــام حفظ القرآن في البيت.

وفي المدرسة الإعدادية بدأ البنا أول تجارب العمل الإسلامي وذلك من خلال إنشـــاء جمعية الأخلاق الأدبية التي أسسها مدرس الحساب، والتي تعاقب من خرج عن الآداب الإسلامية بغرامية مالية، يُنفق ما اجتمع منها في وجوه الخير.

ثم اشتراكه في جمعية منع المحرمات، التي كانت مهمتها إرسال الخطابـــات إلى مـــن ارتكب مخالفة شرعية.

ثم انتقل إلى مدرسة المعلمين الأولية بدمنهور وهو لم يكمل بعد سن الرابعة عشر.

وفي دمنهور تعرف على الطريقة الحصافية وأعجب بحلقة الذكر التي تقوم بها الجماعة بعدكل صلاة عشاء، وزاد من إعجابه بهذه الطريقة أنه وجد من بين أعضائها أســـتاذه الشيخ زهران الذي كان له درس في مسجد أصحاب الطريقة بين المغرب والعشاء.

وأخذ يواضب على الوظيفة الرزوقية صباحا ومساء، وقد وضع والده تعليقا علـــى هذه الوظيفة حاول أن يستدل لأذكارها بأدلة من الكتاب والسنة.

وزاد من تعلقه بهذ الطريقة إعجابه بشيخها حسنين الحصافي، الذي يصف طريقتـــه بأنها مؤسسة على العلم والتعليم والفقه والعبادة والطاعة والذكر، ومحاربـــة البـــدع والخرافات الفاشية بين أبناء هذه الطرق والانتصار للكتاب والســـنة والتحـــرر مـــن التأويلات الفاسدة والشطحات الضارة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر، وبعـــد مواظبة البنا على الحضرة في مسجد التوبة، أخذ العهد على مقدم الطريقـــة بســـيوني العبد، وفي ٤ رمضان سنة ١٣٤١ هـــ تلقى الطريقة الحصافية الشاذلية عن شـــيخها

وخليفة مؤسسها عبدالوهاب الحصافي وأذن له بأدوارها ووظائفها[1].

وقد استمر البنا مواظبا على الحضرة عقب صلاة الجمعة في منزل الشيخ الحصافي بعد انتقاله إلى القاهرة والتحاقه بدار العلوم [2]، كما كان يخرج بعد الحضرة في موكب إذا صادف ذلك ذكرى مولد الرسولﷺ[3].

وقد كان البنا مهتما بالأحوال السياسية التي تعيشها بلاده، حيث كانت ترزح تحت حكم الإستعمار الإنجليزي، وعايش أحداث الثورة المصرية عام ١٩١٩م وهو طالب بالإعدادية [4].

وقد استشعر الإمام البنا عظم المسئولية الملقاة على دعاة الإسلام، لاسيما العلماء، في مواجهة موجة الإلحاد والإباحية، التي كان لها رواج في مصر وقام بدور فعال في تحريض العلماء ومن بيدهم الأمر للوقوف أمام هذه الموجة والتصدي لها، فأثمر ذلك تأسيس جمعية الشبان المسلمين، وإصدار مجلة الفتح الإسلامية[5].

وقد أثار الشيخ البنا أثناء دراسته في دار العلوم ماشاهده في القاهرة من مظاهر التحلل والبعد عن الأخلاق الإسلامية في كثير من الأماكن، وما كان ينشر في بعض الجرائد من أمور تنافي الدين، ومن جهل عامة الناس بأحكام الإسلام، فنشط لتشكيل جماعات للدعوة من بين الطلبة المتحمسين والاتصال بالناس في المساجد والمقاهي والمجتمعات العامة[6].

ومما ينبغي التنبه له أن البنا خلال إقامته في القاهرة كان يتردد على المكتبة السلفية للإلتقاء بصاحبها الشيخ محب الدين الخطيب[7] والذي كان البنا معجبا به، ولا أدل

---

[1] انظر مذكرات الدعوة والداعية حسن البنا ص (١٣-٢٤) دار التوزيع والنشر الإسلامية

[2] المرجع السابق ص (٤٩)

[3] المرجع السابق ص (٥٢)

[4] المرجع السابق ص (٣٢)

[5] المرجع السابق ص (٥٧-٦٣)

[6] المرجع السابق ص (٥٣-٥٤)

[7] الشيخ محب الدين الخطيب بن أبي الفتح محمد بن عبد القادر الخطيب: من كبار الكتاب الإسلاميين، ولد في دمشق، وتعلم بها وبالأستانة، رحل إلى صنعاء وغيرها ثم استقر في القاهرة وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها توفي سنة ١٣٨٩هـ انظر الأعلام للزركلي (٥/٢٨٢)

على ذلك من وصف البنا له بقوله: كما كان ينفس عن نفسي التردد على المكتبة السلفية حيث نلقى الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفي الإسلامي القدير (محب الدين الخطيب)[١].

ومن الجدير بالذكر أن أول مجلة أصدرها الإخوان المسلمون صدرت في الخميس ٢٨ من صفر ١٣٥٢ هـ كان مديرها الشيخ محب الدين الخطيب[٢].

وبعد تخرج البنا من دار العلوم عام ١٩٢٧م عين مدرسا في الإسماعيلية، وحين وصوله إليها وجد الخلاف مستحكما بين أهلها، المتعلمين، ورواد المساجد، والأعيان، وهو يريد أن يخاطب الجميع وأن يتصل بالجميع وأن يلم شتات الجميع، فبدأ منهجا مدروسا في الدعوة وسلك مع الفرقاء المختلفين سبل المهادنة واللين[٣].

قيام جماعة الإخوان المسلمين:

يقول الإمام البنا: في ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ زارني في المنزل أولئك الأخوة الستة حافظ عبدالحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبدالرحمن حسب الله، إسماعيل عز، زكي المغربي، وهم الذين تأثروا بالدروس والمحاضرات التي كنت ألقيها، وجلسوا يتحدثون إليّ وفي صوتهم قوة وفي عيونهم بريق وعلى وجوههم سنا الإيمان والعزم، قالوا لقد سمعنا ووعينا، وتأثرنا ولاندري ما الطريقة العملية إلى عزة الإسلام وخير المسلمين ...)

وبعد أن استطرد البنا في بيان رغبتهم لخدمة الدين، واستعدادهم للعمل تحت رئاسته، ومدى تأثير طلبهم على نفسه، قال: ولم أستطع أن أتنصل من حمل ماحُملت، وهو ما أدعو إليه، وما أعمل له، وماأحاول جمع الناس عليه، فقلت لهم في تأثر عميق: شكر الله لكم وبارك هذه النية الصالحة، ووفقنا إلى عمل صالح يرضي الله وينفع الناس، وعلينا العمل، وعلى الله النجاح، فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جندا، وفيها حياة الوطن وعزة الأمة.

---

(١) المرجع السابق ص (٥٩)

(٢) المرجع السابق ص (١٦١)

(٣) انظر المرجع السابق ص (٧١-٧٦) ومجموعة رسائل الإمام حسن البنا ص (٥) المؤسسة الإسلامية بيروت، ونظرات في منهج الإخوان المسلمين ص (٨)

وقال نحن أخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذا (الإخوان المسلمون)[1].

وبهذا بدأت الخطوات الأولى لجماعة الإخوان المسلمين، واستطاعت الجماعة خــلال إقامة البنا في الإسماعلية والتي استمرت حتى ١٩٣٢م أن تؤسس معــهدين إســلاميين أحدهما للبنين والآخر للبنات وأن تجمع لمشروع بناء مسجد ومدرسة ودار للإخـــوان المسلمين[2].

---

[1] مذكرات الدعوة والداعية ص (٨٣-٨٤)

[2] الشهيدان ص (١٦)

انتقال الدعوة إلى القاهرة:

بعد نحو خمس سنوات من تأسيس الجماعة في الإسماعلية نُقل البنا سنة ١٩٣٣م إلى القاهرة ودخلت الدعوة بنقله طورا جديدا، وذكر البنا في إحدى مقالاته التي نشرت سنة ١٩٣٤م: أن فكرة الإخوان قد انتشرت فيما يزيد على خمسين بلدا من بلدان القطر المصري، واقتحم الإخوان الميدان السياسي وابتدأ البنا في إلقاء أحاديث دينية واجتماعية بالإذاعة والأندية وفي إرسال رسائل إلى رؤساء الوزارات المصرية المتعاقبة.

وفي سنة ١٣٥٥هـ أرسل البنا خطابا إلى الملك فاروق وإلى ملوك ورؤساء الدول العربية وحكام بلدان العالم الإسلامي، وكثير من زعمائها الدينيين والسياسيين، رسالة عنوانها (نحو النور) يدعوهم فيها إلى طريق الإسلام وأصوله، وقواعده، وحضارته، ومدنيته، نابذين طريق الغرب ومظاهر حياته ونظمها، ثم بين فيه خصائص كل من الطريقين[1].

وفي الفترة بين ١٩٣٩-١٩٤٥م دخلت الدعوة طورا جديدا، من حيث علاقاتها بالسياسة، وزيادة النشاط، وتحقيق البرامج الواسعة، وانظم إليها عنصر جديد من شباب جامعتي القاهرة، والجامعة الأزهرية، ومختلف الطوائف العمالية والمهنية، من عمال وتجار وصناع، وأصحاب أعمال ومهندسين وأطباء ومدرسين ومحامين، وأصبح المنتمون لها يمثلون سائر طوائف المجتمع المصري.

وضربوا في النشاط الاقتصادي بسهم وافر، وأقبلوا على النشاط الرياضي والكشفي، وانتظمت أعمالهم في الفروع التي عمت القطر وأصبحوا قوة يحسب لها كل حساب[2].

وتجاوز نشاط الجماعة القطر المصري إلى بعض البلاد الإسلامية، حيث أوفد البنا مبعوثين إلى فلسطين وسوريا ولبنان لنشر الدعوة في هذه الأقطار والاتصال بالهيئات الإسلامية هناك[3].

---

[1] انظر الإخوان المسلمون والمجتمع المصري، محمد شوقي زكي ص (٢١-٢٤) ط (٢) ١٤٠١هـ دار الأنصار

[2] المرجع السابق ص (٢٥)

[3] انظر مذكرات الدعوة والداعية ص (٢٣٠) وما بعدها

وبعد أن اكتملت الأسس الفكرية للدعوة والروابط الإدارية، وصار للجماعة وزن شعبي ظاهر، دعا البنا الإخوان المسلمين إلى الجهاد العملي، ومطالبة الأحزاب والهيئات الحكومية الالتزام بالإسلام[١].

وبعد أن اشتد عود الدعوة وقوي ساعدها وبرزت على مسرح الحياة المصرية، أدرك البنا أن أعداء الدعوة التقليديين وهم المستعمرون الإنجليز والمتعاونون معهم من الحكام المصريين ــ الذين هم اليد التي يبطش بهاالمستعمرــ للدعوة بالمرصاد، وأن الدعوة يجب أن لاتكون لقمة سائغة في فم أعدائها، فكان ذلك حافزا على سرعة الاستعداد لتكوين النظام الخاص وذلك عام ١٩٤٠م، حيث دعا البنا خمسة من أتباعه وعرض عليهم الدواعي التي رآها تقتضي الاستعداد وإنشاء نظام خاص تواجه به الدعوة مسؤولياتها في المستقبل وأقنعهم برأيه وعهد إليهم بإنشائه وتنظيمه وتدريبه على أن يكون على أساس من العسكرية الإسلامية، وعلى أن يحاط بالسرية المطلقة، لايعرف عنه أحد شيئا إلا أعضاؤه[٢].

كان الإخوان يعتقدون أن حصولهم على مقعد واحد في مجلس النواب كفيل بأن يؤثر في هذا المجلس، لهذا اتخذ الإخوان قرارا بترشيح البنا عن دائرة الإسماعيلية في الانتخابات التي أعلنت حكومة الوفد إجراءها سنة ١٩٤٢م، ولم يكد يذاع خبر ترشيح البنا نفسه حتى اتصل به رئيس الحكومة المصرية مصطفى النحاس باشا، وطلب منه أن يتنازل عن الترشيح إن كان يريد الإبقاء على جماعة الإخوان المسلمين، وعدم نفي زعمائها خارج القطر، مما اضطر البنا لسحب ترشيحه[٣].

وفي عام ١٩٤٤م قرر الإخوان دخول الانتخابات بترشيح البنا في دائرة الإسماعيلية، وترشيح عدد آخر من الإخوان في دوائر مختلفة.

لكن الإنجليز اتفقوا مع الحكومة المصرية على الحيلولة دون وصول ناخبي الإخوان إلى صناديق الاقتراع مما أدى إلى الحيلولة بين الإخوان والوصول إلى البرلمان.

---

[١] انظر نظرات في منهج الإخوان المسلمين ص (١٩)

[٢] انظرالإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ رؤية من الداخل محمود عبد الحليم (١/٢٥٨-٢٦٢) دارالدعوة

[٣] المرجع السابق ص (٢٩٤-٢٩٦)

دور الإخوان في المعركة ضد اليهود:

واشترك الإخوان في المعركة ضد اليهود في فلسطين تحت إشراف الجامعة العربية، وأتاح لهم هذا الاشتراك المسلح التمرن على القتال، كما كشف عن مدى استعدادهم الحربي، ومدى نفوذهم، وخشيت حكومة النقراشي سلطتهم، فاغتنمت فرصة وقوع حوادث عنف داخل القطر، واتهمتهم بأن لهم ضلعا فيها، وأنهم ينوون إحداث انقلاب، فأصدرت أمرا عسكريا في٨ ديسمبر ١٩٤٨م بحل جماعة الإخوان وشعبها أينما وجدت، وبغلق الأماكن المخصصة لنشاطها.

وحاول البنا أن يسوي الموقف لكنه لم يجد من النقراشي وحكومته أدنى استعداد، حتى قضى مقتل النقراشي على هذه المحاولات، إذ اُتهم الإخوان بقتله فزاد الموقف حرجا بينهم وبين الحكومة[١].

مقتل البنا:

في ١٢ فبراير ١٩٤٩م وفي أكبر ميادين القاهرة أمام دار الشبان المسلمين أطلق الرصاص على البنا فجرح ونقل إلى المستشفى لإسعافه، وأعطيت الأوامر المشددة للمستشفى بأن يدع البنا يترف حتى يموت وقد وقع الحادث في الثامنة مساء، ولفظ آخر أنفاسه في الثانية عشر والنصف، بعد منتصف الليل[٢].

الإخوان المسلمون بعد حسن البنا:

بعد اغتيال حسن البنا بدأت الجماعة تبحث عن مرشد يتولى قيادها، فانتخبت الجماعة سنة ١٩٥٠م المستشار حسن الهضيبي[٣] مرشدا عاما لها، واستأنفت نشاطها من جديد، فخاضت غمار السياسة مرة أخرى، وجربت لعبة الإنقلابات بعد فشل الإنتخابات وتحركت من خلال جناحها العسكري، الذي استطاع جمال عبدالناصر أن

---

[١] الإخوان المسلمون والمجتمع المصري ص (٣٢-٣٣)

[٢] انظر الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية، د. صادق أمين ص (١٣٦-١٣٧) دار التوزيع والنشر الإسلامية

[٣] المستشار حسن الهضيبي ولد في عرب الصوالحة مركز شبين القناطر بمصر سنة ١٣٠٣هـ وولي القضاء في مدينة أسيوط ثم كان مستشارا قضائيا، اختير مرشدا عاما للإخوان بعد مقتل حسن البنا، سجن في عهد عبد الناصر ثم أفرج عنه بعد وفاته فأقام في داره بالقاهرة إلى أن توفي سنة ١٣٩٣هـ انظر الأعلام للزركلي (٢/٢٢٥) و قراءة في كتاب دعاة لا قضاة، نشر مركز بحوث تطبيق الشريعة بباكستان ص(٣)

يسرق ولاءه، ونفذ انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، ومالبث عبدالناصر أن أوقع بالجماعة حيث زج بأعضائها بالمعتقلات وأعدم بعضهم.

وفي عام ١٩٥٨م تحركت بعض الشخصيات من خارج المعتقلات لإعادة تنظيم الجماعة سرا، ثم كشف نشاط هذا التنظيم وزج بالجماعة مرة ثالثة بالمعتقلات.

وفي محاكمات سنة ١٩٦٦م حكم على فئة منهم بالإعدام ومكث من بقي منهم في السجن حتى توفي عبدالناصر.

وفي عهد السادات تم الإفراج عنهم على مراحل.

وبعد وفاة الأستاذ حسن الهضيبي سنة ١٩٧٣م اختير الأستاذ عمر التلمساني، الذي سلك بالإخوان طريقا يجنبهم المصادمات مع الحكومات، وكرر دائما أن الدعوة ينبغي أن تعمل بالحكمة وأن تنبذ العنف.

وبعد وفاة التلمساني في ٢٢ مايو ١٩٨٦م اختير الاستاذ محمد حامد أبو النصر مرشدا، وسار على طريقة التلمساني وأسلوبه إلى أن توفي في ١٤١٦/٩/٢٨هـ فاختير الأستاذ حسن مشهور رئيسا للجماعة ولازال يتولى مهمة المرشد إلى الآن[1].

خصائص دعوة الإخوان المسلمين:

تميزت دعوة الإخوان المسلمين بشمولها لكل الإتجاهات المعاصرة، ومن قراءة رسائل مؤسسها الشيخ البنا يتضح أنه كان لديه الرغبة في التوفيق بين الأطراف المتنازعة وحل التناقضات بين الاتجاهات الإسلامية المختلفة مهما كان مدى التباين بين الآراء كبيرا.

ففي رسالة المؤتمر الخامس يقول البنا: كان من نتيجة هذا الفهم الشامل للإسلام عند الإخوان المسلمين أن شملت فكرتهم كل نواحي الإصلاح في الأمة، وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر الإصلاحية، وأصبح كل مخلص غيور يجد فيها أمنيته وتستطيع أن تقول ولاحرج عليك إن الإخوان المسلمين:

١- دعوة سلفية: لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسولهﷺ.

---

[1] انظر الإخوان المسلمين أحداث صنعت التاريخ ج (٢) ص (٤٥١) ونظرات في منهج الإخوان المسلمين ص(١١٧-١١٨) والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص (٢٤-٢٥) نشر، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ط ١٤٠٩هـ

٢- وطريقة سنية: لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات، ماوجدوا إلى ذلك سبيلا.

٣- وحقيقة صوفية: لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

٤- وهيئة سياسية: لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل، وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة، والحرص على قوميته إلى أبعد حد.

٥- وجماعة رياضية: لأنهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وأن النبي ﷺ يقول: (إن لبدنك عليك حقا)[١].

٦- ورابطة علمية ثقافية: لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

٧- وشركة اقتصادية: لأن الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه.

٨- وفكرة اجتماعية: لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي، ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها[٢].

وقد أورد البنا الخصائص السابقة في سياق المعاني الإصلاحية التي تضمنتها دعوة الإخوان المسلمين ثم أورد خصائص أخرى للجماعة تحت عنوان: بعض خصائص دعوة الإخوان المسلمين.

فقال بعد ذكر الظروف التي نشأت فيها دعوة الإخوان المسلمين في الإسماعلية: فكان من هذه الظروف أن تميزت هذه الدعوة بخصائص خالفت فيها كثيرا من الدعوا ت التي عاصرتها.

---

[١] جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، و لم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له رقم الحديث (١٩٦٨) بلفظ (فإن لجسدك عليك حقا)ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم، رقم الحديث (١١٥٩) وفي موضع آخر من صحيح البخاري (٦١٣٩) بلفظ (ولنفسك عليك حقا)

[٢] مجموعة الرسائل ص (١٥٥-١٥٧)

ومن هذه الخصائص[1]:

١- البعد عن مواطن الخلاف:

يقول البنا: فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهي فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف في الفرعيات أمر ضروري لابد منه، إذ أن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام، لهذا كان الخلاف واقعا بين الصحابة أنفسهم، ومازال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة.

ويعلل البنا هذه السياسة بقوله: وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة تريد أن تنشر فكرة في بلدلم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف، على أمور لامعنى للجدل ولا للخلاف فيها[2].

ولذلك يرى البنا أن من أسباب منع الخلاف أو تخفيفه، أن رأي الإمام أو نائبه فيما لانص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة وفي المصالح المرسلة، معمول به مالم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات[3].

٢- البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان:

بين البنا السبب في هذه السياسة فقال: وأما البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان فلانصرافهم عن هذه الدعوات الناشئة المجردة عن الغايات والأهواء، إلى الدعوات القائمة.

ويبين البنا أن سبب هذه السياسة هو: خشية أن يستغل هؤلاء الكبراء الدعوة للترويج لدعواهم أو يوجهوها في غير الغاية التي تقصد إليها.

٣- البعد عن الهيئات والأحزاب:

ويبين البنا السبب الذي جعل الجماعة تختار هذه السياسة بأنه: لما بين هذه الهيئات من التنافر والتناحر الذي لايتفق مع أخوة الإسلام.

لكن البعد عن هيمنة الكبراء الهيئات والأحزاب سياسة مرحلية حرص عليها البنا

---

[1] المرجع السابق ص (١٥٧)

[2] المرجع السابق ص (١٥٨)

[3] مجموعة الرسائل ص (٢٦٩)

في بداية الدعوة، سرعان ماتحول عنها بعد أن اشتد ساعد الدعوة وصَلُب عودُها.

يقول البنا: ونحن الآن وقد اشتد ساعد الدعوة وصلب عودها وأصبحت تستطيع أن توجِه ولاتوجَه وأن تؤثر ولاتتأثر، نهيب بالكبراء والأعيان والهيئـــات والأحـــزاب أن ينظموا إلينا وأن يسلكوا سبيلنا ويعملوا معنا.

٤- التدرج في الخطوات:

يبين البنا هذه السياسة بأن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث هي:

أ- مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة.

ب- ثم مرحلة التكوين وتخيرالأنصار.

جـ: ثم مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج[١].

وسائل الجماعة إلى تحقيق أهدافها:

يقول البنا: إن الخطب والأقوال والمكاتبات والدروس والمحاضرات وتشخيص الــداء ووصف الدواء، كل ذلك وحده لايجدي نفعا ولايحقق غاية ولايصـــــل بـــالداعين إلى هدف من الأهداف، ولكن للدعوات وسائل لابد من الأخذ بها والعمل بها، والوســائل العامة للدعوات لاتتغير ولاتتبدل ولاتعدو هذه الأمور الثلاثة:

١- الإيمان العميق.

٢- التكوين الدقيق.

٣- العمل المتواصل.

وتلك هي وسائلكم العامة أيها الإخوان فآمنوا بفكرتكم وتجمعوا حولها واعملوا لهــا واثبتوا عليها[٢].

الإخوان والقوة والثورة:

يقول البنا: ويتسائل كثير من الناس: هل في عزم الإخوان المسليمن أن يســـــتخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟ وهل يفكر الإخـــــوان المســـلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسي أو النظام الاجتماعي في مصر؟ ولا أريد أن أدع

---

[١] مجموعة الرسائل ص (١٥٨-١٦٠)

[٢] المرجع السابق ص (١٤٢)

هؤلاء في حيرة، بل إني أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهـذا في وضوح وفي جلاء، فليسمع من يشاء.

أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، وأول درجة من درجات القـوة، قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قـوة السـاعد والسلاح.

أما الثورة فلايفكر الإخوان المسلمون فيها ولايعتمدون عليها، ولايؤمنـون بنفعـها ونتائجها[1].

وإجابة على سؤال: هل في منهاج الإخوان المسلمين أن يكوّنوا حكومة، وأن يطالبوا بالحكم؟ يقول البنا: وهذا الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعـل الحكومـة ركنا من أركانه.

والحكم بمنهاج إسلامي قرآني: فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا فـالحكم من منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لاتنفذ أوامر الله.

وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم ونفوس الأمة علـى هذا الحال، فلا بد من فترة تنشر فيها مبادئ الإخوان وتسود، ويتعلم فيـها الشـعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة[2].

العقائد:

يقول البنا في تعريف العقائد: هي الأمور التي يجب أن يصدق بها قلبـك، وتطمئـن إليها نفسك، وتكون يقينا عندك لايمازجه ريب، ولايخالطه شك، وبعد أن يبين درجات الناس في الاعتقاد يقول: إذا علمت هذا فاعلم أن الناس أمام العقائد الدينية أقسـام: منهم من تلقاها تلقينا، واعتقدها عادة، وهذا لايؤمن عليه من أن يتشكك إذا عرضـت له الشبهات، ومنهم من نظر وفكر فازداد إيمانه وقوي يقينه.

ومنهم من أدام النظروأعمل الفكر واستعان بطاعة الله تعالى وامتثال أمره، وإحسـان

---

[1] مجموعة الرسائل ص (١٦٨-١٦٨)

[2] المرجع السابق ص (١٧٠-١٧١)

عبادته، فأشرقت مصابيح الهداية في قلبه[1].

ويرى الإخوان المسلمون أن أساس الوحدة العقائدية والفكرية، هو ماجاء في الأصول العشرين للركن الأول من أركان البيعة العشرة التي وضعها الإمام البنا وهو ركن الفهم الذي يقول عنه البنا: إنما أريد بالفهم: أن تفهم بأن فكرتنا إسلامية صحيحة، وأن نفهم الإسلام كما نفهمه في حدود الأصول العشرين[2].

يقول الأستاذ محمد عبدالحكيم خيال: والمصدر الذي يجب أن نستقي منه فهمنا للأسس العقائدية والفكرية، هو المصدر الذي انطلقت منه هذه الدعوة حين انطلق بها أول مرة وبعثها في عصرنا الحديث الإمام الشهيد حسن البنا فحدد لنا أهدافها ووسائلها، والطريق الذي يجب أن نسير فيه، ويزيد.الأمر إيضاحا فيقول: وقد وضع الإمام البنا أصولاً عشرين لركن الفهم – وهو الركن الأول من أركان البيعة – أوجز فيها عناصر دستور هذه الوحدة العقائدية والفكرية المطلوبة لدعاة الإسلام والعاملين له، ليدفع عنهم غوائل الفرقة والاختلاف ......، وقد شدد فضيلته في هذه الأصول على ما لا يجوز الخلاف فيه من أمور العقيدة كما جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة لكي يلتزم بها الأخ المسلم ولايتجاوزها بالزيادة أو النقصان كما بين المسائل التي يجوز فيها الخلاف حتى لاتكون هناك أية غرابة من وقوع هذا الخلاف ليكون في ذلك سبيلا لتعاون الدعاة في المتفق عليه وليعذر بعضهم بعضا في المختلف فيه [3].

وإليك بعض الأصول التي اشتمل عليها ركن الفهم، مما له علاقة بالعقيدة، يقول البنا في الأصل الرابع من ركن الفهم: والتمائم والرقى والودع والرمْل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ماكان من هذا الباب، منكر يجب محاربته (إلا ماكان من آية قرآن أو رقية مأثورة).

في الأصل الحادي عشر يقول البنا: وكل بدعة في دين الله لاأصل لها استحسنها الناس بأهوائهم، سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه، ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها

---

[1] رسالة التعاليم ص (٢٩٢-٢٩٣)

[2] مجموعة الرسائل ص (٢٦٨)

[3] شرح وتحليل الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا، محمد عبد الحكيم خيال ص (٣٠-٣٢) دار الدعوة، الإسكندرية

بأفضل الوسائل التي لاتؤدي إلى ماهو شر منها.

وفي الأصل الثاني عشر يقول: والبدعة الإضافية والتركية والإلتزام في العبادات المطلقة، خلاف فقهي لكل فيه رأيه.

وفي الأصل الثالث عشر يقول: ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم، قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لايملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

وفي الأصل الرابع عشر يقول: وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب، أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها، والحلف بغير الله ومايلحق بذلك من المبتدعات، كبائر تجب محاربتها ولانتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة.

وفي الأصل الخامس عشر يقول: والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

وفي الأصل العاشر يقول: معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه، أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة ومايليق بذلك من التشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولاتعطيل، ولانتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء.

ويسعنا ماوسع رسول الله ﷺ وأصحابه[1].

مجمل صفات الله في القرآن:

يقول البنا: أشارت آيات القرآن الكريم إلى بعض الصفات الواجبة لله تعالى، والتي يقتضيها كمال الألوهية[2].

---

[1] مجموعة الرسائل ص (٢٦٨-٢٧٠)

[2] المرجع السابق ص (٣٠٧)

وبعد أن أورد البنا مجموعة من الآيات التي تدل على الصفات قال: إلى غير ذلك من الآيات، التي تثبت أنه تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله وتصرفاته لارب غيره ولاإله سواه[1].

وصفات الله تبارك وتعالى في القرآن كثيرة وكمالاته تبارك وتعالى لاتتناهى ولاتدرك كنهها عقول البشر[2] ثم أورد أحاديث نبوية ليبين أن صفات الله تعالى يستدل على إثباتها بالأحاديث كما يستدل على ذلك بالآيات.

ثم ذكر أقسام الناس في صفات الله تعالى.

فذكر قول المشبهة وقال عنهم: وهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء، وليس لقولهم نصيب من الصحة ويكفي في الرد عليهم قول الله تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[3].

وفرقة عطلت معاني هذه الألفاظ على أي وجه، ويقصدون بذلك نفي مدلولاتها مطلقا عن الله تبارك وتعالى ...... وهؤلاء هم المعطلة ولا أظن أن أحدا عنده مسكة من عقل يستسيغ هذا القول المتهافت[4].

ثم قال: هذان رأيان باطلان لا حظ لهما من النظر وبقي أمامنا رأيان، هما محل أنظار العلماء في العقائد، وهما رأي السلف ورأي الخلف.

ثم بين المراد بمذهب كل فئة فقال:

أولا: مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها.

يقول: وأما السلف فقالوا: نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى، فهم يثبتون اليد والعين والأعين والاستواء والضحك والتعجب .... الخ وكل ذلك بمعان لاندركها، ونترك لله تبارك وتعالى الإحاطة بعلمها.

---

(1) المرجع السابق ص (٣١١)

(2) المرجع السابق ص (٣١٦)

(3) سورة الشورى (١١)

(4) رسالة التعاليم ص (٣٢٤-٣٢٥)

ثانيا: مذهب الخلف في آيات الصفات وأحاديثها:

وقال: فأما الخلف فقد قالوا:إننا نقطع بأن معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لايراد بها ظاهرها، وعلى ذلك فهي مجازات لامانع من تأويلها فأخذوا يؤلون (الوجه) الذات و (اليد) بالقدرة وما إلى ذلك، هربا من شبهة التشبيه[١].

وبعد استعراض البنا لقول السلف ونقل أقوالهم، واستعراضه لقول الخلف وذكر حججهم، يرى البنا أن الفرق بين هذين المنهجين لايحتمل الخُلفَ بين الطريقين لو ترك أهل كل منهما التطرف والغلو، ثم يرى البنا أنه لامخرج من الخلاف بين الطريقتين إلا بالقول بالتفويض لأنه يرى أن الفريقين قد اتفقا على تتريه الله تبارك وتعالى عن مشابهة خلقه، وأنهما قد اتفقا أيضا على أن المراد بألفاظ هذه النصوص غير ظواهرها التي وضعت لها هذه الألفاظ في حق المخلوقات.

ثم يقول: ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالإتباع.

وخلاصة هذا البحث أن السلف والخلف قد اتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق، وهو تأويل في الجملة، واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع، وهو هين كما ترى، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم، وأهم مايجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة، مااستطعنا إلى ذلك سبيلا[٢].

موقف الجماعة من الدعوات الأخرى:

يقول البنا: وموقفنا من الدعوات المختلفة التي طغت في هذا العصر ففرقت القلوب وبلبلت الأفكار أن نزنها بميزان دعوتنا فما وافقها فمرحبا به وماخالفها فنحن براء منه، ونحن مؤمنون بأن دعوتنا عامة محيطة لاتغادر جزءا صالحا من أية دعوة إلا ألمت به وأشارت إليه[٣].

---

[١] المرجع السابق ص (٣٢٥-٣٢٧)

[٢] المرجع السابق ص (٣٢٥-٣٣١)

[٣] مجموعة الرسائل ص (١٧)

وفي مذكرات الدعوة والداعية يقول البنا: موقفنا من الدعوات في هذا البلد دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، بناء على طبيعة دعوتنا موقف واحد على ما أعتقد نتمنى لها جميعا الخير وندعو لها بالتوفيق، وإن خير طريق نسلكه ألا يشغلنا الإلتفات إلى غيرنا، عن الإلتفات إلى أنفسنا ..... وستسمعون أن قوما يريدون أن يتصلوا بكم وأن تتصلوا بهم من أهل العمل إما صادقين أو غير صادقين، فأحب أن أقول لكم هنا بكل وضوح إن دعوتكم هذه أسمى دعوة عرفتها الإنسانية، وإنكم ورثة رسول الله ﷺ وخلفاؤه على قرآن ربه وأمناؤه على شريعته وعصابته التي وقفت كل شيء على إحياء الإسلام في وقت تصرفت فيه الأهواء والشهوات وضعفت عن هذا العبء الكواهل، وإذا كنتم كذلك فدعوتكم أحق أن يأتيها الناس ولاتأتي هي، وتستغني عن غيرها، إذ هي جماع كل خير وما عداها لايسلم من النقص، إذا فأقبلوا على شأنكم ولاتساوموا على منهاجكم واعرضوه على الناس في عز وقوة فمن مد لكم يده على أساسه فأهلا ومرحبا، في وضح الصبح وفلق الفجر وضوء النهار، أخ لكم يعمل معكم ويؤمن إيمانكم وينفذ تعاليمكم، ومن أبى ذلك فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه[1].

---

[1] مذكرات الدعوة والداعية ص (٢٦٢-٢٦٣)

٣- جماعة التبليغ:

إن الحديث عن جماعة التبليغ لايكتمل إلا بمعرفة شخصية مؤسس هـذه الجماعة، ومنهجه في الدعوة، ودراسة ظروف العصر التي عاشها، والتيارات الفكرية المتصارعة إبان قيام الدعوة، والبيئة العلمية الخاصة بالمؤسس، والظروف الاجتماعية التي مرت بالمدعوين.

ولاشك أن صياغة المبادئ والمناهج التي وضعها المؤسس قد جاءت مراعية لما تقدم من أمور.

مؤسس الجماعة:

مؤسس هذه الجماعة هو محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي، وكان له اسم آخر هو: أختر إلياس بن محمد إسماعيل الجهنجهاوي.

فهو الكاندهلوي نسبة إلى كاندهلة، مدينة تقع بمديرية (مظفر نكر) بالهند التي ولد بها عام ١٣٠٣هـ.

والجهنجهانوي نسبة إلى قرية جهنهانه التي تقع غرب الولاية لشمالية بمديرية (مظفر نكر) في الهند والتي ولد بها الشيخ محمد إسماعيل، والد الشيخ محمد إلياس.

والدهلوي نسبة إلى مدينة (دهلي) التي اتخذها الشيخ محمد إسماعيل والد الشيخ محمد إلياس سكنا، حين اختاره ميرزا إلهي بخش أحد أقرباء الملك بهادر شاه[1] - آخر إمبراطور للأسرة المغولية والمسلمين في الهند - مدرسا لأبنائه، ثم انتقلا جميعا إلى قرية نظام الدين قرب دهلي واتخذاها سكنا.

وقد تربى محمد إلياس عند أبيه في قرية نظام الدين بدهلي، واتخذها مقرا لدعوته إلى أن توفي بها عام ١٣٦٤هـ ومن هنا اشتهر ت نسبته هو وأولاده إلى مدينة دهلي[2].

---

[1] الملك بهادر شاه آخر إمبراطور الأسرة المغولية، بعد القضاء على الإمبراطورية المغولية في الهند أمعن الإنجليز في قتل أفراد الأسرة الملكية والتنكيل بهم، ونفوا بهادرشاه إلى بورما، انظر الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة ص (٣٤)

[2] انظر الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص (٢٨-٣٥) عبد الخالق بيرزادة الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ مكتبة الآداب، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والمعاصرة ص(١١٥)

نشأته وشيوخه:

نشأ الشيخ محمد إلياس في أسرة اهتم أفرادها بالعلم والتعليم واشتغل أجـــداده في شتى نواحي العلم والمعرفة وكان فيهم من تولى القضاء والتأليف والدعوة والجهاد.

وكان والده الشيخ محمد إسماعيل أحد علماء الهند وقد عمل بـــالوعظ والإرشـــاد والتدريس وعين معلما لبعض أفراد الأسرة الملكية، وأسس مدرسة دينية في قرية نظـــام الدين أسماها كاشف العلوم وبدأ يدرّس فيها الطلاب من أهل القرية ومن وفـــد مـــن خارجها، ويوفر للمحتاجين منهم الطعام والمأوى بمساعدة ميرزا إلهي بخش.

وقد نجح الشيخ محمد إسماعيل في التأثير على أهل منطقة (ميوات) الذيـــن فضلـــوا الاشتغال بتحصيل لقمة العيش على معرفة أمور دينهم حتى اندرست تعاليم الديـــن في نفوسهم ولم يبقى لديهم إلامجرد الانتساب إلى الإسلام مع جهل شبه تام بتعاليمه، ممـــا يعني أن استمالتهم إليه أمر في غاية الصعوبة.

فماكان من الشيخ محمد إسماعيل إلا أن عرض على بعض العمال من أهل (ميـــوات) وهم في طريقهم إلى (دهلي) للعمل، أن يتفرغوا للصلاة وتلقي العلوم الإسلامية علـــى يديه، ويعطيهم الأجور التي يحصلون عليها مقابل عملهم في (دهلي) فما كان منـــهم إلا الترحيب بهذا العرض المغري، وأمضوا فترة من الزمن في التربية والتعليم مع الحصـــول على الرواتب المتفق عليها.

لكن ثمار هذه التربية قد آتت أكلها سريعا حيث رفض العمال الأجر المتفـــق عليـــه وقرروا مواصلة التعليم بدون مقابل، فكانت هذه نواة مدرسة كاشف العلـــوم الـــتي أسسها الشيخ محمد إسماعيل والتي صارت فيما بعد أكبر مركز للدعوة والتبليغ في شبه القارة الهندية[1].

وقد بدأ الشيخ محمد إلياس رحلته العلمية تحت إشراف والده، حيث حفظ القـــرآن الكريم على يديه ودرس عليه أيضا الكتب الأولية في اللغتين الفارسية والعربية ثم رحـــل فيما بين عامي ١٣١٤- ١٣١٥هـ إلى جنجوه، والتحق بمدرستها التي يشرف عليـــها

---

(١) الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(٤٩-٥٣)

الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي[١] ويدرّس بها أخوه الأكبر الشيخ محمد يحيى[٢].

وأصبح الشيخ محمد إلياس من أقرب تلامذة الشيخ الجنجوهي إليه، وطلب المبايعة على يديه، ومع أن الشيخ لايعطي بيعة للطلاب الصغار، لكنه لم يرفض مبايعة محمد إلياس لما رأى منه من حرص على طلب العلم [٣].

وفي جنجوه بدأ الشيخ محمد إلياس بالعلم والتعليم في آن واحد حيث كان يتعلم على يد أخيه الكتب المتوسطة ويدرّس الطلاب الكتب الابتدائية.

وفي عام ١٣٢٣هـ توفي شيخه رشيد أحمد الجنجوهي وكان قد ناهز العشرين من العمر.

وقد توقف عن التعليم بعد ذلك بسبب تدهور حالته الصحية، وكان يصاب بصداع حاد وضعف لايستطيع معه السجود، واستمر معه المرض اثنتا عشرة سنة، نصحه خلالها شيوخه بالتوقف عن تحصيل العلم، لكنه أصر على مواصلة الطلب.

وقد تركت وفاة شيخه الجنجوهي في نفسه أثرا عميقا لاينساه حيث يقول: إن الأحداث المفجعة التي وقعت في حياتي ليست سوى موت والدي وحادثة وفاة الشيخ الجنجوهي، وما حزنت في حياتي على شيئ أكثر من هذين الحادثين.

وبعد أن تحسنت حالته الصحية ارتحل إلى دار العلوم بديوبند لتكملة دراسة علوم الحديث، فدرس صحيح البخاري وسنن الترمذي على يد الشيخ محمود الحسن[٤]، ثم ارتحل إلى مدينة سهارنفور، والتحق بمدرسة مظاهر العلوم ليكمل دراسة جميع كتب الحديث المتداولة، وأعاد قراءتها على يد أخيه الشيخ محمد يحيى[٥].

---

[١] الشيخ رشيد أحمد بن هداية الله الجنجوهي نسبة إلى جنجوه بمديرية سهارن فور بالهند، أحد أعلام الحنفية وأئمتهم في الفقه والتصوف، كان مشرفا على جامعة ديوبند، توفي عام ١٣٢٣هـ انظر الشيخ محمد إلياس حياته ومنهجه ص (٦٣–٦٩) ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه القارة الهندية بين مؤيديها ومعارضيها ص (١٦٠) تأليف أبو المكرم بن عبد الجليل السلفي، نشر مكتبة دار السلام ط ١٤١٣هـ

[٢] محمد يحيى بن محمد إسماعيل الأخ الأكبر للشيخ محمد إلياس، كان رئيس قسم الأدب العربي في جامعة سهارنفور، توفي سنة ١٣٣٤هـ انظر الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة ص (٧٧،٩٠)

[٣] الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(٧٥)

[٤] هو الشيخ محمود الحسن ابن الشيخ ذو الفقار ولد سنة ١٨٥٠م في مدينة بريلي، كان رئيسا لهيئة التدريس ومشرفا عاما لدار العلوم بديوبند، وكان قائدا لحركة تحرير الهند. انظر الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة ص(٩٠–٩١، ٩٦هـ)

[٥] انظر المرجع السابق ص(٥٦-٦١)

وتلقى محمد إلياس التصوف والتربية على يد الشيخ خليل أحمد السهارنفوري[١]، وبويع على يده بأمر الشيخ محمود الحسن.

ومن الجدير بالذكر أن شيخه محمود الحسن قد نال شهادة الحديث في الحجاز على يد قاضي مكة زيني دحلان[٢]، حين رحل إلى الحجاز عام ١٢٩٣هـ واستمر محمد إلياس ملازما للشيخ خليل ورافقه إلى الحج عام ١٣٣٣هـ، وفي عام ١٣٤٤هـ، وفي الرحلة الأخيرة زعم أنه طرأت عليه حالة من الاستغراق أثناء إقامته بالمدينة المنورة ورفض العودة إلى الهند، ولما علم بذلك شيخه خليل بذلك قال: اتركوه على حاله ولاتجبروه فإنها حالة الاستغراق ومقام الفناء في حبه ﷺ[٣].

وعن هذا يقول محمد إلياس: لقد أمرتُ بالدعوة أثناء تلك الفترة في المدينة المنورة [٤].

التحديات التي واجهت المسلمين في شبه القارة الهندية:

لابد من معرفة التيارات الفكرية المختلفة التي عايشها محمدإلياس والظروف التي أحاطت به والمجتمع الذي عاش بين أفراده، لأن هذه العوامل مجتمعة قد أثرت على شخصيته وتسببت في تغيير مجرى حياته إلى أن بدأ دعوته.

فقد عاش الشيخ محمد إلياس وسط ظروف قاسية أثرت في حياته وشخصيته، وجعلته يتحول من فكرة نشر المدارس الدينية إلى دعم حركة الإيمان ونشر الدعوة إلى الله، فقد تم الاستيلاء على الهند سياسيا في بداية القرن التاسع الميلادي وبالتحديد عام ١٨٥٧م وبذلك زالت إحدى الدول الإسلامية الكبرى، وهي دولة المغول الإسلامية

---

[١] الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ولد في مدينة أنبيتهة (جنوب سهارنفور)، كان مدرسا في مظاهر العلوم ثم اختير أستاذا في دار العلوم بديوبند ثم انتقل إلى مظاهر العلوم وتولى رئاسة التدريس فيها إلى أن غادرها، توفي سنة ١٣٤٦هـ، من مؤلفاته (بذل المجهود في شرح سنن أبي داود) انظر الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة ص(٩٩-١٠٣) و دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه القارة الهندية ص(١٣٥)

[٢] أحمد بن زيني دحلان، ولد بمكة وتولى فيها دار الإفتاء والتدريس، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة فطبع فيها بعض كتبه، قيل إنه رافضي، لكنه أخفى مذهبه وتسمى بتقليد أحد الأئمة الأربعة، توفي بالمدينة سنة ١٣٠٤هـ. انظر الأعلام للزركلي(١٢٩/١) ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص(٥١) تأليف: عبد العزيز العبد اللطيف، نشر: دار الوطن، ط(١) ١٤١٢هـ

[٣] انظر المرجع السابق ص(١٠١-١٠٤)

[٤] المرجع السابق ص (٩٧)

في الهند، وفي نفس العام أتم الفرنسيون استيلاءهم على الجزائر التي بدأوا غزوها عام ١٨٣٠م، وتمكن الاستعمار الغربي من السيطرة التامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقها، وطوقوا العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، وسلط الاستعمار ألاعيبه ودسائسه على بعض المجتمعات الإسلامية، فوهنت هذه المجتمعات وانحل عقدها وسقط بعضها إثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي، وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى أجلها، إلا وأصبح معظم العالم الإسلامي تحت نفوذ المستعمر[1].

عاش محمد إلياس تلك الفترة، والبلاد الإسلامية تعيش هذه الظروف القاسية والأحوال المريرة، وواجه المسلمون من الحركات الهدامة والعدواة الشرسة التي استهدفت الهوية الإسلامية وزلزلت الشخصية الإسلامية، لا في شبه القارة الهندية فحسب بل في شتى بقاع العالم الإسلامي، ولم يقتصر تخلف المسلمين على ناحية من النواحي، بل شمل الناحية السياسية والعلمية والأخلاقية والاقتصادية.

وواجه المسلمون في شبه القارة الهندية موجة من التحدي السافر، ووجد أعداء الإسلام الإنجليز وحلفاؤهم الهندوس الفرصة مواتية للكيد للإسلام والتشفي من المسلمين، وكان السبيل إلى تحقيق هذا الهدف، التحرك باسم القومية الهندوسية، وأصبح المسلمون أمام خيارين أحلاهما مر، فإما إعتناق الهندوسية، وإما الخروج من الهند، ومن أبى هذين الخيارين فما أمامه إلا القتل.

في ظل هذه الظروف العصيبة، لم يقف المسلمون مكتوفي الأيدي لاسيما العلماء وقادة الفكر منهم.

وتدرج العمل الذي قاموا به حسب الظروف والإمكانات المتاحة، بين العمل الجهادي المسلح، والعمل السياسي، والعمل الفكري، وانقسم علماء الهند إلى إتجاهات عدة تتفق في أهدافها، وتختلف في وسائلها، وذلك عن طريق تأسيس الجمعيات والأحزاب وإنشاء المدارس والجامعات الدينية، أو قطع العلاقات مع الاستعمار، واستقر رأي زعماء المسلمين في الهند أخيرا على نهج سياسة جديدة قوامها الحرب

---

[1] انظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص(٢٩-٣٠) د. محمد البهي الطبعة السادسة ١٩٧٣م دار الفكر

الفكرية[1].

واختار محمد إلياس التربية للمجتمع الإسلامي، قبل الاستيلاء على مقاليد الحكم، سبيلا لمنهجه الإصلاحي، فهو يرى أن تربية الملك على الإسلام لاتكفي في نظره، لأنه إذا مات الملك الصالح عاد المجتمع كما كان عليه.

ويرى أن طريق الثورات العنيفة تؤدي دائما إلى الفشل، وإذا نجحت فلمدة وجيزة، حتى تقهرها العناصر المعادية فتلهيها بالصراع على السلطة والاحتفاظ بها عن ممارسة دورها في الإصلاح.

لكن إذا أصلح الفرد نفسه ومجتمعه فستنبت منه القيادة الإسلامية التي لاتزول ولاتنهار، ولايتغير وضع الدولة الإسلامية بموت واحد من الملوك أوالأمراء المسلمين، ولهذا كان يصر على أنه لابد من تربية العامة تربية إسلامية كاملة حتى يصلح المجتمع كله[2].

ويرى أن السبب الوحيد في كل ما يعانيه المسلمون من الاضطراب والخلاف هو السياسة الفاشلة، خاصة في شبه القارة الهندية، لأن المسلمين قد بدأوا في العصور الأخيرة، اتباع منهج السياسة قبل الدعوة بأن صبغوا الأمور الدينية بصبغة السياسة الغربية، وحاولوا أن يأخذوا طرقها وأساليب تنظيمها وإدارتها، وقد أدت تلك الطرق والأساليب إلى نشر الأفكار الغربية التي لن تمكن المسلمين في شبه القارة الهندية من إقامة الحكم الإسلامي الذي يسعون لتحقيقه[3].

---

[1] الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(١٢٣-١٢٨)

[2] المرجع السابق ص(١٢١-١٣٢)

[3] الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(١٣١-١٣٥)

واقع المسلمين في الهند:

من أهم الأسباب التي جعلت محمد إلياس يتحول من التدريس إلى الدعوة، ما وصلت إليه حالة المسلمين في الهند من الجهل بالإسلام حتى وصل الأمر إلى أن كثيرا منهم لايعرفون من الإسلام إلى مجرد الإنتساب إليه، وأنهم ورثوا الإسلام عن آبائهم وأجدادهم، واختار محمد إلياس منطقة (ميوات) لتكون مجالا لدعوته، ويكفي دليلا على ما وصلت إليه أحوال كثير من المسلمين من جهل بالإسلام ماذكره وحيد الدين خان عن أهل هذه المنطقة فيقول: إن قبيلة (ميو) قد أسلمت منذ قرون ولكن مع الأسف الشديد لايعرفون عن الإسلام شيئا سوى الاسم فقط، في حين يسمون أبناءهم بأسماء الوثنيين، ويطيلون جدائل رؤسهم، ويعبدون التماثيل، ويحتفلون بأيام الهندوس، ويقلدونهم في تقديم القرابين لآلهتهم وإنك لاتجد لديهم شيئا من الإسلا م، اللهم إلا عند احتفالهم بليلة القدر يرفع العلم باسم شخصية إسلامية تدعى (سيد سالارمسعود غازي) أحد قادة جيوش المسلمين في شبه القارة الهندية ثم يتجهون إلى قبره مقلدين كل أنواع الخرافات والبدع المتولدة من الجهل المطلق بالإسلام.

وإن زارهم مسلم وأدى الصلاة فهم يلتفون حوله ناظرين إليه باستغراب سائلين أنفسهم عما يفعل هذا، هل يعاني آلاما في بطنه؟ أم إنه مجنون؟ أما المهن المعروفة لديهم غير الزراعة، فهي السرقة والنهب والسلب والقتل[1].

ويقول أبو الحسن الندوي: إن قبائل الميواتيين قد بلغت أقصى درجات الجهالة التي ليس بعدها إلاالردة.

ويتحدث الندوي عما أثر في نفس الشيخ محمد إلياس من أحوال المسلمين وجهالتهم قبيل قيامه بالدعوة فيقول: من الأسباب الهامة التي أثرت على الشيخ، هذه المنطقة المسلمة التي كانت متاخمة للعاصمة (دهلي) مباشرة، ومع ذلك كانت محرومة من التعليم الإسلامي كلية، برغم ما اشتهرت قبائلها من الشجاعة والغيرة النادرة ولكنها بسبب عدم التربية السليمة، فقد وجهت تلك الميزات إلى التدمير والتخريب بدلامن

---

[1] الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص (١٤٤-١٤٥)

من البناء والتعمير، كما اشتهروا بالسرقة وقطع الطريق والنهب[١].

ويقول الشيخ إلياس إن مسلمي (ميوات) يعبدون آلهة أخرى من دون الله، وهم أقبح شركا من المشركين القدماء الذين كانوا يعبدون تماثيل مسجعة جميلة تلمع بجمالها وألوانها، وقد بلغ بهم السفه أن عبدوا روث الحيوان بغية الحصول على بركتها.

ويُقَسِّم محمد إلياس المسلمين في الهند إلى ثلاث فئات هي:

١- فئة المتدينين التي تعرف الدين وتلتزمه، ولكنها متأثرة بالبيئة الهندوسية وما يجري حولها، فغلبت عليها مؤثراتها.

٢- الفئة التي حصلت على التعليم وفق النظام الأجنبي، وتأثرت به إلى حد أنها انحرفت عن الإسلام وهي نافرة منه.

٣- عامة الناس الذين بعدوا عن الإسلام بسبب الجهل وعدم المعرفة بالدين، وإنك لاتجد أية خرافة ابتدعها الوثنيون والاستعماريون إلاوهي موجودة عند هؤلاء السذج[٢].

التحول عن التدريس:

يبرر الشيخ محمد إلياس تحوله عن التدريس بأنه لاحظ أن طائفة من العلماء قد اشتغلوا بالسياسة ضد الأحزاب السياسية المعادية للدين، وطائفة أخرى قد اشتغلوا بعرض النقد النظري لمثالب التيارات الفكرية الإلحادية، بينما هناك ناحية أخرى لم يتوجه إليها المصلحون، ألا وهي: التربية العامة للشعب، لاسيما وأن الأعداء قد اهتموا بتنظيم صفوفهم، وكانوا ينقبون خلف الأستار عن السذج لإبعادهم عن الإسلام، مستغلين ما لديهم من وسائل الإغراء، لذا فإن الحاجة ماسة لقيام جماعة قوية الإيمان تحمل العلم والحكمة، تقوم على تعليم الأسس الإسلامية لعامة الشعب وتوضح لهم أهمية الإسلام في حياة البشرية حتى لايصبح المسلم فريسة في يد الأعداء[٣].

---

[١] المرجع السابق ص(١٤٦-١٤٧)

[٢] الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(١٩٦-١٩٧)

[٣] المرجع السابق ص(٩٨ -١٩٩)

ويرى الشيخ محمد إلياس أن من أهم أسباب قيام المدارس الدينية هو الطلب والرغبة في دراسة العلوم النبوية، وأن هذا الطلب قد يقل رويدا رويدا حتى تكاد تتلاشى رغبة الدين من قلوب المسلمين.

ولو زادت الرغبة في الفساد وقلت في العلوم الدينية فما هو مصير تلك المدارس والمراكز الدينية؟[١].

وفي مثل تلك الظروف يجب علينا القيام بالدعوة حتى تزداد الرغبة في قلوب المسلمين فيختارون الوسائل السليمة للترغيب في اكتساب الأسس الدينية والتعرف عليها، وذلك بمنهج موجز يستطيع كل رجل أن يطلع عليه ويساهم فيه بسهولة مع عدم التقصير في شئون الحياة الأخرى، ولكن للأسف الشديد فإن الحركات التي تتفانى في الإصلاح لايوجد فيها رجل يملك القوة والمواهب الفذة مثل دعاة الإسلام السابقين لأن الأسلاف كانوا يضحون بأنفسهم بصورة تفوق كل تخيلات العقل، بل وتسمو فوق كل الرغبات في الحكم أو المصالح.

ولكن هل يمكن أن تكون تلك المشاعر وليدة العلوم المتداولة في المدارس بشكلها الراهن؟ أم تكون وليدة الخطب الرنانة؟ أم بتأليف الكتب وإصدار المجلات الدينية والثقافية أم بغيرها من المؤثرات الخارجية؟.

يجيب بقوله: كلا وألف كلا، لأن الشعور بالتضحية والإيثار هما وقود أية حركة إصلاحية[٢].

يقول محمد إلياس: لقد أدركت بصيرتي قبل خمسة عشر عاما أن الحركة التي تسيرعليها المكاتب والمدارس الدينية بطيئة جدا، ومعنى ذلك أن ميول الناس ورغباتهم في فتح المدارس ومساعدتها قد تنتهي بعد قليل، وأعني بذلك أن الطريق للمدارس والمراكز الدينية سيكون مغلقا تماما في المستقبل القريب، كل ذلك يحدث نتيجة لعدم فاعلية تلك المدارس والمراكز الدينية، وعدم قيامها على الوجه الأكمل [٣].

---

(١) المرجع السابق (٢٠٩)

(٢) الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(٢٠٩-٢١٠)

(٣) المرجع السابق ص(١٦٩)

نظرته إلى العلم والعمل:

يقول محمد إلياس: إن الغاية الأولى من هذا العمل ما هي إلا أن يعتقد الرجل تمام الإعتقاد بأنه قام لإصلاح نفسه، لا لإصلاح غيره، فلا يزعم أنه هاد للناس، فإن الله هو الهادي لاشريك له، أما الدعوة فإنها لا تؤثر إلا بتقديم نماذج عملية لكي تؤثر على المدعو حق التأثير المرجو.

أما الإجابة على سؤال من أين يبدأ هذا الإصلاح؟ بالعلم أم بالعمل؟ أم بهما معا؟.

فيجيب بقوله: إن كل الأعمال لاتؤتي ثمارها إلا بالإيمان واليقين الكامل، وإن البداية لابد وأن تكون بالعمل قبل العلم، لأن تحصيل العلم ليس إلا لاحتياج العمل به، وإن العلم لن يحصل إلا بأن يقوم بعمل للحصول عليه.

وإذا اعتقدنا أن العلوم هي المقصودة بالذات فسيستغني الناس عن العمل، وستكون النتيجة أننا نعلم كل شيئ ولانعمل به شيئا، وبذا يقل العمل ويكثر الكلام[1].

ثم يقول: في الصدر الأول من الإسلام كان بدء الأمر بالعلم والعمل معا، فكانت الأذن تسمع الأوامر، ثم يعيها القلب والعقل، فتعمل بها الجوارح[2].

وعن علاقة القول بالعمل يقول: إن هدفنا الوحيد هو أن ندعو الناس إلى دين الله بواسطة الدعوة بالقول والنماذج الواقعية بالعمل، أي بالتطبيق العملي لكل ماتنادي به الدعوة، وإذا كان مدار الدعوة في نظره على العمل فإنه لابد من إتقان العمل والقيام به على الوجه الأمثل، أما الوسيلة لذلك فهي الخروج بالجماعة حيث يقول: كما يحتاج العلم إلى مدة طويلة لمعرفته نظريا، كذلك يحتاج العمل أكثر من ذلك للتدريب على ما تعلم من الكتب ولابد أن يكون ذلك بإشراف المعلمين المتخصصين لفترة طويلة، فإن الخروج بالجماعة يهيئ الفرصة للعمل بكل مانتعلم، فلا يتلذذ الإنسان بحقيقة شيء لمجرد قراءته، بل بعد أن ترسخ تلك الحقيقة في صميم عقيدته عن طريق العمل، لأن الحاجة الماسة هي معرفة الدين بالتجربة العملية بعد تعلمه[3].

---

(١) المرجع السابق ص(٢١٧-٢١٨)

(٢) المرجع السابق ص(٢١٨)

(٣) المرجع السابق ص(٢١٩-٢٢٠-٢٢٦)

المنهج والمبادئ:

يقتصر منهج جماعة التبليغ على وعظ المسلمين ومحاولة نقلهم من بيئة اللهو والغفلة إلى بيئة الإيمان والذكر ونشر الفضائل والتحذير من الرذائل.

يقول محمد يوسف بن محمد إلياس مبينا منهج الجماعة وأهدافها التي تسعى إلى تحقيقها: إن العمل هو إحياء السنة النبوية وتنفيذها على صاحبها الصلاة والسلام في جميع ميادين الحياة الإنسانية وذلك بإحياء اليقين وتجديده، وإقامة العبادات بصورتها المرجوة وتعويد النفس على التخلق بالأخلاق النبوية، وممارسة تلك الأخلاق في معاملة الناس، مع إقامة حلقات الذكر والتعليم[١].

أما المبادئ التي تتحقق عن طريقها الأهداف المرجوة فهي أصول الدعوة الستة أو الصفات الست التي يرون أنه من الضروري أن يتدرب المسلم عليها، باعتبارها مفاتيح الدين إذا تحققت في حياته سهل عليه فتح أبواب دينه ونشره في العالم وهذه المبادئ هي:

١- الكلمة الطيبة أي الإيمان الكامل بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ

٢- إقامة الصلاة

٣- العلم والذكر

٤- إكرام المسلمين

٥- إخلاص النية

٦- التبليغ وذلك لكي يجتهد الفرد في إرساء وترسيخ المبادئ الخمسة في باطنه ويتدرب عليها عمليا ثم يخرج مع الجماعة قدر ما أمكنه ويقوم بترغيب الآخرين وتذكيرهم داعيا إياهم إلى العمل.

وقد أعلن عن هذه المبادئ في وضوح وتفصيل وترتيب في ٢٠ ربيع الأول عام ١٣٥٧هـ[٢].

---

[١] الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(٢٥٠)

[٢] الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص(٢٥١-٢٥٢)

العقيدة:

لايمكن الحكم بشكل عام على أفراد الجماعة بأنهم يتفقون في العقيدة، حيث لاتتبنى الجماعة منهجا موحدا في العقيدة تلزم أفرادها باعتناقه، لكنهم يختلفون حسب البيئات التي يعيشون فيها، فهم في الجزيرة العربية سلفيون، وفي الهند أشاعرة يغلب عليهم التصوف.

السياسة:

يحذرون أتباعهم من التعرض لسياسة الدولة التي يمارسون دعوتهم على أراضيها ويرون ذلك من السياسة لأنهم يخشون أن يتسبب تعرضهم للسياسة في إيقاف دعوتهم أو إثارة خصومات ضدهم هم في غنى عنها.

الاقتصاد:

لاترد هذه الكلمة في مواعظهم وأحاديثهم لأنهم يحثون على الزهد في الحياة الدنيا والتخفف من متاعها فلاتعنيهم المشاكل الاقتصادية ولاحتى تعديل النظم الاقتصادية بما يلائم الأسس الإسلامية للاقتصاد، كما لايشغل بالهم التخطيط الاقتصادي للحيلة لأن المستقبل الذي يجب التخطيط له في نظرهم تحت الأرض وليس فوقها[1].

الموقف من الدعوات الأخرى:

أكد الشيخ محمد إلياس أنه لم ولن يعترض على الطرق التي سلكها الآخرون لخدمة الدين، لكنه يرى أنه لايلزم القائم بهذا الجهد العظيم أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه الآخرون من شيوخه وآبائه، فعليه أن يختار الوسائل السليمة وإن اختلفت عن السبل التي استخدمها غيره من الدعاة، فيقول: إن قال أحد: إن هذا المنهج يخالف منهج الشيخ فلان رحمه الله أوهو يخالف ذوق شيوخنا، فإني أقول: إن ترك العمل السليم الذي ظهرت فوائده بالدلائل الثابتة والبراهين القاطعة والتجارب المستمرة، خطأ عظيم، لأن الشيخ هو مرشد وليس بإله[2].

---

(١) انظر رأي آخر في جماعة التبليغ، سعد الحصين ص(٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٢) بحث مقدم لندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، البحرين مكتب التربية لدول الخليج العربي ١٤٠٥هـ

(٢) الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص (٢٣٢)

الموقع والانتشار:

بدأ الشيخ محمد إلياس دعوته في منطقة (ميوات) قرب (دهلي) في منطقة هي أحط المناطق الهندية خلقا وأبعدها عن الدين وأعظمها جهالة وضلالة، ودعا الناس فيها إلى الانقطاع عن أشغالهم، والخروج عن أوطانهم، وعرف أنهم لايتعلمون الدين ولاتتغير أخلاقهم إلاإذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد الذي يعيشون فيه.

وقد قبل دعوته كثير من أبناء هذه المنطقة وخرجوا شهورا وقطعوا مسافات بعيدة مابين شرق الهند وغربها وشمالها وجنوبها، ركبانا ومشاة، فتبدلت أحوالهم، وانتشرت الدعوة في أرجاء الهند ومنها إلى باكستان وبنجلاديش، من غيرنفقات باهظة أومساعدات مالية أوتعقيدات إدارية، ولكن بطريقة سهلة ميسرة حيث يحمل أحدهم متاعه وزاده وينفق على نفسه ويتحمل المشاق صابرا محتسبا[١].

وانتقلت إلى العالم الإسلامي، عربيه وأعجميه، وصار لها أتباع في الشام ومصر والعراق، وانتشرت الدعوة في معظم بلدان العالم، في أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا[٢].

ولاشك أن لدى الشيخ إلياس الرغبة الأكيدة في انتشار دعوته في بلاد الحرمين وما جاورها، بحكم مكانتها في قلوب المسلمين، وكونها ملتقى المسلمين الذين يفدون عليها للحج والعمرة والزيارة، مما يتيح للدعوة الشهرة والانتشار.

فقد قدم في بداية عام ١٣٥٧هـ إلى المملكة العربية السعودية وعرض منهج الدعوة على مؤسس المملكة الملك عبد العزيز رحمه الله.

ثم أعيد عرضه مرة أخرى بعد وفاة الشيخ إلياس على مفتي المملكة الشيخ محمد ابن إبراهيم رحمه الله عام ١٣٦٣هـ فكتب في ١٣٧٣/٥/١٩هـ إلى علماء الأحساء والمنطقة الشرقية للتعريف بالجماعة وطلب مساعدها وتسهيل مهمتها.

ثم انتشرت دعوة الجماعة تدريجيا في أرجاء الجزيرة العربية خلال العقدين الأخيرين من القرن الرابع عشر الهجري.

وعلى الرغم من معارضة كثير من العلماء وطلاب العلم لهذه الحركة لاتهامهم لها

---

[١] انظر الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها ص(٣٥-٣٦) أبو الحسن الندوي

[٢] الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٢٠)

بإهمال جانب التوحيد وصدور قرار رسمي بإيقافها عن العمل في المملكة عام ١٣٩٣هـ وصدور فتوى ضدها من اللجنة الدائمة للإفتاء والدعوة والإرشاد عام ١٣٩٧هـ فلم يجر توقيفها فعلا إلا عام ١٤٠٠هـ بعد فتنة الحرم[1].

---

[1] انظر رأي آخر في جماعة التبليغ ص(٥٧٢)

المبحث الثاني

الاختلاف بين الأفراد

إن المتأمل لكثير من ظواهر الكون يلحظ فيها التنوع والاختلاف، بيد أن هذا التنوع ليس جميلا في كل الأحيان، فثمة اختلاف ينفر منه الحس ويتعكر من منظره الخاطر فهو ليس جميلا بإطلاق ولا قبيحا بإطلاق، لكنه سنة موجودة.

والإنسان بوصفه جزءاً من خلق الله تعالى تجري عليه هذه السنة، فالأب وابنه والأخ وأخوه بالرغم من الصفات المشتركة بينهم إلا أن هناك أموراً يختلفون فيها، خَلْقِية أو خُلُقِية، وتأمل قول الله تعالى {ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين}(١) وقوله: {ولكل وجهة هو موليها......}الآية(٢).

إن الاختلاف بين الناس حقيقة فطرية، وإرادة ربانية، واختلاف الفكر ظاهرة إنسانية راسخة، مما دعا بعض المفكرين إلى القول: بأن ثمة بصمة فكرية لكل إنسان لايكاد يشبهها بصمة فكرية أخرى لدى إنسان آخر(٣).

وإذا كان الاختلاف بين الناس في الألوان والألسن يظهر للعيان، فإن اختلاف المدارك والأفهام لا يكاد يخفى أيضا، خصوصا في المسائل التي تقبل النظر ويجول فيها الفكر في أمور الدين والدنيا، يقول الإمام الشاطبي: فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالا للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف(٤).

ولما كان من سنة الله سبحانه في خلقه، تفاوت الناس في أفهامهم وتفكيرهم، واهتماماتهم، والدعاة إلى الله تعالى هم ممن تجري عليهم هذه السنة، لذا فقد كان لهم نصيب من هذا التفاوت، بالرغم من اهتمامهم بحماية الدين وحفظه والدفاع

---

(١) سورة الروم (٢٢)

(٢)سورة البقرة (١٤٨)

(٣) انظر فقه الخلاف مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي ص(١٤-١٥) جمال سلطان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ مركز الدراسات الإسلامية، بريطانيا

(٤) الاعتصام ص(٣٩٣) الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الطبعة الثانية ١٤١٢هـ دار الكتب العلمية

إن المتأمل لكثير من ظواهر الكون يلحظ فيها التنوع والاختلاف، بيد أن هذا التنوع ليس جميلا في كل الأحيان، فثمة اختلاف ينفر منه الحس ويتعكر من منظره الخاطر فهو ليس جميلا بإطلاق ولا قبيحا بإطلاق، لكنه سنة موجودة.

والإنسان بوصفه جزءاً من خلق الله تعالى تجري عليه هذه السنة، فالأب وابنه والأخ وأخوه بالرغم من الصفات المشتركة بينهم إلا أن هناك أموراً يختلفون فيها، خَلْقِية أو خُلُقِية، وتأمل قول الله تعالى {ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين}[١] وقوله:{ولكل وجهة هو موليها.......}الآية[٢].

إن الاختلاف بين الناس حقيقة فطرية، وإرادة ربانية، واختلاف الفكر ظاهرة إنسانية راسخة، مما دعا بعض المفكرين إلى القول: بأن ثمة بصمة فكرية لكل إنسان لايكاد يشبهها بصمة فكرية أخرى لدى إنسان آخر[٣].

وإذا كان الاختلاف بين الناس في الألوان والألسن يظهر للعيان، فإن اختلاف المدارك والأفهام لا يكاد يخفى أيضا، خصوصا في المسائل التي تقبل النظر ويجول فيها الفكر في أمور الدين والدنيا، يقول الإمام الشاطبي: فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالا للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف[٤].

ولما كان من سنة الله سبحانه في خلقه، تفاوت الناس في أفهامهم وتفكيرهم، واهتماماتهم، والدعاة إلى الله تعالى هم ممن تجري عليهم هذه السنة، لذا فقد كان لهم نصيب من هذا التفاوت، بالرغم من اهتمامهم بحماية الدين وحفظه والدفاع

---

(١) سورة الروم (٢٢)

(٢)سورة البقرة (١٤٨)

(٣) انظر فقه الخلاف مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي ص(١٤-١٥) جمال سلطان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ مركز الدراسات الإسلامية، بريطانيا

(٤) الاعتصام ص(٣٩٣) الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الطبعة الثانية ١٤١٢هـ دار الكتب العلمية

عنه، إلا أن القناعات المتفاوتة في أنجح السبل في تبليغ دين الله والتمكين لـه في الأرض، والسبل الكفيلة في الوصول إلى الأهداف المرجوة، إضافة إلى الاختـــــلاف في بعـــض المسائل العلمية.

فمن قائل بوجوب الاقتصار على تصحيح العقيدة، ومن قائل بضرورة نقل النـــاس من بيئة الغفلة والمعاصي والمبالغة في الاهتمــــام في أمــور الدنيــا إلى جــو العبــادة والاستقامة.

ومن قائل بأن بداية الإصلاح تكون في الوصول إلى الحكم وتولي مقــاليد الأمــور، ومن قائل بضرورة شمول الدعوة لكل نواحي الحياة دون الاقتصار على بعض الجوانب، بما في ذلك نصح الحكام وتصحيح الولاء والبراء ومواجهة المؤامرات التي تحاك ضــــد الإسلام، وتحديد الموقف بصراحة وجلاء من أعداء الدين على اختـــــلاف نحلــهم[1]. إضافة إلى الاختلاف حول الأشخاص، أو الجماعات، أو المناهج الدعوية.

علما بأنه ليس بمنجاة من هذا الاختلاف من يفترض فيهم الاتفاق ممـــــن يجمعــهم الانتماء إلى جماعة أو منهج.

وإذا كان التعرف على الاختلاف القائم بين الجماعات من الممكن الإحاطة بكثير من جوانبه، وذلك بالوقوف على المبادئ والمناهج – العملية والنظريـــة – المعلنـــة لكـــل جماعة، فإن الاختلاف بين الأفراد يصعب الإحاطة به لتعدد جوانبه وكثرة وقوعه، بـــل ربما وقع بين أفراد الجماعة الواحدة والمنهج الواحد.

وحسبنا هنا الإشارة إلى قضيتين هامتين طالما احتدم حولهما النزاع، وتباينت بســـببهما الآراء بين الدعاة وهما:

١– الاختلاف بسبب أشخاص ومؤلفات

٢–الاختلاف حول أسلوب الدعوة والتمكين لها

وهاتان القضيتان وإن لم تكونا شاملتين لكل المسائل التي جرى بسببها الاختـلاف إلا أنهما تعطِيان تصوراً عما يدور في ساحة الدعوة من نزاع بين القائمين بها.

---

(1) انظر العمل الجماعي محاسنه وجوانب النقص فيه ص(١٥»١٦)د. عبد الوهاب الديلمي، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ الناشر للطباعـــة والنشر

وفيما يلي عرض لمواقف الفريقين حول هاتين القضيتين:

١-الاختلاف بسبب أشخاص ومؤلفات:

مما جرى بسببه الاختلاف بين الدعاة في هذه الفترة الاختلاف حول بعض الأشخاص ومؤلفاتهم بين من يرى تبديعهم، ومن ثم هجر مؤلفاتهم لأن ما فيها من أخطاء ومخالفات ودعوة إلى بدعة لا يوازي ما فيها من نفع إن وجد، وبين من يرى الاستفادة مما تحويه هذه الكتب وأن ما فيها من أخطاء ومخالفات لا يستدعي إهمالها وحجب الناس عنها، بل يقبل ما اشتملت عليه من حق وهو الغالب في نظر هذه الفئة، والتحذير مما حوته من أخطاء ومخالفات.

وفي كثير من الأحيان لا يقتصر الاختلاف بسببها على ذوي اتجاهات مختلفة، بل يجري بين من يجمعهم منهج دعوي واحد، وكمثال على هذا الاختلاف، مؤلفات الأستاذ أبي الأعلى المودودي[1].

مؤلفات الأستاذ أبي الأعلى المودودي:

من الأشخاص الذين وقع الاختلاف بين الدعاة بسبب مؤلفاتهم، وتباينت حولها الآراء (الشيخ أبو الأعلى المودودي ومؤلفاته) – بين مؤيد للشيخ متابع له في كل ما يقول، مبرر لأقواله التي وقع بسببها الجدل – وبين منتقد معارض مبين للمسائل التي يرى أن الشيخ قد أخطأ فيها، على تفاوت بين المخالفين له، بين من يناقش نقاشا علميا موضوعيا مؤيدا بالدليل، وبين من يخالف الشيخ في مسائل تحتمل أكثر من وجه ويمكن أن تُحمل محملا صحيحا، الشيخ أقرب إلى الحق في بعضها، ومخالفُه أقرب إلى الحق في مسائل آخر.

والمقام لا يتسع لذكر كل ما احتدم حوله النقاش وتعددت بسببه الآراء، لكن حسبنا ذكر بعض هذه المسائل، التي بالرغم من وحدة موضوعها أحيانا إلا أن الأحكام

---

(١) أبو الأعلى المودودي، ولد سنة ١٣٢١هـ في مدينة أورنج آباد (اسمها الآن أندرها برادش)، عمل صحفيا بجريدة المدينة بالهند ثم بجريدة التاج، كان رئيسا لجريدة المسلم بالهند، أنشأ مجلة ترجمان القرآن، أسس الجماعة الإسلامية بشبه القارة الهندية سنة ١٣٦١هـ. توفي بباكستان سنة ١٩٧٩م انظر أبو الأعلى المودودي حياته وفكره العقدي ص (٧٧–٧٨– ٩١– ٩٩– ١٠٤) تأليف حمد بن صادق الجمال، نشر دار المدني، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ و أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته ص (١٢١–١٢٢، ١٢٦–١٢٨– ١٣٥– ١٦٢– ٢٣١– ٢٣٢) تأليف اليف الدين الترابي، درار القلم، الطبعة الأولى،١٤٠٧هـ

اختلفت حولها، وفيما يلي عرض لآراء الفريقين:

بلغ الأمر ببعض المعجبين بالشيخ المودودي ودعوته أن برأها من كل شائبة وجعلها في نقائها بدرجة نقاء دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونفى عنها كل شبهة وتهمة.

يقول أليف الدين الترابي: الدعوة التي قام بها الأستاذ المودودي هي نفس الدعوة الجليلة التي جاء بها رُسُل الله عليهم السلام من أبي الأنبياء آدم عليه السلام إلى سيدنا محمدﷺ وإذا قلنا إنه قام بإحيائها فحسب لكان صحيحا، ومن المعلوم أن غاية هذه الدعوة هي إقامة دين الله كاملا في جميع نواحي الحياة الفردية والاجتماعية، وكذلك كانت أصول الدعوة هي نفس الأصول التي قامت بها الدعوة لأول مرة[1].

أما الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد فيصفه بأنه (علم خطير من أعلام الإسلام طوال هذا القرن الرابع عشر، وأنه امتاز بتمثله للإسلام تمثلا صحيحا، فكان واسع الأفق، عالمي النزعة، وثيق اليقين في تفوق الإسلام على كل ما في الأرض من ركام المذاهب والأفكار[2].

أما الدكتور عبدالله الزايد فيقول: على مر العصور والأجيال هيأ الله تعالى منارات هدى وإرشاد لهذه الأمة من علمائها ومفكريها المخلصين الداعين لدين الله على بصيرة وصدق، والمرشدين للأمة إلى طريق الحق والصراط المستقيم، وإني لأحسب أن من هؤلاء الأعلام البارزين في العصر الحديث الإمام أبا الأعلى المودودي، الذي قاد الحركة الفكرية الإسلامية، التي شملت شبه القارة الهندية[3].

كما يبدي هؤلاء المؤيدون إعجابهم بمؤلفات الشيخ، وبما اشتملت عليه من موضوعات، فبعد أن أشاد الدكتور عبد الله الزايد بالشيخ وبين أهمية دوره في العصر الحديث، وأنه أحد قادة الفكر الإسلامي الذين ساروا بالأمة في طريق الحق وكانوا من الدعاة لدين الله على بصيرة، بيّن أن ذلك انطلق من عقيدة صحيحة كانت هي أساس

---

(1) أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته ص(١٦٥) أليف الدين الترابي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ

(2) فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي ص(٥) فاروق عبد الغني الصاوي، دار المنار الحديثة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ

(3) أبو الأعلى المودودي حياته وفكره العقدي ص(٥-٦) حمد بن صادق الجمال، دار المدني، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ

دعوته، حيث يقول: وفكره في جانب العقيدة منطلقه الأساسي لجميع الجوانب الأخرى من فكره في الاقتصاد وفي السياسة وفي الاجتماع وفي الأسرة ..... وهلم جرا[١].

بينما يرى المعارضون خلاف ذلك، ففي حين يرى الدكتور عبد الله الزايد أن صحة العقيدة عند المودودي هي المنطلق لدعوته، يرى محمد زكريا الكاندهلوي وهو أحد المخالفين للمودودي أن المودودي قد جاء بتفسير للعبادة خالف فيه جميع المسلمين حيث يقول: أرى أن مفهوم العبادة الذي يفسره الأستاذ المودودي لا يخالفنا فحسب بل يخالف ما فهمه المسلمون عامة، ولم يكن هذا المفهوم الذي يفسر به العبادة معروفا من عصر الرسالة إلى يومنا هذا، وإن تفسيره للعبادة معارض لأقوال رسول الله ﷺ، لقد أكد المودودي على معنى العبادة الذي اخترعه من عند نفسه، ثم صرف جهد قلمه فخلط العبادات بغير العبادات بحيث يؤدي ذلك إلى أن يخرج مفهوم العبادة من أذهان جماعته.

ويستشهد الكاندهلوي على مخالفة المودودي لمفهوم العبادة لجميع المسلمين بقول المودودي: يخطئ من يقول إن العبادة إنما هي محدودة بين المسبحة والسجادة، والمسجد والزاوية، والمؤمن الصالح لا يكون عابدا إذا كان يصلي خمس صلوات في اليوم والليلة، ويصوم شهرا في السنة، ويؤدي الزكاة مرة في السنة، ويحج مرة في حياته فحسب، بل إن حياته كلها عبادة، فهو عندما يترك الحرام في تجارته ويقنع بالرزق الحلال، أليست هذه عبادة؟ وعندما يجتنب الظلم والكذب والغش والخداع في المعاملات، ويختار العدل والصدق، أليست هذه عبادة؟ فالحق أن الإنسان مهما عمل من أعمال الدين والدنيا إتباعا للشريعة وإطاعة لأمر الله، فهوفي عبادة حتى بيعه وشراؤه في الأسواق، ومعاشرته مع الأهل والأولاد، وانهماكه في الأشغال الدنيوية الخالصة عبادة.

ويصف الكاندهلوي هذا التفسير للدين من قبل المودودي بأنه تلبيس وخلط بين

---

(١) المرجع السابق (٥-٦)

العبادات والمعاملات حيث إن العبادات والمعاملات في نظره شيئان منفصلان[١].

لكن حمد الجمال الذي كانت حياة المودودي وفكره العقدي موضوع رسالته لنيل درجة الماجستير يرد على انتقاد الكاندهلوي بقوله: إن العبادة لدى المودودي لها معنيان:

أ – معنى عام واسع يعني كامل الخضوع من العبد لله سبحانه وتعالى.

ب – معنى خاص هو إقامة الفرائض والأركان بالشروط المخصوصة والذي يقابل المعاملات في التقسيم الفقهي.

والمودودي عندما جعل كل تصرفات المسلم عبادة كان يعني المعنى العام وهو باعتباره مفكرا لا يُلزم بإتباع التقسيم الفقهي[٢].

أما مؤلفات المودودي فقد تفاوتت آراء الفريقين حولها تفاوتا بينا، فما يعده المؤيدون من حسناته وأنه قد أصاب فيه وأجاد، يرى المخالفون عكس ذلك.

يقول أليف الدين الترابي في وصف مؤلفات المودودي:

١–إن الأستاذ المودودي كان يأتي بالأدلة من الكتاب والسنة والبراهين العلمية العقلية في تأييد كل ما يقول.

٢– إن الأدلة العلمية والعقلية التي يأتي بها في كتبه تتعلق بالأشياء الحسية التي يلمسها كل واحد منا في حياته اليومية.

٣– إن الله قد وهبه الإخلاص الذي جعل أسلوبه مؤثرا جذابا للغاية يؤثر في الأذهان والقلوب سويا.

٤– إن كتب المودودي مع كونها علمية، لا توجد فيها الاصطلاحات العلمية التي لا يفهمها إلا أصحاب العلم، وذلك لأن دعوته كانت للمسلمين كافة.

٥– إن المودودي لم يتناول موضوعا من الموضوعات المتنوعة التي تتسع لها دائرة كتبه إلا وقد قرأ كل ما كتب قديما وحديثا، ثم كتب فيه، وجاء بالأدلة من القديم والحديث في تأييد موقفه.

---

[١] المودودي ماله وما عليه ص(٢٩–٣٠) محمد زكريا الكاندهلوي دار الاعتصام الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ

[٢] أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته ص(٣٠٥– ٣٠٦)

٦-إن الله وهبه إمعان النظر في الكتاب والسنة فضلا عن البصيرة العميقة في شؤون الحياة الفردية والاجتماعية المختلفة(١).

أما الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي فرؤيته لمؤلفات المودودي غير ذلك، فقد كان ينصح في البداية كما يقول بعدم قراءة عامة المتدينين وطلبة العلوم الإسلامية لكتب المودودي، بينما يرى أنها مفيدة لطلبة الكليات والجامعات، ومبنى هذا التفريق في نظره أن مؤلفات المودودي تدور حول أمرين رئيسين هما:

١- رد الأفكار والنظريات الكافرة التي أوجدتها الحضارة العصرية.

٢- أنها تدور حول بعض الموضوعات الدينية وبالأخص الاجتهاد والتصوف وما يتعلق بعلوم السلف.

لكنه تراجع عن هذه النصيحة، لأنه كما يقول: لم يطلع إلا على قدر يسير مما كتبه المودودي، لكن بعد قراءته لقدر أكبر منها تبين له، أن ردوده على النظريات الكافرة كانت ضعيفة أقل بكثير مما ينبغي، أما ما كتبه حول بعض الموضوعات الإسلامية، فقد أطلق فيه لقلمه العنان بحيث يفقد أعصابه فلا يدري ضد من يكتب.

ثم هو يرى بعد ذلك أن ضرر كتب المودودي أكثر من نفعها، لأن النظريات والأفكار الكافرة لا يعرفها العامة، أما المتدينون وطلبة العلوم الإسلامية فتعتبر شيئا زائدا في حقهم، أما الموضوعات الدينية فهم يحتاجون إليها ويتأثرون بها لكن ما يكتبه المودودي حولها ضرره أكبر من نفعه(٢).

ويرى الكاندهلوي أن مؤلفات المودودي قد اشتملت على الاستهزاء بالدين حتى لا يكاد يخلو منها كتاب إلا وقد اشتمل على نصيب وافر من هذا الاستهزاء، يقول الكاندهلوي: أحب أن ألفت نظركم إلى الاستهزاء بالدين والعبادة وإهانة أهله والعلماء في مؤلفات الأستاذ المودودي، فلا تجدون تأليفا من تآليفه يخلو من هذه الشنائع، وهذا أمر لا يقبل من مسلم عامي فكيف يقبل من عالم، ويضرب الكاندهلوي مثالا لهذا الاستهزاء بموقف المودودي من التصوف، حيث يرى المودودي أن التصوف

---

(١) أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته ص(٢١٤-٢١٥) أليف الدين الترابي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ

(٢) المودودي ماله وما عليه ص (٢٠-٢١) محمد زكريا الكاندهلوي، دار الاعتصام، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ

وطقوسه سبب من أهم أسباب تأخر المسلمين عن ركب الأمم القوية، وأنه يتنافى مع تعاليم الإسلام، وأن بينه وبين قيام دولة الإسلام القوية نسبة تضاد حيث يقول: والآن كل من يريد أن يقوم بتجديد الدين عليه أن يأمر المسلمين بالتحرز من لغة المتصوفين واصطلاحاتهم ورموزهم وإشاراتهم، وزيهم وآدابهم، والمرشدية والمريدية، ومن كل أمر يجدد ذكرى هذه الطريقة، كما يحترز مريض السكر من السكر.

ويرى الكاندهلوي أن انتقادات المودودي للتصوف هي انتقاد للدين ذاته ويستشهد على صحة التصوف وطرقه بما جاء بكتب الرقاق والزهد وهدي النبي ﷺ في اللباس وأحوال الصحابة رضي الله عنهم(١).

ومن أهم كتب المودودي التي يحذر منها الكاندهلوي كتاب المودودي في التفسير الذي سماه تفهيم القرآن، ويرى أنه من أخطر كتبه وذلك لأنه اعتمد في تفسيره على الرأي، واستغنى عن الروايات المشهورة، وهو لم يقيد نفسه بهذا المنهج فحسب، بل يريد أن تسلك جماعته هذا المنهج(٢).

لكن أليف الدين الترابي وهو من المدافعين عن الشيخ يخالف الكاندهلوي الرأي فيرى أن من أهم كتب المودودي،كتابه في التفسير حيث يرى أنه تمكن في هذا الكتاب من إبراز الجوانب التفسيرية التي قد شُوهت من أجل سيطرة الحضارة الغربية الجاهلية فكريا وعلميا ويرى أن من أهم هذه الجوانب التي أبرزها كتاب التفهيم:

١- أن الإسلام دين ودولة ولا يمكن العمل به إلا بإقامة الحكم الإسلامي

٢-أن الإسلام دين كامل يشمل كل ناحية من نواحي الحياة، الفردية أو الاجتماعية.

٣-اعتنى خلال تفسيره للقرآن الكريم بمواجهة التحديات التي جاءت بها الحضارة الجاهلية الحديثة وثقافتها اللادينية وفلسفاتها المادية.

٥- اعتنى بالرد على أباطيل المستشرقين والمبشرين والمتفرنجين، بالإضافة إلى اعتنائه بالقضاء على ما جاءت به الحركات الهدامة المعادية للإسلام من تأويلات باطلة وأفكار

---

(١) المرجع السابق ص(٨٠-٨١)

(٢) المرجع السابق ص(٢٥-٢٦)

زائفة، مع اهتمامه البالغ بأصول التفسير التي يتفق عليها الأئمة المفسرون قديما وحديثا(١).

ويوافق الترابي في ما ذكره من مميزات لكتاب -التفهيم- فاروق عبد الغني الصاوي الذي يصف الكتاب بأنه أحد الأعمال الجادة لإعادة المسلمين إلى الطريق القويم، وأنه قد حطم بطريقة علمية الأوهام والخرافات التي نشرتها الحضارة الغربية لفترة طويلة تحت ظل نظام التعليم الاستعماري.

وأنه اهتم ببيان نظام الحياة الإسلامية الروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبيَّن بطلان النظريات المادية والنظم الأرضية، وسائر أفكار الحضارة الغربية، وقارن بين صنع الله وصنع البشر في سائر نظم الحياة.

ويرى أن كل من قرأ التفهيم اقتنع أن الإسلام دين الفطرة، فالتفهيم وطريقته يطلبق الفطرة الإنسانية، ويطابق عقل الإنسان، فعرف الشباب أن القرآن ليس بكتاب عقائدي محض بل هو قائد للمسلمين في كل جانب من جوانب الحياة.

والخلاصة في نظر فاروق الصاوي: أن تفهيم القرآن قد أوضح للإنسان الذي تعثر في أحجار الحضارة الغربية البراقة الخادعة، كيف يتغلب على قلقه الفكري ويعود إلى هدوئه وإلى إيمانه بأصول عقيدته التي تسوقه إلى النجاح الدنيوي والفلاح الأخروي.

وقد نجح تفهيم القرآن في مهمته، إفهام وتفهيم القرآن الكريم، وتعريف القارئ بالهدف من الحياة البشرية، وبرسالة الإنسان على الأرض.

ويختم وصفه للتفهيم بقوله: والحقيقة أن هذا هو الهدف الأساسي للقرآن الكريم وهو أن يعرف الإنسان ربه ويعرف نفسه(٢).

ويلاحظ من خلال هذه المزايا التي ذكرها كل من الترابي والصاوي لكتاب التفهيم مدى الاختلاف بينهما وبين الكاندهلوي.

وكما اختلف الطرفان حول موقف المودودي من تفسير القرآن الكريم، اختلفوا

---

(١) أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته ص(٢١٧-٢١٨)

(٢) فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي ص(٢٧٢-٢٧٦) تأليف فاروق عبد الغني الصاوي، دار المنار الحديث، ط(١) ١٤١٣هـ

أيضا حول موقفه من السنة النبوية ففي حين يراه أليف الدين الترابي أحد المدافعين عن السنة النبوية الملتزمين بها الواقفين في وجه أعدائها، ويبين موقف المودودي من منكري السنة بقوله: لما قامت حركة منكري السنة النبوية وبدأ كتّابها الهجوم العنيف على مكانة السنة النبوية في التفسير والتشريع وأصدروا مجلة باسم (طلوع الإسلام) وصار لها نفوذ كبير في الدوائر الحكومية -العسكرية والمدنية -قرر الأستاذ المودودي أن يعتني بالقضاء على هذه الحركة، فقام المودودي بتأليف كتابه الشهير- مكانة السنة في التشريع - فضح فيه الوجه الحقيقي لهذه الفئة الضالة وجاء بالأدلة من القرآن الكريم والبراهين العقلية القوية على أن القرآن لا يمكن العمل بمقتضياته وتعليماته إلا عن طريق السنة النبوية وكذلك بيَّن كون السنة النبوية مصدرا للتفسير والتشريع، ردا على اعتراضات منكري السنة[١].

لكنَّ مخالفيهم لا يوافقونهم الرأي في موقف المودودي من السنة بل ربما اعتبر بعضهم أقواله التي وردت في مقال له تحت عنوان (مسلك الاعتدال) حول السنة النبوية ورواتها قد جاء متفقا مع ما يردده منكرو الحديث.

يقول الشيخ محمد إسماعيل السلفي: إن الكتابات التشجيعية التي حررها المودودي حول الحديث وعلومه كانت على سبيل المداراة، ثم بيده المباركة هدم بناءها أيضا وبيراع فضيلته سوندت قضية منكري الحديث وأحكمت[٢].

ويوافقه الرأي الكاندهلوي الذي يقول: فالأستاذ المودودي وإن كتب مقالة في حجية الحديث إزاء منكري السنة، وأشاد فيها بجهود المحدثين وخدماتهم بعبارات بليغة، غير أنه ملأ كتاباته بشيء يزيل الثقة عن السنة ويحط من مكانة المحدثين والصحابة رضوان الله عليهم[٣].

والمسائل المختلف عليها بين الطرفين يصعب استقصائها ولا يتسع المقام لعرضها،

---

(١) أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته ص(٢٢٦)

(٢) موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي دراسة نقدية لمسلك الاعتدال للشيخ المودودي ص(٦١) محمد إسماعيل السلفي، تعريب وتقديم صلاح الدين مقبول أحمد، الدار السلفية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ

(٣) المودودي ماله وما عليه ص(٥١)

وهي مثال له نظائر كثيرة لما يختلف بسببه الدعاة، ذكرته على سبيل المثال لا الحصـــر، والهدف من إيراده إعطاء فكرة عن نموذج لما يجري في الساحة من اختلاف بين الدعاة.

٣- الاختلاف حول أسلوب الدعوة والتمكين لها:

إن القضايا التي وقع بسببها الاختلاف بين الدعاة حول أساليب الدعوة والأسلوب الأمثل للتمكين لها،كثيرة لكنها متفاوتة في الأهمية والتأثير على ساحة الدعوة لذا سنقصر الحديث هنا على قضية هامة أدت إلى اختلاف الآراء وإلى إيجاد صفين متباينين من الدعاة لكل منهما موقف مغاير لموقف الآخر، مما نتج عنه اختلاف الكلمة وتشتت الجهود وهذه القضية هي:

حكم العمل في جماعة:

مما ثار حوله الجدل واحتدم حوله النزاع بين الدعاة، في هذه الفترة، مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية، ومدى شرعية وجود هذه الأحزاب والجماعات، بين من يرى وجودها ضرورة مُلِحة في حفظ دعائم الدين، ودعوة الناس للتمسك بتعاليمه، وطريقا إلى تحكيمه في واقع الناس، ومن خالفهم وصفوه بمحدودية الفكر، وضيق الأفق وعدم التعامل الصحيح مع الواقع، ومستجدات العصر.

ومن يرى في هذه الأحزاب والجماعات امتدادا للفرق الضالة، ولونا من الابتداع، وشقا للصف، وتفريقا لجماعة المسلمين، وإعطاء البيعة لغير من ولاه الله أمر المسلمين.

وكل فريق يرى أن قوله مدعوم بالدليل، مؤيد بالحجة، ويشهد لصحته الواقع، مما يجعل إمكانية الالتقاء بين آراء الفريقين أمرا في غاية الصعوبة، بل ربما وصل الأمر في بعض الأحيان إلى أن تنشأ حزبية فكرية لا شعورية، تضم من يحاربون الحزبية التنظيمية.

وقد كثرت الكتابة حول هذه القضية، بين المهتمين بالدعوة والقائمين بها، مما يتعذر معه تتبع كل ما كتب، لذا سنقتصر على كتابين منها، يمثل كل منهما رأي طرف من الأطراف، مع الإشارة العابرة لكتب أخرى حول الموضوع، الغرض من ذكرها بيان أهمية هذه القضية، وضرورة الاهتمام بحلها لما لها من تأثير لها على واقع الدعوة.

ومن أهم الكتب التي تحدث أصحابها حول هذه القضية ما يلي:

١.حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ـ للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، وهو ممن يعارضون بشدة الدعوة تحت شعار الجماعات، والأحزاب،

ويرى أن هذا أسلوب مستحدث في الدعوة، مخالف لما كان عليه السلف الصالح، وأنه من أهم الأسباب المؤدية للتفرق والنزاع.

ويتفق مع الشيخ بكر في القول ببدعية الجماعات الإسلامية المعاصرة، التي يؤلف بين المنتسبين إليها بيعةٌ تؤخذ عليهم بالسمع والطاعة، والإتباع لمبادئ الجماعة، والقيام بما يناط بهم من أعمال، ويكون للجماعة اسم يميزها عن غيرها، من خلاله تُعرف مبادئ الجماعة، وتُميز به أفكار المنتسبين إليها، الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، في كتابه الذي تحت عنوان [المخرج من الفتنة] والشيخ علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد، في كتابه الذي تحت عنوان [البيعة بين السنة والبدعة عند الجماعات الإسلامية].

٢. مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية للدكتور صلاح الصاوي، الذي يمثل الرأي الآخر، ولا يرى مؤلفه في الاشتغال بالدعوة ضمن نظام الجماعة أي غضاضة أو مخالفة شرعية، وذكر شروطا يرى أن الالتزام بها يكفل لأي جماعة العمل ضمن دائرة السنة، والبعد بها عن التلبس بشيء من البدع.

ومن الذين يوافقون الدكتور الصاوي ويرون مشروعية العمل في جماعة، الدكتور صادق أمين الذي يقول: إن معظم تكاليف هذا الدين جماعية، ولا يستطيع المسلم أن يمارس دينه كما يريد الله إلا في مجتمع مسلم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإعادة الخلافة والأمانة إلى الأرض فرض، فالعمل من أجل قيامها فرض[1].

وفي موضع آخر يقول: ولا يتم هذا الدين إلا بتكوين جماعة مؤمنة تلتف حول هذا الدين ويعيشون به وتنطلق مجاهدة لنشره وإبلاغه للعالمين[2] .

ويقول الدكتور عبد الله عزام: إن العمل في جماعة واجب، ليتسنى للمرء القيام بفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستدل على ذلك بقول الله تعالى

---

(1) الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية ص(٣٨)

(2) المرجع السابق ص(٦٩)

{واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}[١][٢].

أما الدكتور عبد الوهاب الديلمي فيرى أن العمل في جماعة أصبح ضرورة في هذا العصر، وبرر هذه الضرورة بأن الفرد في هذه الظروف الراهنة قد يعجز بجهوده الفردية عن تحقيق شيء من نصرة دين الله والقيام بفرائض الإسلام على الوجه الأكمل، كما أن الجهود الفردية لاتقوى على مواجهة العمل الجماعي المنظم الذي يقوم به أعداء الإسلام لمحاربة الدين[٣].

ومن أقوى المدافعين عن العمل الجماعي والذين يرون مشروعيته، الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق الذي يبرر ضرورة الدعوة في إطار الجماعة بتغير الزمان والمكان[٤].

وبعد أن ذكر فضل الجماعات على العالم الإسلامي، ذكر أن الدوافع التي دعت من أفتى بتحريم قيام جماعات الدعوة، تتمثل فيما يلي:

١. حرصهم الشديد على الدعوة لما رأوا من جراءة أعداء الله على التنكيل بالقائمين بها، فرأوا أن الدعوة الفردية أسلم، والبعد عن التكتل والنظام آمن للدعوة.

٢.ظنهم أن أسلوب الجماعة لم يكن على عهد رسول الله ﷺ.

٣.عدم تفريقهم بين التجمع على أداء فرض خاص، وبين الجماعة العامة التي هي جماعة أهل الإسلام، التي يتعين لها وجود الإمام العام المبايع من جمهور الناس.

٤.ما رأوه من سلبيات بعض الجماعات كالتزام البدع وظهور التنازع والتفرق بين أتباع وأنصار كل جماعة[٥].

---

(١) آل عمران (١٠٣)

(٢) انظر حكم العمل في جماعة ص (١١) مكتبة الجيل الجديد ١٤١٢هـ

(٣) انظر العمل الجماعي محاسنة وجوانب النقص فيه ص (٢٢) د. عبد الوهاب الديلمي، الطبعة الثانية (١٤١٣هـ)

(٤) انظر مشروعية العمل الجماعي ص (٢٢-٢٥) عبدالرحمن بن عبدالخالق، الطبعة الثانية (١٤٢١هـ) دار الهجرة

(٥) المرجع السابق ص(٣٢-٣٧)

وللتدليل على مشروعية العمل ضمن جماعة وأنه من شأن السلف ألف كتابا تحت عنوان «شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي» ذكر فيه مواقف من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، باعتباره قائد جماعة تلتزم بأمره وتعمل بمشورته وتصدر عن رأيه(١).

أما الكتابان المختاران للدراسة فهما:

حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية، للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، ومدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية للدكتور صلاح الصاوي، يمثل الأول منهما القائلين بالمنع، ويمثل الثاني المؤيدين للدعوة تحت نظام الجماعة.

وسبب الاقتصار عليهما أهما آخر الكتب المذكورة تأليفا، ولدراسة مؤلفيهما لهذه المسألة من جميع جوانبها، كما أن الدكتور الصاوي قد اشتمل كتابه تقريبا على تتبع ومناقشة ما جاء في كتاب الشيخ بكر، اتفق معه في بعض ما جاء فيه، وخالفه في مواضع كثيرة منه.

ونبدأ بالتعرف على ما جاء في كتاب الشيخ بكر أبو زيد .

يبدأ الشيخ معالجته للموضوع بطرح السؤال التالي: (هل هذه الأحزاب والجماعات الإسلامية القائمة في عصرنا مرفوضة سندا ومتنا، وأنها امتداد للفرق والطوائف التي انشقت عن جماعة المسلمين بعد عصر الخلافة الراشدة، وإن اختلفت في اللقب والشعارت، وشيء من التخطيط والمنهج؟ وما هو الوجه الجامع بينها إن كان؟

أو أنه استجدت أمور وحالت أحوال، تجعل الجماعات هي المتنفس الذي ينفذ منه المسلمون إلى إقامة الإسلام، والخلافة فيه، والعودة بالمسلمين إلى مقتضيات وحقوق الشهادتين (لاإله إلاالله محمد رسول الله) وأن الفرق الإسلامية في الماضي، المنشقة عن جماعة المسلمين، كانت ظالمة، لأنها مبنيَّة على الانحراف عن الصراط المستقيم، بما تبنته من آراء وأهواء ضالة، ولأنها كانت تعيش في وسط ولاية إسلامية، شريعة الله فيها

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي، عبد الرحمن بن عبد الخالق، جمعية إحياء التراث الإسلامي.

نافذة، بخلاف الأحزاب والجماعات المعاصرة، فهي في وسط حكومات وعروش، هي في الغالب متحللة من تحكيم شريعة الإسلام، آبقة من حضانته، مستعبَدة لكل طاغية من أعدائه، وإن كانت معلنة للإسلام من وجه فهي تضاده من وجوه عملية معلنة[١].

وبعد طرح هذا السؤال يصف الشيخ حال المسلمين حيث يجتازون مرحلة *(التِّيه) في غربتهم الثانية، والعداوة المرصودة لإسلامهم في هذه الغربة أنكى وأشد من التي كانت مرصودة له في طريق غربته الأولى، وما فعلته يد الاستعمار من تبديد جسد الأمة إلى دويلات متآكلة، أضحى المسلمون على أنقاضها فريسة ما استشرى فيهم من الإشراك، والفساد، والذل، والهوان، والحروب الفكرية القائمة على أشدها، والأزمات المتلاحقة من كل جانب.

ثم يتساءل عن المخرج من هذا المأزق الخطير الذي وقعت فيه الأمة، وعن وسيلة الإنقاذ، هل هي في عقد الأحزاب؟ وإن كان سبيل النجاة في عقد الأحزاب، فأي حزب تسمح الشريعة بالانتساب والانتماء إليه؟ وما هي جماعة المسلمين التي انشقت عنها هذه الجماعات؟ وأين هي وما هي سماها ورسومها؟ وهل يمكن تهذيب هذه الجماعة لتؤول إلى جماعة واحدة فيئال إليها؟ أو إلى هجرها؟ أو إلى أي سابلة رفع الإسلام سمكها فسواها، يدين المسلم بها ربه، ويلقاه عليها[٢]؟

ثم يبدأ الشيخ حديثه عن الجماعات ببيان أنها قد جانبت الصواب حين تسمت بالجماعات، وأن الأولى أن تتسمى بالفرق، لأن جماعة المسلمين واحدة لا تتعدد[٣].

ثم مهد الشيخ لكتابه بسبعة مباحث حول الحزبية في الجاهلية، وهدي الإسلام أمام هذه الحزبيات، وانشقاق الفرق عن جماعة المسلمين، ومنازل الفرق والمذاهب من جماعة المسلمين، وتساقطها أمام جماعة المسلمين، وجماعة المسلمين أمام المواجهات.

---

(١) حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ص (٩-١٠) بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن الجوزي الطبعة الثالثة (١٤١٣هـ)

(٢) المرجع السابق ص (١٠-١١)

(٣) المرجع السابق ص(١٥)

وبعد أن مهد بهذه الأبواب السبعة، يشرع بالإجابة على السؤال المتقدم فيبين.

أنه: لا دين إلا بجماعة

ولا جماعة إلا بإمام

ولا إمامة إلا بسمع وطاعة

وأن هذه الثلاثة متلازمة، آخذ بعضها ببعض، فلا قوام لسوق الإسلام وقيام جماعة المسلمين وصلاحهم في معاشهم ومعادهم تحت ولاية إسلامية ذات شوكة ومنعة إلا بهذا.

وأن جماعة المسلمين على منهاج النبوة لا تقبل التشطير ولا التجزئة، فالنبي ﷺ من حين بعثته إلى وفاته، ثم صحابته ومن تبعهم بإحسان، كانت دعوتهم لتكوين جماعة المسلمين، لا لجماعة من المسلمين.

وأن منهج جماعة المسلمين هو الإسلام على منهاج النبوة والكتاب والسنة.

وعلى هذا فلا يجوز عقد الموالاة على اسم دون اسم الإسلام، ولا الموالاة على رسم دون رسم الإسلام.

وعليه:

- فإذا انعقدت فرقة أو جماعة أو حزب إسلامي تحت شعار معين مستحدث يعقد عليه الولاء والبراء.
- وإذا انعقدت ملتزمة بعضا مما أمر الله به دون بعض.
- وإذا انعقدت لا توالي إلا من انتظم في سلكها دون من سواهم.
- وإذا انعقدت في بلد أهله على منهاج النبوة التي درج عليها السلف الصالح، أهل السنة والجماعة، مخالفة في أمر كلي أو جزئي باسم أو رسم.

فكل هذه عقود محرمة لا تجوز، لما فيها من البغي بغير الحق وهضم لجوانب في الإسلام، وميل عن طريق النبي ﷺ في الدعوة وشذوذ عن الأصل.

ثم شرع في بيان الطريق التي يجب على المسلم أن يلتزمها في ظل الأصول والقواعد العقدية الموثقة بنصوص الشرع القاطعة في الدلالة، وذكر ضوابطها الشرعية ومراحل الدعوة إليها، نختار منها ما يلي:

أولا: الأصل هو الالتزام بالكتاب والسنة، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم بالسمع والطاعة على غير معصية الله وقيام المتأهل بالدعوة إلى الله تعالى على منهاج النبوة، لا يخالفها باسم أو رسم، ولا حقيقة ولا شكل.

ثم ذكر الحالات التي يمر بها المسلم وكيف يطبق هذا الأصل على أرض الواقع فقال الحالة الأولى: إذا كان المسلم في ولاية إسلامية فيها هذه الثلاثة متلازمة: إسلام، وجماعة المسلمين على منهاج الإسلام الصحيح، وولاية إسلامية، فإنه مالم يظهر كفر بواح، لا يجوز له تفريق جمع المسلمين بإيجاد حزب إسلامي، أو جماعة إسلامية، على هذه الأرض التي حالها كذلك.

الحالة الثانية: إذا كان المسلم في بلد فيه جماعة مسلمون، لكن ليست ولايته إسلامية، فليعتزل الفرق المخالفة للإسلام، والمختلفة عليه، وليكن اعتقاده وعمله ودعوته على منهاج النبوة، وسيرة السلف الصالح في هذه الأمة – في الاعتقاد، والحكم والسلوك، والأحكام – يؤمن بذلك ويدعو إليه على منهاج النبوة، وعلى من أفاء الله عليه من المسلمين إمدادهم بالعلم والمال.

الحالة الثالثة: أن يبتلى بالإقامة العارضة في دار من ديار الكفر، فليعلم أن الذئب إنما يأكل من الغنم القاصية، فعلى المسلم أن ينضم إلى أخيه، وهكذا ليلتئم تناثرهم، ويعيشوا على حال يحمون بها دينهم، ويطمعون في الدعوة إلى الله[١].

ثالث عشر[٢] في الأشخاص:

يبين الشيخ أنه لا يجوز أ ن يُنصب شخصٌ للأمة يدعى إلى طريقته، ويوالى ويعادى عليها، سوى نبينا ورسولنا محمد ﷺ فمن نصب شخصا سواه على ذلك فهو ضال مبتدع[٣].

وعَنْوَنَ الشيخُ للأصل الرابع عشر بحديث « لا حلف في الإسلام »[٤] وقال: هذا من

([١]) المرجع السابق ص(٥٩-٧٠)

([٢]) يلاحظ الانتقال من أولا إلى ثالث عشر مباشرة وذلك خشية الإطالة، ورغبة في الاقتصار على ما لابد منه فقط.

([٣]) المرجع السابق ص(١٢٠)

([٤]) رواه الإمام أحمد واللفظ له (٣/١١١-١٤٥-٢٨١) و البخاري، كتاب الكفالة، باب قول الله عز وجل(والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) رقم الحديث (٢٢٩٤) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم، رقم

مشاهير السنن في الصحيحين وغيرهما، التي قطع الإسلام بها جميع المواد التي كانت أساسا للولاء والبراء في الجاهلية وجعل الإسلام وحده مادة الولاء والبراء(١).

وقد استدل الشيخ بهذا الحديث على منع الانتماء إلى الأحزاب والجماعات.

ومن أسباب المنع التي يراها، أن الانتماء إلى الفرق المعاصرة يجعل المنتسب إليها ينظر إلى نفسه أنه في مكان فوق غيره.

ثم يبين الشيخ مضار الحزبية وآثارها السيئة على العمل الإسلامي وتفريقها لجماعة المسلمين ويرى أنها امتداد للفرق المبتدعة وأن البدع تنشأ صغيرة فلا تلبث أن تكبر.

ويخلص إلى أنه لا مكان لحزب ينشق عن جماعة المسلمين، ويخالف منهاج النبوة، مهما أحاط به نفسه من حسن النية وصفاء القصد، فكما أنه لا محل بحال للاختلاف في الكتاب فلا محل للاختلاف في نشره والدعوة إليه، إذ الغاية لا تسوغ الوسيلة(٢).

أما البيعة التي جرت العادة على أخذها على المنتسب لأي جماعه فيصفها الشيخ بكر بأنها من الوسائل التي تهجن الدعوة، وتثير الشغب وتجعل الأمة شيعا، وأنها بيعة بدعية ممتدة من معين الصوفية.

لأنه ليس في الإسلام إلا بيعة واحدة في الإمامة العظمى هي البيعة الجامعة، تنعقد بموافقة أهل الشوكة والحل والعقد في الأمة(٣).

يقول الشيخ بكر: إن البيعة في الإسلام واحدة، من ذوي الشوكة (أهل الحل والعقد) لولي أمر المسلمين وسلطانهم، وإن مادون ذلك من البيعات الطرقية والحزبية في بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة، كلها بيعات لا أصل لها في الشرع، لا من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ، ولا عمل صحابي ولا تابعي، فهي بيعات مبتدعة، وكل

الحديث (٢٥٢٩) وأبو داود، كتاب الفرائض، باب في الحلف، رقم ا ث (٢٩٢٦) ولفظ البخاري حدثنا محمد بن الصباح حدثنا إسماعيل بن زكريا حدثنا عاصم قال: قلت لأنس بن مالك ﷺ: أبلغك أن رسول الله ﷺ قال: لاحلف في الإسلام ؟ فقال: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري

(١) حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات ص(١٢٢)

(٢) المرجع السابق ص(١٣٥)

(٣) المرجع السابق ص (١٦١)

بدعة ضلالة، وكل بيعة لا أصل لها في الشرع، فهي غير لازمة العهد، فلا حرج ولا أثم في تركها ونكثها، بل الإثم في عقدها، لأن التعبد بها أمر محدث لا أصل له ناهيك عما يترتب عليها من تشقيق الأمة، وتفريقها شيعا، وإثارة الفتن بينها، واستعداء بعضها على بعض، فهي خارجة عن حد الشرع، سواء سميت بيعة أو عهدا أو عقدا[١].

أما وجة النظر الأخرى والتي يمثلها الدكتور صلاح الصاوي، فهو يرى أن العمل تحت لواء الجماعة ضرورة في هذا العصر ووسيلة للتمكين للدين، ويقسّم النصوص الواردة في مفهوم الجماعة إلى قسمين هما:

١. الجماعة في مقابلة الفرق والأهواء، ويرجع معنى الجماعة فيها إلى الحق والسنة، ويقابلها التفرق في الدين، ويسمى المخالف لها مبتدعا وضالا، وإن كان لازماً للإمام ومتمسكا ببيعته.

واستدل على ذلك بأدلة منها ما رواه أبو داود عن أبي عامر الهوزني عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: « ألا إن أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة»[٢].

يقول: والجماعة بهذا المعنى لا يشترط لها قلة ولا كثرة، بل هي موافقة الحق وإن خالفه أهل الأرض.

ويرى أن الخروج عن الجماعة بهذا المعنى تنشأ عنه الفرق، وأن الفرق هي التي تحزبت على أصول كلية تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة، وأنه يجري مجرى الأصول الكلية، كثرة الجزئيات[٣].

الطائفة الثانية من النصوص التي ورد فيها ذكر الجماعة: يفهم منها أنها دلت على أن الجماعة بمعنى الاجتماع على الإمام، والطاعة للسلطان ما لم يُرمنه كفر بواح، يقول: والجماعة بهذا المعنى تقع في مقابلة البغي والتفريق في الراية يسمى المفارق لها باغيا

---

(١) المرجع السابق ص(١٦٣-١٦٤)

(٢) رواه الإمام أحمد (١٠٢/٤) وأبو داود وقد سبق تخريجه (٤٥٩٧)

(٣) انظر مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي ص (٣٠-٣١) د. صّلاح الصاوي الطبعة الأولى (١٤١٣هـ) الآفاق الدولية للإعلام

وناكثا وإن كان من أهل السنة.

واستدل على ذلك بأدلة منها ما رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية »[١].

ويرى أن الخروج عن الجماعة بهذا المعنى تتفاوت مراتبه بحسب الباعث عليه، فقد يكون حِرابة إذا كان لقطع السبيل أو سفك الدماء أو أخذ الأموال، وقد يكون بغيا، إذا كان لطلب الملك، سواء كان بتأويل سائغ أو غير سائغ، وقد يكون كفرا، إذا كان ردة عن الإسلام وانحيازا لمعسكر الكافرين.

ويرى أنه بناء على ما يفهم من النصوص المتقدمة يمكن أن يميز بين مدلولين لمعنى الجماعة هما:

١. الدعوة أو المنهج الذي تحمله هذه الجماعة.

٢. الدولة أو القوة اللازمة لحماية هذا المنهج والتمكين له في واقع الحياة.

وباجتماع هذين الأمرين معا يتحقق المدلول الشامل لجماعة المسلمين[٢].

ويتفق الدكتور الصاوي مع الشيخ بكر في أنه لا مجال ولا مكان لحزب أو جماعة إسلامية، إذا انعقدت الراية على الكتاب والسنة، وجماعة المسلمين على منهاج الإسلام الصحيح، وولاية إسلامية لم يظهر منها كفر بواح.

يقول: وفي هذه الحالة لا يجوز تفريق جمع المسلمين بإيجاد حزب إسلامي، أو جماعة إسلامية يعقد على أساسها الولاء والبراء، أو تتضمن منازعة السلطان على هذه الأرض التي حالها كذلك.

لكنه لم يستمر في موافقته للشيخ في عدم جواز إقامة أي جماعة مادام الحال هكذا، ففرق في الأمر فقال: بأن الخروج على الجماعة بالمفهوم الثاني – أي الدولة – والسعي

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/٢٩١و٣١٠) والبخاري واللفظ له،كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورا تنكرونها) رقم الحديث (٧٠٥٤) ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، حديث رقم (١٨٤٩)

(٢) انظر مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية ص (٣٢-٣٣)

لنقض بيعة الإمام، مرفوض في هذه الحالة، ولا منازعة في ذلك.

أما بالمفهوم الأول - وهو المنهج والدعوة - فإنه قال: بالجواز واشترط لذلك ثلاثة شروط هي:

١. ألا تتحزب على أصل بدعي يخالف أصول أهل السنة والجماعة، أو بدع جزئية كثيرة.

٢. ألا يقصد بها منازعة السلطان المسلم الذي يحكم في الناس بشرع الإسلام، ولا السعي في نقض بيعته أو حل عقدة إمامته.

٣. ألا تعقد الولاء والبراء على هذه الأعمال التي انتصبت للقيام إليها لأن معقد الولاء والبراء هو الكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة لا غير[١].

ويرى أنه في حالة تخلف شرط من هذه الشروط، يتوجه القول بالمنع، والمنع في هذه الحالة مؤسس على تخلف هذا الشرط أو ما يفضي إليه تخلفه من الخلل، لا على إلغاء شرعية التعاقد على الخير، أو الاجتماع عليه[٢].

أما الحالة الثانية التي ذكرها الشيخ بكر وهي: ما إذا كان المسلم في بلد فيه جماعة مسلمون، لكن ليست ولايته إسلامية، وقد حث الشيخ كما تقدم، على اعتزال الفرق المخالفة للإسلام، والمختلفة عليه، وليكن اعتقاده وعمله ودعوته على منهاج النبوة، وسيرة السلف الصالح.

فيرى الدكتور الصاوي أنه والحالة هكذا، لا وجود للجماعة بمعنى الدولة أو القوة اللازمة لحماية المنهج والتمكين له، وأن الرايات المنعقدة على العلمانية وتحكيم القوانين الوضعية، والتحاكم إلى إرادة الأمة بدلا من التحاكم إلى الكتاب والسنة، لا شرعية لها، ولا انعقاد لهذه الولاية[٣].

وهل تتمثل جماعة المسلمين في هذه المواقع في هذه الولايات بحيث يعتبر لزومها لزوما للجماعة، والخروج عليها بغيا ونكثا للصفقة؟

---

(١) مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي ص(٣٩)

(٢) المرجع السابق ص(٤٠)

(٣) المرجع السابق ص(٦٢- ٦٣)

يقول: إن الذي نقطع به ويقطع به كل من شـــهد للّــه بالوحدانيــة ولمحمــد ﷺ بالرسالة أن الولايات المنعدمة شرعا، لقيامها على تحكيم القوانين الوضعيــة والإقــرار بالحق في التشريع المطلق لعباد من دون الله، وإهدارها لسيادة الشريعة، وتجريم التحاكم عليها، لا ولاية لها على مسلم في نفس ولا مال، ولا صلة لها بجماعة المسلمين(١).

أما لزوم الجماعة التي بمعنى الدعوة والمنهج فيرى أنـــه ممكـــن في أي ظـــرف، لأن الاستقامة على عقيدة أهل الحق والتمسك بأصول أهل السنة والجماعة مقدور للمسلم في جميع الأحوال، ولا علاقة له بشرعية أو عدم شرعية الولايات، إذا كانت الولايـــة غير إسلامية، ولا صلة لها بجماعة المسلمين، فهل يدخل النـــاس في هـــذه الولايـــات الطاغوتية ويعتذرون بعارض الإكراه والضرورة؟ أم يبقون أوزاعا متفرقين، لا يجمعـــهم جامع، ولا يربط شتات رأيهم رابط؟

يجيب على ذلك بقوله: إن جماعة المسلمين في ظل انعدام الولاية الإسلامية، تتمثـــل في أهل الحل والعقد من علماء الأمة وأهل الشوكة فيها ممن لا يزال ولاؤهم للإســـلام وانتسابهم إلى الشريعة، ويصبح لزوم هذه الجماعة والطاعة لها في غير معصية، وتقـــديم من اتفقت على تقديمه، لزوما لجماعة المسلمين، الذي جعلته النصوص المخـــرج مـــن الفتن عندما يخيم الشر، ويؤول أمر الناس إلى دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليـــها قذفوه فيها(٢).

وفي هذه الحالة التي تكون فيها الأمة تحت ولاية غير إسلامية، يرى أن الجهاد لنصـــب الإمام وإقامة الدين وتحكيم الشريعة فرض على الكافة، علـــى أن إقامـــة الفرائـــض الجماعية، من استفاضة البلاغ، وإقامة الحجة، والأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكـــر، وإعداد العدة للجهاد ونحوه، تبقى فرائض متعينة، لأن سقوط الولاية لا يعني ســـقوط التكليف بهذه الواجبات، لكنه يقر بأنه لا سبيل لأدائها مع الفُرقة والتهارج، ويتســـاءل عن المخرج؟

فيجيب قائلا: في هذه المرحلة يأتي دور الجماعات الإســـلامية باعتبارهـــا تجمعـــات

---

(١) المرجع السابق ص(٦٦)

(٢) المرجع السابق ص (٦٨- ٦٩)

مرحلية في الطريق إلى جماعة المسلمين، وغاية هذه الجماعات في نظره، أن تتولى إعداد الطليعة المجاهدة والقاعدة الإيمانية الصلبة التي تجعل من قضية الإسلام همّها الأول، وشغلها الأكبر في هذه الحياة(١).

أما كيف تكون هذه الجماعات على رسم منهاج النبوة فيرى أن ذلك يتحقق بأربعة شروط هي:

١. لزوم الجماعة في إطارها العلمي

٢.عدم الإنكار على المخالف في المسائل الاجتهادية

٣.تبني المفهوم الصحيح والشامل لجماعة المسلمين

٤. عقد الولاء والبراء على أساس الإسلام لاغير(٢).

أما جواز عقد البيعة لهذه الجماعات فيرى أنه ينبغي أن تصطلح على رأس تلتزم له بالطاعة حتى، ينتظم أمرها، وتنضبط حركتها، وشبه البيعة لها، بأمير السفر والحج، حيث اعتبر هذه بيعات جزئية على مهام خاصة، وليس على عموم النظر للمسلمين.

وهذه البيعة عهد على الطاعة في حدود مهمة معينة، أو مهام محددة اتفق عليها المجتمعون، ولا تلزم إلا لمن ارتضى بها، ويرى أنه لا مانع من أن يطلق على هذا الاتفاق أو العهد لفظ البيعة، ويبرر هذا الجواز بأن حقيقة البيعة، أنها عهد على الطاعة(٣).

أما ما يكون عليه المسلم إن ابتلي بالإقامة العارضة في دار من ديار الكفر والتي نصح الشيخ بكر فيها بأن ينضم المسلم إلى أخيه، ليلتئم تناثرهم ويعيشوا على حال يحمون بها دينهم ويطمعون في الدعوة إلى الله.

فقد أبدى الدكتور الصاوي عدم فهمه لمراد الشيخ من قوله: أن ينضم المسلم إلى أخيه، وقوله: أن يعيشوا على حال يحمون بها دينهم ويطمعون في الدعوة إلى الله.

وقال: إن حديث الشيخ مجمل يحتمل في الفهم وجوها متعددة، وتساءل قائلا: هل

---

(١) المرجع السابق ص(٧٢)

(٢) المرجع السابق ص(٧٦-٨١)

(٣) المرجع السابق ص(٨٤-٩٤-٩٥)

يجيز الشيخ للمسلمين أن ينشؤا جماعة لهم في هذه البلاد، وقد ذكر أنه لا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بسمع وطاعة، أم أن ذلك لا يجوز؟

وأضاف قائلا: إن الشيخ لم يذكر لنا موقف المسلم من الجماعات الإسلامية الموجودة في هذه الديار[1].

وتساءل الدكتور الصاوي باستغراب عن الجماعة التي تعتبر مخالفتها باسم أو رسم مخالفة للصراط المستقيم وتساقُطٍ على جنبتيه، في بلد المسلمون فيه أقلية، وإقامتهم فيه عارضة.

أما إنشاء الجماعات في هذه البلاد، فقال: إنه إن كان من جنس التعاون على الخير فيما لا يقدر المسلم على أدائه منفردا، من الفروض الجماعية، ولم يتحزب أهلها على أصول أهل البدع، ولم يعقدوا الولاء والبراء على أساسها، ولم يستعلوا بها على من سواهم من المسلمين، فهي جماعات ميمونة راشدة، والعكس بالعكس.

أما عن البيعة لهذه الجماعات، ففرق فيه كتفريقه السابق بين البيعة على عموم النظر للمسلمين، والبيعة التي من جنس الاتفاق والعهد[2].

أما تعدد الجماعات فيرى أنه إن كان تعدد تخصص وتنوع، تتكامل به الجهود، ويتكافل به المسلمون في أداء الفرائض الكفائية، ولم يفض إلى تنازع ولا فساد، فإنه مقبول، بشرط التنسيق والتشاور، والتأكيد المتجدد على أخوة الإيمان، وأن معقد الولاء والبراء إنما هو الإسلام ورسم منهاج النبوة.

وإن كان تعدد تشاحن وتنازع، يخترق به سياج الأمة ويتفرق الناس به شيعا وأحزابا، كان مردودا مذموما[3].

---

(1) المرجع السابق ص(١٣٥-١٣٦)

(2) المرجع السابق ص(١٤٠)

(3) المرجع السابق ص(١٤١)

الفصل الثاني

أسباب الاختلاف بين الدعاة

تمهيد:

الإنسان مخلوق ضعيف تنطوي نفسه على نقص وضعف يقول الله تعالى: {يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا}(١) ويقول عز وجل: {ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا}(٢) ويقول تعالى: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}(٣) وقوله تعالى: {خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين}(٤) وقوله تعالى: {لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط} (٥).

وهذه النقائص التي جبل عليها بنو آدم لايسلم منها إلا من خصه الله بعنايته، والحازم من بني آدم هو من تكون معرفته لما رُكب في طبعه من استعداد للوقوع في المعاصي والنقائص، حافزا له لاجتنابها، وإن قُدّر وزلت به القدم فوقع في شيء منها كان له في أبيه آدم أسوة في سرعة الإقلاع عن الذنب والرجوع إلى الحق، فحين وسوس الشيطان لآدم وأوقعه في المعصية وأكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها سرعان ما عاد إلى ربه واستغفر لذنبه قال تعالى: {ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن

---

(١) سورة النساء (٢٨)

(٢) سورة الإسراء (١١)

(٣) سورة الأحزاب (٧٢)

(٤) سورة النحل (٤)

(٥) سورة فصلت (٤٩)

تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}[١].

أما من غلبه ضعفه وطغى عليه نقصه فوقع في معصية فأخذته العزة بالإثم وزُين له سُوء عمله، فجره ذلك إلى استمراء المعاصي وأصبح داعية إليها فإن أسوته إبليس، حيث دعاه استكباره على أمر الله حين رفض امتثال أمره له بالسجود لآدم إلى المعاندة والتمرد قال تعالى: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين، قال أنظرني إلى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين، قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين}[٢].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس {إلى يوم يبعثون} واستوثق إبليس بذلك أخذ في المعاندة والتمرد فقال: {فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم} أي كما أغويتني قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه عن {صراطك المستقيم} أي طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي[٣].

وإن معرفة مواضع النقص والضعف التي تنطوي عليها النفس البشرية من أهم الأسباب المعينة على توقي هذه النقائص وتجنب الوقوع في شيء منها.

---

(١) سورة الأعراف (١٩- ٢٣)

(٢) سورة الأعراف (١١- ١٧)

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٠٤/٢)

والدعاة إلى الله بالرغم من أنهم يتشرفون بالقيام بالدعوة التي هي مهمة الرسل والأنبياء من قبلهم، إلا أن ذلك لا يخرجهم عن كونهم بشر يشتركون مع بني جنسهم في الصفات البشرية، لذلك لايمتنع عقلا أن يقع من بعضهم الزلل ومجانبة الصواب في بعض الأمور وكما قيل: الكامل من عُدت هفواتُه ولاتعد إلا من قلة.

ومن الأسباب الداخلية التي تؤدي إلى اختلاف الدعاة وتنازعهم، والتي منشؤها الطبيعة البشرية والنفس الإنسانية الأمارة بالسوء، ما يبتلى به بعض الدعاة من التعصب أو الحسد، أو خفاء الحق الذي مع مخالِفه، فينطلق بسبب هذه الأدواء إلى منازعة أخيه والبغي عليه وجحد ما معه من الحق واتهامه بما ليس فيه.

وسنتناول هذه الأسباب في هذا المبحث عسى أن يكون بيانها وكشف عوارها دافعا للتنفير منها والحذر من الوقوع فيها.

والله المستعان وبه الثقة

المبحث الأول: الأسباب الداخلية

١- التعصب:

التعصب لغة: من العصبية، والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناويهم ظالمين كانوا أو مظلومين، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا[١].

إن التعصب المذموم هو التعصب الأعمى لأي متبوع من أجل العرق أو الدم أو اللون أو اللغة أو الثقافة وهو من تقاليد الجاهلية التي شجبها القرآن الكريم والسنة المطهرة بقوة وجلاء[٢] قال تعالى: {إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية}[٣].

قال البقاعي[٤]: الحمية: المنع الشديد والأنفة والإباء الذي هو في شدة حره ونفوذه في أشد الأجسام كالسم والنار، ولما كان مثل هذه الحمية قد تكون موجبة للرحمة بأن تكون لله قال مبينا معظما لجرمها: {حمية الجاهلية} التي مدارها مطلق المنع أي سواء كان بحق أو بباطل فتمنع من الإذعان للحق ومبناها التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع، ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المكرمة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء، ومن الإقرار بالبسملة، فأنتجت لهم الحمية أن تكبروا على كلمة التقوى، وطاشوا وخفوا إلى الشرك الذي هو أبطل الباطل[٥].

وسمى النبي ﷺ انتساب المهاجري إلى المهاجرين والأنصاري إلى الأنصار حين كان ذلك على سبيل العصبية والحمية دعوى الجاهلية، ففي الصحيحين من حديث جابر بن

---

(١) لسان العرب، كتاب الباء باب (العين) (٦٠٦/١)

(٢) انظر الإسلام في عالم متغير ص(٢٤) أبو الحسن الندوي، نقلها إلى العربية علي عثمان، مكتبة الحياة

(٣) سورة الفتح (٢٦)

(٤) إبراهيم بن عمر بن حسن بن أبي بكر البقاعي، مؤرخ أديب اصله من البقاع في سورية، سكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس، والقاهرة، توفي في دمشق سنة ٨٨٥هـ، له كثير من المصنفات منها: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) و مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) وغيرهما، انظر نظم الدرر (٣١/١) والأعلام للزركلي (٥٦/١)

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٣٠/١٨) برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

عبد الله[١] قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين و غلام من الأنصار فنادى المهاجر أو المهاجرون يال المهاجرين و نادى الأنصاري يال الأنصار فخرج رسول ﷺفقال: ما هذا دعوى أهل الجاهلية قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر قال: فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما إذا كان ظالما فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلوما فلينصره»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذان الاسمان المهاجرون والأنصار اسمان شرعيان جاء بهما الكتاب والسنة وسماهما الله بهما كما سمانا المسلمين من قبل وفي هذا، وانتساب الرجل إلى المهاجرين والأنصار انتساب حسن محمود عند الله وعند رسوله ليس من المباح الذي يقصد به التعرف فقط،كالانتساب إلى القبائل والأمصار ولا من المكروه أوالمحرم كالانتساب إلى ما يفضي إلى بدعة أو معصية أخرى، ثم مع هذا لما دعى كل منهما طائفته منتصرا بها أنكر النبيﷺ ذلك وسماها دعوى الجاهلية حتى قيل له إن الداعي بهما إنما هما غلامان، لم يصدر ذلك من الجماعة فأمر بمنع الظالم وإعانة المظلوم ليبين النبيﷺ أن المحذور إنما هو تعصب الرجل لطائفته مطلقا، فعلُ أهل الجاهلية، فأما نصرهما بالحق من غير عدوان فحسن واجب أومستحب[٣].

ويتضح من حديث النبي ﷺ الفرق بين التعصب المذموم والدفاع عن الحق، فنصرة الأخ لأخيه على من اعتدى عليه، ودفاعه عن الحق وتمسكه به لا تعد تعصبا مذموما بل هي عين الحق والو اجب.

ويفرق الشيخ محمد الغزالي بين هذين المعنين بقوله: إن التعصب وصف رديء عندما يكون معناه جمود الفكر وانحصار الأفق والتشبث بالهوى والجنوح إلى الباطل مهما بدا

---

(١) حابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري، أحد المكثرين عن النبيﷺ شهد العقبة وكثيرا من المشاهد مع رسول اللهﷺ كانت له حلقة بالمسجد النبوي يؤخذ عنه العلم، توفي سنة ٧٤هـ وقيل ٧٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٨٩/٣-١٩٠-١٩٤) والإصابة (٤٣٤/١ـ٤٣٥)

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم الحديث (٣٥١٨) ومسلم واللفظ له، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، حديث رقم (٢٥٨٤)والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المنافقين (٣٣١٥) ومسند الإمام أحمد (٣٢٤/٣و٣٢٨و٣٨٥و٣٩٢)

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢١١/١)

عواره، ويجعله الغزالي مرادفا للإيمان والجهاد عندما يكون أثرا لاحترام الحق وإكبار أهله ودعم جانبهم وكره عدوهم[١].

فمنشأ التعصب ضعف في النفس وجهل في العقل، بينما التمسك بالحق ينشأ من القناعة بالرأي ووضوح الدليل.

وطريق المتعصب هو الصد عن معرفة دليل المخالف أو الاستماع إليه أو اعتباره في النظر بأي وجه من الاعتبار[٢]، وذلك مثل فعل أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون الحق قبل ظهور الناطق به والداعي إليه فلما جاءهم الناطق به من غير طائفة يهووها لم ينقادوا له[٣]، قال تعالى: {وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}[٤].

وذلك بعد أن قال تعالى: {وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين}[٥] بينما طريق المتمسك بالحق المناقشة الحرة والاستماع إلى دليل المخالف برحابة صدر واتساع أفق.

وثمرة التعصب: الاختلاف و الفرقة و التباغض و أما ثمرة التمسك بالحق فهي مراجعة المخالفين لمناهجهم ورجوعهم إلى الحق[٦].

وأحاديث النبي ﷺ تبين ذلك وتدل عليه، فليس من العصبية دفاع الرجل عن قومه إذاكانوا على الحق، ففي سنن أبي داود عن سراقة بن مالك المدجلي[٧] قال: خطبنا

([١]) انظر مجلة لواء الإسلام ص (١٦) العدد الثالث، السنة (٢٦) ذو القعدة ١٣٩١هـ مقال تحت عنوان (متى نتعصب) الشيخ محمد الغزالي

([٢]) مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين و تفرقهم ص(٨١) محمد العبده و طارق عبد الحليم، دار الأرقم، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ

([٣]) اقتضاء الصراط المستقيم (٧٣/١)

([٤]) سورة البقرة (٩١)

([٥]) سورة البقرة (٨٩)

([٦]) مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم ص (٨١)

([٧]) سراقة بن مالك المدجلي، أسلم يوم الفتح، كان قبل إسلامه ممن طلب رسول ﷺ وأبا بكر اثناء الهجرة ليسلمه لقريش فدعا عليه النبيﷺ فساخت رجلا فرسه ثم إنه طلب الخلاص وألا يدل عليه وبعد إسلامه قال له النبيﷺ: كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟ فلما جاء عهد عمر لبس سراقة سوارى كسرى، توفي سنة ٢٤هـ انظر البداية والنهاية(١٦٩/٧) والإصابة (٤١/٣ـ٤٢)

رسول الله ﷺ فقال «خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم»[1].

وعن فسيلة بنت واثلة بن الأسقع[2] قالت: سمعت أبي يقول: سألت رسول ﷺ فقلت: يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: «لا ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم»[3].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا وجوب التجرد من اتباع شخص بعينه في كل ما يقول سواء أدركته العقول أم لم تدركه: ومما يجب أن يعلم أن الذي يريد أن ينكرعلى الناس ليس له أن ينكر إلا بحجة وبيان، إذ ليس لأحد أن يلزم أحدا بشيء ولا يحظر على أحد شيئا بلا حجة خاصة، إلا رسول الله ﷺ المبلغ عن الله الذي أوجب على الخلق طاعته فيما أدركته عقولهم، وما لم تدركه وخبره مصدق فيما علمناه و ما لم نعلمه، وأما غيره إذا قال هذا صواب أو خطأ، فإن لم يبين ذلك بما يجب به اتباعه، فأول درجات الإنكار أن يكون عالما بما ينكره وما يقدر الناس عليه، فليس لأحد من خلق الله كائنا من كان أن يبطل قولا أو يحرم فعلا إلا بسلطان الحجة وإلا كان ممن قال الله فيهم: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه}[4][5].

وذكر الإمام الشوكاني نماذج من العلماء الذين ثبتوا على الحق بالرغم من كثرة مخالفيهم والمنكرين عليهم فيما ذهبوا إليه مما ترجح لديهم، فكانت العاقبة لهم، فقال: سأذكر هنا جماعة ممن اشتهرت مذاهبهم وانتشرت أقوالهم وطارت مصنفاقم بعدهم،

---

[1] رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في العصبية، رقم الحديث (٥١٢٠) وقال أبو داود: أيوب بن سويد ضعيف، وأيوب بن سويد هو: الرملي السيباني أبو مسعود، قال الإمام أحمد: ضعيف، وقال ابن معين ليس بشيء يسرق الأحاديث، وقال البخاري: يتكلمون فيه، وقال النسائي: ليس بثقه، انظر تهذيب التهذيب، (٢٥٦/١)

[2] هي جميلة ويقال خصيلة ويقال فسيلة بنت واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر، روت عن أبيها، روى لها البخاري في الأدب وابن ماجه فقالا: فسيلة عن أبيها و لم يسميا أباها، وأما أبو داود فقال: ابنة واثلة عن أبيها و لم يسميها، ذكرها ابن حبان في الثقات، انظر الإصابة (٥٩١/٦) وتهذيب التهذيب (٥٨٦/٦)

[3] رواه الإمام أحمد واللفظ له (١٠٧/٤) وأبو داود، كتاب الأدب، باب في العصبية، رقم الحديث(٥١١٩) وابن ماجة، كتاب الفتن، باب العصبية، رقم الحديث (٣٩٤٩) وقال الألباني ضعيف، انظر ضعيف سنن ابن ماجة ص (٣٢١)

[4] سورة غافر (٥٦)

[5] مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢٤٥/٣)

وما أصابهم من المحنة، كإمام دار الهجرة مالك بن أنس[١]، فإنه بلي بخصوم وعاداه ملوك فنشر الله مذهبه في الأمصار واشتهر من أقواله ما ملأ الأنجاد والأغوار.

وذكر الإمام أحمد و ما جرى له من المحن وكيف أن ضربه بين يدي بعض خلفاء بني العباس كان سببا في نشر مذهبه في الآفاق وصار بذلك إمام الدنيا.

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه لما أبان للناس فساد الرأي وأرشدهم إلى التمسك بالدليل وصدع بما أمره الله به ولم يخف في الله لومة لائم، قام عليه طوائف من المنتسبين للعلم المنتحلين له من أهل المناصب وغيرهم، يفتون تارة بسفك دمه وتارة بتشريده وتارة باعتقاله، فنشر الله من فوائده ما لم يُنشر بعضه لأحد من معاصريه[٢] اهـ.

ومن المؤسف أن المحذور قد وقع فتجد أن من أسباب فرقة الدعاة واختلافهم تعصب بعضهم لجماعة أو متبوع فيصل الأمر بمن هذا شأنه إلى عدم الإقرار لغير جماعته أو مذهبه في الفقه أو غيره، فيسقط المصادر الأخرى كلها مع شرعيتها سوى ما جاء عن جماعته، أو متبوعه، ويعادي ويوالي بناء على هذا الأمر.

وذكر الشيخ بكر أبو زيد صورا للتعصب يؤدي إليها الانتماء للأحزاب والجماعات نختار منها ما يلي:

١- أن الجماعات التي يسميها الشيخ بكر الفرق: ضربت بقيود التحكم على سبيل الدعوة إلى الله تعالى، فجعلت العنوان لمزاولة العمل الإسلامي والتحرك داخل حزام الخط الإسلامي هو حمل بطاقة الحزب إن كان له بطاقة أو الانتماء إليه فحسب.

٢- يرتبط في أفئدة شباب الأمة المنتمين إلى الأحزاب الربط الشديد بين الفكر الحزبي والعمل الإسلامي أي لاعمل إلا بحزب[٣].

---

(١) الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة في زمانه، أحد الأئمة الأربعة وينسب إليه المذهب المالكي، ولد بالمدينة سنة ٩٣هـ، كان صلبا في دينه ثقة في الفقه و الحديث، توفي بالمدينة سنة ١٧٩هـ، من مصنفاته (الموطأ) و (تفسير غريب القرآن) وغيرهما، انظر سير أعلام النبلاء (٨/٤٣ـ٤٤) والبداية والنهاية (١٠/١٨٧) والأعلام (٥/٢٥٧)

(٢) انظر أدب الطلب ومنتهى الإرب ص (٤٢ – ٤٤) للإمام الشوكاني، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن

(٣) انظر حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ص (١٣٨)

٣- أن في الحزبية تحجيم الإسلام، فلا ينظر إليه إلا من خلالها، فهو تجمع حول شخص وقيادة معينة في أطر مخصوصة، وربما كان الحزب لا يحمل من أنوار النبوة إلا بصيصا ولا كمصباح راهب[١].

٤- يطغى الاهتمام بمسألة القيادة والزعامة والجماعة على الفكرة والمنهج والأصول التي تبنى عليها أصول الجماعة في دعوتها، وهذا يؤول إلى أن يعتبر الأفراد أنفسهم جنودا للقيادة لا للدعوة والغاية[٢].

٥- ومن صور التعصب التي يراها الشيخ بكر لدى المنتمين للجماعات أنها تنتج شركة مبيدة للإخاء الإسلامي بمنظوره العام إذ تبني حجابا كثيفا دون ذلك، فلقاء مسلمين من حزبين، قلبُ كل منهما معمق وفق تخطيط ومنهج لا يلتقي مع الآخر في الشعار، أو في كل أو بعض ما وراء الرمز والشعار، من الضرورة بمكان أن يكون شيء من التناكر في القلوب .

٦- يقع بين الجماعات التنابز بالألقاب، ومن هذا تسمية بعض الجماعات المعاصرة من ينتمي إليهم (أخا) وأنه (فاهم) و (ملتزم)، ومن لم ينتم إلى الجماعة باسم الآخرين ومن أحبهم ولم ينضم إليهم ينبزونه باسم (متعاطف) و (متعاون)، والعالم الذي لم ينتم بلقب بأنه ليس واعيا أو غير واع بالواقع أو غير فاهم للواقع وإلصاق التهم الكاذبة بالعلماء والتنفير منهم والنظر إليهم بعين السخط والاستصغار[٣].

وفي لقاء مع الشيخ الألباني في مجلة المجتمع ذكر موقفا جرى له مع بعض الشباب المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين، فيذكر أن شباب الإخوان بدؤا يتجاوبون مع دعوته ويحضرون دروسه ويدعونه لإلقاء محاضرات في أماكنهم، لكنهم قلبوا له ظهر المجن وبدؤا يصدون أفرادهم ويمنعوهم من التردد على دروسه، مما أدى إلى وقوع نقاش بينهم حيث يرغب الأفراد في الحضور والاستفادة من الدروس التي تلقى ويخشون أن يحرموا من حضورها، فكانت إجابة القيادة بأنه لا يمكنُ الجمع بين الولاءين إما

---

(١) المرجع السابق ص (١٤١)

(٢) المرجع السابق ص (١٤٥)

(٣) المرجع السابق ص (١٤٧-١٤٩)

الإخوان وإما الشيخ وكانت النتيجة أن تم فصلهم، ولما قيل لبعضهم أنت رجل مسلم فتخلق بأخلاق الإسلام كيف تفعل ذلك؟ قال: إن هذا قرار القيادة ويجب أن نخضع له[١].

ويذكر الشيخ علي بن حسن عبد الحميد مظهرا جديدا من مظاهر التعصب يرى أنه من أخطر ما أفرزته الحزبية ودعاتها وهو اصطلاح جديد: وهو علماء الحركة وعلماء الواقع، والمفكر، والحركي، حتى يعصفوا بالأمة ويعزلوها عن علمائها الحقيقيين علماء الشريعة، ويرى أن هذا التقسيم قريب الشبه من اصطلاح الصوفية (عالم بالحقيقة وعالم بالشريعة) من وجوه منها:

الحيلولة بين الناس وبين علماء الشريعة، وادعاء علم لم يبلغه علماء الشريعة ولم يقفوا عليه.

والمتعصبون للأحزاب والجماعات قالو عالم بالحركة وعالم بالشريعة، وبلغ بهم الأمر– كما يقول الشيخ علي – أن تطاولوا على كبار علماء الأمة مثل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ المحدث ناصر الدين الألباني والشيخ محمد صالح العثيمين بحجة تجهيلهم بالواقع، وغير ذلك من الشبهات التي غرسوها في أذهان الشباب.

وقد أدى فعلهم هذا إلى شر عظيم تمثل في فصل الدعوة عن علمائها الحقيقيين، حملة الكتاب والسنة، فأذهبوا هيبة العلم، ووضعوا الهالات على الحركة والحركيين .

فإذا قلت: قال العلامة ابن باز ؛ قالوا: جاهل بالواقع، وإن قلت: قال الشيخ المحدث ناصر الدين الألباني؛ قالوا جاهل بالسياسة[٢].

أما الأسباب التي تؤدي إلى التعصب والخروج عن الحق فقد بينها الإمام الشوكاني في كتابه أدب الطلب فأجاد – رحمه الله – وأفاد، ولأهمية معرفة هذه الأسباب فسنأتي على ذكرها باختصار، فيذكر الإمام الشوكاني من أسباب التعصب ما يلي:

---

(١) لقاء مع الشيخ محمد ناصر الألباني في مجلة المجتمع، العدد (٥١٩) في ١٠ / ٣ / ١٩٨١

(٢) انظر الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي ص.(٦٢–٦٤) على بن حسن بن علي بن عبد الحميد، مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى(١٤١٢هـ)

١- النشوء في بلد متمذهب بمذهب معين:

وهو أكثرها وقوعا وأشدها بلاء: أن ينشأ طالب العلم في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معين، واقتدوا بعالم مخصوص، وهؤلاء قد ألفوا هذه المذاهب وصاروا يعتقدون أنها هي الشريعة و أن ما خرج عنها خارج عن الدين مباين لسبيل المؤمنين، وأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم، وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة(١).

ومثل هذا التعصب يقع بين أتباع بعض الجماعات الذين يرون أن مناهج الجماعة هي الإسلام و أن الخروج عن هذه المباديء ومخالفتها هو الابتداع.

٢- حب الشرف والمال:

فمما يصد عن الحق ويؤدي إلى كتمانه والوقوف في صف أعدائه حب الشرف والمال اللذين هما أعدى على الإنسان من ذئبين ضاريين كما وصف ذلك رسول الله ﷺ(٢).

يقول الإمام الشوكاني: ووقع في الإسلام من أهل العلم بذلك السبب عجائب مودعة بطون كتب التاريخ، وكم من عالم قد مال إلى هوى ملك من الملوك فوافقه على ما يريد وحسن له ما يخالف الشرع وتظهر له بما ينفق لديه من المذاهب(٣).

٣- الجدال والمراء وحب الانتصار والظهور:

من جملة الأسباب التي تؤدي إلى التعصب وترك الإنصاف وكتم الحق ما يقع بين أهل العلم من الجدال والمراء، فإن الرجل قد يكون له بصيرة وحسن إدراك ومعرفة بالحق ورغبة إليه فيخطئ في المناظرة ويحمله الهوى ومحبة الغلب وطلب الظهور على الاستمرار على خطئه والدفاع عنه وتقويم معوجه بالجدال والمراء.

وبعض من يسلك هذا المسلك قد يجاوز ذلك إلى الحلف بالأيمان على صدق ماقاله،

(١) أدب الطلب ص (٤٠)

(٢) يشير الإمام الشوكاني إلى الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي عن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من إرادة المرء المال والشرف لدينه، الترمذي في كتاب الزهد باب (٤٣) رقم الحديث (٢٣٧٦) والإمام أحمد (٣/٤٥٦و٤٦٠).

(٣) انظر المرجع السابق (٥٤-٥٥)

وصواب ماذهب إليه، وكثير منهم يعترف بعد أن تذهب سورة الغضب، وتزول عنه نزوة الشيطان، بأنه فعل ذلك تعمدا مع علمه بأن الذي قاله غير صواب[١].

والمتأمل في واقع كثير من الدعاة الذين ينتمون إلى أحزاب أوجماعات أو متبوعين يجد هذا الأمر فيهم ظاهرا، فتجده يحمل كلام من يخالفه على أسوء محامله، ويُحمّل الألفاظ مالا تحتمل، لأجل إثبات التهمة التي يريد أن يرمي بها مخالفه، أما من يتعصب لهم فإن الأمر خلاف ذلك حيث يبرر أخطاءهم المحققة، ويتمحل لهم الأعذار.

وإن العجب ليأخذ بك كل مأخذ حين تجد من ينتسب إلى العلم والدين وهو يرد ما أيده الدليل، لمجرد أن قائله يخالفه في الانتماء إلى فئة معينة مع أن الله أمر بقبول الحق ممن قاله والانصاف حتى مع العدو، يقول تعالى: {ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين}[٢].

ويقول عز وجل: {ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}[٣].

٤- حب القرابة والتعصب للأجداد:

ومن الأسباب المفضية للتعصب أن يكون بعض سلف المشتغل بالعلم قد قال بقول و مال إلى رأي، فيأتي هذا الذي جاء بعده فيحمله حب القرابة على الذهاب إلى ذلك المذهب، والقول بذلك القول، وإن كان يعلم أنه خطأ، وأقل الأحوال إذا لم يذهب إليه أن يقول فيه إنه صحيح ويتطلب له الحجج ويبحث عن ما يقويه، وإن كان بمكان من الضعف، ومحل من السقوط، وليس له في هذا حظ ولا معه فائدة، إلا مجرد الانتصارلمن يعرفه، والتزين لأصحابه بأنه في العلم معرق، وأن بيته قديم فيه [٤].

ويشبه التعصب للآباء الذي ذكره الشوكاني التعصب للقادة والمتبوعين، فكم من

---

(١) انظر المرجع السابق ص (٥٨)

(٢) سورة النساء (١٣٥)

(٣) سورة المائدة (٨)

(٤) انظر أدب الطلب (٥٩)

متمسك بقول مدافع عنه ليس لأنه يرى أنه الحق ولكن لأن فلانا من الناس قاله.

٥- صعوبة الرجوع إلى الحق الذي قال بخلافه:

من آفات التعصب الماحقة لبركة العلم: أن يكون طالب العلم قد قال بقول في مسألة، ويشتهر ذلك القول عنه، فإنه قد يصعب علية الرجوع عنه إلى ما يخالفه، وإن علم أنه الحق، وتبين له فساد ما قاله.

ولا سبب لهذا الاستصعاب إلا تأثير الدنيا على الدين، فإنه قد يسول له الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء أن ذلك ينقصه، ويحط من رتبته، ويخدش في تحقيقه، ويغض من رئاسته[١].

وهذا الذي شكا منه الإمام الشوكاني ما أكثر ما يقع في عصرنا الحاضر، فكم من قول تبين لقائله مجانبته للصواب فمنعته الأنفة وحب الانتصار وعدم التسليم للأقران بصحة ما استُدرك عليه، ودعاه ذلك إلى التعصب للقول وإن كان خطأ، وتفنيد أدلة المخالف و إن كانت في موضع الاستدلال، ولو أنه تأمل قول النبي ﷺ الذي رواه الترمذي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[٢] لهان عليه الرجوع إلى الحق، ولعلم أن ذلك لن يزيده إلارفعة، ولو استشعر الخوف من الله تعالى والخشية من أن يكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام}[٣] لمنعه ذلك من المخاصمة بغيرحق، قال البخاري: باب قوله تعالى: {وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} وروى بسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[٤].

وقد يبلغ الإعجاب ببعض الناس فيما هم عليه مبلغا لا يرون منهجا أقوم من

---

(١) المرجع السابق ص(٨٨-٨٩)

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/١٩٨) والترمذي واللفظ له، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب رقم(٤٩) رقم الحديث (٢٤٩٩) وابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم الحديث(٤٢٥١) وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع رقم الحديث(٥٦٢١)

(٣) سورة البقرة (٢٠٤)

(٤) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، رقم الحديث (٢٤٥٧)

منهجهم ولا طريقة أفضل من طريقتهم، لا سيما من كُثر أتباعُهم وانتشرت مبـــاديء دعوتُهم، يقول الشيخ حسن البنا: وموقفنا من الدعوات المختلفة التي طغت في هـــذا العصر ففرقت القلوب وبلبلت الأفكار أن نزنها بميزان دعوتنا فما وافقها فمرحبا بـــه وماخالفها فنحن براء منه، ونحن مؤمنون بأن دعوتنا عامة محيطة لاتغادر جزءا صالحـــا من أية دعوة إلا ألمت به وأشارت إليه[١].

وفي مذكرات الدعوة والداعية يقول البنا: موقفنا من الدعوات في هذا البلد دينيـــة واجتماعية واقتصادية وسياسية، بناء على طبيعة دعوتنا موقف واحد على ما أعتقـــد نتمنى لها جميعا الخير وندعو لها بالتوفيق، وإن خير طريق نسلكه ألا يشغلنا الإلتفات إلى غيرنا، عن الإلتفات إلى أنفسنا ..... وستسمعون أن قوما يريدون أن يتصلوا بكم وأن تتصلوا بهم من أهل العمل إما صادقين أو غير صادقين، فأحب أن أقول لكم هنا بكـــل وضوح إن دعوتكم هذه أسمى دعوة عرفتها الإنسانية، وإنكم ورثـــة رســـول الله ﷺ وخلفاؤه على قرآن ربه وأمناؤه على شريعته وعصابته التي وقفت كل شـــيء علـــى إحياء الإسلام في وقت تصرفت فيه الأهواء والشهوات وضعفت عن هـــذا العـــبء الكواهل، وإذا كنتم كذلك فدعوتكم أحق أن يأتيها الناس ولاتأتي هي وتستغني عـــن غيرها، إذ هي جماع كل خير وما عداها لايسلم من النقص، إذا فأقبلوا على شـــأنكم ولاتساوموا على منهاجكم واعرضوه على الناس في عز وقوة فمن مد لكم يده علـــى أساسه فأهلا ومرحبا، في وضح الصبح وفلق الفجر وضوء النهار، أخ لكم يعمل معكم ويؤمن إيمانكم وينفذ تعاليمكم، ومن أبى ذلك فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه[٢].

وقول الشيخ حسن البنا رحمه الله نزن الدعوات المختلفة بميزان دعوتنا فما وافقـــها فمرحبا به وماخالفها فنحن براء منه، أظن أنه شكل من أشكال العصبيـــة إذ المـــيزان الذي توزن به الأقوال والأعمال هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أما ما عداه من كـــلام البشر فإنه يعرض على الكتاب والسنة فإن وافقهما فقبوله متعين لامناص منه بغـــض النظر عن القائل، والعكس بالعكس.

---

(١) مجموعة الرسائل ص (١٧)

(٢) مذكرات الدعوة والداعية ص (٢٦٢-٢٦٣).

٣- الحسد:

قال ابن منظور في تعريف الحسد: الحسد معروف، حَسَدَه يَحْسِدُه ويَحْسُدُه حَسَدا وحَسَّدَه إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته أو يسلبهما[١].

أما الجرجاني في تعريفاته فقال: الحسد: تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد[٢].

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: الحسد هو تمني زوال النعمة عن المنعَم عليه وخصه بعضهم بأن يتمنى ذلك لنفسه، والحق أنه أعم، وسببه أن الطباع مجبولة على حب الترفع، فإذا رأى لغيره ما ليس له أحب أن يزول ذلك عنه ليترفع عليه أو مطلقا ليساويه[٣].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها[٤]».

قال الحافظ: وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة وأطلق الحسد عليه مجازا، وهي أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة، فإذا كان في الطاعة فهو محمود، وإن كان في المعصية فهو مذموم، وإن كان في الجائزات فهو مباح، فكأنه قال في الحديث: لا غبطة أعظم، أو أفضل من الغبطة في هذين الأمرين[٥].

لكن في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ما يشعر بعدم موافقته للحافظ ابن حجر في تسميته للحسد المذكور في الحديث بالغبطة، واعتباره أن تسمية الرسولﷺ له بالغبطة هي من باب المجاز، بناء على ما يعتقده رحمه الله من أنه ليس في اللغة العربية مجاز،

---

(١) لسان العرب كتاب (الدال)باب (الحاء) (٣/ ١٤٨)

(٢) كتاب التعريفات ص (٩٢)

(٣) فتح الباري (١/ ٢٠٠)

(٤) رواه البخاري واللفظ له، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم الحديث (٧٣) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، حديث رقم (٨١٦) وابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحسد، رقم الحديث (٤٢٠٨) والإمام أحمد(١/ ٣٨٥و٤٣٢)

(٥) انظر فتح الباري (١/ ٢٠١)

فضلا عن كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، و يرى أن تسميته بالحسد سببها ما قام في نفس الموصوف بالحسد من كراهية أن يفضل أحدٌ عليه مما دعاه إلى تمني ما أنعم الله به على غيره فيقول: فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

ويبرر تسميته بالحسد بقوله: فإن قيل إذا لم سمي حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إنعامه على الغير، وكراهته أن يفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يفضل عليه الغير كان حسدا لأن كراهته تتبعها محبة، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء[1].

وهذه المرتبة التي أشار إليها شيخ الإسلام من كون الإنسان يحب أن ينعم الله عليه دون التفات إلى أحوال الناس، مرتبة عالية قل من يصل إليها، وهي التي بسببها بشر النبيﷺ أحد الأنصار بالجنة، ففي مسند الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه في يده الشمال فلما كان الغد قال النبي ﷺ: مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ: : مثل مقالته أيضا فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص[2] فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال: نعم قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تَعَارَّ وتَقَلَّبَ على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث ليالٍ وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(١٠/١١٣)

(2) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، روى الكثير عن النبيﷺ وعن عمر وأبي الدرداء ووالده عمرو وعن غيرهم، أسلم قبل أبيه وكان من علماء الصحابة وعبادهم، شهد فتح الشام مع أبيه، ولاه معاوية الكوفة، توفي سنة ٦٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٣/٧٩-٨٠- ٩٤) والإصابة (٤/١٩٢ـ١٩٤)

هجر ثمَّ ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملُك فأقتدي به فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق»[1].

ماورد في التحذير من الحسد:

في الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال:« لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»[2] قال الحافظ ابن رجب[3]: فقوله ﷺ: «لا تحاسدوا» يعني لا يحسد بعضكم بعضا، و الحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل[4].

والحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا القليل من الناس ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه، وقيل للحسن البصري[5]: أيحسد المؤمن؟ فقال- ما أنساك إخوة يوسف لا أبالك ولكن عمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولسانا[6].

---

[1] رواه الإمام أحمد (٣/١٦٦) وسنده على شرط الصحيحين حيث رواه الإمام أحمد فقال: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري قال أخبرني أنس بن مالك.

[2] رواه البخاري واللفظ له، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم الحديث (٢٤٤٢) و مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، حديث رقم (٢٥٥٩) وأبو داود، كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، رقم الحديث (٤٩١٠) والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الحسد، رقم الحديث(١٩٣٥) والإمام أحمد (٢/٩١)

[3] الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الحنبلي، ولد في بغداد ونشأ بها وتوفي في دمشق، توفي في شهر رجب سنة خمس وتسعين وسبعمائة ودفن بمقبرة الباب الصغيرانظر الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، ابن ناصر الدين الدمشقي ص (١٨٨ــ١٩٠) تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط(٣) (١٤١١هــ) والأعلام للزركلي (٣/٢٩٥)

[4] جامع العلوم والحكم (٢ /٢٦٠) الإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الشهير بابن رجب تحقيق، شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة ط (٣) ١٤١٣هــ

[5] التابعي الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمانه، أحد الفقهاء الفصحاء النساك، ولد في المدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب، سكن البصرة وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، توفي بالبصرة سنة ١١٠هــ انظر البداية والنهاية (٩/٢٩٧، ٣٠٣) والأعلام (٢/٢٢٦)

[6] مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٠/١٢٤- ١٢٥)

ويكفي في بيان قبحه والتحذير منه، أنه ذنب إبليس الذي من أجله أخرج من الجنة حيث حسد آدم عليه السلام لما رآه قد فاق على الملائكة، أنه خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء[١].

كما أنه صفة من صفات اليهود التي عُرفوا بها وانطوت عليها نفوسهم، وخصوا هذه الأمة منه بالنصيب الوافر فحسدوها على الإيمان بالله واتباع النبي ﷺ قال تعالى:{ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير}[٢] **وحسدوا نبيناﷺ على النبوة التي أكرمه الله بها قال تعالى:** {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما}[٣].

قال ابن كثير: {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله} **يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ومنعَهم من تصديقهم إياه حسدُهُم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل[٤].**

وقد أخبر النبي ﷺ أن داء الحسد سيصيب هذه الأمة ويفشو فيها كما فشا في غيرها من الأمم المتقدمة، وهذا الإخبار منه ﷺ وهو الرحيم بأمته المشفق عليها متضمن التحذير من هذا الداء، ففي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي عن الزبير بن العوام ﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٢٦٠)

(٢) سورة البقرة (١٠٩)

(٣) سورة النساء (٥٤)

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/٥١٣)

(٥)رواه الإمام أحمد واللفظ له (١/١٦٤و ١٦٧) والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم(٥٦) رقم الحديث(٢٥١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده ضعيف لانقطاعه فيعيش بن الوليد بن هشام بن معاوية بن هشام بن عقبة بن أبي معيط ثقة ولكنه لم يدرك الزبير وسيأتي الحديث ثلاثة مرار كلها عن مولى لآل الزبير عن الزبير فهذا المولى مجهول، وبعد أن بين الشيخ أحمد شاكر سبب ضعفه قال: والحديث في ذاته صحيح من حديث أبي هريرة ورواه أيضا مسلم من حديث أبي هريرة ، المسند بشرح أحمد شاكر (٣/٦-٧) وحديث أبي هريرة الذي أشار إليه الشيخ رواه مسلم في كتاب الإيمان ورقمه(٥٤) والترمذي في كتاب الاستئذان ورقمه(٢٦٨٨) وهو في كلا الموضعين ليس فيه اللفظ الذي استشهدت به، وإنما هو بلفظ (لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم) مع اختلاف يسير بين الروايتين

وخرج أبو داود من حديث أبي هريرة[١] عن النبي ﷺ قال:« إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب»[٢].

ومع ورود الآيات في كتاب الله تعالى التي ذكر فيها الحسد في سياق الذم لمن اتصف به، وكذلك الأحاديث النبوية التي حذرت من الحسد وبينت خطره ومحقه للأعمال الصالحة، إلا أنه قل من يخلو قلبه من وجود شيء منه، قل أوكثر، أُظهر أو أُخفي، ولم يقتصر وجوده وأثره على عامة الناس دون خاصتهم، بل نال بعضَ المنتسبين للعلم والدعوة نصيب من هذا الداء، وقد أدى وقوعه إلى التنازع والاختلاف وبغي بعضهم على بعض فما أسباب الحسد؟ وكيف يقع ممن سبيلهم اتباع النبي ﷺ في الدعوة إلى الله على بصيرة؟.

أسباب الحسد:

يورد الإمام أبو حامد الغزالي[٣] أسبابا للإصابة بداء الحسد، تصلح للإجابة على السؤال المتقدم وهذه الأسباب هي باختصاركما يلي:

١ ــ العداوة والبغضاء: وهذه أشد أسباب الحسد فإنه من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبُه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد، والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه.

٢ــ التعزز: وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره، فإذا أصاب بعضُ أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتفاخر عليه وهو لا يرضى أن يترفع عليه.

٣ــ الكبر: وهو أن يتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف

---

(١) عبد الرحمن بن صخر الدوسي، أسلم في السنة السابعة للهجرة فلزم النبيﷺ وكان من أصحاب الصفة، استعمله عمر على البحرين، ثم سكن المدينة وتوفي بها سنة ٥٩هـ انظر البداية والنهاية(٨/١١١-١١٢-١٢٢) والإصابة(٧/٤٢٥-٤٢٧-٤٤٢-٤٤٤)

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في الحسد (٤٩٠٣) وفيه إبراهيم بن أبي أسيد البَرَّاد المَدِيني روى عن:جده، ولم يسمّه، عن أبي هريرة، قال أبو حاتم: شيخ مديني، محلّه الصدق، وذكره ابن حبان في «الثقات» انظر تهذيب التهذيب (١/٧٢) ترجمة رقم(١٨٨) وجده الذي روى عنه هذا الحديث مجهول قال الحافظ ابن حجر فيه: يحتمل أن يكون مولى قريش وإلا فلا يعرف، تهذيب التهذيب (٦/٥٥٦) ترجمة رقم(١١٦١٧)

(٣)محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الملقب بحجة الإسلام فيلسوف متصوف، وفقيه من فقهاء الشافعية، ولد في طوس بخراسان سنة ٤٥٠هـ، رحل إلى نيسابور وبغداد وبلاد الشام ومصر توفي بطوس سنة ٥٠٥هـ ، انظر طبقات الشافعية(٦/١٩١-٢٢٤) والأعلام للزركلي(٧/٢٢)

أن لا يحتمل ترفعه عن متابعته، أو ربما يتشوق إلى مساواته أو إلى أن يترفع عليه.

٤ــ التعجب: وقد كان التعجب سببا في صد الناس عن اتبــــاع الرســـل دون أن تكون بينهم وبين الرسل عداوة سابقة لكنهم تعجبوا أن يُبعث رسول منهم لـــه مثـــل صفاهم كما قص الله تعالى ذلك في كتابه حيـــث يقـــول تعـــالى: {فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا}(١) وقوله: {ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون}(٢) فتعجبوا مـــن أن يفـــوز برتبة الرسالة والوحي بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنـــهم جزعـــا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين: {أبعث الله بشرا رسولا}(٣).

ووقوع التعجب في النفس ليس خاصا بالكفار دون غيرهم وليس شرطا أن يكـــون التعجب مانعا من قبول الحق فقد يستحسن الإنسان ما يتعجب منه ويزداد به تعلقـــا وإيمانا، ولكن بعض النفوس يتحرك فيها داء الحسد عندما تتعجب من شيء هـــي في حقيقة الأمر قد استحسنته وكرهت وقوعه لغيرها، فتحسد من حصل له هذا.

٥ ــ الخوف من فوات المقاصد: وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد ومـــن ذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيـــل المـــال بالقبول عندهم وكذلك تزاحم العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة.

٦ــ حب الرئاسة وطلب الجاه لنفسه:

٧ــ خبث النفس وشحها لعباد الله تعالى: فهو أبدا يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمـــة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه(٤).

---

(١) سورة المؤمنون (٤٧)

(٢) سورة المؤمنون (٣٤)

(٣) سورة الإسراء (٩٤)

(٤) إحياء علوم الدين (٣ /٢٠٥ ــ ٢٠٦)

بين من يقع الحسد؟

أكثر ما يقع الحسد بين من بينهم اشتراك في صنعة أو غرض، يقول الغزالي: ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها وسُرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته، وكذلك الشجاع لا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض، وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع، ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد(١).

لذا فلا يستغرب أن تقع الوقيعة من بعض الدعاة بإخوانهم ممن يشاركونهم مهمة الدعوة إلى الله، سعيا للحط من قدرهم وصرف الناس عنهم لتتجه الأنظار إليهم ولتسمع مواعظهم.

ومنشأ ذلك كما قال الغزالي هو حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، أما الآخرة فلا ضيق فيها، فمن يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سماواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، فلذلك لايكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضا فيما عند الله تعالى.

لكن الغزالي يذكر الدوافع النفسية لوقوع الحسد ممن ظاهر عملهم خدمة الدين والدعوة إليه، وهم في الحقيقة مقصدهم بخلاف ما يصرحون به فيبدو الحسد من سيماهم ولحن قولهم حين يتكلمون في أعراض إخوانهم الدعاة، فيقول الغزالي: نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت منها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب، ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة، فيكون سببا للمحاسدة،

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٠٧)

وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وأن يفرح بذلك، والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه(١).

أحوال الناس مع الحسد:

الحسد داء غالب على بني آدم فلا ينجو منه إلا القليل، لكن أحوال الناس تتفاوت حال إصابتهم بالحسد على أحوال هي كما يلي:

١ـ أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أحسن منه، وينقسم الناس في هذا إلى أقسام هي:

أ ـ من يسعى في زوال النعمة عن المحسود بالبغي عليه بالقول والعمل ويسعى في نقل ذلك إلى نفسه.

ب ـ من يسعى في إزالة النعمة عن المحسود فقط من غير نقل إلى نفسه وهذا غاية الخبث.

ج ـ من إذا حسد غيره لم يعمل بمقتضى حسده ولم يبغ على المحسود بقول ولا فعل، وهو إما أن يكون مغلوبا على ذلك ولا يمكنه إزالة الحسد من نفسه، وإما أن يحدث نفسه بذلك اختيارا ويعيده ويبديه في نفسه مستروحا إلى تمني زوال نعمة أخيه، وهذا يبعد أن يسلم من البغي على المحسود ولو بالقول.

٢ـ أن لا يتمنى عين ما عند أخيه بل يسعى في اكتساب مثل ما عنده ويتمنى أن يكون مثله فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما.

٣ـ أن يشتهي لنفسه مثل ما عند أخيه فإن لم يحصل، فلا يحب زوالها عنه بل يسعى في اكتساب مثل فضائله ويتمنى أن يكون مثله.

٤ـ من إذا وجد من نفسه الحسد سعى في إزالته وفي الإحسان إلى المحسود وبإسداء الإحسان إليه والدعاء له ونشر فضائله وفي إزالة ما وجد له في نفسه من الحسد حتى يبدله بمحبة أن يكون أخوه المسلم خيرا منه وأفضل، وهذا من أعلى درجات الإيمان

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٠٧)

وصاحبه هو المؤمن الكامل الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه(١).

الفرق بين الحسد والمنافسة:

قد يتنافس شخصان في أمر محبوب مطلوب، كل منهما يطلب أخذه لنفسه والاستئثار به دون الآخر، وذلك كراهية أن يتفضل عليه أخوه، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبق الآخر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: التنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود في الخير قال تعالى: {إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون}(٢).

فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم لا يتنافس في نعيم الدنيا الزائل وهذا موافق لحديث النبي ﷺ فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به، ومن أوتي المال فهو ينفقه، فأما من أوتي علما ولم يعمل به ولم يعلمه، أو أوتي مالا ولم ينفقه في طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله فإنه ليس في خير يرغب فيه.

والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم فلهذا لم يذكره النبي ﷺ في الحديث وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال.

والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة، ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد في من ليس كذلك، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب، وهذا ينفعهم بقوت الأبدان، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا(٣).

ولكن هل الأفضل بالنسبة للإنسان أن يكون قلبه خال من المنافسة بحيث يدفعه للعمل الرغبة فيما عند الله تعالى دون النظر إلى غيره؟ .

يبين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بذكر منافسة عمر ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٠/١١١-١١٢) وجامع العلوم والحكم (٢/٢٦٠- ٢٦٣) وإحياء علوم الدين (٣/٢٠٤)

(٢) سورة المطففين الآيات من (٢٢ -٢٦)

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٠/١١٣-١١٥)

عنهما فيقول: وعمر بن الخطاب ﷺ نافس أبا بكر ﷺ الإنفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما فجئت بنصف مالي قال: فقال لي رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك» قلت: مثله، وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده فقال له رسول الله ﷺ«ما أبقيت لأهلك» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية معلقا على ذلك: فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق ﷺ أفضل منه وهو أنه خال من المنافسة مطلقا لا ينظر إلى حال غيره.

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح[٢] ونحوه وكانوا سالمين من جميع هذه الأمور فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحا، ولهذا استحق أبو عبيدة ﷺ أن يكون أمين هذه الأمة، فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما أؤتمن عليه كان أحق بالإمامة ممن يخاف مزاحمته.

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال: {ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة}[٣] أي مما أوتي إخوانهم المهاجرون.

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك فهو منافسة فيما يقربهم من الله.

أما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق} (يودون)

([١]) رواه أبو داود واللفظ له، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، رقم الحديث (١٦٧٨)والترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما، رقم الحديث (٣٦٧٥) وقال الترمذي حديث حسن صحيح

([٢]) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، هاجر الهجرتين وشهد كثيرا من المشاهد مع رسول الله ﷺ، قال فيه النبي ﷺ:«لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» ولاه عمر قيادة جيوش الشام بدلا من خالد بن الوليد، توفي سنة ١٨هـ.انظر البداية والنهاية (٧/١٠٧-١٠٨) و الإصابة (٣/٥٨٦ـ٥٩٠)

([٣]) الحشر (٩)

أي يتمنون ارتدادكم حسدا، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود، من بعد ما تبين لهم الحق، لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل، بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم.

فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد، والكاره لتفضله، المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه من الله، فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطي، مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل[1].

الموقف من كلام الأقران بعضهم في بعض:

نقل العلماء الذين صنفوا في التراجم والسير صورا من التنازع والاختلاف بين علماء مشاهير اتفقت الأمة على الأخذ عنهم وقبول مرويا تهم لكن الحسد دفع بعضهم إلى الوقيعة في أقرانهم، إما لأنهم فاقوهم بالعلم وحصلوا منه ما ليس عندهم، أو لما نالوه من الجاه والقبول عند الناس، فانصرفت إليهم الأنظار، واجتمع حولهم الطلاب، ومن ذلك ما وقع للإمام البخاري رحمه الله تعالى وهو من هو في الفضل والعلم فهل يدور بالخاطر أن يذهب هذا الإمام إلى شيء من أقوال الجهمية، وقد صح عنه أنه قال: (إني لأستجهل من لا يكفر الجهمية)[2] وهل يصدق عاقل أن الإمام البخاري رحمه الله تعالى يقول بأن القرآن مخلوق أو كلاما نحو هذا وهو القائل: (القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر)[3].

لكن إماما من الأئمة وعلما من علماء الإسلام وحافظا من الحفاظ، ممن لا يسع المسلم إلا الاعتراف بفضله والترحم عليه وهو محمد بن يحيى الذهلي[4]، اتُهم بالحسد للإمام البخاري كما روى ذلك أصحاب التراجم والسير، ففي طبقات الشافعية

([1]) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٠/١١٦-١٢١)

([2]) طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٣٠) لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق، الدكتور عبد الفتاح الحلو والدكتور محمود الطناحي، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ

([3]) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٥٦)

([4]) محمد بن يحيى بن عبد الله الإمام العلامة الحافظ البارع شيخ الإسلام وعالم أهل المشرق، وإمام أهل الحديث بخرسان جمع علم الزهري وصنفه وجوده، من أجل ذلك يقال له الزهري، وانتهت إليه رئاسة العلم والعظمة والسؤدد ببلده وكانت له جلالة عظيمة بنيسابور من نوع جلالة الإمام أحمد ببغداد أو مالك بالمدينة ت (٢٥٨هـ) انظر سير أعلام النبلاء(١٢/٢٧٣-٢٧٤-٢٤٨)

الكبرى للسبكي(١) أن الحسن بن محمد بن جابر قال: قال لنا الذهلي، لما ورد البخاري نيسابور: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح، فاسمعوا منه، فذهب الناس إليه، وأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل في مجلس الذهلي، فحسده بعد ذلك وتكلم فيه(٢)يروى في سبب كلامه في الإمام البخاري أن رجلا سأل الإمام البخاري فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثا فألح عليه فقال البخاري: (القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة) فشغب الرجل وقال: قد قال لفظي بالقرآن مخلوق.

وقال أبو حامد بن الشرقي(٣): سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل فاتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه(٤).

قال السبكي ولا يرتاب المنصف في أن محمد بن يحيى الذهلي لحقته آفة الحسد التي لم يسلم منها إلا أهل العصمة وقد سأل بعضهم البخاري عما بينه وبين محمد بن يحيى فقال البخاري:كم يعتري محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء(٥).

قال الذهبي(٦): وسافر ابن إسماعيل مختفيا من نيسابور، وتألم من فعل محمد بن يحيى،

---

(١) القاضي عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، ولد في القاهرة وانتقل إلى دمشق مع والده، ونسبته إلى سبك من أعمال المنوفية بمصر، انتهى إليه قضاء القضاة في الشام ثم عزل، توفي في دمشق سنة ٧٧١هـ، من تصانيفه، انظر طبقات الشافعية (٩/١-١٥) تحقيق د.محمود الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو نشر هجر للطباعة والنشر ط ١٤١٣هـ. و الأعلام للزركلي (١٨٤/٤)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٢٢٨/٢)

(٣) أحمد بن محمد بن الحسن، أبو حامد بن الشرقي، ولد سنة ٢٤٠هـ، حافظ الحديث، رحل إلى الأمصار وجاب الأقطار وسمع من الكبار، نظر إليه ابن خزيمة يوما فقال: حياة أبي حامد تحول بين الناس وبين الكذب على رسول الله، توفي سنة ٣٢٥ انظر البداية والنهاية (١١/ ١٣) والأعلام للزركلي (١/ ٢٠٦)

(٤) هدى الساري مقدمة فتح الباري ص (٥١٥) الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ط(١) (١٤٠٧هـ) دار الريان للتراث

(٥) طبقات الشافعية (٢/ ٢٣٠)

(٦) الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤرخ علامة محقق، ولد في دمشق ورحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، له تصانيف تقارب المائة منها: (سير أعلام النبلاء) و (تذكرة الحفاظ) و (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) وغيرها، توفي بالشام سنة ٧٤٨هـ.انظر البداية والنهاية (١٤/ ٢٥٩-٢٦٠) و الأعلام (٥/ ٣٢٦)

ومازال كلام الكبار المتعاصرين بعضهم في بعض لا يلوى عليه بمفرده، رحم الله الجميع وغفر لنا آمين[١].

وما جرى بين هذين العلمين يدل على أن الإنسان مهما علا قدره وعظم شأنه ليس بمنجاة من الوقوع في الخطأ، فكيف بمن هو دون ذلك، وإذا كان هذا الداء قد أبتلي به من عاشوا في القرون المفضلة، فكيف بمن جاؤا بعدهم ممن قل حظهم من العلم والدين، فكثر كلام بعضهم في بعض، ولم يقتصر الأمر على وقوع الحسد بين الأقران الذين هم مظنة وقوع ذلك بينهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله: اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئا من العلم وحُرِمه قرناؤُه وأشكالُه، حسدوه فرموه بما ليس فيه وبئست الخصلة في أهل العلم[٢]، بل تعدى الأمر إلى أن حسد الناشئة مَنْ فوقهم وتجرؤا على الخوض في أعراضهم واتهام نياتهم ونسبوا إليهم ما هم منه براء، سعيا لتنفير الناس عنهم وجلب المصالح لأنفسهم.

فما الموقف الحق والحالة هكذا؟ هل تسقط بذلك عدالة من تُكلم فيه؟ وهل يقبل قول الجارح بلا بينة؟.

هذا الأمر قد غلط فيه كثير من الناس وضلت فيه نابتة جاهلة لا تدري ما عليها في ذلك، والصحيح كما يقول أبو عمر بن عبد البر[٣]: أن من صحت عدالته وثبتت في العلم إمامته وبانت ثقته وبالعلم عنايته لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببينة عادلة يصح بها جرحته على طريق الشهادات، والعمل فيها من المشاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب تصديقه فيما قاله لبراءته من الغل والحسد والعداوة والمنافسة، وسلامته من ذلك كله يوجب قبول قوله من جهة النظر، وأما من لم تثبت إمامته ولا عرفت عدالته ولا صحت لعدم الحفظ والإتقان روايته، فإنه ينظر فيه إلى ماتفق أهل العلم عليه، ويجتهد في قبول ما جاء به على حسب ما يؤدي النظر

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٨٥/١٢)

(٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء (٧٣٩/٢)(حاشية) تهذيب محمد حسن عقيل، دار الأندلس، الطبعة الأولى ١٤١١هـ

(٣) الإمام العلامة حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، ولد بقرطبة سنة ٣٦٨هـ، ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها، توفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ، من مصنفاته: (جامع بيان العلم وفضله) و (الكافي في الفقه) و(الاستيعاب) وغيرها انظر سير أعلام النبلاء (١٥٣/١٣-١٦٢) والبداية والنهاية (١٢٧/١٢) والأعلام (٢٤٠/٨)

إليه والدليل، على أنه لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين إماما في الدين قول أحد من الطاعنين: إن السلف رضي الله عنهم قد سبق من بعضهم في بعض كلام كثير، منه في حال الغضب ومنه ما حمل عليه الحسد[1].

ثم ذكر الإمام ابن عبد البر وقائع كثيرة جرت بين بعض السلف حيث تكلم بعضهم ببعض بكلام فيه قسوة وجفاء وبعد عن الحق، لمن ثبتت عدالته ورسخت في الدين إمامته، من الصحابة والتابعين، وبين أن من قبل قول بعضهم في بعض قد ضل ضلالا مبينا، وختم هذا الباب بقوله: فمن أراد أن يقبل قول العلماء الثقات الأئمة الأثبات بعضهم في بعض فليقبل قول من ذكرنا قوله من الصحابة رضوان الله عليهم بعضهم في بعض، فإن فعل ذلك ضل ضلالا بعيدا وخسر خسزانا، وكذلك إن قبل في سعيد بن المسيب[2] قول عكرمة[3]، وفي الشعبي[4] وأهل الحجاز وأهل مكة وأهل الكوفة و أهل الشام على الجملة، وفي مالك والشافعي[5] وسائر ما ذكرناه في هذا الباب ما ذكرنا عن بعضهم في بعض، فإن لم يفعل ولن يفعل إن هداه الله وألهمه رشده فليقف عند ما شرطنا في أن لا يقبل فيمن صحت عدالته، وعلمت بالعلم عنايته، وسلم من الكبائر ولزم المروءة و التصاون، وكان خيره غالبا، وشره أقل عمله، فهذا لا يقبل فيه قول

([1]) انظر جامع بيان العلم وفضله (٢/١٠٩٣-١٩٠٤) أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهري دار ابن الجوزي الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ

([2]) الإمام سعيد بن المسيب القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه، رأى عمر وسمع عثمان وعليا، كان واسع العلم، اتفقوا على أن مراسيله أصح المراسيل، مات سنة ٩٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٤/٢١٧-٢١٨-٢٢٢-٢٤٥) والبداية والنهاية (٩/١١٧-١١٩)

([3]) عكرمة مولى ابن عباس، أحد التابعين والمفسرين والعلماء الربانيين، أحد أوعية العلم، أفتى في حياة ابن عباس، طاف البلاد ونشر فيها علمه فدخل أفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان، توفي سنة ١٠٧هـ. انظرسير أعلام النبلاء (٥/١٢-١٤- ٣٤) البداية والنهاية (٩/٢٧٢-٢٧٣)

([4]) أبو عمرو، عامر بن شراحبيل الشعبي الحميري، راوية من التابعين ومن رجال الحديث الثقات، يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ بالكوفة، اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم، مات بالكوفة سنة ١٠٣هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤/٢٩٤-٢٩٦- ٣١٨) و الأعلام للزركلي(٣/٢٥١)

([5]) الإمام محمد بن إدريس الشافعي، أحد الأئمة الأربعة في الفقه وينسب إليه المذهب الشافعي، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، طلب العلم وهو صغير، زار بغداد ومصر، كان من أشعر الناس و أعرفهم بالفقه والقراءات، توفي بمصر سنة ٢٠٤هـ انظر البداية والنهاية (١٠/٢٧٤-٢٧٨) و الأعلام (٦/٢٦)

قائل لا برهان له به، وهذا هو الحق الذي لا يصح غيره إن شاء الله[١].

فما أحوجنا في هذا العصر إلى تطبيق القاعدة التي ذكرها الإمام ابن عبد البر في أنه لا يقبل فيمن صحت عدالته، وعلمت بالعلم عنايته، وسلم من الكبائر ولزم المروءة والتصاون، وكان خيره غالبا، وشره أقل عمله، فهذا لا يقبل فيه قول قائل لا برهان له به، وأن هذا هو الحق الذي لا يصح غيره إن شاء الله.

وبالرغم من أن الوقائع التي ذكرها الإمام ابن عبد البر قد جرت بين أعلام مشاهير اتفقت الأمة على إجلالهم، إلا أن هذا النزاع الذي جرى بينهم قد فُسر بأن الدافع له الحسد أو التنافس بين الأقران ولم يكن سببا في إسقاط عدالتهم أو اعتبارهم في عداد المبتدعة.

أما في وقتنا الحاضر فإن الشق قد اتسع على الراقع وعمل الحسد عمله في التفريق بين الدعاة، وكل ناعق وجد آذان صاغية تتلقف مقالته وتذكي من جانبها نار الخلاف بين الدعاة، فإلى الله المشتكى وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

[١] جامع بيان العلم وفضله (١١٧/٢)

٣-خفاء الحق:

من أسباب التفرق والتنازع بين الدعاة عدم العلم بالحق، فقد يكون كلا المختلفين يطلب الحق ويريده لكن خفاء الحق الذي مع صاحبه عنه يجعله في نزاع معه لغلبة ظنه أنه قد جانب الصواب، وكثير من مسائل الاختلاف قد تزول وتتحول إلى وفاق لو علم كل واحد من المختلفين الحق الذي مع مخالفه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ويكون سببه ــ أي الاختلاف ــ جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد إليه أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق، في الحكم أو في الدليل، وإن كان عالما بما مع نفسه من الحق حكما ودليلا[١].

وكلما ازداد الإنسان علما عرف قدر جهله وقصور فهمه، قال تعالى: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا}[٢] قال ابن كثير: أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى[٣].

والدعاة الذين لاشك أنهم ما قاموا بهذه المهمة إلا لأنهم على قدر من العلم أهلهم للقيام بها، وهم على أقل تقدير يفترض فيهم أن يكونوا على علم بما يدعون إليه، ويتفق الجميع على أنه لا يشترط فيهم أن يكونوا على إحاطة تامة بكل المسائل العلمية.

وقد يطلق وصف الجهل على إنسان ولايراد به الجهل المطلق الذي يقابل العلم، وإنما يراد به خفاء الحق أو حقيقة الأمر عليه في مسألة معينة أو مسائل قصر عنها علمه وخفيت عليه أدلتها ففهمها فهما خاطئا، أو أنها شأن من شئون غيره هي بالنسبة له أمر غيبي، وتأمل قوله تعالى في وصف الفقراء المهاجرين المتعففين عن المسألة:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٢٧-١٢٨)

(٢) سورة الإسراء (٨٥)

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٩/٦١)

{يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف}[١] فهل يقصد من إطلاق وصف الجهل على من لم يتبين له حال هؤلاء الفقراء، نفي العلم عنه مطلقا؟ أم أن المقصود وصفه بالجهل بحالهم وحقيقة أمرهم، مما يجعله لو كان بيده صدقة لبذلها إلى غيرهم ممن هو في الواقع أقل منهم فقرا؟ لا شك أن المعنى الثاني هو المقصود، قال ابن منظور: {يحسبهم الجاهل أغنياء} يعني الجاهل بحالهم، ولم يرد الجاهل الذي هو ضد العاقل، إنما أراد الجهل الذي هو ضد الخبرة، يقال هو يجهل ذلك أي لايعرفه[٢].

والدعاة يتفاوتون في القدر الذي نالوه من العلم وفي المجال الذي يتفوق به أحدهم على أقرانه، فهناك المتصدي للإفتاء المطلع على دقائق المسائل الفقهية، وهناك الأصولي البارع، والمحدث العالم بعلل الحديث وناسخه ومنسوخه، والمفسر، واللغوي، وغير ذلك من صنوف العلم.

وذِكرُ هذا السبب كواحد من أسباب الاختلاف بين الدعاة لايقصد منه وصف الدعاة بالجهل، لأن الذي أحاط بكل شيء علما هو الله سبحانه وتعالى أما من سواه فهم متفاوتون في العلم، فيكون عند العالم من العلم ما ليس عند الآخر مع أن الاثنين معدودان من العلماء، لكن خفاء بعض ما عند أحدهما من العلم عن الآخر قد يكون أحيانا سببا في تنازعهما.

وقد يكون عند طالب علم مبتدئ من العلم في مسألة من المسائل ما ليس عند بعض كبار العلماء، فلا يعني أنه بذلك بلغ درجتهم، فضلا أن يكون قد تفوق عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وإنما يتفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته، وأما إحاطة واحد بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن ادعاؤه قط.

وضرب شيخ الإسلام أمثلة بأعلم الأمة وهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم حيث خفيت عليهم مسائل أخبرهم بها من هو أقل منهم علما.

---

(١) سورة البقرة (١٧٣)

(٢) لسان العرب كتاب (اللام) باب (الجيم) (١٣٠/١١)

ومن ذلك أن أبا بكر الصديق ﷺ لما سئل عن ميراث الجدة قال: ما لك في كتاب الله من شيء وما علمت لك في سنة رسول الله ﷺ من شيء ولكن أسأل الناس، فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة(١) رضي الله عنهما فشهدا: أن النبي ﷺ أعطاها السدس(٢)، وقد بلَّغَ هذه السُّنة عمران بن حصين(٣)ﷺ وليس هؤلاء الثلاثة مثل أبي بكر وغيره من الخلفاء، ثم قد اختصوا بعلم هذه السنة التي قد اتفقت الأمة على العمل بها.

وكذلك عمر بن الخطاب لم يكن يعلم سنة الاستئذان، حتى أخبره بها أبو موسى الأشعري(٤)ﷺ واستشهد بالأنصار(٥).

إلى أن قال بعد أن ذكر أمثلة كثيرة عن خفاء الحق في بعض المسائل عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم: وهذا باب واسع يبلغ المنقول منه عن أصحاب رسول الله ﷺ عددا كثيرا جدا، وأما المنقول منه عن غيرهم، فلا يمكن الإحاطة به، فإنه ألوف، فهؤلاء كانوا أعلم الأمة وأفقهها وأتقاها وأفضلها، فمَنْ بعدهم أنقصُ، فخفاء بعض السنة عليهم أولى، فلا يحتاج ذلك إلى بيان.

فمن اعتقد أن كل حديث صحيح قد بلغ كل واحد من الأئمة أو إماما معينا، فهو

---

(١) محمد بن مسلمة بن سلمة بن عدي الأوسي الأنصاري، روى عن النبيﷺ أحاديث كثيرة، شهد كثيرا من المشاهد مع النبيﷺ استخلفه النبيﷺ على المدينة في بعض غزواته مات سنة ٤٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء (٢/٣٦٩-٣٧٣) و الإصابة (٦/٣٣-٣٥)

(٢) رواه أبو داود واللفظ له،كتاب الفرائض، باب في ميراث الجدة، رقم الحديث (٢٨٩٤) والترمذي، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة، رقم الحديث (٢١٠٠) وابن ماجة،كتاب الفرائض، باب ميراث الجدة، رقم الحديث (٢٧٢٤) وقال الألباني: ضعيف أخرجه الترمذي وكذا مالك وأبو داود وابن ماجة وابن الجارود وابن حبان والدار قطني والحاكم والبيهقي من طرق عن قبيصة به وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال الألباني تعليقا على قول الحاكم قلت: وفيه نظر لأن فيه انقطاعا وقد اختلف في إسناده ، إلى أن قال: وإسناده صحيح لصحة رجاله (!) إلا أن صورته مرسل ، فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق ولا يمكن شهوده القصة، قاله ابن عبد البر بمعناه ، وقد اختلف في مولده والصحيح أنه ولد عام الفتح فيبعد شهوده القصة ... الخ، انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٦/١٢٤-١٢٥)

(٣) عمران بن حصين بن حذيفة الخزاعي، روى عن النبيﷺ وشهد عدة مشاهد معه، كان من فقهاء الصحابة وفضلائهم، كانت الملائكة تسلم عليه، مات سنة ٥٢ هـ. انظر البداية والنهاية (٨/٦٦) والإصابة (٤/٧٠٥-٧٠٦)

(٤) عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى الأشعري، أسلم قبل الهجرة وهاجر الهجرتين، استعمله النبيﷺ على زبيد وعدن وأعمالهما، واستعمله عمر على البصرة، واستعمله عثمان على الكوفة، وكان أحد الحكمين في صفين، كان حسن الصوت بالقرآن، توفي بمكة سنة ٥٢هـ انظر البداية والنهاية (٨/٦٥) و الإصابة (٤/٢١١-٢١٣)

(٥) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص (١٤ــ١٥) شيخ الإسلام ابن تيمية،ت: زهير الشاويش، ط الثانية ١٤٠٤هـ المكتب الإسلامي، ويشير شيخ الإسلام إلى ما ورد في الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري قال كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت فقال ما منعك قلت استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت وقال رسول اللهﷺ إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع فقال والله لتقيمن عليه ببينة أمنكم أحد سمعه من النبيﷺ فقال أبي بن كعب والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبيﷺ قال ذلك، صحيح البخاري،كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا، رقم الحديث(٦٢٤٥)

مخطئ خطأ فاحشا قبيحا[١].

والمتأمل لقصة موسى مع الخضر يتضح له حقيقة الأمر، فقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أبي بن كعب[٢] عن النبي ﷺ: « أن موسى حين قال للخضر هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معي صبرا، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه[٣] » الحديث.

وكون موسى والخضر عليهما السلام خفي عليهما بعض العلم لا يقلل ذلك من مكانتهما، لكن خفاء بعض العلم الذي علمه الله للخضر عن موسى كان سببا في اعتراض موسى على الخضر ومن ثم افتراقهما.

وكثيرة هي المسائل العلمية التي جرى بسببها الاختلاف بين الدعاة بسبب خفاء الحق عن بعضهم، وقد تطور في بعض الأحيان ليصل إلى أن يصف بعضهم بعضا، بالجهل، أو الابتداع، وغير ذلك من الأوصاف التي تدل شدتها على الدرجة التي وصل إليها الاختلاف بينهم.

فما أسباب خفاء الحق على هؤلاء الدعاة حتى أدى إلى تنازعهم واختلافهم وقد بلغوا من العلم مبلغا؟.

لخفاء الحق على بعض الدعاة وتنازعهم من أجل ذلك أسباب منها ما يلي:

١ـ عدم التمكن من ربط المعارف المكتسبة بعضها ببعض ربطا منطقيا صحيحا رغم تراكم المعلومات والمعارف تراكما كميا، ومن ثم تتعدد الآراء ويحدث التنازع والشقاق بالرغم من توفر أسباب الاتفاق، وقد أورد الشاطبي[٤] موقفا جرى بين عمر وابن

([١]) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (٢١ـ٢٢)

([٢]) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد الأنصاري، كان من أصحاب العقبة الثانية، شهد بدرا والمشاهد كلها، جمع القرآن في حيلة النبي ﷺ وهو أول من كتب للنبي ﷺ، وكان عمر يسميه سيد المسلمين، توفي سنة ٣٠هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١/٣٨٩-٣٩٠-٤٠٢) والإصابة (١/٢٧ـ٢٨)

([٣]) رواه البخاري واللفظ له، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم الحديث (٧٤) ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، رقم الحديث(٢٣٨٠) والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الكهف، رقم الحديث(٣١٤٩) والإمام أحمد (٥/١١٦-١١٧-١٢٢)

([٤]) الإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، أخذ العلم عن علماء

عباس رضي الله عنهما نقلا عن تفسير سعيد بن منصور[١] قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال-كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة ـ زاد سعيد وكتابها واحد ـ قال: فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما أنزل فيكون لكل قوم فيه رأي فإذا كان كذلك اختلفوا، وفي رواية سعيد: فيكون لكل قوم فيه رأي فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا، قال فزجره عمر وانتهره علي فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه، فأرسل إليه وقال: أعد علي ماقلته، فأعاد عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه.

قال الشاطبي تعليقا على ما جرى بين عمر وابن عباس رضي الله عنهم:

وما قاله ابن عباس رضي الله عنهما هو الحق، فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعد ذلك فيها، وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أوجها فذهب كل إنسان مذهبا لا يذهب إليه الآخر وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات، فلم يكن بد من الأخذ ببادئ الرأي أو التأويل بالتخرص الذي لا يغني من الحق شيئا، إذ لا دليل عليه من الشريعة، فضلوا وأضلوا[٢].

ويقول الإمام ابن القيم: إن الاختلاف سببه اشتباه الحق وخفاؤه وهذا لعدم العلم الذي يميز بين الحق والباطل[٣].

٢ـ ممارسة الواحد منهم لما لا يصح له من العلوم دون تأهل لذلك اغترارا بقدرته وذهولا عن حقيقة علمه ومجاله فإذا به ينشغل بالكلام فيما لم يحصل رتبته ولم يبلغ

عصره فبرع فيه وفاق الأكابر، توفي سنة ٧٩٠هـ. انظر الأعلام (١/٧٥) والاعتصام للشاطبي (١/٨ـ٩) ضبط وتصحيح الأستاذ أحمد عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية، ط (٢) ١٤١١هـ

(١) الحافظ الإمام سعيد بن منصور بن شعبة، أبو عثمان الخراساني المروزي، مؤلف كتاب (السنن) سمع بخراسان والحجاز والعراق ومصر والشام من مالك بن أنس، والليث بن سعد وغيرهما، كان ثقة صادقا، توفي بمكة سنة ٢٢٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ج (١٠/٥٨٦ـ٥٩٠) وتهذيب التهذيب (٢/٣٣٨ـ٣٣٩)

(٢) الإعتصام (٢/٤٠٣-٤٠٤)

(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٢٨٦)

الدرجة التي تؤهله للخوض فيه وإبداء الرأي في مسائله ومنشأ ذلك في الغالب لما يجده الواحد من هؤلاء في نفسه من خوف التقصير وكراهة أن يسأل عما لا يعرف فيقول لا أدري[١]، فيصل إلى المرحلة التي وصفها الشاطبي بقوله: أن يعتقد في نفسه أو يُعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين ــ ولم يبلغ تلك الدرجة ــ فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأيا وخلافه خلافا[٢].

وأوضح مثال على هذا ما كتبه الشيخ محمد الغزالي أحد المفكرين المعاصرين في كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) وما ذكره فيه عن الصحيحين الذين تلقتهما الأمة بالقبول وتواترت أقوال العلماء بالإشادة بهما وقبول ما جاء فيهما من أحاديث ومن ذلك قول الإمام النووي[٣]: اتفق العلماء رحمهم الله على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان البخاري ومسلم وتلقتهما الأمة بالقبول[٤].

ونقل السيوطي[٥] عن ابن الصلاح[٦] عما جاء في الصحيحين: أن ما روياه أو أحدهما فهو مقطوع بصحته والعلم القطعي حاصل فيه[٧].

ونقل الإمام النووي في مقدمة شرحه لصحيح مسلم قول ابن الصلاح في وصف الصحيحين: ما حكم مسلم رحمه الله بصحته في هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته

---

(١) مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم ص(١٠٠)

(٢) الإعتصام (٣٩٦/٢)

(٣) الإمام يحيى بن شرف بن حسن بن حسين الحازمي، محيي الدين أبو زكريا النووي، ثم الدمشقي الشافعي، ولد بنوى (من قرى حوران) سنة ٦٣١هـ، سمع من علماء عصره وفقهائهم، فبلغت شهرته الآفاق، من تصانيفه: (شرح مسلم) و (الأذكار) و (الريلض) وغيرها، توفي بنوى سنة ٦٧٦هـ. انظر طبقات الشافعية (٣٩٥/٨ــ٣٩٩) والبداية والنهاية (٣٢٦/١٣ــ٣٢٧)

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٩/١) نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء.

(٥) الإمام الحافظ المؤرخ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، جلال الدين، نسبته إلى أسيوط بالبلاد المصرية، قرا على علماء عصره، وسافر إلى الشام والحجاز واليمن وغيرها، توفي سنة ٩١١هـ، ى له نحو ٦٠٠ مصنف منها: (الإتقان في علوم القرآن) و (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) و (وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي) وغيرها انظر الأعلام للزركلي (٣٠١/٣)

(٦) الإمام الحافظ، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح، مفتي الشام ومحدثها، سمع الحديث ببلاد الشرق وتفقه بالموصل، وحلب وغيرها، درّس بدار الحديث الأشرفية، وهو أول من وليها من شيوخ الحديث، صنف كتبا كثيرة مفيدة في علوم الحديث والفقه،كان ورعا ناسكا على طريقة السلف الصالح توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٤٠/٢٣-١٤٣) والبداية والنهاية (١٩٦/١٣)

(٢) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١٣١/١)جلال الدين السيوطي حققه وراجع أصوله: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة

والعلم النظري حاصل بصحته في نفس الأمر وهكذا ما حكم البخاري في كتابه، وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول سوى من لا يعتد بخلافه ووفاقه في الإجماع([1]).

وقال الشيخ أحمد شاكر تعليقا على قول ابن الصلاح: الحق الذي لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين، وممن اهتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها، ليس في واحد منها مطعن أو ضعف، وإنما انتقد الدارقطني([2]) وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث على معنى أن ما انتقدوه لم يبلغ في الصحة الدرجة العليا التي التزمها كل واحد منهما في كتابه، وأما صحة الحديث في نفسه فلم يخالف أحد فيها، فلا يهولنك إرجاف المرجفين، وزعم الزاعمين أن في الصحيحين أحاديث غير صحيحة، وتتبع الأحاديث التي تكلموا فيها، وانتقدها على القواعد الدقيقة التي سار عليها أئمة الحديث، واحكم عن بينة، والله الهادي إلى سواء السبيل([3]).

وبعد ذكر طائفة يسيرة من ثناء العلماء على الصحيحين نورد بعض ما تفوه به الغزالي وسطره قلمه من الطعن في الأحاديث الصحيحة الثابتة التي ردها الغزالي لشبهات علقت بذهنه وبنى عليها عوالي هي أوهى من بيت العنكبوت، وزعم أنه بذلك أتى بما لم تأت به الأوائل.

فمن ذلك انزعاجه من انتشار نسخ كثيرة من الموطأ والصحيحين وتداولهما في أيدي من يرغب في قراءهما فيقول: وقد لاحظت أن المطابع وضعت في أيدي الجماهير نسخا كثيرة من الموطأ ومن الصحيحين، وكثيرا ما يقرأ العامة أحاديث فوق مستواهم، والحديث إن لم يقدمه عالم فقيه، أو إذا لم يصحب بشرح يلقي ضوءا كاشفا على معناه، ربما كان مثار فتنة ولغط([4]).

([1]) صحيح مسلم بشرح النووي (١٩/١)

([2]) الإمام الحافظ أبو حسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني، ولد بدار القطن (من أحياء بغداد) سنة ٣٠٦هـ ورحل إلى مصر ثم عاد إلى بغداد، كان من بحور العلم، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، أول من صنف في القراءات وعقد لها أبوابا، توفي ببغداد سنة ٣٨٥هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤٤٩/١٦-٤٥٠) والبداية والنهاية (٣٦٢/١١-٣٦٣) والأعلام للزركلي (٣١٤/٤)

([3]) الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث، أحمد محمد شاكر، الحاشية ص(٣٣) ط، الأولى ١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية

([4]) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص(٣٢)

ثم شرع في رد أحاديث صحيحة ثابتة في دواوين السنة لمجرد شبهات علقت في ذهنه بنى عليها أحكامه، ولم يكتف بالرد بل شرع في تسفيه رواتها ومن وافقهم بقبولها، ومن ذلك قوله: قرأت ما رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سئل عن قوله تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}[١].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: هؤلاء خلقت للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار»[٢].

قال الغزالي بعد إيراد هذا الحديث: وهذا السياق يكاد يكون نصا في الجبر، ولذلك

([١]) سورة الأعراف (١٧٢)

([٢]) رواه الإمام أحمد واللفظ له (٤٤/١) وأبو داود (٤٧٠٣) والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، رقم الحديث(٣٠٧٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم ابن يسار وبين عمر رجلا مجهولا ، وقد أوره ابن كثير في تفسيره وبعد أن نقله عن المسند قال : وهكذا رواه أبو داود عن القعني والنسائي عن قتيبة والترمذي في تفسيرهما عن إسحاق بن موسى عن معن وابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب وابن جرير عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك ابن أنس به قال الترمذي وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جعثم القرشي عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم} فذكره وقال الحافظ الدارقطني وقد تابع عمر بن جعثم يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم، قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم بن ربيعة و لم يعرفه فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ولهذا يرسل كثيرا من المرفوعات ويقطع كثيرا من الموصولات والله أعلم ، تفسير القرآن العظيم (٢٦٢/٢-٢٦٣)، وقد صحح إسناده الشيخ أحمد شاكر فقال: أسانيده صحاح وإن كان ظاهره الانقطاع، المسند (٢٨٩/١)

بقية ص ١٦٤

نرفضه، ونراه من أوهام الرواة، بل نراه من الجهل بمعاني القرآن الكريم، فإن هـــذا التفسير المنسوب لعمر يسير في اتجاه مضاد للتفسير البديهي المفـــهوم مـــن الآيـــات البينات.

وبعد أن فسر الآيات تفسيرا مفاده أن المراد منها بيان إقامة الحجة علـــى العبـــاد بمنحهم العقل المفكر والفطرة التي تبعث على التوحيد والاستقامة فلا حجة لهم بعـــد ذلك.

قال فأين يا أولي الألباب آثار الجبر الإلهي هنا؟ وأين ما يفيد أن الله خلق ناسا للنـــار يساقون إليها راغمين وخلق ناسا للجنة يساقون إليها محظوظين، إن التعلق بالمرويـــات

المعلولة إساءة للإسلام وينبغي ألا نتجاوز كتاب ربنا وسنة نبينا فذاك نهج سلفنا الأول[١].

وهذا الحديث الذي رده الغزالي وأنكر معناه رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي في سننهما، وبعد أن أورده الإمام الترمذي قال هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار[٢] ــ وهو الذي رواه عن عمر ــ لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا مجهولا[٣].

وقال الإمام أبو عمر بن عبد البر: هذا حديث منقطع بهذا الإسناد لأن مسلم بن يسار هذا لم يلق عمر بن الخطاب ﷺ، وبينهما في هذا الحديث نعيم بن ربيعة[٤]، وهذا أيضا مع هذا الإسناد لا تقوم به حجة ــ ومسلم بن يسار هذا مجهول قيل: إنه مدني وليس بمسلم بن يسار البصري، وقال أيضا: وجملة القول في هذا الحديث: إنه حديث ليس إسناده بالقائم لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعا غير معروفين بحمل العلم[٥].

والحديث وإن كان في إسناده مقال فإن معناه صحيح لا غبار عليه، تؤيده الأحاديث الثابتة التي لا مجال للطعن فيها، يقول الإمام الخطابي تعليقا على كلام الإمام ابن عبد البر المتقدم: ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره.

فالغزالي رد هذا الحديث نظرا إلى معناه الذي زعم أنه يؤيد القائلين بالجبر وما درى أنه بإنكاره لهذا الحديث وافق الفئة المقابلة لهم والتي لا تقل عنهم شرا وانحرافا وهم القدرية، لأن معنى هذا الحديث ثابت مستفيض عن النبيﷺ، من ذلك ما رواه الإمام

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص(١٧٤ــ ١٧٦) محمد الغزالي، دار الشروق، الطبعة العاشرة ١٩٩٢م

(٢) مسلم بن يسار، أبو عبد الله البصري مولى بني أمية، روى عن ابن عباس وغيره، كان عابدا ورعا زاهدا كثير الصلاة، توفي سنة ١٠٠هــ. انظر سير أعلام النبلاء (٤/٥١٠ــ٥١٤) و البداية والنهاية (٩/٢١١)

(٣) الجامع الصحيح لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (٥/٢٤٩) دار الحديث، الطبعة الأولى ١٤٠٨هــ

(٤) نعيم بن ربيعة الأزدي روى عن عمر بن الخطاب، وروى عنه مسلم بن يسار الجهني، ذكره ابن حبان في الثقات. انظر تهذيب التهذيب(٥/٦٣٨)

(٥) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي حاشية مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري (٧/٧٢ــ ٧٣) ت: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي دار المعرفة.

أحمد والبخاري ومسلم وأبوداود والترمذي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كان النبي ﷺ في جنازة فأخذ شيئا فجعل ينكت به الأرض فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: {فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى} [١][٢]الآية.

والدليل على أن الغزالي لا ينظر إلى سند الأحاديث حين يصحح أو يضعف وأن رده للحديث السابق بسبب إنكاره لمعناه دون نظر لسنده رده لحديث آخر رواه البخاري ومسلم وغيرهما وهو ما رواه ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ ــ وهو الصادق المصدوق ــ قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه يعمل بعمل أهل النار ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة[٣].

وعلق على هذا الحديث بقوله: إن لله المثل الأعلى وعلمه بكل شيء مستيقن وعلمه السابق الذي لا يتخلف ليس سببا في نجاة ولا هلاك، إنه لا يتخلف لأنه علم الله الذي يستوي عنده الماضي والحاضر والمستقبل، والظن بأن نجاة من نجا وهلاك من هلك هو

---

(١) سورة الليل (٥ – ٦)

(٢) رواه البخاري، واللفظ له كتاب التفسير، باب(فسنيسره للعسرى) رقم الحديث (٤٩٤٩) ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم الحديث (٢٦٤٧) وأبو داود،كتاب السنة، باب في القدر، رقم الحديث (٤٦٩٤) والترمذي،كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة والليل إذا يغشى)، رقم الحديث (٣٣٤٤) الإمام أحمد(١/٨٢و ١٢٩)

(٣) رواه البخاري واللفظ له،كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم الحديث (٣٢٠٨) ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم الحديث (٢٦٤٣) وأبو داود،كتاب السنة، باب في القدر، رقم الحديث(٤٧٠٨) والترمذي، كتاب القدر، باب (ما جاء أن الأعمال بالخواتيم، رقم الحديث (٢١٣٧) وابن ماجة،المقدمة، باب في القدر، رقم الحديث (٧٦) والإمام أحمد(١/٣٨٢و ٤١٤و ٤٣٠)

أثر إكراه الله لهذا أو ذاك هو من الظن السوء وما أراه إلا كفرا.

إذا كان هذا الحديث المذكور تنويها بشمول العلم الإلهي، وأن بدايات بعض الناس قد تكون مخالفة لنهاياتهم فلا بأس من قبوله بعد الشرح المزيل للبس المبطل للجبر، أما المعنى القريب للحديث فمردود يقينا، وهو مخالف للكتاب والسنة أو العقل والنقل[١].

والمقام لا يتسع لسياق الأحاديث الكثيرة الصحيحة الموافقة لمعنى هذا الحديث إذ الهدف بيان أن عدم معرفة الغزالي بالحديث النبوي وبعقيدة السلف في القدر دفعاه لرد الأحاديث الصحيحة مما جعله عرضة لأقوال المنتقدين من الدعاة مثل الشيخ ربيع المدخلي الذي رد على كلامه السابق قائلا: أي إنه إن انقاد له الحديث ذليلا إلى مذهب المعتزلة البعيد فلا بأس به تفضلا من الغزالي.وتكرما على الحديث المسكين وإن أبى واستعصى عليه فلا يفهم منه إلا ما فهم أهل السنة والجماعة فمردود يقينا وهو مخالف للكتاب والسنة[٢].

وثمة مسائل تكلم عنها الغزالي ظهر فيها تناقضه واضطرابه ودلالتها واضحة على قلة العلم الذي يؤدي إلى التنازع والاختلاف نذكر منها ما يلي:

أ ــ يذكر الغزالي كراهيته للتعصب المذهبي حيث يقول: (وأنا أكره التعصب المذهبي وأراه قصور فقه، وقد يكون سوء خلق[٣].

لكنه سرعان ما يناقض نفسه حيث يبدي تأييده لمذهب أبي حنيفة[٤] دون غيره فيقول: وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة وإلى مواثيق حقوق الإنسان، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسواد، أو الحرية والعبودية، أو الكفر والإيمان[٥].

ب ــ يرى حل الغناء بعامة، ويضعف أحاديث النهي عنه فيقول: ولعل ما ورد في هذا الباب ما رواه البخاري معلقا عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ

([١]) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص(١٧٣ــ ١٧٠)

([٢]) كشف موقف الغزالي من السنة وأهلها ونقد بعض آرائه ص(١٩٥) د.ربيع بن هادي المدخلي، دار الجيل الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ

([٣]) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (١٤)

([٤]) الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي، فقيه العراق، أحد أئمة الإسلام، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب، وإليه ينسب المذهب الحنفي، توفي سنة ١٥٠هـ. انظرسير اعلام النبلاء (٦/٣٩٠-٣٩٢-٤٠٣) البداية والنهاية (١٠/١١٤)

([٥])السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث(٢٥)

يقـــول: «ليكونــن مــن أمــتي أقــوام يســتحلون الخــز[١] والحريــر والخمــر والمعــازف»[٢] ومعلقات البخاري يؤخذ بها لأنها في الغالب متصلة الأسانيد لكن ابن حزم[٣] يقول: إن السند هنا منقطع، لم يتصل ما بين البخاري وصدقة بن خالد[٤] راوي الحديث، نقـــول: ولعل البخاري يقصد أجزاء الصورة كلها أعني جملة الحفل الذي يضم الخمر والغنــــاء والفسوق وهذا محرم بإجماع المسلمين، قال ابن حزم عن تحريم الغناء: لا يصح في هـــذا الباب شيء أبدا وكل ما ورد فيه موضوع[٥].

وظاهر كلامه المتقدم أنه يرى أن الغناء كله جائز وأنه لا يوجد دليل صحيح يقـــول: بتحريمه، لكنه يأتي في موضع آخر ويفرق فيقول: أما الغناء فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حـــرج عليـــه، ومــا نحارب إلا غناء هابط المعنى واللحن[٦].

ج ــ زعمه بأنه يحتج بظاهر القرآن، وأنه بذلك يقتدي بعمـــر بـــن الخطـــاب ﷺ واستشهد بعدم قبول عمر ﷺ قول فاطمة بنت قيس[٧] في أن رسول اللهﷺ لم يجعل لهــا

([١]) في صحيح البخاري (الحِرَ)

([٢]) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم الحديث(٥٥٩٠) وقـــال ابـــن حجر: أما دعوى ابن حزم التي أشار إليها فقد سبقه إليها ابن الصلاح في (علوم الحديث) فقال: التعليق في أحـــاديث مـــن صحيـــح البخاري قطع إسنادها، وصورته صورة الانقطاع وليس حكمه حكمه ولا خارجا، ما وجد ذلك فيه من قبيل الصحيح ــ إلى قبيــــل الضعيف، ولا التفات إلى أبي محمد ابن حزم الظاهري الحافظ في رد ما أخرجه البخاري من حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري عـــن رسول الله ﷺ «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحرير والخمر والمعازف» الحديث من جهة أن البخاري أورده قائلا : قال هشـــام بن عمار: وساقه بإسناده، فزعم ابن حزم أنه منقطع فيما بين البخاري وهشام وجعله جوابا عن الاحتجاج به على تحريم المعازف، وأخطـــأ في ذلك من وجوه، والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح، والبخاري قد يفعل مثل ذلك لكونه قد ذكر ذلك الحديث في موضع آخر من كتابه مسندا متصلا، وقد يفعل ذلك لغير ذلك من الأسباب التي لا يصحبها خلل الانقطاع ا.هـــــ) فتـــح البـــاري (٥٤/١٠ــ ٥٥)

([٣]) الإمام علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، ولد بقرطبة وسمع من علماء عصـــره، ونشـــأ في تنعـــم ورفاهية فقد كان والده من كبراء أهل قرطبة، قرأ القرآن واشتغل بالعلوم الشرعية إلى أن صار من أبرز علماء عصـــــره، تـــوفي ســـنة ٤٥٦هــ انظر سير أعلام النبلاء (١٨٤/١٨-١٨٦) البداية والنهاية (١١٣/١٢) والأعلام للزركلي (٢٥٤/٤-٢٥٥)

([٤]) صدقة بن خالد الأموي، أبو العباس الدمشقي، مولى أم المؤمنين أخت معاوية روى عن أبيه وزيد بن واقد والأوزاعي وغـــــيرهم، وثقه ابن معين، توفي سنة ١٧٠هــ وقيل ١٨٤هـــ. انظر تهذيب التهذيب (٥٤٦/٢ــ٥٤٧)

([٥])السنة النبوية (٨٤)

([٦])السنة النبوية ص (٩٧)

([٧]) فاطمة بنت قيس القرشية الفهرية، أخت الضحاك بن قيس، من المهاجرات الأول، تزوجها أسامة بن زيـــد، توفيـــت في خلافـــة معاوية، انظر سير أعلام النبلاء (٣١٩/٢) والإصابة (٦٩/٨)

سكنى ولانفقة حين طلقت ثلاثا وأنه قال: لانترك كتاب ربنا لقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت، لها السكنى والنفقة، قال تعالى:{لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة}(١)(٢).

لكن المتأمل لكثير من كتاباته يجد أن موافقته لظاهر القرآن سرعان ما يتخلى عنها ويدع ظاهر القرآن إلى غيره إذا كانت القضية لا توافق هواه، فهو عندما يتحدث عن المرأة وخروجها من بيتها وعملها خارج البيت يقول: والدين الصحيح يأبى تقاليد أمة تحبس النساء، وتضيق عليهن الخناق وتضن عليهن بشتى الحقوق والواجبات يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه(٣)، وكأنه لم يقرأ قول الله تعالى:{وقرن في بيوتكن}(٤)، ولذلك لا يتردد في رد الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي(٥)أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك قال: قد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير لك من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير لك من صلاتك في مسجد قومك وصلاتك في مسجد قومك خير لك من صلاتك في مسجدي قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله(٦).

وقدم الغزالي لهذا الحديث بقوله: ثم شاع حديث آخر يأبى على النساء حضور الجماعات كلها، بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تختار المكان الموحش المعزول، فصلاتها في سرداب أفضل من صلاتها في الغرفة، وصلاتها في الظلمة أفضل من صلاتها في الضوء.

---

(١) سورة الطلاق (١)

(٢) السنة النبوية ص(٤١)

(٣) السنة النبوية ص (٥٢)

(٤) سورة الأحزاب (٣٣)

(٥) أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي، ويقال أم حميدة بنت عبد الرحمن، روت عن عائشة، روى ابن جريج عن أبيه عنها. انظر تهذيب التهذيب (٦٢٥/٦)

(٦) رواه الإمام أحمد (٣٧١/٦) بسند صحيح رجاله ثقات

إلى أن قال: وراوي هذا الحديث يطوح وراء ظهره بالسنن العملية المتواتـــرة عـــن صاحب الرسالة(١).

لكن ابن حجر قال تعليقا على هذا الحديث: وإسناد أحمد حسن وله شاهد مـــــن حديث ابن مسعود عند أبي داود، ووجه كون صلاتها في الإخفاء أفضل تحقق الأمن فيه من الفتنة، ويتأكد ذلك بعد وجود ما أحدث النساء من التبرج والزينة(٢).

ولا شك أن التناقض يدل على الغفلة وقلة العلم، والأمور التي ظهر فيها تنـــاقض الغزالي يصعب الإحاطة بها لكثرتها وما ذكرته نماذج مختارة منها ذكرتها علـــى ســـبيل الاستشهاد لا الاستقصاء والحصر.

وفيما يلي باختصار بعض المسائل التي زل فيها القلم لدى الغزالي بسبب خفاء الحـق عليه ومن هذه المسائل:

أ ـــ استهانته ببعض الشعائر الدينية الثابتة كلمس المرأة وإعفاء اللحيـــة وارتـــداء النقاب.

ب ـــ مغالطته للقارئ لقوله: إن أسرة معهد الفكر الإسلامي كلفته أن يضع كتابـــا ينصف فيه السنة النبوية، وما كتبه في الواقع هدم للسنة وليس إنصافا لها، وزعمه أنـــه يحمي الدين.

ج ـــ استخدام الهوى في الحكم على الأحاديث، وهذا كثير جدا في كتاباتـــه وقـــد أوردت فيما تقدم أمثلة ذلك(٣).

٣ ـــ السبب الثالث من أسباب التنازع بسبب خفاء الحق، أن يكون كل واحد مـــن المختلفين مصيبا فيما يثبته، أو في بعضه، مخطئا في نفي ما عليه الآخر، وأكثر الجهل يقـــع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب لا في الإثبات، لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيســـر من إحاطته بما ينفيه(٤).

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص (٦٢)

(٢) فتح الباري (٢/٤٠٦)

(٣) يراجع بالتفصيل في ذلك ما تحدث عنه الدكتور. عبد الموجود محمد عبد اللطيف في كتابه. السنة النبوية بين أدعياء الفتنة وأدعيـــاء العلم ص (١٣٩)، دار الطباعة المحمدية، ط(١) ١٤١٠هـ

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٢٤-١٢٥)

وقد وقع الاختلاف بين بعض الصحابة رضي الله عنهم في القراءات ظنا من بعضهم أن قراءة صاحبه غير صحيحة لأنه سمع من النبيﷺ خلافها، ففي الصحيحين أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام[١] يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها وكدت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها فقال لي أرسله ثم قال له: اقرأ فقرأ قال: هكذا أنزلت، ثم قال لي اقرأ فقرأت فقال هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا منه ما تيسر[٢].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أمثلة لقضايا حدث بسببها النزاع مما أدى إلى الاقتتال أحيانا مثل اختلاف الأنواع في صفة الآذان والإقامة والاستفتاح، إلى غير ذلك مما قد شرع جميعه وإن كان قد يقال: إن بعض أنواعه أفضل[٣].

ومن الاختلاف الذي يحصل بسببه النزاع، ما يكون طريقتان مشروعتان ورجل أو قوم قد سلكوا هذه الطريق وآخرون قد سلكوا الأخرى وكلاهما حسن في الدين .

ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم إحداهما أو تفضيلها بلا قصد صالح، أو بلا علم أو بلا نية وبلا علم[٤].

---

(١) هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد بن قصي القرشي الأسدي كان هو وأبوه من مسلمة الفتح روى عن النبي ﷺ كان مهيبا، توفي في أول خلافة معاوية. انظر سير أعلام النبلاء (٣/٥١-٥٢) وتهذيب التهذيب (٦/٢٧) والإصابة (٦/٥٣٨-٥٣٩)

(٢) رواه والبخاري واللفظ له، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم الحديث (٢٤١٩) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، وبيان معناه، رقم الحديث (٨١٨) وأبو داود، كتاب الصلاة، باب إنزال القرآن على سبعة أحرف، رقم الحديث (١٤٧٥) والنسائي،كتاب الافتتاح، باب جامع ما جاء في القرآن، رقم الحديث(٩٣٦) والترمذي، كتاب القراءات، باب ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف، رقم الحديث (٢٩٤٣) الإمام أحمد (١/٤٣)

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٢٨)

(٤) المرجع السابق (١/١٣٠)

الفصل الثاني

الأسباب الخارجية للاختلاف

أولا: الغزو الفكري:

أنواع الغلبة التي يمكن أن تتعرض لها الأمم نوعان:

أحدهما: الغلبة المادية والسياسية

والآخر: الغلبة المعنوية والخلقية

أما الغلبة من النوع الأول فهي أن تصبح أمة من شدة الصولة والبأس باعتبار القوى المادية بحيث لا تستطيع الأمم الأخرى أن تحتفظ باستقلالها السياسي إزاءها فتستبد هذه بجميع وسائل الثروة عند تلك الأمم وتسيطر على تدبير شؤونها كاملة أو إلى حد ما.

أما النوع الثاني من الغلبة فهو أن تتقدم أمة من حيث قواها الفكرية والعلمية تقدما يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها فتتغلب نظرياتها على الأذهان، وتستولي معتقداتها على المشاعر وتنطبع بطابعها العقليات، فتكون الحضارة حضارتها والعلوم علومها.

وهذا النوع من الغلبة أخطر بكثير من النوع الأول، كما أنهما غير مرتبطين ببعض فقد يوجد أحدهما دون الآخر[١].

وتأثرُ كثيرٍ من المسلمين في هذا العصر بالنوع الثاني من الغلبة حقيقة لا شك فيها، حيث أُشرِب كثير منهم مفاهيم مستوردة من معين الحضارة الغربية، فتعلقوا بها ودافعوا عنها ودعوا إليها غيرهم، ووقوع ذلك ليس بمستغرب وقد أخبر النبي ﷺ أن أمته ستأخذ مأخذ القرون قبلها ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك؟»[٢] قال الحافظ ابن حجر: قال ابن بطال[٣]: أعلم ﷺ أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم من قبلهم، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخِر شر، والساعة لا

---

(١) انظر نحن والحضارة العربية ص (٧) أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ

(٢) رواه والبخاري واللفظ له، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ (لتتبعن سنن من كان قبلكم) رقم الحديث (٧٣١٩) وابن ماجة، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم الحديث (٣٩٩٤) الإمام أحمد (٢/٣٢٥)

(٣) العلامة ابو الحسن علي بن خلف بن بطال البكري، القرطبي، ويعرف بابن اللجام، عني بالحديث عناية تامة، وشرح صحيح البخاري، كان من أهل العلم والمعرفة، توفي سنة ٤٤٩هـ انظر سير اعلام النبلاء (١٨/٤٧) والأعلام للزركلي (٤/٢٨٥)

تقوم إلا على شرار الناس، قال ابن حجر: قلت: وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ وسيقع بقية ذلك[١]، وإخبار النبي ﷺ بوقوع ذلك في أمته متضمن التحذير منه لينجو من هذه المشابهة من شاء الله له السلامة، ولا شك أن المشابهة التي أخبر عنها النبيﷺ هي فيما يكون من أمور الدين الذي لا تجوز المشابهة فيه، لأن المنتسب لدين الإسلام لا يملك حق الاختيار في قبول بعض ما جاء به النبي ﷺ ورد بعضه، بل يتعين على كل مسلم أن يخضع خضوعا تاما وينقاد لكل ما جاء عن النبي ﷺ، يقول تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}[٢] قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكّم الرسولَ ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا ولهذا قال: {ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة[٣].

ويقول تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب}[٤] قال ابن كثير: مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فانتهوا فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر[٥].

ولما كان هذا الدين كاملا من جميع الجوانب لا خير إلا رغب فيه ولا شر إلا نهى عنه فإن المسلمين ليسوا بحاجة إلى أن يتطفلوا على غيرهم من الأمم ويستوردوا شيئا من

---

(١) انظر فتح الباري (٣١٤/١٣)
(٢) سورة النساء (٦٥)
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥٢٠/١)
(٤) سورة الحشر (٧)
(٥) انظر تفسير القرآن العظيم (٦٣٦/٤)

مبادئهم لأن دينهم كامل، والكامل لا يحتاج إلى زيادة يقول تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}[١]

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه، فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره، فهو جاهل مبطل في دعواه، فقد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله، ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ورسوله[٢].

وقد غضب النبي ﷺ حين رأى مع عمر ﷺ كتابا أصابه من بعض أهل الكتاب، ففي مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي[٣] ﷺ فغضب فقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني[٤].

وإذا كان النبي ﷺ علَّمَ أمته دقائق الأمور التي قد يظن بعض الناس عدم الحاجة إلى تعلمها، فما بالك بما هو أعظم منها وأهم، روى مسلم وغيره عن عبد الرحمن بن يزيد[٥]

---

(١) سورة المائدة (٣)

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٤٢ـــ٢٤٣)

(٣) قوله: (فقرأه) تتعارض ظاهرا مع ماهو معلوم بنص القرآن من أن النبي ﷺ أمي لايقرأ ويفسر الإشكال الذي في هذه الرواية ما جاء في سنن الدارمي أن الذي قرأ عمر بن الخطاب وليس رسول الله ﷺ فعن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بنسخة من التوراة فقال: يارسول الله هذه نسخة من التوراة فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير فقال أبو بكر ثكلتك الثواكل ماترى مابوجه رسول الله ﷺ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ﷺ رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا فقال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل ولو كان حيا وأدرك نبوتي لاتبعني» سنن الدارمي، باب ما يتقى من تفسير حديث النبي ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ رقم الحديث (٤٣٥) وبالجمع بين الروايتين يزول الإشكال

(٤) رواه الإمام أحمد (٣/٣٨٧) وقد استوفى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني طرق الحديث وحكم بأنه يرتقي بهذه الطرق إلى درجة الحديث الحسن فقال: أخرجه أحمد(٣/٣٨٧) من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله، وكذا أخرجه الدارمي (١/ ١١٥) وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢) وابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٢/ ٤٢) والهروي في ذم الكلام (٦٧/٤-٢) والضياء المقدسي في المنتقى من مسموعاته بمرو (٣٣/ ٢) كلهم عن مجالد به، قلت: وهذا سند فيه ضعف، من أجل مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال الحافظ في التقريب: ليس بالقوي ، وقد تغير في آخر عمره، وقال الحافظ في الفتح(١٣/٢٨٤) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبزار، ورجاله موثقون، إلا أن في مجالد ضعفا، قلت: لكن الحديث قوي، فإن له شواهد كثيرة وبعد أن ذكر الشيخ طرق الحديث قال: وجملة القول: أن مجيء الحديث في هذه الطرق المتباينة، والألفاظ المتقاربة لما يدل على أن مجالد ابن سعيد قد حفظ الحديث فهو على أقل تقدير حديث حسن. والله أعلم. انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(٦/٣٤-٣٨) رقم الحديث(١٥٨٩)

(٥) عبد الرحمن بن يزيد بن قيس النخعي، أبو بكر الكوفي، تابعي ثقة، أخو الأسود بن يزيد وابن أخي علقمة، حدث عن عثمان وابن مسعود وحذيفة وغيرهم، توفي سنة ٨٣هـ وقيل ٧٣هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤/ ٧٨) و تهذيب التهذيب (٣/٤٣٧)

عن سلمان قال: قيل له: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة قـــال: فقـــال: أجـــل[١] الحديث، قال النووي: ومراد سلمان ﷺ أنه علمنا كل ما نحتاج إليه في ديننا حتى الخراءة الـــتي ذُكرت فإنه علمنا آدابها فنهانا فيها عن كذا وكذا والله أعلم[٢].

وجاء في حديث العرباض بن سارية الذي رواه الإمام أحمد أن النبيﷺ قال:«لقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[٣]الحديث.

وقد يتبادر سؤال إلى الذهن وهو: هل معنى ذلك أن يوصد الباب أمام كل ما يأتي من الغـــرب أوالشرق؟ أم أن المسألة مسألة اختيار وتحديد لما يقبل وما يرد؟.

ليس من الإنصاف القول: بأن كل ما تحويه الحضارة الغربية مرفوض، لأن هذه الحضارة قـــد اشتملت على نواح إيجابية، رفضُها يعتبر جمود في الفكر، وذلك أن العقل الغربي قد حطم أغـــلال التقليد وانطلق في ميادين العلم التجريبي فقطع شوطا هائلا في هذا المضمار، جعل العالم الإسلامي عالة عليه في كثير من احتياجاته.

إن المرفوض من هذه الحضارة هو ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ومنهج الإسلام الشـــامل للحياة

يقول الأستاذ محمد قطب وهو يذكر واقع الأمة الإسلامية في فـــترة القـــوة العســـكرية والمعنوية، وكيف كان تصرفها أمام حضارة أعدائها التي احتاجت إلى أن تقتبس منها ما هـــي بحاجة إليه وكيف أنها أحسنت الاختيار ولم يوجد من بين أبنائها من يتصور فضلا عن أن يدعـــو إلى مقولة: إن الحضارة وحدة متكاملة لا تؤخذ إلا بشكل كامل، فيقول: لقد احتاجت الأمـــة من قبل إلى تنظيمات إدارية وأشكال من أشكال الحضارة المادية، لم تكن في رصيدها الســـابق من قبل، وكانت محتاجة إليها لتقيم الدولة على مستوى الكفاءة اللازم لدولة متنامية القـــوة، فـــأخذت تلـــك التنظيمـــــات وتلـــك الأشـــكال مـــن فـــارس وبيزنطـــة،

([١]) رواه الإمام أحمد (٤٣٧/٥) ومسلم واللفظ له، كتاب الطهارة باب الاستطابة رقم الحديث(٢٦٢) وأبو داود،كتاب الطهارة، بـــاب كراهيـــة استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، رقم الحديث (٧) والترمذي، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة، رقم الحديـــث(١٦) والنســـائي،كتـــاب الطهارة، باب النهي عن الاكتفاء في الاستطابة بأقل من ثلاثة أحجار، رقم الحديث(٤١) وابن ماجة، كتاب الطهارة وسننها، بـــاب الاســـتنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة، رقم الحديث(٣١٦)

([٢]) مسلم بشرح النووي (١٥٤/٣)

([٣]) رواه الإمام أحمد (١٢٦/٤) وابن ماجة في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين رقم الحديث(٤٤) وقال الشيخ محمد ناصر الديـــن الألباني: إسناده حسن رجاله كلهم ثقات، وفي هشام بن عمار وإبراهيم الأفطس كلام لاينزل الحديث عما ذكرنا. سلسلة الأحـــاديث الصحيحـــة (٣٠٨/٢) رقم الحديث (٦٨٨)

ولم تجد في نفسها حرجا من ذلك، ولكن تم ذلك على قاعدتين مهمتين:

١ـ أن الأمة لم تشعر بالصغار والانكسار وهي تأخذ ماهي محتاجة إليه، بل كانت تحس بالاستعلاء الناشئ من الإيمان.

٢ـ أن الأمة لم تأخذ إلا ما كانت بحاجة إليه، من التنظيمات والأشكال المادية من الحضارة، ولم تأخذ معها قط المبادئ والنظم التي كانت لاصقة بها عند الذين أخذت عنهم، فقد كانت تلك المبادئ والنظم قائمة على عقائد وتصورات جاهلية لا تصلح للمسلمين، وليس المسلمون بحاجة إليها.

والمسلم لا يأخذ من البضاعة الحضارية إلا ما يكون محتاجا إليه من الأمور التنظيمية أو الأشكال المادية التي لا تفرض بذاتها منهجا للتصور ولا منهجا للسلوك يخالف عقيدة المسلم ومنهجه الرباني للحياة، أما النظم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وأما القيم والمبادئ فهي الدين الذي يتلقاه المسلم من ربه ولا يتلقاه من مصدر سواه.

أما حركة الأخذ الثانية التي يجني المسلمون ثمارها الآن والتي جرت في ظل الخواء الروحي والتخلف العقدي، فقد انهارت الحواجز ولم يفرق كثير من المسلمين بين ما ينبغي أخذه وما يجب تركه(١).

وبعد فشل الأعداء في غزواتهم العسكرية، تواصلت جهودهم لغزو الأمة فكريا فآتت جهودهم ثمارها ووجدت أفكارهم طريقها إلى عقول كثير من أبناء الأمة، ووجد من بين أبناء الأمة فئات سعت إلى تبني هذه الأفكار والترويج لها، فكان منهم من خدع بأفكار مما يتصل بالتربية ومناهج التعليم، ومنهم من تأثر بأفكار تتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد، ومنهم من خدع بنتائج أفكار المستشرقين فيما يتصل بالتاريخ الإسلامي وسير أعلام الأمة، إلى غير ذلك من الأفكار .

ومما يبعث على الأمل أن هذا التأثر لم يكن شاملا فقد وجد من أبناء الأمة من تصدى له وبين خطره على عقيدة الأمة وقيمها وشخصيتها.

وهنا يتبادر سؤال يقول: ما علاقة الدعاة بهذا الموضوع؟ وهل يوجد من بينهم من هو

---

(١) انظر واقعنا المعاصر،ص (٣٤١-٣٤٢) محمد قطب، مكتبة دار السلام، ط(٣)١٤١٠هـ

متأثر بهذا الغزو؟.

إن الإجابة على هذا السؤال هي:

إن الأفكار المنحرفة قد تجد طريقها إلى العقول فتلوثها، وذلك لنقص في العلم، أو قلة في الفقه، أو اشتباه في الحق، والعقول تتفاوت في القدرة على رد الأفكار المنحرفة حسب ما أودع فيها من معرفة للحق.

والدعاة ليسوا على درجة واحدة في العلم بحيث تتساوى عندهم القدرة على رد أي انحراف فكري، فلا يمتنع عقلا أن يوجد من بينهم من ناله شيء من آثار هذا الغزو فظهر ذلك في ثنايا كلامه أوفيما خطته يده.

ولا يقصد من ذلك تصنيف من هذا حاله من الدعاة، في عداد دعاة الغزو الفكري المنسلخين من دين الأمة وقيمها ومبادئها، لكن الثوب الأبيض يبدو فيه الدنس واضحا جليا.

وسنذكر في هذا المبحث بعض القضايا التي تكلم فيها بعض الدعاة بكلام يحسب عليهم، مخالفتُهم فيه للحق واضحة مما جعلهم عرضة للانتقاد والرد من قبل دعاة آخرين.

ومن بين هذه القضايا ما يلي:

١ــ التجديد	٢ــ الوطنية
٣ــ الديمقراطية	٤ــ الاشتراكية

١- التجديد:

كلمة التجديد كلمة براقة توحي بالجدة التي هي ضد القدم وبحسب ماتضاف إليه يمكن تفسيرها وتحديد المراد منها والحكم عليها.

ولتجلية الأمر يحسن طرح هذين السؤالين وهما: هل كل جديد مقبول؟ وهل كل جديد يكون أفضل من القديم؟

الإجابة على السؤالين المتقدمين يجب أن تكون بعد معرفة طبيعة هذا الجديد هل هو من أمور الدين أم من أمور الدنيا؟.

في الغالب أن الجديد من أمور الدنيا،كالمبتكرات في مجال الصناعة والزراعة والطب وما شاكلها، تكون إضافة جديدة نافعة في هذه المجالات، ومن الحكمة فتح المجال أمامها وانتفاع الإنسان منها مادامت لاتتعارض مع شئ من تعاليم الإسلام، لأن الحضارة بناء متواصل بين الأجيال، كل جيل يضيف إليه شيئا جديدا تنتفع به الأجيال اللاحقة.

والإسلام لا يمنع أتباعه من الاستفادة والاستزادة من الجديد في هذه المجالات مادامت تحقق مصالح للبشرية، ولا تتعارض مع تعاليمه، لأن المبتكرات في هذا الجانب لا تزيد على كونها تعرُّفٌ على بعض سنن الله في هذا الكون.

لكن الاختلاف ينشأ فيما يتعلق بالتجديد في أمور الدين الذي تختلف فيه الأفهام، وتتعدد حوله الآراء.

لاشك أن مصطلح تجديد الدين مصطلح إسلامي يرجع إلى حديث رواه أبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[١].

وقد فسر العلماء التجديد الذي ذُكر في الحديث بما يلي:

قال العلقمي: (معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما)[٢].

وقال المناوي: يجدد لها دينها: (أي يبين السنة من البدعة ويُكثر العلم وينصرُ أهلَه،

---

(١) رواه أبو داود،كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم الحديث (٤٢٩١) وقال الألباني: والسند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم ... ولا يعلل الحديث قول أبي داود عقبه : رواه عبدالرحمن بن شريح الاسكندراني لم يجزم به شراحيل، وذلك لأن سعيد بن أبي أيوب ثقة ثبت كما في التقريب وقد وصله وأسنده فهي زيادة من ثقة يجب قبولها. سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥١/٢) رقم الحديث (٥٩٩)

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢٨١/٢)

ويكسر أهلَ البدعة ويذهم)([1]).

وقال أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: (والمراد من تجديد الدين للأمة إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما)([2]).

فالمعنى الشرعي للتجديد إذن هو: إعادة الدين إلى ماكان عليه وتنقيته مما أضيف إليه من البدع والمحدثات التي لا أصل لها في الشرع، وتجديد الدين في نفوس الناس هو إعادتهم إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من تمسك بنصوص الكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة ونبذ المحدثات في الدين.

لكن هذا الفهم لمعنى التجديد اعتراه بعض اللبس عند بعض المسلمين في هذا العصر وذلك حين أفاق المسلمون من سبات طويل ووجدوا أن أمم الكفر قد سبقتهم في مجال العلوم التجريبية، فظنت فئة منهم أن تغيير هذا الواقع لايتم إلا بمحاكاة ما جرى في الغرب في القرن التاسع عشر الميلادي من محاولة لتجديد الدين النصراني وتطويره ليكون ملائما لمتغيرات العصر، فعملت هذه الفئة على محاولة إيجاد مواءمة بين الإسلام وبين الفكر الغربي المعاصر، وذلك بإعادة النظر في تعاليم الإسلام وتأويلها تأويلا جديدا، لا بطريقة عرض تلك العلوم الإسلامية عرضا سهلا واستنباط الأحكام الشرعية للنوازل التي جدت في حياة المسلمين اليوم، بل سعت إلى تغيير الأفكار الإسلامية والثوابت القطعية، بحجة مسايرة العصر الذي نعيش فيه([3]).

واستجابة لضغوط الواقع اختط بعض الدعاة لأنفسهم منهجا اقتنعوا بموجبه بضرورة استبعاد بعض القضايا الشرعية والعقدية المسلمة لدى الأمة وعلمائها منذ عصر الصحابة إلى اليوم، ولما كانت هذه القضايا تقوم على أسس تقف حائلا بينهم وبين تحقيق ما يريدون بلغ بهم الأمر للمطالبة بتجديد تلك الأسس، فلا بد في نظرهم من إعادة النظر في أصول الفقه وعلم الجرح والتعديل بل من إعادة النظر في العقيدة الإسلامية وإخضاعها

([1]) المرجع السابق (٢/٢٨١)

([2]) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١١/٣٩١)

([3]) انظر مفهوم تجديد الدين ص (٧و ١١٩) بسطامي محمد سعيد. دار الدعوة. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ. ومفهوم التجديد بين السنة النبوية وبين أدعياء التجديد المعاصرين ص (٤) د. محمود الطحان. دار التراث. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ

للنظرة العقلية المعاصرة[١].

يقول الأستاذ جمال سلطان: أما التجديد الديني في الاصطلاح الفكري الحضاري الأوربي الجديد، وهو الذي ينتشر الآن في أوساط مثقفي عالمنا الإسلامي، فهو يعني تطويع الدين بما يتلاءم مع الواقع الإنساني الجديد، وتقريب دلالاته بما يستقيم مع الهوى الإنساني الجديد، وإعادة صياغة معالم الدين، وربما أصوله وثوابته الكبرى، بما يناسب المواضعات الفكرية والقيمية والاجتماعية الجديدة[٢]

ومن دعاة التجديد الذين هذا حالهم في هذا العصر الدكتور حسن الترابي الذي يرى ضرورة التجديد لنواح عديدة من الحياة ويبرر ذلك بقوله: إن قطاعات واسعة من الحياة قد نشأت من جراء التطور المادي، وهي تطرح قضايا جديدة تماما في طبيعتها لم يتطرق إليها الفقه التقليدي، ولأن علاقات الحياة الاجتماعية وأوضاعها تبدلت تماما، ولم تعد بعض صور الأحكام التي كانت تمثل الحق في معيار الدين منذ ألف عام تحقق مقتضى الدين اليوم، ولا توافي المقاصد التي يتوخاها لأن الإمكانيات قد تبدلت، وأسباب الحياة قد تطورت، والنتائج التي تترتب على إمضاء حكم معين بصورته السالفة انقلبت تماما[٣].

ومن أمعن النظر في كلام الترابي السابق يجد في بدايته كلاما يحتمِل معنى صحيحا وهو قوله: إن قطاعات واسعة من الحياة نشأت من جراء التطور المادي وهي تطرح قضايا جديدة، لكن هذا الاحتمال سرعان ما يتبدد حين يصف الترابي الفقه الإسلامي بعبارة توحي بالاستخفاف وذلك حين يصفه بأنه فقه تقليدي.

كما أنه في نهاية الكلام يزعم أن بعض أحكام الإسلام المطبقة منذ ألف عام لا تحقق مقتضى الدين اليوم.

وكلام الترابي يتسم بالغموض وتحول حوله الشكوك وربما حاول بعض المدافعين عنه حمله محملا حسنا، لكن أقواله اللاحقة تبعد هذا الاحتمال، حيث يقول: ونحن أشد حاجة

---

(١) انظر مفهوم التجديد في الإسلام (١/٤٠-٤١) المنتدى الإسلامي ط٢ ١٤١هـ

(٢) حذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث ص (١٧٤) جمال سلطان. مركز الدراسات الإسلامية.بريطانيا. ط (١) ١٤١٢هـ

(٣) مفهوم التجديد بين السنة النبوية وبين أدعياء التجديد المعاصرين ص (٧)

لنظرة جديدة في أحكام الطلاق، والزواج نستفيد فيها من العلوم الاجتماعية المعاصرة[١].

فهذا الكلام ينفي الاحتمال الصحيح للكلام السابق لأنه ربما فُهم من كلامه السابق أنه دعوة لدراسة مستجدات العصر واستنباط الأحكام الشرعية لها، أما أن تكون الدعوة لدراسة أحكام الزواج والطلاق، فما أوجه القصور التي اعترت هذه الأحكام سابقا؟ وما الإضافة التي ستضيفها هذه الدراسة حاليا، ربما تكون الإضافة التي يريد على نحو فتواه بجواز زواج المسلمة من اليهودي والنصراني[٢].

أما التجديد في مجال أصول الفقه فقد نحا فيه الترابي منحى جديدا لم يسبق إليه من قبل، فتعريف الإجماع عند العلماء بأنه اتفاق مجتهدي أمة محمدﷺ بعد وفاته في عصر من العصور على أمر من الأمور[٣]، لكن الترابي يرى خلاف ذلك فعنده أن الإجماع لا ينبغي أن يكون قاصرا على علماء الأمة المحققين، بل يريد أن يترل به إلى أن يكون استفتاء شعبيا يشارك فيه عامة الناس لمعرفة رأيهم في أمر من أمور الدين، وفق ما يجري في الأنظمة الغربية، ويتساوى فيه صوت العالم بغيره من الناس، حيث يقول: فيمكن أن نرد إلى الجماعة المسلمة حقها الذي كان قد باشره عنها ممثلوها الفقهاء، وهو سلطة الإجماع، ويمكن بذلك أن تتغير أصول الفقه والأحكام، ويصبح إجماع الأمة المسلمة أو الشعب المسلم، وتصبح أوامر الحكام كذلك أصلين من أصول الأحكام في الإسلام .

ثم يقول: فإذن يمكن أن نحتكم إلى الرأي العام المسلم ونطمئن إلى سلامة فطرة المسلمين، حتى ولو كانوا جهالا في أن يضبطوا مدى الاختلاف ومجال التفرق.

أما كيف يجري اختيار الحكم الراجح؟ فيقول: ويدور بين الناس الجدل والنقاش حتى ينتهي في آخر الأمر إلى حسم القضية، إما أن يتبلور رأي عام أو قرار يجمع عليه

---

(١) المرجع السابق ص (٨)

(٢) في مقابلة أجرتها معه صحيفة الرأي العام الكويتية العدد رقم (١٠٠٥٤) في ١٤١٦/١٢/٢٦هـ سئل الترابي السؤال التالي: يقال إنك بإفراطك في الفكر التجديدي أفتيت بفتاوى تجديدية النص فيها صريح والإجماع منعقد على خلاف هذه الفتاوى، منها على سبيل المثال قولك بجواز أن تتزوج المسلمة من يهودي أو نصراني، فما ردك على ذلك؟ فأجاب بقوله: أي نص يمنع المرأة المسلمة من أن تتزوج يهوديا أو نصرانيا !؟ وأضاف قائلا: أنا أحفظ القرآن الكريم كاملا وأعرف السنة ولا أعرف نصا يحرم ذلك.

(٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ص (١٣٢) محمد بن علي الشوكاني.ت: محمد سعيد البدري مؤسسة الكتاب ط(٢) ١٤١٣هـ

المسلمون، أو يرجحه جمهورهم وسوادهم الأعظم(١).

ولك أن تتصور مدى الفوضى والتفرق الذي سيحل بالأمة لو طبق هذا المنهج الغريب الذي تناط فيه مهمة الترجيح في الأحكام الشرعية للعمال والمزارعين وأصحاب الاختصاصات الأخرى ولا يكون فيه لاختيار العالم أي قيمه، بل إنه سيكون دائما هو القول المرجوح، بحكم التفوق العددي للعوام.

وفهم الترابي للتجديد على النحو السابق يعد أحد نماذج الغزو الفكري التي تأثر بها بعض الدعاة، والتي لاينفرد بها الترابي بل لها نظائر أخرى عند غيره.

٣- الوطنية:

جُبل الإنسان مفطورا على حب أهله وعشيرته، غذى ذلك في نفسه ذكريات طفولته وعادات قومه وتقاليدهم، وعمقت لغة قومه ذلك الشعور، وقد أقر الإسلام ذلك الشعور الفطري حيث أمر بصلة الرحم والإحسان إلى ذوي القربى وحذر من قطيعة الرحم وجعل ذلك من صفات المفسدين في الأرض قال تعالى: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم}(٢).

ومع إشباع الإسلام لهذا الشعور الفطري إلا أنه نظمه بحيث لا يطغى على حق الله تعالى، فإذا تعارض هذا الشعور مع حق الله تعالى في أيهما يقدم ويطاع، فليكن حق الله هو المقدم وليكن المعروف هو همزة الوصل مع هذا الرحم قال تعالى: {وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون}(٣).

وما دام أهل المسلم وعشيرته يلتزمون دائرة الحق وحدوده، فالبر بهم والوفاء لهم مقدم على غيرهم، فإذا خرجوا عن هذا حمية أو عصبية دون حق، فليس لهذه الرابطة أية قيمة.

---

(١) مفهوم التجديد ص (٢٣)

(٢) سورة محمد (٢٢-٢٣)

(٣) سورة لقمان (١٥)

ومن هنا فإن ولاء المسلم يكون لله ورسوله، ونصرته ومؤازرته تكـــون لمـــن والى الله ورسوله ودافع عن الحق وإقامته، وبذلك أبطل الإســـلام العصبيـــة القبليـــة والعرقيـــة والوطنية.

يقول تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}(١) الآية.

ويقول تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون}(٢).

وقوله تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده}(٣) الآية

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهـــم بمصارمـــة الكافرين وعداوقم ومجانبتهم والبراءة منهم {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه} أي وأتباعه الذين معه {إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم} أي تبرأنا منكم ومما تعبـــدون من دون الله {كفرنا بكم} أي بدينكم وطريقكـــم {وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا} يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم علـــى كفركـــم فنحن نتبرأ منكم ونبغضكم {حتى تؤمنوا بالله وحده} أي إلى أن توحـــدوا الله فتعبـــدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد(٤).

---

(١) سورة المجادلة (٢٢)

(٢) سورة التوبة (٢٣)

(٣) سورة الممتحنة (٤)

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣٤٨/٤)

ومن هذا يتبين أن الأخوة والمودة هي لأهل الإيمان فقط دون غيرهم، وأنه لا رابطة باسم الوطنية أو القومية أو اللغة أو أي لون من الوشائج الأرضية مع من لم يرض بالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا.

وقد عرف الأعداء أن المسلمين يصعب التغلب عليهم ما دامت الرابطة الإيمانية توحد بينهم وينضوي تحت لوائها الأبيض والأسود، العربي والأعجمي، لذلك ما فتئوا يعملون على إضعاف هذه الرابطة بشتى الوسائل ووجدوا أن الدعوة إلى القومية، والأخوة والرابطة باسم الأرض، أو اللغة هي الوسيلة الناجحة لبث روح الفرقة بين المسلمين واستبدال وشيجة الإيمان الراسخة الجذور برباط واه لا يلبث أن ينفك.

وفكرة القومية والتجمع باسم الوطن على حساب الدين مع أن لها صلة بما كان عليه أهل الجاهلية إلا أن علاقتها بالحضارة الأوربية قديما وحديثا راسخة الجذور، فمن المعلوم عند المؤرخين أن المدنية الإغريقية هي أصل الحضارة الأوربية الحديثة، وأن الأخيرة ورثت الكثير عنها وأن الحضارة الرومانية لم تضف شيئا ذا بال للتراث الإغريقي سوى الاعتداد بالقوة، واحتكارها، وأن الجانب الوطني والمغالاة فيه كان أحد الركائز الأساسية لكلا المدنيتين(١).

وعندما اتجهت أطماع المستعمرين إلى العالم الإسلامي رأوا أنه من الصعب عليهم مواجهة المسلمين الذين يجاهدون تحت راية الإسلام ويقدمون نفوسهم رخيصة في سبيل الله، فعمل الأوربيون على تشجيع الدعوة إلى الوطنية والقومية وذلك لتحويل حركة الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار إلى حركات وطنية.

يقول الأستاذ محمد قطب: وقد كانت دعاوى القومية والوطنية المصدرة عن عمد إلى العالم الإسلامي من بين وسائل الغزو الفكري الذي استخدمه الصليبيون المحدثون في غزو العالم الإسلامي(٢).

ويبين الدكتور زين العابدين الركابي في مقال له تحت عنوان (من أجل مقياس عملي للوطنية) الموقف الصحيح من الوطنية ما يقبل منها وما يرفض، وموضحا كيف التبس

(١) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص (١٨٠) أبو الحسن الندوي، دار القلم ودار الأنصار، ط (١٠) ١٣٩٣هـ

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة ص (٥٧٧) محمد قطب، الطبعة الرابعة دار الشروق ١٤٠٩هـ

الأمر على كثيرين فكانوا منها على طرفي نقيض، فئة فهمتها كما فهمها الغرب وقبلتها على هذا الأساس، وفئة رأتها مضادة للدين ولم تر أي إمكانية للجمع بين ولاء المسلم لدينة ونصرته لوطنه وقومه فنفرت منها، فيقول: إن الوطنية باشتقاقها هذا مفردة حديثة، ولقد راجت في الفكر السياسي الغربي رواجا اعتمد على أساس أنها بديل للولاء للعقيدة الدينية وحين وصلت إلى العالم العربي الإسلامي بشحنتها الاصطناعية هذه تبنى فريق من الناس مفهومها الغربي وطفق يجعلها عقيدة تظفر بالولاء الأول بينما نفر فريق آخر من الوطنية جملة وتفصيلا ونبذها نبذا مطلقا باسم الغيرة والولاء للإسلام، تكرر الموقف ذاته تجاه القومية، وهكذا طبع الفكر السياسي العربي الحديث في الغالب طابعان، طابع الوطنية الجامعة كبديل للاجتماع على العقيدة، أو المقدمة في الاحترام والولاء على الدين، وطابع الوطنية المنبوذة باسم الدين، وبتجريد من الغلو المادح ومن الغلو القادح يتبين المفهوم الصحيح للوطنية وهو: أنها مساحة الأرض التي تستقر عليها الجماعة المؤمنة لتوحد الله وتعبده وتجتمع على كلمته وتنفذ منهجه وتدعو إليه وتأخذ بنصيبها من الدنيا كدحا وبناء وإبداعا وطاعة وتمتعا وتدافع عن ذلك كلمة وبهذا يكون الوطن ومن عليه وما عليه لله[١].

ولاشك أن التجمع تحت راية الوطنية مع إغفال رابطة العقيدة التي لا بد أن تكون أساسا للدفاع عن الأرض التي يقيم عليها المسلمون، تجمعٌ تحت راية عُمِّيَّةٍ، ومن قتل تحتها فقِتلَةٌ جاهلية، وهو داخل في الصنف الذي أشار إليه النبيﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله «من قتل تحت راية عُمِّيَّةٍ يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقِتلَةٌ جاهلية»[٢].

والدعوة إلى الوطنية بالمعنى المخالف للإسلام هي: أن يشعر أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن والتعصب له أيا كانت أصولهم التي ينتمون إليها وأجناسهم التي انحدروا

([١]) مجلة اليمامة ص(١٦) العدد (١٤٧٣) في ١٩/٥/١٤١٨هـ

([٢]) رواه مسلم واللفظ له كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة رقم الحديث (١٨٥٠) والنسائي،كتاب التحريم، باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية، رقم الحديث(٤١٢٦)

منها، وأديانهم التي يدينون بها، أي أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن الدين والقوم أو اللغة أو الجنس(١).

والمتأمل للوطنية بهذا المعنى يتبن له مدى تعارضها مع الآيات والأحاديث التي نصت على أن الأخوة لا تكون إلا بين المؤمنين، ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أن بعض الدعاة قد صدرت عنهم عبارات تضمنت الدعوة إلى التجمع باسم الوطن والأخوة بين أبنائه بغض النظر عن العقيدة التي يدينون بها.

يقول الأستاذ حسن البنا في رسالة وجهها إلى حاخام وكبار الطائفة اليهودية في مصر، يحثهم فيها على الدفاع عن عروبة فلسطين وإنقاذها من الاحتلال اليهودي جاء فيها: إن الرابطة الوطنية التي تربط بين المواطنين المصريين جميعا على اختلاف أديانهم في غنى عن التدبيرات الحكومية والحماية البوليسية ولكن نحن الآن أمام مؤامرة دولية محكمة الأطراف تغذيها الصهيونية لاقتلاع فلسطين من جسم الأمة العربية وهي قلبها النابض، وأمام هذه الفورة الغامرة من الشعور المتحمس في مصر وغير مصر في بلاد العروبة والإسلام، لا نرى بدا من أن نصارح سيادتكم وأبناء الطائفة الإسرائيلية من مواطنينا الأعزاء بأن خير حماية وأفضل وقاية أن تتقدموا سيادتكم ومعكم وجهاء الطائفة فتعلنوا على رؤوس الأشهاد مشاركتكم لمواطنيكم من أبناء الأمة المصرية ماديا وأدبيا في كفاحهم القومي الذي اتخذوه ـ مسلمين ومسيحيين ـ لإنقاذ فلسطين وأن تبرقوا سيادتكم قبل فوات الفرصة لهيئة الأمم المتحدة والوكالة اليهودية ولكل المنظمات والهيئات الدولية والصهيونية التي يهمها الأمر بهذا المعنى، وبأن المواطنين الإسرائيليين في مصر سيكونون في مقدمة من يحمل على الكفاح لإنقاذ عروبة فلسطين.

يا صاحب السيادة بذلك تكونون قد أديتم واجبكم القومي كاملا وأزلتم أي ظل من الشك يريد أن يلقيه المغرضون حول موقف المواطنين الإسرائيليين في مصر وواسيتم الأمة كلها والشعوب الإسلامية في أعظم محنة تواجهها في تاريخها الحديث ولن ينسى لكم الوطن والتاريخ هذا الموقف المجيد(٢).

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٥٥٤)

(٢) في قافلة الإخوان (١٩٤-١٩٥)

وحديث المرشد العام للإخوان المسلمين في سوريا الدكتور مصطفى السباعي عن الوحدة الوطنية أكثر صراحة من سابقه، فهو يدعو إلى المساواة بين أبناء الوطن الواحد في الحقوق والواجبات ابتداء من الحرية الدينية الكاملة لكل من يقيم على أرض الوطن وانتهاء إلى القول بأنه من حق أي مواطن مهما كان دينه الوصول إلى أعلى المناصب في الدولة، فيقول: ليس الإسلام دينا معاديا للنصرانية بل هو معترف بها مقدس لسيدنا المسيح عليه السلام، وأما توهم الانتقاص من المسيحيين وامتياز المسلمين فأين الامتياز؟ أفي حرية العقيدة؟ والإسلام يحترم العقائد جميعا، أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات؟ والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي، ولا يعطي للمسلم حقا في الدولة أكثر من المسيحي، والدستور سينص على مساواة المواطنين جميعا في الحقوق والواجبات، ثم اقترح أربع مواد هي:

١ـ الإسلام دين الدولة الرسمي .

٢ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة .

٣ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ـ لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة[١].

ويرى الأستاذ محمد حامد أبو النصر ـ المرشد السابق لجماعة الإخوان المسلمين ـ أن تبني حزب الوفد – الشهير بعلمانيته وعدائه للإسلام – للوحدة الوطنية التي يؤمن بها الإخوان مبرر كاف لعلاقة حسنة تربطه بجماعة الإخوان المسلمين فيقول: علاقة الإخوان بحزب الوفد علاقة طيبة وطيدة حتى الآن، لأن الوفد أقدم الأحزاب الشعبية وله تاريخه في خدمة البلاد ثم إنه الحزب الوحيد الذي تبنى فكرة الوحدة الوطنية التي أتت بأطيب الثمرات للبلاد، والتي يؤمن بها الإخوان وستكون علاقتنا بالوفد علاقة طيبة لا تنفصم[٢].

وإلى أبعد من ذلك يذهب الدكتور حسن الترابي الذي يرى أن الرابط بين أبناء الشعب السوداني من مسلمين ونصارى هو الأخوة في الدين بحكم انتمائهم جميعا للملة

---

(١) مصطفى السباعي رجل فكرة وقائد دعوة، ص (٩٣ـ ٩٤) عبد العزيز الحاج مصطفى، دار عمار، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ

(٢) مجلة المجتمع عدد (٧٧٥) في ١٥/٧/١٩٨٦م

الإبراهيمية حيث يقول: إن الوحدة الوطنية تشكل واحدة من أكبر همومنا وإننا في الجبهة الإسلامية نتوصل إليها بالإسلام على أصول الملة الإبراهيمية التي تجمعنا مع المسيحيين بتراث التاريخ الديني المشترك وبرصيد تاريخي من المعتقدات والأخلاق، إننا لا نريد الدين عصبية عداء بل وشيجة إخاء في الله الواحد(١).

إن الإسلام دين التوسط والاعتدال فولاء المسلم لعقيدته لا يعني تخليه عن أرضه وقومه وعشيرته، ولكن المحذور أن يكون الولاء للتراب أو العشيرة أو اللغة على حساب الدين، بحيث إذا كان بينهما تعارض قُدمت الولاءات الأخرى على الولاء للدين، ولذلك فلا بد من التحرز عند صياغة العبارات التي يُدعى فيها المسلم لنصرة أهله وعشيرته ووطنه حتى لا يكون فيها لبس بحيث يظن من يسمعها أن رابطة العقيدة مسألة ثانوية تأتي قبلها روابط أهم منها شأنا.

٣ - الديمقراطية:

من الدعوات التي لاقت رواجا كبيرا في هذا العصر وخدع بها كثير من الإسلاميين فأعلن بعضهم صراحة أنها من صميم الإسلام أو أنها هي الشورى التي أمر بها الإسلام، مسألة الديمقراطية، والمتتبع لأقوال هؤلاء يجد أنها تدعوا بصراحة إلى تطبيقها والتمكين للإسلام من خلالها، بل والالتزام بها والاستمرار عليها فيما لو وصل الإسلاميون إلى الحكم.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: إن جوهر الديمقراطية أن يختار الناس من يحكمهم ويسوس أمرهم وألا يفرض عليهم حكم يكرهونه أو نظام يكرهونه، وأن يكون لهم حق في محاسبة الحاكم إذا أخطأ وحق عزله إذا انحرف وألا يساق الناس إلى اتجاهات ومناهج اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو سياسية لا يعرفونها ولا يرضون عنها، هذا هو جوهر الديمقراطية(٢).

ويقول عصام العريان – وهو من المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين –: لماذا نؤكد ونصر على أن الإسلاميين معادون للديمقراطية؟ إن هذا افتراء عظيم، فنحن أول من

---

(١) مجلة المجتمع العدد (٧٣٦) في ٨/ ١٠/ ١٩٨٥م

(٢) جهادنا الثقافي مواقف وإشارات ص (٥٥) جمال سلطان – مركز الدراسات الإسلامية ط (١) ١٤١٤هـ

ينادي بالديمقراطية ويطبقها ويذود عنها حتى الموت[١].

أما الدكتور خالد محمد خالد فيرى أن الديمقراطية ما هي إلا الشورى التي أمر بها الإسلام حيث يقول: إن نظام الحكم في الإسلام هو الشورى، وما الشورى؟ إنها الديمقراطية التي نراها اليوم في بلاد الديمقراطيات[٢].

ولأهمية هذه القضية واختلاف الآراء حولها بين مؤيد ومعارض فسيأتي الحديث عنها مفصلا في موضعه من الرسالة بإذن الله تعالى.

٤- الاشتراكية:

وإذا كان العجب لا ينقضي من افتتان بعض الدعاة بالديمقراطية، فالأدهى من ذلك وأمر أن يخدع أحد منهم بالاشتراكية التي معارضَتُها للدين كالشمس في رابعة النهار لاتحتاج إلى بينة، فهل من الإنصاف أن يبذل إنسانٌ وسعه ويتخذ الأسباب الكفيلة لتحصيل الرزق ثم يُسلب نتيجة عرقه وكده ليعطى إنسان خامل كسول، بدعوى العدالة في تقسيم الثروة بين الناس، فهل بعد ذلك تشجيع للبطالة والاتكال على جهد الآخرين؟ أليست الحكمة ظاهرة في تفاوت الناس بين غني وفقير، يقول تعالى: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم}[٣] الآية، ويقول عز وجل: {أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون}[٤] يقول مسلم بجواز تطبيق مبادئ الاشتراكية مع صريح قول الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد (٨) السنة (٤٥) في ٢٠ /١٠/ ١٩٩٠م

(٢) خالد محمد خالد (قد سألت وإليك الجواب)الأهرام ٢٤/ ٦/ ١٩٨٥م نقلا عن غزو من الداخل، جمال سلطان، دار الوطن ط(١) (١٤١٢هـ)

(٣) سورة الأنعام (١٦٥)

(٤) سورة الزخرف (٣٢)

أنفسكم إن الله كان بكم رحيما}[١] وقول النبي ﷺ الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ بمنى: «أتدرون أي يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال فإن هذا يوم حرام، أفتدرون أي بلد هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال بلد حرام، أتدرون أي شهر هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال شهر حرام، قال فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[٢].

لكنه في فترة عنفوان الاشتراكية ورواجها خدع بها كثير من الناس ومن بينهم بعض المنتسبين للدعوة الذين حاولوا صياغتها صياغة إسلامية، وإثبات صحة نسبة القول ببعض مبادئها لبعض أعلام الإسلام حتى إن محمد الغزالي وصف أبا ذر الغفاري بأنه اشتراكي وأنه استقى نزعته الاشتراكية من الرسولﷺ، وأن عمر بن الخطاب ﷺ أعظم فقيه اشتراكي تولى الحكم[٣]، وحين أفل نجمها وبان زيفها وذهب بريقها اعتذر عن موقفه السابق منها بقوله: إننا أرينا الأجيال الناشئة من ديننا ما يغني عن استيراد الفلسفات الأجنبية الشاردة، وأنا شخصيا قد أكون تجوزت في بعض العبارات لكن جوهر الموضوع إنصاف رائع لديننا الحنيف![٤].

وللدكتور مصطفى السباعي كتاب سماه (اشتراكية الإسلام) وعنوان الكتاب كاف لتصور ما احتواه من تأييد لجوانب من هذه النظرية.

أما الدكتور محمد عمارة فهو لا يرى الإسلام في حقيقته إلا محاولة جادة ومخلصة لتطبيق الاشتراكية، فيقول: إننا إذا شئنا أن نُقوِّم هذه التجربة – تجربة الإسلام – فلن نجد أكثر دقة ومطابقة للواقع من أن نقول عنها إنها محاولة جادة ومخلصة وعملاقة لتطبيق

---

(١) سورة النساء (٢٩)

(٢) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الأدب، باب قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) رقم الحديث (٦٠٤٣) ومسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم الحديث (١٦٧٩) وابن ماجة،كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، رقم الحديث(٣٩٣١) والإمام أحمد(٢٧/٢)

(٣) يراجع في ذلك ماكتبه الشيخ الغزالي مؤيدا لجوانب من النظرية الاشتراكية في عدد من مؤلفاته مثل (من هنا نعلم) و(الإسلام والمناهج الاشتراكية) و(الإسلام المفترى عليه)

(٤) قذائف الحق ص (١٢٤) محمد الغزالي. المكتبة العصرية

أفكار اشتراكية، ويزعم أن الإسلام قد حرم الملكية الفردية إلا عند سد الاحتياجات[١].

والقضايا التي تقدم ذكرها تعدنماذج مختصرة لتأثر بعض الدعاة بقضايا الغزو الفكـري، ذكرهاعلى سبيل المثال لا الحصر، وقد كان لوجودها أثر مهم لوجود الاختـــلاف بـــين الدعاة، حيث كان هؤلاء المتأثرون هدفا نالته أقلام الدعاة الذين عابوا عليهم وقوعهم في هذه الزلات التي لايرون مبررا لوقوعهم فيها.

كما أن الداعية ينبغي أن يكون لديه حصانة فكرية تمنعه من التأثر بالأفكار الوافدة التي لا تتفق مع أحكام الشرع وإن افتتن الناس بها وتلقفتها وسائل الإعلام.

---

(١) نقلا عن غزو من الداخل ص (٢٣)

ثانيا: كيد الأعداء

قسم الله الناس في صدر سورة البقرة إلى ثلاث طوائف.

- طائفة آمنت بالقرآن ظاهرا وباطنا وذكر الصفات الكاشفة لها ثم أعطاها الحكم الذي تستحقه.

- ثم ذكر الطائفة الثانية وهي التي كفرت بالقرآن ظاهرا وباطنا، وبين الصفات الكاشفة لها، ثم أعطاها الحكم الذي تستحقه.

- ثم ذكر الطائفة الثالثة وهي التي آمنت بالقرآن ظاهرا وكفرت به باطنا، وبين الصفات الكاشفة لها وأعطاها الحكم الذي تستحقه.

وفي ثنايا كتاب الله عز وجل جاء ذكر المزيد من أوصاف وأفعال هذه الطوائف.

ولما كانت الطائفتان الثانية والثالثة تجمعهما صفات مشتركة، منها عدم الإيمان بالله تعالى، والتكذيب لنبيه ﷺ فقد كانت علاقتهما بالطائفة الأولى مبنية على العداوة والكيد والمكر، والتحالف والتآخي فيما بينهما للإيقاع بالطائفة الأولى، قال تعالى:{ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون}(١).

يقول الأستاذ سيد قطب: وأول لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام(٢).

وكذلك يتولونهم من دون المؤمنين، قال تعالى:{ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون}(٣).

وفي الصفحات التالية نماذج من القديم والحديث لكيد هؤلاء الأعداء الدائبة

---

(١) سورة الحشر (١١)

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٥٢٨)،تأليف: سيد قطب ــ دار الشروق ــ ط (١٠) (١٤٠٢هـ)

(٣) سورة المجادلة (١٤)

والمتنوعة لتفريق صف المؤمنين وإيقاع العداوة بينهم.

١- كيد أهل الكتاب للدعاة:

لم يمنع أهلَ الكتاب ما بأيديهم من العلم الذي ورثوه عن أنبيائهم والذي اشتمل على ذكر صفات نبي آخر الزمان التي يروها تنطبق على النبي محمد ﷺ من تكذيبه وهم أعرف الناس بصدقه قال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون}(١) ومنعهم الحسدُ له ولأتباعه حتى عن الاعتراف بأقل مايجب عليهم له وهو الإقرار بأن دينه أفضل الأديان، فكانوا على العكس من ذلك فضلوا دين المشركين على دينه، قال تعالى:{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}(٢).

ولذلك ظاهر بنوقريظة المشركين في غزوة الأحزاب للقضاء على الإسلام والمسلمين.

ومنذ بزوغ شمس الإسلام وأعداؤه من مشركين وأهل كتاب ومنافقين يكيدون له المكائد ويتربصون بأتباعه الدوائر يريدون أن يطفؤا نورالله، تأججت نار الحقد والبغضاء في قلوبهم لأهل الإيمان، ولا أدل على ذلك وأصدق في بيان شدة العداوة من قوله تعالى:{لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا}(٣)الآية.

الإصرار على العداوة:

ومكائد اليهود والنصارى وعداوتهم لهذه الأمة مستمرة لا تنقطع منذ بعثة النبيﷺ إلى أن يأتي أمر الله، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل يقول تعالى: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}(٤) فالحرب دائمة والمكائد مستمرة مادام المسلمون مباينين لطريق اليهود والنصارى، ثابتين على دينهم متمسكين به.

---

(١) سورة البقرة (١٤٦)

(٢) سورة النساء (٥١)

(٣) سورة المائدة (٨٢)

(٤) سورة البقرة (١٢٠)

يقول صاحب الظلال: وسيظل اليهود والنصارى يحاربونك ويكيـــدون لـــك ولا يسالمونك ولا يرضون عنك إلا أن تحيد عن هذا الأمر، وإلا أن تترك هذا الحق إلى مـا هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور، وليس الذي ينقصهم هوالاقتناع بأنك علـــى الحق وأن الذي جاءك من ربك الحق، ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليـــهم ما توددت، لن يرضيهم من هذا كله شيء إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق.

أماسبب هذه العداوة وعقدها الدائمة فهي العقيدة، هذه حقيقة المعركة التي يشـــنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة، إنها معركة العقيدة المتقدة دائما بين المعسكر الإسلامي، وهذين المعسكرين، اللذين قد يختلفان ويتنازعـــان فيما بينهما، ولكنهما يلتقيان دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين(١).

ومع أن عداوة هاتين الطائفتين شاملة لكل المؤمنين إلا أن نصيب الدعاة منها أكـــبر، باعتبارهم قادة الأمة وموجهيها إلى الخير، سعيا من هؤلاء الأعداء لإحبـــاط جـــهود الدعاة وتنفير الناس عنهم.

لقد حرص هؤلاء الأعداء على اتخاذ كافة السبل واختلاق أنواع الحيل للتشكيك في نبي الإسلام وصد الناس عنه فتنوعت التهم التي وصموا بها النبي ﷺ مـــابين ســـاحر ومجنون وشاعر، مع أنهم يؤمنون في قرارة أنفسهم أنه صادق، قال تعـــالى: {قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}(٢).

أما أهل الكتاب الذين كان الأولى لهم أن يبادروا لاتباع الحق وأن يرشـــدوا إليـــه غيرهم وذلك لما عندهم من العلم الذي يهديهم إلى الحق، فقد كانوا أشد عداوة وصدا عن الحق من غيرهم، حسدا من عند أنفسهم، قال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون}(٣).

قال ابن كثير: يخبر تعالى أن العلماء من أهل الكتاب يعرفون صحة مـــا جـــاء بـــه

---

(١) انظر في ظلال القرآن (١/١٠٧ــ ١٠٨)

(٢) سورة الأنعام (٣٣)

(٣) سورة البقرة (١٤٦)

الرسولﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ليكتمون الحق، أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبيﷺ وهم يعلمون(١).

وساء أهلَ الكتاب تميزُ المؤمنين عليهم بالهداية فأضمروا لهم الحسد ورغبوا في رجوعهم إلى الكفر قال عز وجل: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق}(٢)الآية.

يخبر تعالى عباده المؤمنين عن حال الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، وهذا الحسد الذي انطوت عليه نفوسهم هو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها ولا تزال(٣).

أما مدى هذه العداوة ووقتها فهو متسع للزمان والمكان ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ما دام المسلمون مقيمين على دينهم قال تعالى: {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا}(٤) الآية.

فالإصرار الدائم على الكيد للمؤمنين متواصل لا ينقطع حتى يتحقق للكفار ما يريدون وهو رجوع المؤمنين عن دينهم فيكونون وإياهم في الكفر سواء.

روى ابن إسحاق(٥) بسنده عن صفية بنت حيي بن أخطب(٦) أنها قالت: كنت أحب

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٤)

(٢) سورة البقرة (١٠٩)

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (١/١٥٣) وفي ظلال القرآن (١/١٠٢)

(٤) سورة البقرة (٢١٧)

(٥) محمد بن اسحاق بن يسار، العلامة الحافظ، صاحب السيرة النبوية، ولد سنة ٨٠هـ. ورأى أنس بن مالك بالمدينة وسعيد بن المسيب، وكان ثقة علامة في المغازي، مات سنة ١٥٠هـ.انظر سير اعلام النبلاء (٧/٣٣،٣٤، ٣٧، ٥٥) تهذيب التهذيب (٥/٢٨ـ٣٠)

(٦) أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، سباها النبيﷺ يوم خيبر ثم أعتقها ثم تزوجها، وقد جعل عتقها صداقها، روت عن النبي ﷺ كانت شريفة عاقلة، ماتت سنة ٥٠هـ انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٣١ـ٢٣٢) و الإصابة (٧/٧٣٨-٧٤٢) وتهذيب التهذيب (٦/٦٠١)

ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي، حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال عداوته والله ما بقيت(١).

ولم يأل ابن أخطب جهدا في حرب رسول الله ﷺ والكيد له، وهو نموذج لعداوة قومه يهود، فحين اجتمعت الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ حرض حيي بن أخطب بني قريظة على نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ وسعى عند رئيسهم كعب بن أسد وأعطاه عهد الله لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك حتى نقض كعبٌ عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

ولما انتهى الأمر برجوع قريش وغطفان عن المدينة ونزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ(٢) فحكم بقتل الرجال وقسمة الأموال وسبي الذراري والنساء، أُتي بحيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه بحبل فنظر إلى رسول الله ﷺ وقال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل اللهُ يُخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه(٣).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (/١٨٨ـ١٨٩) مكتبة المنار، الطبعة الأولى (١٤٠٩) هـ وروى هذا الأثر البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق (٢/ ٥٣٣) ورواه أبو نعيم أيضا في الدلائل من طريق ابن إسحاق ص(١٧)

(٢) سعد بن معاذ بن النعمان، سيد الأوس، أسلم على يد مصعب بن عمير، شهد بدرا وأحدا، ورمي بسهم يوم الخندق، عاش بعد ذلك شهرا ثم مات سنة ٥ هـ انظر سير أعلام النبلاء (١/٢٧٩، ٢٨٠) والإصابة (٣/٨٤ـ٨٥)و تهذيب التهذيب (٢/٢٨٣)

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٠٨)وما بعدها

تشكيك المؤمنين بدينهم:

من مكائد أهل الكتاب التي اكتوى بسببها المؤمنون في عهد النبوة سعيهم لتشكيك المؤمنين بدينهم رغبة في صدهم عنه حيث إنهم أهل كتاب عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم، وفي ما لديهم من العلم الموروث عن أنبيائهم، صفات نبي آخر الزمان، وقولهم قد يغتر به بعض الناس، وربما تابعهم ظنا منه أن ما يقولونه حقا، وبدلا من أن يكونوا أول الناس مبادرة لاتباعه سعوا في استغلال ظن الناس الحسن فيهم، في الصد عن الحق، والتلبيس على الناس قال تعالى: {وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون}(١).

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي حول تفسيرهذه الآية: فقالت طائفة منهم {آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ} أي أوله وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم، ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا(٢).

وهذا لون من الكيد يناسب فترة معينة، حيث كان المسلمون حديثي عهد بجاهلية ويهمهم موافقة أهل الكتاب لهم وثناؤهم على دينهم ودخولهم فيه، ويسؤهم كثيرا أن يخرجوا منه بعد أن دخلوا فيه، وربما فسر بعض الناس هذا التصرف بأن رجوع أهل الكتاب مبني على علم ورثوه عن أنبيائهم يدل على عدم موافقة ماجاء به هذا النبي لمافي الكتب المتقدمة من أوصاف نبي آخر الزمان الذي ينتظر أهل الكتاب بعثته ويعِدون أعداءهم من عبدة الأوثان بمتابعته ومقاتلتهم معه.

ولم يلبث هذا الكيد أن تلاشى خطره حيث أدرك المؤمنون دوافع أهل الكتاب من هذا التصرف فلم يعد يشكل خطرا على ثقة المسلمين بدينهم لذلك قلما يتكرر نظير هذا الفعل، فاتخذ هذا الكيد مظهرا آخر قام به المستشرقون قديما وحديثا، فدرسوا

---

(١) سورة آل عمران (٧٢)

(٢) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٩١/١)

الإسلام ولم يكن الدافع لهذه الدراسة الرغبة في العلم والبحث عن الحق، وإنما لصد قومهم عن الدخول فيه، وتشكيك المسلم الذي يقرأ ماكتبوه من معلومات مشوهة عن الإسلام بدينه، أو تبنيه لبعض أفكارهم المنحرفة التي يخالفه في فهمها بقية المسلمين مما يؤدي في النهاية إلى النزاع والاختلاف.

إثارة النعرات الجاهلية:

وجد أهل الكتاب في النعرات الجاهلية التي كانت بين الأوس والخزرج قبل أن يؤلف بينهم الإسلام وتجمعهم أخوَّة الدين، وسيلة مؤثرة في تفريق صف المؤمنين فعملوا على إثارة هذه النعرات.

قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جَمَعهم يتحدثون فيه، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة وصلاح ذات البين فأتى فتى شابا من يهود وقال: اعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا[1].

التربص بالمؤمنين:

من مكائد أهل الكتاب للدعوة في عهد النبوة: سعيهم لاستغلال الفرص للتفريق بين النبي ﷺ وأصحابه، ومن ذلك أنه لما تخلف كعب بن مالك[2] عن الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك وأمر النبيُّ ﷺ الناس بهجره، بادر ملك غسان إلى الطلب من كعب أن يلحق به، يقول كعب وهو يحكي ما جرى له حين هجره المسلمون: فبينما أنا أمشي بسوق

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/٣٨٩) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٣٣ـ٢٣٤ـ ٢٣٥)

(٢) كعب بن مالك بن أبي كعب، أبو عبد الله الأنصاري، شاعر رسول الله وصاحبه، شهد العقبة، وتخلف عن بدر وشهد أحدا وما بعدها وتخلف عن تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. مات سنة ٥٠هـ وقيل ٥١هـ. انظر سير أعلام النبلاء(٢/٥٢٣ـ٥٢٦) وتهذيب التهذيب (٤/٥٩٦)

المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعــه بالمدينـة يقول: مـن يـدل علـى كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسـان فـإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلـك الله بـدار هـوان ولا مضيعـة فالحق بنا نواسك. فقلت: هذا أيضـا مـن البـلاء فتيممـت بـها التنـور فسـجرته بـها(١) الحديث.

ومكاتبة ملك غسان لكعب بن مالك يستدعيه إليه حين علم بهجر النبي ﷺ له، تـدل على الرغبة الأكيدة لديه في التفريق بين المؤمنين واستغلال الفرصة الـتي يـرى أنها سنحت لجذب واحد من المسلمين إلى صفه، صدرت من عدو مـتربص بـأهل ملـة الإسلام يغتنم الفرص لإضعافهم والنيل منهم، لا يتوانى في بذل ما يستطيع من أجـل تحقيق هذا الهدف ما أمكنه ذلك.

يقول الإمام ابن القيم: وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعـالى، وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجـر النبي ﷺ والمسلمين له، ولا هو ممن تحمله الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسـول ﷺ والمؤمنين له على مفارقة دينه، وكانت غسان إذ ذاك ـــ وهم ملوك عرب الشام ـــ حربا لرسول الله ﷺ وكانوا يُنْعِلُونَ خيولهم لمحاربته(٢).

وبعد وفاة النبي ﷺ تواصلت جهود أهل الكتاب في التفريق بين المؤمنـين مـرورا بمقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وتوجه أصابع الاتهام لأهل الكتاب وما لهم من دور في حياكة خيوط هذه الجريمة، وقد كان قتله الباب الذي انكسر فولجت منه الفتن إلى هذه الأمة، كما جاء في حديث حذيفة الذي رواه الشيخان وغيرهمـا قـال: كنا جلوسا عند عمر ﷺ فقال أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة قلت: أنا كما قاله قال: إنك عليه أو عليها لجريء قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة

---

(١) رواه والبخاري واللفظ له، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وقول الله تعالى(وعلى الثلاثة الذين خلفوا) رقم الحديث (٤٤١٨) ومسلم،كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم الحديث (٢٧٦٩) والإمام أحمد (٣/٤٥٦)

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٥٨١) للإمام ابن القيم الجوزية ت ـــ شعيب الأرناؤط.ط(٢٦) ١٤١٢هـ مؤسسة الرسالة.

لقد بلغ الضعف بالمسلمين مبلغا، أن كشف عدوهم عن نفســـه وأعلـــن عداوتـــه، وسطرت أقلام ساسته ومفكريه التوصيات اللازمة لتحقيق أهدافه دون خشية مـــن أن يؤدي ذلك إلى إفاقة المسلمين من غفلتهم.

والنقول التالية من كلامهم تبين طرفا من خطط هؤلاء الأعداء التي وضعوها لتفريق صف الدعاة، وتبين الهدف المشترك لليهود والنصارى الذين يضعون خططـــا خاصـــة يقومون هم بتنفيذها، وأحيانا يتعاونون مع العلمانيين منافـــقي اليوم الذين يواصلون ما بدأه أسلافهم منافقوا الأمس.

الصحوة الإسلامية في نظرمفكري الغرب:

يهتم الغرب في هذا الوقت اهتماما بالغا بالصحوة الإسلامية، ويحرص على معرفـــة أسباب هذه الصحوة، و لماذا يعود المسلمون في هذا الوقت إلى دينـــهم، وموضـــوع دراسات الشرق الأوسط في الغرب هو أبرز العناوين التي تجري تحتها عملية الرصـــد والتحليل للعالم الإسلامي.

ولا يكاد يختلف اثنان أن المسلمين يعيشون في هذا الوقـــت صحـــوة إســـلامية في مختلف المجالات، والغرب أول من يدرك هذا الشيئ ويخشاه، لذا فإنـــه اتجـــه بكـــل إمكاناته وتقنياته المتاحة يدرس هذه الظاهرة ويحللـــها ويســـتنطقها بـــالتنبؤات عـــن المستقبل، ويضع الخطط المضادة ليقضي على هذه الصحوة، وتدفق سيل من الدراسات والمقالات والتحقيقات والمؤتمرات، تقف وراءه مئات الجامعات والمراكـــز والمعـــاهد والمؤسسات العلمية واللجان المتخصصة التي أنشأها أو نشـــطتها وزارات الخارجيـــة والدفاع وأجهزة الأمن القومي والاستخبارات، كما حرصـــت دول الغـــرب عامـــة والولايات المتحدة خاصة على إنشاء عشرات المراكز في بعض البلاد الإسلامية تحـــت مسميات مختلفة لتتولى مهمة الرصد والفحص وجمع المعلومات مباشرة لتصب مباشـــرة في مراكز التخطيط والقرار.

إن معظم ما يكتب في الغرب عن الإسلام والمسلمين، خاصة عن الصحوة الإســـلامية ليس من باب البحث العلمي النزيه، ولكنه عمل موجه، وكثير من الباحثين مجنـــدون لتحقيق نفس الغايات التي تجند لها الجيوش.

وحينما يكتب المفكر الغربي عن أي ديانة من الديانات حتى وإن كانت موغلة في الخرافة والوثنية فإن ما يكتبه يتسم غالبا بالإنصاف، وربما ظهر من كتابته التعاطف مع أهل الملة التي يكتب عنها وتراه أحيانا يبحث عن المبررات لبعض الخرافات، لكن هذا الإنصاف والحياد سرعان ما يتبددان ولايبقى منهما شيئ عند كثير منهم حين تكون الكتابة عن الإسلام.

يقول (لورمان دانييل) وهو أحد الباحثين الغربيين: رغم المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا كليا عنها كما قد يتوهمون(١).

إن معظم كتابات الغربيين عن الصحوة الإسلامية وجماعاتها تتسم بعدد من السلبيات منها:

١ــ تشويه العاملين للإسلام واتهامهم بشتى التهم.

٢ــ تصيد الأخطاء وتضخيمها وتعميمها.

٣ــ تخويف الحكومات الإسلامية من الإسلاميين وذلك للإيقاع بين الطرفين(٢).

يقول (البارون كارادي فو): أعتقد أن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامي وتحطيم وحدته الروحية مستخدمين من أجل هذه الغاية الانقسامات السياسية والعرقية، دعونا نمزق الإسلام، بل ونستخدم من أجل ذلك الفرق المنشقة والطرق الصوفية، وذلك كي نضعف الإسلام، لنجعله إلى الأبد عاجزا عن صحوة كبرى(٣).

والمتأمل لواقع الدعوة الإسلامية اليوم وما تعانيه من انقسام واختلاف يرى بصمات خطط الأعداء واضحة مما يعني أنها آتت ثمارها المرة وحققت كثيرا مما يرجوه هؤلاء الأعداء.

---

(١) المستشرقون والإسلام ص (٥) د. عرفان عبد الحميد، المكتب الإسلامي، ط(٢)

(٢) انظر الأصولية في العالم العربي ص(٩ــ١٢) ريتشارد هرير دكمجيان ــ ترجمة عبد الوارث سعيد ــ دار الوفاء الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ النقل من كلام المترجم.

(٣) المرجع السابق ص (٨)

السعي للتفريق بين الدعاة والحكومات الإسلامية:

فيما يتعلق بالتفريق بين الحكومات في البلاد الإسلامية والدعـــاة إلى الله اســـتخدم الغرب شتى الوسائل لتحقيق هذا الغرض، وللأسف أن جهوده آتت ثمارها فنجـــح في إيجاد هوة سحيقة بين الأنظمة الحاكمة في كثير من البــــلاد الإســـلامية والحركـــات الإسلامية القائمة في تلك البلاد وعمل على تعميق الخلاف بين الجانبين، وصوَّر تلـــك الحركات بصورة العدو المتربص بتلك الحكومات الذي يسعى لإزالة تلك الأنظمـــة، بهدف الاستيلاء على دفة الأمور في تلك البلاد، وقُدمت الصحوة الإسلامية من خـلال مجموعة من المصطلحات التي ولدت في بيئة الغرب وحُـمِّلت بمعانٍ ومفاهيم متـــأثرة بتجارب الغرب وقيمه ونظرته للدين والحياة، وأهم هذه المصطلحـــات مـــا يســـمى بالأصولية (fundamentalism) والذي يعني في بيئتـــه الأصليـــة فِرقـــة مـــن البروتستانت تؤمن بالعصمة الحرفية لكل كلمة لما يسمى (بالكتاب المقدس) ويدَّعـــي أفرادها التلقي المباشر عن الله ويعادون العقل والتفكير العلمي ويميلون إلى اســـتخدام القوة والعنف لفرض مايعتقدون(١).

ومع أن هذا المصطلح غربي النشأة وهو رد فعل لتصرفات رجال الدين النصـــارى ولا يمكن تعميمه على بلاد أخرى ذات عقائد وثقافات مختلفة، إلا أن الغرب طبـــق هـــذا المصطلح على غير النصارى، فكل مسلم يدعو إلى الله تعالى ويطالب بتحكيم شرعه في كافة نواح الحياة فهو في نظرهم أصولي بما تحمله هذه الكلمة من معنى عند واضعيـــها، بينما لايفهم من كلمة أصولي عند المسلمين إلا من كان متخصصا في علم أصول الفقه، ويستغرب أحد الكتاب الغربيين وهو (جيل كيبل) إطلاق هذا الوصف على غير النصـارى، ويعزو جهل الغربيين بمعرفة حقيقة الحركات الإسلامية إلى كون الغرب ينظر إليها بمنظـــار غربي فيقول: حين يُنظر إلى أحداث العالم الإسلامي من باريس أو نيويورك فإنما تُرد إلى مـــا يسمى الأصولية الإسلامية، التي هي ترجمـــة لمصطلـــح (intergrisme) الفرنســـي أو(fundamentalism) الإنجليزي وهما مقولتـــان ولدتـــا في العـــالم الكـــاثوليكي والبروتســـتانتي علـــى التـــوالي، وإن اســـتخدامهما علـــى ســـبيل

---

(١) انظر الأصولية في العالم العربي ص (١٢) المترجم

الاستعارة أو المجاز لا يعني أن لهما قيمة كونية مسكونية شاملة، بل إني على العكس من ذلك، أعتقد أنهما يعيقان معرفتنا بتلك الظاهرات في مجملها، ثم إن عجزنا الإجمالي عن تفسير أو تأويل الحركات الإسلامية اليوم إنما يعود إلى حد بعيد إلى استخدامنا لهذه النظارات النظرية القديمة التي نضعها على أعيننا لأننا لا نجد في عجالة أمرنا خيرا منها، لكن كل ما تقوم به هو زيادة التشويش في إدراكنا، لقد حان الحين للبدء بقبول التحدي الذي تطرحه الحركات الدينية المعاصرة على طرق تفكيرنا التقليدية[١].

ولذلك فإن هذا الكاتب لا يتفق مع أمثاله من الكتاب الغربيين في محاولاتهم لوصف دعاة الإسلام الذين ينادون بالعودة إلى تحكيم شرع الله في كافة شئون الحياة بالأصولية بمفهومها الغربي فهو يعترف بشمول الإسلام، وأن تركيز الدعاة على بعض تعاليمه التي قصر الناس في تطبيقها لا يعني الاكتفاء بها، فيقول: إن انبعاث الإسلام في شكله السياسي لم يكن سوى الجزء المرئي من حركة عميقة واسعة تجهد لإعادة الإسلام إلى الحياة اليومية والعادات، ولإعادة تنظيم الحياة الفردية انطلاقا من النصوص المقدسة[٢].

وبما أن الحضارة الغربية حضارة علمانية ذات ملامح نصرانية ويهودية، وللإسلام تصور مختلف للقيم العلمانية ولمعظم ما جاءت به النصرانية واليهودية المحرفتان، فالإسلام إذن يقف في الضرورة في الخط المقابل للغرب، ويقف عائقا أمام تحقيق الغرب لكثير من أهدافه، فلا بد إذن من مكيدة لإشغال المسلمين بأنفسهم وتحييد الإسلام عن حلبة الصراع مع الغرب، ولاشك أن الحضارة الغربية تعيش في هذا العصر أوج قوتها، وما تطرحه من أفكار فهي الأفكار التي تلقى رواجا، خدمها في ذلك الإعلام العالمي الذي تتولى مركز القيادة فيه، وعن طريق تصدير مصطلح الأصولية إلى العالم الإسلامي، استطاع الغرب أن يحقق كثيرا من مآربه ونال الدعاة بسبب ذلك شر عظيم.

إن الغرب يرى في الإسلام عدوا لايمكن مهادنته، لكنه يعلم أن ا. صريح بعداوته ربما أدى إلى كسب عداوة كافة المسلمين مما سيعوقه عن تحقيق كثير من أهدافه، فسعى

---

(١) يوم الله، الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث ص(١١) جيل كيبل – ترجمة. نصير مروة دار قرطبة ط (١) ١٩٩٢م

(٢) المرجع السابق ص (١٦)

إلى إلباس المسلم الداعية إلى الله ثوب الأصولية الغربية، وزعم أنه لايعــادي الإســلام كدين وحضارة ولكنه يعادي فئة من المسلمين وهم الأصوليون، ونجح في إقناع كثــير من الأنظمة الحاكمة في كثير من البلاد الإسلامية بأن هذه الطائفة تشكل خطرا علــى وجوده وتقف عائقا أمام تقدمه وأنها تفهم الدين فهما خاطأ، ولابد من محاربــة هــذه الفئة وعدم تمكينها من تحقيق أهدافها، فلم تتردد هذه الأنظمة في قبول هذه المشــورة الجائرة، وبدلا من أن تكون العلاقة بينها وبين الدعاة علاقة تعاون وإخاء وتعاون علــى الخير، صارت على العكس من ذلك تنافر وبغضاء وعداء، وبما أن هذه الأنظمة تمسك بمقاليد الأمور وبيدها القوة فقد استخدمت هذه القوة في التنكيل بالدعاة وإيذائــهم والتشكيك في نواياهم وإحباط جهودهم، والشواهد على هذا كثيرة في بلاد إســلامية عديدة.

٣- كيد المنافقين:

مع شدة عداوة المشركين وأهل الكتاب للمؤمنين، وكيدهم المتواصل للدعوة، إلا أن عداوتهم تهون أمام عداوة المنافقين، ذلك لأن هؤلاء عداوتهم للمؤمنين معلومة، وموقفهم من الدين ظاهر، وأخذ الحذر منهم متيسر، أما المنافقون فهم يتظاهرون بالإيمان ليوهموا المؤمنين بأنهم منهم فيأمنوا جانبهم، ويفضوا إليهم بخاصة أمورهم، يسترون ظاهرهم بالإيمان وقلوبهم ولاؤها للكافرين قال تعالى مبينا حالهم: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون}[١] أي نتخذ هؤلاء الذين نصانعهم بإظهار الإيمان هزوا ونستخف بهم[٢].

ولذلك أمر الله أولياءه بأخذ الحيطة والحذر منهم لأن عداوتهم مستترة، يحسبهم الجاهل بحقيقة أمرهم من المؤمنين، وهم في الحقيقة أول المعادين قال تعالى: {هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون}[٣].

فهم الأعداء الألداء في عداوتهم لكونهم يظهرون غير ما يبطنون، وهم الأعداء على الحقيقة وذلك لأن العدو البارز المتميز، أهون من العدو الذي لا يشعر به، فهو مخادع يزعم أنه ولي، لكنه العدو المبين[٤].

ولما كان هذا حالهم جلى الله أمرهم وكشف أسرارهم وهتك أستارهم ليكون المؤمنون منهم على حذر.

أنواع النفاق:

المنافقون الذين يتناولهم الحديث ليسوا صنفا واحدا بل منهم من يبلغ به النفاق إلى الكفر ومنهم من نفاقه دون ذلك، وقد قسم العلماء النفاق إلى:

---

(١) سورة البقرة (١٤)

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/١٢٤)

(٣) المنافقون (٤)

(٤) انظر فتح القدير (٥/٢٣١) وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧/٣٨٧)

– اعتقادي: وهو النفاق في أصل الدين، وهو النفاق الأكبر الذي يكـــون صاحبـــه كافرا في حقيقة حاله منتسبا إلى الإسلام في ظاهره، وهو الذي يخلد صاحبه في النار

– عملي: وهو نفاق العمل الذي لا يكون في أصل الدين، وصاحبه لايكون كـــافرا خارجا عن الإسلام في حقيقته، بل يكون عاصيا أوفاسقا أو محبطا بنفاقه عمله، وهو من أكبر الذنوب[١].

قال الكرماني[٢]: النفاق علامة عدم الإيمان، أو ليعلم منه أن بعض النفاق كفـــــر دون بعض، والنفاق لغة: مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفـــر وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه[٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يكن المتهمون بالنفاق نوعا واحدا، بل فيهم المنـــافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق.

والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرا ما يقال: كفر ينقل عن الملة وكفـــر لا ينقل ونفاق أكبر ونفاق أصغر[٤].

ومن أهم أسباب تفاوت الأذى الذي يصل إلى الدعاة من المنافقين، نوع النفاق الـــذي يدفع هؤلاء المنافقين لإيذاء الدعاة، فمن كان نفاقه نفاق اعتقاد فكيده للدعوة ينطلـــق من بغضه للدين وكراهيته لعلو دين الرسولﷺ.

ومن كان نفاقه نفاق عمل فأذاه يتفاوت قدره، حسب ما عنده من شعب النفاق

وأحيانا قد يحدث التعاون بين الفئتين مع تفاوت الحكم عليهم، وذلك بسبب ضعـف الإيمان وتعدد شعب النفاق لدى الفئة الثانية.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٤٧/١) وظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ (٧٢/١)

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن أمير ويه، فقيه حنفي، مفتي خراسان، ولد بكرمان سنة ٤٥٧هـ. وتفقه بمرو على محمد بـــن الحســين القاضي، وبرع وانتشرت مذاهبه، وبعد صيته، مات بمرو سنة ٥٤٣هـ. نظر سير أعلام النبلاء (٢٠٦/٢٠) والأعلام(٣٢٧/٣)

(٣) فتح الباري(١١١/١)

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(٥٢٣/٧ ـ ٥٢٤)

خطر النفاق:

يقول الإمام ابن القيم في بيان حال المنافقين وشدة خطرهم على الإسلام والمسلمين: إن بلية الإسلام بهم شديدة جدا لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟! وكم من علم له قد طمسوه؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟!.

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية ويزعمون أنهم بذلك مصلحون {ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون}(١) {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون}(٢).

اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون {فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون}(٣).

لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله ولم يرفعوا به رأسا ولم يروا با الإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا.

لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار.

لكل منهم وجهان: وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون.

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن فإن كان لهم فُتح من الله، قالوا ألم نكن معكم؟

---

(١) سورة البقرة (١٢)

(٢) سورة الصف (٨)

(٣) سورة المؤمنون (٥٣)

وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب[١].

ومن كانت هذه حالهم وصفاتهم فليس بمستغرب منهم الحرب الدائمة للدعوة والسعي للتفريق بين الدعاة وإثارة الاختلاف بينهم.

ومن تدبر السيرة النبوية ووقف على صنيعهم مع النبي ﷺ وسعايتهم الدائمة للإيقاع بين أصحابه، وحياكتهم للمؤامرات تباعا، واستغلال الفرص كلما سنحت لتحقيق أهدافهم الخبيثة، تبين له مدى ما يشكلونه من خطر في صفوف المسلمين وما يخصون به الدعاة من نصيب وافر من أذيتهم التي آلوا على أنفسهم الاستمرار عليها.

وسنذكر فيما يلي نماذج من أفعالهم ومؤامراتهم التي قاموا بها في عهد النبيﷺ وبعده، مما يدل على تشابه قلوبهم ووحدة أهدافهم، وإن باعد بينهم الزمان وتناء بهم المكان، واختلفت الأسماء والأشخاص، إذ الأهداف واحدة يرثها الخلف عن السلف.

النفاق بين الأمس واليوم:

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وأسلم من أسلم من قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود، لم يكن إذ ذاك نفاق حيث لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز دينه، قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأسا في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير فأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب.

روى البخاري في صحيحه عن أسامة بن زيد[٢] «أن رسول الله ﷺ ركب على حمار

---

(١) انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/٣٥٥-٣٥٩) للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، ت: محمد المعتصم بالله، دار النفائس ط (١) ١٤١٠هـ

(٢) هو الحب ابن الحب، أسامة بن زيد بن حارثة، ولد بمكة ونشأ على الإسلام وهاجر مع النبي ﷺ وأمره النبي ﷺ قبل أن يبلغ العشرين من عمره فكان موفقا، ولما توفي رسول الله ﷺ رحل أسامة إلى وادي القرى فسكنه ثم انتقل إلى دمشق في أيام معاوية ثم عاد إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات سنة ٥٤هـ انظر سير أعلام النبلاء (٢/٤٩٦-٤٩٧) و البداية والنهاية (٨/٧٣) والأعلام للزركلي

عليه قطيفة فدكية وأسامة وراءه، يعود سعد بن عبادة[١] في بني حارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة[٢]، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فقال له عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء لا أحسن مما تقول إن كان حقا، فلا تؤذنا به في مجالسنا فمن جاءك فاقصص عليه، قال عبد الله بن رواحة بلى يا رسول الله فاغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب رسول الله ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال رسول الله ﷺ: أي سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب يريد عبد الله بن أبي قال: كذا وكذا، فقال سعد بن عبادة: أي رسول الله بأبي أنت اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحرة[٣] على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك فذلك فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب}[٤] الآية، وقال: {ود

(٢٩١/١)

([١]) سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، أبو ثابت، سيد الخزرج، شهد العقبة وكان أحد النقباء، واختلف في شهوده بدرا، خرج إلى الشام ومات بحوران سنة ١٥هـ وقيل سنة ١٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١/٢٧٠ـ٢٧١، ٢٧٧) والإصابة (٣/٦٥-٦٧) وتهذيب التهذيب (٢/٢٧٩)

([٢]) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، كان أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدرا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة سنة ٨هـ انظر سير أعلام النبلاء (/٢٣٠ـ٢٣١) والإصابة (٤/٨٢ـ٨٦) وتهذيب التهذيب(٣/١٤٠)

([٣]) قال ابن منظور البحرة الأرض والبلدة، يقال: هذه بحرتنا أي أرضنا، واستشهد ابن منظور بالحديث على استعمال العرب لهذه الكلمة في هذا المعنى وقال: البحيرة مدينة رسول الله ﷺ وهي تصغير البحرة وقد جاء في رواية مكبرا، والعرب تسمي المدن والقرى البحار، والبحرة الفجوة من الأرض تتسع، وقال مرة: البحرة الوادي الصغير يكون في الأرض الغليظة، والبحرة الروضة العظيمة مع سعة وجمعها بحر وبحار، وقال الأزهري يقال: للروضة بحرة وأبحرت الأرض إذا كثرت مناقع الماء فيها. لسان العرب (٤/٤٥)

([٤]) سورة آل عمران (١٨٦)

كثير من أهل الكتاب}[١] فكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو عنهم ما أمره الله بــه، حــتى أذن له فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرا فقتل الله بها من قتل من صناديد الكفار وسادة قريش فقفل رسول الله ﷺ وأصحابه منصورين غانمين معهم أسارى من صناديد الكفـــار وسادة قريش قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قـــد توجه فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا[٢].

وبعد أن دخل ابن أبي في الإسلام ظاهرا بدأ يمارس دوره ويوجه أتباعه الذين هم علــى شاكلته للقيام بالدور الذي كلفوا أنفسهم القيام به، من الكيد للإسلام وهـــم ضمــن صفوفه يتظاهرون للمؤمنين بالأخوة الإيمانية ويسرون إلى أعداء الله بـــالمودة، لا يـــألون المؤمنين خبالا، ويتربصون بهم الدوائر، فجاءت مؤامراتهم تترا كلما كفى الله المؤمنين شر واحدة تلتها أخرى.

ومن أول المواقف التي نجم فيها النفاق وتجلى فيها دور المنافقين ورغبتهم في خـــذلان المؤمنين وإسلامهم لعدوهم، ماجرى منهم في غزوة أحد، فإنه لما غزا المشركون المدينـــة رغبة في نيل ثأرهم من النبي ﷺ وأصحابه لما أصابهم في بدر وأصبحوا على مشارفها وكان النبي ﷺ يرى في المقام المدينة والتحصن بها، فإن دخلها المشركون عليهم قـاتلوهم، ورأى رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار وكذلك عبد الله بن أبي بن سلول كان يرى هذا الــرأي، لكن الكثيرين من أصحاب النبي ﷺ لاسيما الشباب ممن لم يشهد بدرا قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ولا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا.

وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الجمعة ووعظ الناس وذكرهم وحثهم علـــى الثبـات والصبر، ثم دخل بيته فلبس لأمته ثم خرج عليهم فلما رآه الذين أشاروا بالخروج ندمـــوا وقالوا: استكرهناك ولم يكن لنا ذلك، يا رسول الله إن شئت فاقعد، فقال: ما ينبغي لنـــبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين أعدائه، فخرج رســـول الله ﷺ في ألف من أصحابه من بينهم عبد الله بن أبي ومن معه من أهل النفاق.

---

(١) سورة البقرة (١٠٩)

(٢) رواه البخاري واللفظ له،كتاب الأدب، باب كنية المشرك، رقم الحديث (٦٢٠٧) ومسلم،كتاب الجهاد والسير، بـــاب في دعـــاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، رقم الحديث (١٧٩٨) والإمام أحمد (٥/٢٠٣)

وهل يتصور أن يساهم المنافقون في نصرة الدين ويحاربون المشركين وهم أولياؤهم من دون المؤمنين، فلا بد إذن من مكيدة للتخلي عن نصرة المؤمنين، وإثارة البلبلة في صفوفهم، وقد وجد ابن أبي المبرر لذلك وهو أن النبي ﷺ أخذ برأي الشباب وعصاه، فقرر التراجع فتبعه ثلث الجيش.

وأنى لمؤمن خالط الإيمان بشاشة قلبه أن يكون له الخيرة من أمره، وقد قضى الله ورسوله أمرا، ولكنه القلب الذي مرد على النفاق لا تستعصي عليه المعاذير وإن كانت واهية، وحين لحق بهم عبد الله بن عمرو بن حرام[١] يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه، وفيهم نزل قول الله تعالى: {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون}[٢].

وكادت مكيدة المنافقين أن تنجح حيث اغتر بهم بعض المؤمنين فكادت طائفتان منهم أن تفشلا وهما بنو سلمة وبنوا حارثة ولكن الله ثبتهما وعصمهما من الخذلان وفي ذلك يقول تعالى: {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون}[٣].

ومن حكمة الله تعالى أن قدر وقوع ما جرى من المنافقين لنبيه ﷺ وتنزلت آيات الكتاب تفضح المنافقين وتبين دسائسهم وخبايا نفوسهم، وذلك ليعلم الدعاة أن لهم أعداء ظاهرهم أنهم منهم، وهم في الحقيقة يؤدون أدوارا الغاية منها تفريق صف المؤمنين وإثارة النزاع بينهم، وربما خفي أمرهم فترة من الزمن حتى إذا سنحت لهم الفرصة أطلوا

---

(١) عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، والد جابر بن عبد الله، من أهل العقبة وبدر، أحد النقباء، استشهد بأحد سنة ٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء (١/٣٢٤-٣٢٨) الإصابة (٤/١٨٩-١٩٠)

(٢) سورة آل عمران (١٦٦-١٦٧)

(٣) سورة آل عمران (١٢٢)

رؤوسهم وتكلموا بما كانوا يكتمونه وعاد تلويحهم تصريحا وظهرت مخبآتهم.

اختلاق الأراجيف لصرف الدعاة عن مهامهم وإفساد ذات بينهم:

من حكمة الله تعالى أنه إذا اراد أمرا جعل له سببا، فمع شناعة مقالة أهل الإفك إلا أنها كانت سببا في خير عظيم لقد تضمنت الآيات التي أنزلها الله تعالى لتبرئة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك أحكاما العمل بها إلى يوم القيامة.

إن اختيار أهل الإفك لعائشة رضي الله عنها أمر مقصود لذاته، حيث إنه كان في حسبانهم أنها زوجة رسول الله ﷺ وأرادوا من وراء ذلك تحقيق أهداف منها:

- إشغال النبي ﷺ بأمر لا يستطيع أن يغفل عنه أو يتناساه، ألا وهو عرضه.
- أن المنافقين لا يفتئون ينتهزون كل حدث للإفساد وشق صفوف المسلمين وتمزيق وحدتهم بما ينشرونه من أنواع الأكاذيب والأراجيف والإفك.

وحاصل حديث الإفك أن رسول الله ﷺ كان قد خرج بعائشة رضي الله عنها في غزوة بني المصطلق، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل فانقطع عقدها فانحبست في طلبه، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه، فحملوا الهودج ولم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلا، وجاءت مكانهم وعلمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها فغلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل[1]: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ وأناخ راحلته فقربها إليها فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة ولم تسمع منه إلا استرجاعه ثم ثار بها يقودها حتى قدم بها.

وقد نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس، تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به ووجد الخبيث عبد الله بن أبي متنفسا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان

---

(١) صفوان بن المعطل، بن رخصة بن خزاعي، أبو عمرو، المذكور بالبراءة من الإفك، قال فيه النبي ﷺ « ما علمت عليه إلا خيرا » أسلم قبل المريسيع، وكان على ساقة النبي ﷺ، من سادات المسلمين قيل إنه قتل شهيدا في غزوة أرمينية سنة ١٩هـ في خلافة عمر، وقيل مات سنة ٦٠ هـ. قال الإمام الذهبي: فهذا تباين كثير في تاريخ موته فالظاهر أنهما اثنان. انظر سير أعلام النبلاء (٢/٥٤٥-٥٥٠) والبداية والنهاية (٨/١٥٦) و الإصابة (٣/٤٤٠-٤٤٢)

أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين وصاروا يتناقلون هذا الكلام[١].

وساء رسول الله ﷺ تلقي الألسنة لهذا الحديث وعلم أن الذي أبدى فيه وأعاد وتولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول فقال: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير[٢] ﷺ وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ونزل[٣].

وقد استدرك الإمام ابن القيم على من قال إن الذي أجاب رسول الله ﷺ حين قال: من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي سعد بن معاذ، وذلك لأن سعد لا يختلف أحد من أهل العلم أنه توفي عقب حكمه في بني قريظة بعد الخندق وذلك سنة خمس على الصحيح، وحديث الإفك لا شك أنه في غزوة بني المصطلق، والجمهور عندهم أنها كانت بعد الخندق سنة ست، وعند ابن إسحاق أن الذي أجابه أسيد بن حضير ولم يذكر سعد بن معاذ[٤].

وهذا النزاع الذي نشب بين أصحاب رسول الله ﷺ وكاد أن يتطور، أثر من آثار

---

(١) انظر زاد المعاد (٣/٢٥٩-٢٦٠) وتيسير الكريم الرحمن (٥/٣٦٤-٣٦٥) وأخرج خبر الإفك بطوله البخاري في مواضع من صحيحه منها الحديث رقم (٤٧٥) ومسلم، كتاب التوبة، ب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم الحديث (٢٧٧٠)

(٢) أسيد بن الحضير بن سماك الأنصاري من الأوس، من السابقين إلى الإسلام، أحد النقباء ليلة العقبة، قيل إنه أسلم على يد مصعب بن عمير، ولما هاجر النبي ﷺ آخى بينه وبين زيد بن حارثة، قال فيه النبي ﷺ «نعم الرجل أسيد بن حضير» مات بالمدينة سنة ٢٠هـ ودفن بالبقيع. انظر سير أعلام النبلاء (١/٣٤٠-٣٤٣) و البداية والنهاية (٧/١١٦) و الإصابة (١/٨٣-٨٤)

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٢/٢٦١)

(٤) زاد المعاد (٣/٢٦٥-٢٦٦)

حديث الإفك، وهدف من أهداف المنافقين الذين لا يكلون سعيا في التفريق بين الدعاة وإيجاد أسباب النزاع بينهم، لكن المقصود الأول بالأذى هو رسول الله ﷺ الذي رميت زوجته، يقول الأستاذ سيد قطب: لم يكن الأمر أمر عائشة رضي الله عنها ولا قاصرا على شخصها فلقد تجاوزوها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها، بل تجاوزوه إلى صلته بربه ورسالته كلها، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها، من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائمة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله وما يعلمها إلا الله(1).

ومن حكمة الله تعالى أن قدر وقوع ما جرى من المنافقين لنبيه ﷺ وتنزلت آيات الكتاب تفضح المنافقين وتبين دسائسهم وخبايا نفوسهم، وذلك ليعلم الدعاة أن هم أعداء ظاهرهم أنهم منهم وهم يؤدون أدوارا كلفوا أنفسهم القيام بها، ليس لهم غاية إلا تفريق صف المؤمنين وإثارة النزاع بينهم وربما خفي أمرهم فترة من الزمن حتى لاحت لهم الفرصة فأطلعوا رؤوسهم وتكلموا بما كانوا يكتمونه وعاد تلويحهم تصريحا وظهرت مخبآتهم

استغلال الأخطاء التي يحتملها كلام الدعاة أو فعلهم:

إن المنافقين حين يحاربون الدعاة لا يعلنون الحرب صراحة فيكشفون عن حقيقة نواياهم ولكنهم يبحثون عن ستار يستترون خلفه فيظن من يسمع كلامهم ويقرأ مقالهم أنهم ناصحون مشفقون، إن سلالتهم ممتدة لم تنقطع بعد، فطالما نالوا من أعراض الدعاة وتكلموا فيهم بقبيح الكلام، وحين يقال لهم ألا تشتغلون بأعداء الدين الذين لا يشك في عداوتهم كاليهود والنصارى والرافضة والعلمانيين، يزعمون أن هؤلاء أمرهم ظاهر ومكشوف فيقولون: لا ننشغل بهم بل ننشغل بالدعاة إلى الله لنبين أخطاءهم لأنها تخفى على الناس.

لذا تراهم يحرصون على الوقوف على أخطاء الدعاة ويحفظون زلاتهم لا بقصد التحذير

---

(1) في ظلال القرآن (٤/٢٥٠٠)

من هذه الأخطاء والنصح لمن وقعوا فيها ولكن بقصد التنفير من الدعاة وتحذير المسلمين من الإقبال على دروسهم والاستفادة من علمهم وغمط فضائلهم، وأي فساد أعظم من هذا {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون}(١).

وهل سلم أحد بعد المعصوم ﷺ من الخطأ والوقوع في الزلل وما أحسن قول مجاهد رحمه الله: ليس أحد من خلق الله إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ(٢).

وحسب المنصف أن يعترف لأهل الفضل بفضلهم، وإن وقف على شيء من أخطائهم بينه بأسلوب الناصح المشفق، أما من افترض فيهم العصمة والسلامة من الخطأ فقد طلب المحال، وكم من عالم رخص في مسألة خالف وجانب فيها الصواب، فهل تطرح بذلك أقواله وتسقط عدالته، مع الجزم بخطئه، يقول إبراهيم التيمي(٣): لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله(٤).

ألا يشبه حال هؤلاء من قال فيهم رسول الله ﷺ «يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان»(٥).

وما أحوج الدعاة إلى الله إلى تدبر كتاب الله تعالى وآياته التي فضحت المنافقين وبينت عوارهم لاسيما سورة التوبة التي سميت الفاضحة لأنها أظهرت كثيرا من مخبآتهم، فكم من موقف لمنافقي الأمس الذين تنزلت الآيات لفضحهم يذكر بما يقوم خلفهم اليوم، لقد كان من شأن منافقي الأمس الحكم على نيات الدعاة وإساءة الظن بأعمالهم قال تعالى: {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون

---

(١) سورة البقرة (١١-١٢)

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٢٦)

(٣) الإمام القدوة الفقيه إبراهيم بن يزيد التيمي، كان قانتا لله صالحا عالما فقيها، كان أبوه من أئمة الكر ،، حبسه الحجاج حتى مات سنة ٩٢هـ وقيل ٩٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٥/٦٠-٦٢) وتهذيب التهذيب(١/١١٥)

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٢٧)

(٥) رواه والبخاري واللفظ له، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى(تعرج الملائكة والروح إليه) رقم الحديث (٧٤٣٢) ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم الحديث(١٠٦٤)والنسائي،كتاب الزكاة، باب المؤلفة قلوبهم، رقم الحديث (٢٥٧٧) الإمام أحمد (٣/٦٨و٧٣)

منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم}(1).

روى البخاري عن أبي مسعود البدري(2) قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صاع هذا فنزلت {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم}(3) الآية.

وكذلك خلفهم اليوم، فمن كان من الدعاة ظاهره السنة والدعوة إلى منهج السلف فحكمهم عليه بأنه يتوصل بهذه الدعوة إلى هدم السنة ومخالفة منهج السلف.

ومن أخطأ من الدعاة متأولا أو جاهلا فهو حلال العرض عندهم يطلقون لألسنتهم العنان لإلباسه شتى التهم.

لقد كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ يشاهدون وهم يؤدون العبادات مع المؤمنين من صلاة وصدقة وجهاد مع تثاقل في أداء الصلاة وكراهية للإنفاق في سبيل الله تعالى، وخروج للجهاد مع النبيﷺ، ورغبة في تحصيل منافع دنيوية وسعي للإفساد والتفريق بين المؤمنين، وكم تفضل الله علىعباده المؤمنين وكفاهم شر هؤلاء الأعداء حين منعهم من الخروج معهم وبين الحكمة من ذلك حيث قال تعالى{ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين}(4).

وقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات أنه من الخير للمؤمنين ألا يخرج معهم هؤلاء

---

(1) سورة التوبة (٧٩)

(2) عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري، روى عن النبي ﷺ، شهد العقبة واختلف في شهوده بدرا، قيل إنه نزل ماء بدر فشهر بذلك، شهد أحدا وما بعدها، نزل الكوفة وكان من أصحاب علي، واستخلف مرة على الكوفة، مات سنة ٤٠هـ. انظر سير أع النبلاء (٢/٤٩٣-٤٩٦) والإصابة (٤/٥٢٤) وتهذيب التهذيب (٤/١٥٧-١٥٨)

(3) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، رقم الحديث(١٤١٥) ومسلم،كتاب الزكاة، باب الحمل أجرة يتصدق بها، والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل، رقم الحديث (١٠١٨) والنسائي،كتاب الزكاة، باب جهد المقل، رقم الحديث(٢٥٢٩) وابن ماجة،كتاب الزهد، باب معيشة أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث (٤١٥٥)

(4) سورة التوبة (٤٦-٤٧)

المنافقون وذلك لأسباب منها:

ـ {لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا}

أي لو خرجوا معكم مختلطين بكم ما زادوكم قوة ومنعة بل خرجوا ليدسوا الدسائس ويسرعوا في الفتنة.

ـ {ولأوضعوا خلالكم} أي ولأسرعوا المشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، وسيستغلون الفرص التي يجدونها لتشكيكم بوعد الله تعالى، وتمزيق وحدتكم، وإضعاف قوتكم، وإثارة الاضطراب والبلبلة بين أفرادكم وأسركم وجماعاتكم.

وقوله: {وفيكم سماعون لهم} أي وفيكم من أهل الإيمان والصلاح من لم يتبينوا أمرهم، أو ليست لديهم حصانة فكرية ونفسية ضد وساوسهم ودسائسهم، فيحسنون الظن بهم، ويتأثرون بأقوالهم وآرائهم، فمن الخير ألا يختلطوا بكم حتى لا يؤثروا على فريق من أهل الإيمان والصلاح منكم بوساوسهم وتسويلاتهم، وما يقذفونه من دسائس وشبهات وشكوك وإرجاف مغلف بمكر شديد[1].

ومن الدروس التي ينبغي أن يستفيدها الدعاة من هذه الآيات، أن يعلموا أن العبرة ليست بكثرة المنتسبين إلى الدعوة الذين يدعون الغيرة على الدين ممن تكذب أفعالهم أقوالهم، وأن يكون الدعاة منهم على حذر وإن أقسموا الأيمان على صدقهم وصفاء قلوبهم لأن الله تعالى قد كذب دعوى أسلافهم حين أقسموا مثل هذه الأيمان فقال تعالى: {ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون}[2].

فالذي يضطرهم إلى أن يقسموا الأيمان على نصحهم ويتحدثوا من حين لآخر عن صدق نواياهم هو أنهم يتصرفون تصرفات مريبة تضر بالدعوة وتخدم الأعداء فيخشون

---

(1) انظر تفسير القرآن العظيم (٢/٣٦١) وظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ (٢/٢٤٥-٢٤٦)عبد الرحمن الميداني، دار القلم ط (١) ١٤١٤هـ

(2) سورة التوبة (٥٦-٥٧)

أن ينكشف أمرهم.

وهم مع قبح فعالهم حسنة أقوالهم يشهدون الله على ما في قلوبهم قال تعالى في وصفهم: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد}(١).

أما توليهم مناصب ظاهرها العمل للدين فليست بدليل كاف على صدقهم واستقامة أمرهم، لأنهم يتوصلون بهذه المناصب والأعمال إلى تحقيق ما يريدون، وما قصة مسجد الضرار عنا ببعيد يقول تعالى:{والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون}(٢).

وهذه الآيات نزلت في أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاحنة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيهم وأظهر أمرهم فقال تعالى:{والذين اتخذوا مسجدا ضرارا} أي مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه.

{وكفرا}أي مقصدهم فيه الكفر.

{وتفريقا بين المؤمنين} أي ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا(٣).

لأن الغاية ليست إشادة المباني الحسية وتزيينها ولكن العبرة بما يجري فيها من أعمال، فالبناء الحسي يلاحظ فيه الغاية منه، وهذه الغاية أمر معنوي، إما أن يكون أساسه خيركالتقوى والبر، وإما أن يكون أساسه شر كمسجد الضرار الذي أقامه المنافقون(٤).

وكل بناء يقام أو وظيفة تشغل تحت اسم ظاهرة الخير وحقيقته الإفساد والشر فحكمه

---

(١) سورة البقرة (٢٠٤-٢٠٦)

(٢)سورة التوبة (١٠٧)

(٣) انظر تفسير الكريم الرحمن (٣/٢٩٧)

(٤) انظر ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ (٢/٤١١-٤١٢)

حكم مسجد الضرار يجب البعد عنه والتحذير منه، حتى لا يخدع به المؤمنون.

ولا يزال أعداء الإسلام من المنافقين يقيمون أماكن ووظائف باسم الدعـــوة والعمـــل للدين، وما هي للدين وإنما هدفها الطعن في الدين وإثارة الشبهات والإفسادولا يـــزال الكثير من المسلمين يخدعهم هذا الظاهر.

وما تقدم يعدلمحات موجزة في بيان بعض صفات وأفعال هؤلاء الأعداء، وخشية الإطالة تمنع من سرد المزيد منها، وحسب المتأمل لواقع المسلمين اليوم أن يطلع علـــى كثـــيرمن حالهم، والله المرجو أن يهتك أستارهم ويكشف أسرارهم ويقي المسلمين شـــرهم وهـــو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الثاني
موضوع الاختلاف بين الدعاة

الفصل الأول : الاختلاف العقدي

تمهيد:

يقول الله تعالى في محكم التتريل: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}(١) فكل الرسل أمروا بتوحيد الله تعالى، وأصل رسالتهم الأمر بتوحيد الله وأنه لا أحد يستحق أن يصرف له شيء من العبادة إلا الله، وأن أبطل الباطل هو صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى.

وأخبر الله تعالى في كتابه عن أول رسول أرسله إلى أهل الأرض أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده فقال عز وجل: { لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}(٢).

وكذلك أخبر عن هود وصالح وشعيب، أهم دعوا قومهم إلى توحيد الله تعالى، وكل نبي أرسله الله فإن لب دعوته هو التوحيد.

وأخبر تعالى أنه أرسل رسلا إلى جميع الأمم، وأن لب دعوة هؤلاء الرسل وثمرتها هو توحيد الله تعالى، قال عز وجل: { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}(٣)الآية.

وفي حديث أبي هريرة وغيره أن النبيﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله»(٤).

وحين بعث النبيﷺ معاذا إلى اليمن أمره أن يبدأ بدعوة أهلها إلى التوحيد أولا، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا ﷺ إلى

---

(١) سورة الأنبياء (٢٥)

(٢) سورة الأعراف (٥٩)

(٣) سورة النحل (٣٦)

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وقوله تعالى: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب) رقم الحديث (٢٩٤٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ، وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها، ووكلت سريرته إلى الله تعالى، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام، واهتمام الإمام بشعائر الإسلام، رقم الحديث (٢٢) والإمام أحمد (٢/٣٤٥)

اليمن قال:«إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم، وتوقّ كرائم أموال الناس»[١].

فالتوحيد أول ما يدخل به المرء في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا.

وروى أبو داود والإمام أحمد عن معاذ قال: قال النبيﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة»[٢].

فهو أول واجب وآخر واجب[٣].

وقضايا العقيدة لا يمكن التهاون في شيء منها ولا تقبل فيها أنصاف الحلول، أو التوفيق بين الآراء المختلفة، والمؤمن يختار الموت على التخلي عن شيء من عقيدته، روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل قال: أوصاني رسول اللهﷺ بعشر كلمات قال: لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت أو حرقت»[٤] الحديث.

وعقيدة التوحيد الخالصة النقية من كل شوب كما جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكما فهمها السلف الصالح، أخطأ في فهم بعض جوانبها كثير من المسلمين قديما وحديثا، وبوجه خاص وقع أكثر الخطأ في فهم توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وهذا الخطأ في الفهم أدى إلى فرقة بين الدعاة هي في الواقع أخطر أنواع الفرقة، لأن الإنسان أسير فكره ومعتقده، وما عمله وسلوكه وتصرفاته في واقع الحياة إلا صدى

---

(١) رواه البخاري واللفظ له،كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم الحديث (١٤٥٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم(١٩) وأبو داود،كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، رقم الحديث(١٥٨٤) والترمذي،كتاب الزكاة، باب في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة، رقم الحديث (٦٢٥) وابن ماجة،كتاب الزكاة، باب فرض الزكاة، رقم الحديث(١٧٨٣) والإمام أحمد (٢٣٣/١)

(٢) رواه الإمام أحمد واللفظ له (٥ / ٢٤٧) وأبو داود في كتاب الجنائز (باب في التلقين) ورقم الحديث (٣١١٦) وقال الألباني: حديث حسن وأخرجه الحاكم (٣٥١/١) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهب. انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١٤٩/٣-١٥٠) تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط(١) ١٣٩٩هـ

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٧٥)

(٤)رواه الإمام أحمد(٢٣٨/٥) وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني وهذا إسناد رجاله ثقات كلهم، وابن عياش ثقة في روايته عن الشاميين وهذه منها، ولكنه منقطع، وبعد أن ذكر الشيخ شواهد للحديث وطرقا قال: والحديث بهذه الطرق والشواهد صحيح بلاريب. انظر إرواء الغليل (٨٩/٧-٩١)

لفكره وعقيدته(١).

أهمية تعلم الدعاة للعقيدة الصحيحة:

يقول الله عز وجل: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}(٢)

فهذا أمر من الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يبين للناس أن طريقته في الدعوة هي الدعوة إلى الله على بصيرة، وهذه هي السبيل الموصل إلى الله وإلى دار كرامته المتضمنة للعلم الحق والعمل به وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، وأن من اتبعه وأراد السير على نهجه لا سبيل له غير هذه السبيل، فينبغي عليه أن يدعو إلى الله كما دعا النبيﷺ(٣).

والمسلم في سعيه إلى الله تعالى فضلا عن الداعية لابد له أن يبني عمله على أساس صحيح، وهو ما يعقد عليه قلبه من عقيدة سليمة من أدران الشرك والشك والغلو والتحريف، وغير ذلك من مبطلات الأعمال.

وقد التبس الأمر على بعض الدعاة فظنوا أمور العقيدة وقضاياها من الأمور الثانوية التي يمكن تأجيلها أو التهوين من أمرها، بل زعم بعضهم أن بحث القضايا المختلف فيها يفرق المسلمين ويشتت عمل الدعاة، وما درى هؤلاء أن البناء من غير أساس لا يقوم أصلا وأن العمل من غير عقيدة لا يقبل من صاحبه، وأن أشرف عمل يقوم به مسلم هو معرفة ما يعتقده في ربه ومولاه، وتبليغ ما تعلمه من هذا الباب لغيره من إخوانه المسلمين، إذ شرف العلم من شرف المعلوم.

وقد عرف العلماء الناصحون قدر هذا العلم وأهميته فأنفقوا في تحصيله وتعليمه جل وقتهم وأوصوا بذلك غيرهم، نصحا للأمة وإقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وبينوا أن بعضه واجب على الأعيان وبعضه واجب على الكفاية، وأن ما يجب منه على العلماء والدعاة غير الذي يجب على العامة.

يقول الإمام ابن عبد البر: قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه

---

(١) انظر كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد ص (٣٨) د. عمر الأشقر، دار النفائس، ط (١) ١٤١٢هـ

(٢) سورة يوسف (١٠٨)

(٣) انظر تيسير الكريم الرحمن (٤/٦٣)

عن أهل ذلك الموضع.

والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك، ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد خالق كل شيء وإليه يرجع كل شيء المحيي المميت الذي لا يموت، عالم الغيب والشهادة.

والذي عليه جماعة أهل السنة والجماعة أنه لم يزل بصفاته وأسمائه ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء وهو على العرش استوى(١).

إلى آخر كلامه الذي بين فيه ما يجب على المسلم اعتقاده وعمله، والذي يجب أن يكون في مقدمة ما يهتم الدعاة ببيانه للناس.

ويقول الإمام ابن أبي العز الحنفي(٢): ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسولﷺ إيمانا مجملا، ولا ريب أن معرفة ما جاء به على التفصيل فرض على الكفاية فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله وداخل في تدبر القرآن(٣).

ولأهمية هذا العلم فإنه في مقدمة الأمور التي علمها النبي ﷺ لأصحابه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن بين أن الرسولﷺ علم أصحابه كل شيء: ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب(٤).

والعباد جميعا محتاجون إلى معرفة ما يعتقدونه في ربهم، وحاجتهم إلى ذلك أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب، إذ بالطعام والشراب تقوم أبدانهم وبالاعتقاد الحق تقوم أرواحهم وتسكن نفوسهم وترتاح ضمائرهم،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٥٧/١)

(٢) الإمام العلامة صدر الدين علي بن علي بن أبي العز الحنفي الدمشقي ولد سنة ٧٣١هـ اشتغل بالعلوم ثم ولي قضاء دمشق ثم قضاء مصر فأقام شهرا ثم استعفى ورجع إلى دمشق على وظائفه توفي سنة ٧٩٢هـ من مصنفاته انظر الأعلام (٣١٣/٤) ومقدمة شرح العقيدة الطحاوية ص(٨-٩) ورسالة الاتباع ص (١٣-١٧)

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص(٦٦)

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٧/٥)

ويقول الإمام ابن القيم: فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادهم إياه وتأليههم له كحاجتهم إليه في خلقه لهم ورزقه إياهم ومعافاة أبدانهم وستر عوراتهم وأمن روعاتهم بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته أعظم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ولهذا كانت«لا إله إلا الله» أحسن الحسنات، وكان توحيد الإلهية رأس الأمر[1].

ويقول الشيخ حافظ الحكمي[2]: فاعلموا رحمكم الله أنه لا صلاح للعباد ولا فلاح ولا نجاح ولا حياة طيبة ولا سعادة في الدارين ولا نجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة إلا بمعرفة أول مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الذي خلقهم الله عز وجل له وأخذ عليهم الميثاق به وأرسل به رسله إليه وأنزل به كتبه عليهم ولأجله خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار.

وذلك الأمر هو معرفة الله عز وجل بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وتوحيده بذلك ومعرفة ما يناقضه أو بعضه من الشرك والتعطيل والتشبيه واجتناب ذلك.

وتوحيد الطريق إلى الله بمتابعة كتابه ورسوله والعمل على وفق ما شرعه الله عز وجل ورسوله ﷺ، ومعرفة ما يناقضها من البدع المضلة، ويميل بالعبد عنها فيجانبها كل المجانبة ويعوذ بالله منها، فإن الله تعالى أنزل كتابه تبيانا لكل شيء، وتفصيل كل شيء وقال:{ ما فرطنا في الكتاب من شيء}[3][4].

وتقصي ما ورد من أقوال العلماء في بيان أهمية هذا العلم وأنه لاغنى للمسلم عن تعلمه وأنه أول ما ينبغي أن يحرص الدعاة إلى الله على تعلمه وتعليمه لا يتسع المقام

---

(1) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (٤٧/١) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق، محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ

(2) الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، فقيه أديب، من علماء (حازان) بين الحجاز واليمن ولد سنة ١٣٤٢هـ في حازان ونشأ بدويا يرعى الغنم، ثم قرأ القرآن، ولما بلغ السادسة عشرة بدأ يطلب العلم وهو يواصل رعي الغنم، ثم تفرغ للدراسة فظهر فضله، تدرج في الوظائف حتى أصبح مديرا للمعهد العلمي بمدينة سامطة. توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٧٧هـ انظر مقدمة معارج القبول ج (١) ص (ن ــ ت) والأعلام للزركلي (١٥٩/٢)

(3) سورة الأنعام (٣٨)

(4) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد (٩/١-١٠)

لذكره، و ما تقدم غيض من فيض، فينبغي على الدعاة إلى الله أن يولوا هذا الأمر ما يستحق من العناية والاهتمام، وأن يعلموا علم اليقين أن الدعوة إلى الله لا يمكن أن تكون على بصيرة مع جهل الداعية بالعقيدة الصحيحة المستمدة من كتاب الله وسنة رسولهﷺ.

وبالرغم من أهمية معرفة الداعية للعقيدة الصحيحة إلا أن نجد بعض من يشتغلون في الدعوة في هذا العصر لايهتمون كثيرا بمعرفة العقيدة ويعتبرون تعلمها وتعليمها مسألة ثانوية، ومن الأمثلة على ذلك ما يلاحظ عند جماعة التبليغ التي عم نشاطها أرجاء واسعة من المعمورة، فلا تكاد تصل إلى بلد وإن تناء بأهله إلا ويقال لك إن بعض المنتسبين إلى هذه الجماعة قد سبقوك للوصول إليه، دأبهم الخروج للدعوة، لا يكل شيخهم ولا يفتر شابهم ولا تمنع قلة ذات اليد أحدهم عن الخروج مع أفواج الخارجين،

إلا أنه بالرغم من جهود هذه الجماعة التي لا تنكر ونشاط أفرادها الذي لا يفتر، يصعب تحديد تصور عقدي واضح ينتظم أفرادها ويدعو إليه قادتها اللهم إلا عبارات تتفاوت في تفسيرها الأفهام، ما بين مؤيد يراها شاهد صدق على سلامة معتقد الجماعة ومخالف يراها دليل إدانة لها.

وتزايد نشاط الجماعة وكثرة أتباعها وحماس أفرادها دفع بعض الغيورين أو المناوئين للكتابة عنها والتحذير من الأخطاء التي تنسب إليها.

وقد مضى زمن كاف على تأسيس الجماعة، يتمكن معه مفكروها من صياغة أفكارها وإعلان مبادئها وتجلية موقفها من قضايا العقيدة ونشرها مكتوبة ليطلع عليها من شاء فيكون الحكم عليها عن بينة، وبالرغم من تزايد الحاجة لذلك لكثرة الأقاويل حول الجماعة ونسبة البدع والمخالفات للمنتسبين إليها، إلا أن الجماعة لم تول هذا الأمر شيئا من العناية، معللين إهمالهم لهذا الجانب بأنه إذا اشتغل الناس بكتابة المقالات وصياغة الأفكار وركنوا إلى الراحة والدعة، فإن مهمتهم العمل للدين واستنقاذ الهالكين زاعمين أن قدوتهم أصحاب سيد المرسلينﷺ الذين ساحوا في الأرض مجا دين في سبيل الله مبلغين لدينه.

لم يشتغلوا بتأليف الكتب وكتابة المقالات، وما دروا أن حال الصحابة ليست كحالهم وأن فهم الصحابة رضي الله عنهم للدين ليس كفهمهم.

وقد أدى إهمالهم لهذا الأمر أن رماهم خصومهم بتهم عديدة تصفهم بالتقصير في التوحيد بأقسامه الثلاثة والتلبس ببدع التصوف وغيرها.

وفيما يلي نماذج مما رميت به هذه الجماعة.

يقول الشيخ حمود التويجري: ذكر العلماء العارفون بجماعة التبليغ كثيرا مما هم عليه من البدع والخرافات والضلالات وأنواع المنكرات وفساد العقيدة، ولا سيما في توحيد الألوهية، فهم في هذا الباب لا يزيدون على ما كان عليه أهل الجاهلية الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ لأنهم إنما يقرون بتوحيد الربوبية فقط كما كان المشركون من العرب يقرون بذلك، ويفسرون معنى لا إله إلا الله بمعنى توحيد الربوبية وهو أن الله تعالى هو الخالق وهو المدبر للأمور، وقد كان المشركون يقرون بهذا التوحيد كما ذكر القرآن عنهم في آيات كثيرة من القرآن ولم ينفعهم ذلك ولم يدخلوا به الإسلام.

وقد جهل التبليغيون معنى لا إله إلا الله على الحقيقة وهو أنه المستحق للعبادة دون سواه[1].

ويقول أيضا: وقد ذكر بعض العلماء عن التبليغيين نوعا آخر من الذكر وهو أنهم يكررون كلمة التوحيد (لا إله) ستمائة مرة ثم بعد ذلك يكررون كلمة (إلا الله) أربعمائة مرة[2].

ثم قال: ولا شك أن هذا من الاستهزاء بالله وبذكره ولا يخفى على من له علم وفهم أن فعلهم هذا يتضمن الكفر ستمائة مرة، لأن فصل النفي عن الإثبات في قول (لا إله إلا الله) بزمن متراخ بين أول الكلمة وآخرها على وجه الاختيار يقتضي نفي الألوهية عن الله تعالى ستمائة مرة وذلك صريح الكفر[3].

ونقل الشيخ التويجري عن سيف الرحمن الدهلوي قوله: ومن الشركيات الرائجة عند التبليغيين تعليق التمائم والحروز والحجب التي تشتمل على الطلاسم والأسماء الغريبة

---

(1) القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ ص (٨) حمود بن عبد الله التويجري، ط (١) ١٤١٤هـ دارالصميعي

(2) المرجع السابق ص (٩)

(3) المرجع السابق ص (٩-١٠)

والأرقام والرموز المبهمة التي لا تخلو من الالتجاء إلى غير الله والاستعاذة بغيره(١).

ونقل الشيخ حمود التويجري عن كتاب (نظرة عابرة) لسيف الرحمن الدهلوي أن بعض مشايخ التبليغيين كانوا يرابطون على القبور وينتظرون الكشف والكرامات من أهل القبور،

وينسب إلى أحدهم أنه ألف رسالة يشرح فيها أراء جماعته فعندما فسر كلمة (لا إله إلا الله) قال: لا معبود في الوجود إلا الله، وهذا كلام خاطئ لأن هناك معبودات كثيرة غير الله والصحيح لا معبود بحق إلا الله(٢).

ويقول الدكتور محمد تقي الدين الهلالي: أخبرني أحد رؤسائهم أنه أقام يوما وليلة في قبة تعبد من دون الله وصلى في المسجد المتصل بها خمس صلوات(٣).

وينسب الشيخ حمود التويجري إلى بعض العلماء القول: إن التبليغيين يبايعون على أربع من الطرق الصوفية وهي الجشتية، والسهروردية، والقادرية، والنقشبندية، فإلى هذه الطرق الأربع يدعون الأعاجم ويبايعونهم عليها بدون تحفظ ويدعون من انخدع بهم ومال إليهم من جهال العرب وأغبيائهم إلى المبايعة عليها إذا وثقوا به(٤).

وقد مر بنا أثناء الحديث عن نشأة الجماعة أن مؤسسها محمد إلياس بايع شيخه رشيد الجنجوهي(٥)

وقد حدثني بعض المنتسبين إلى الجماعة من الهنود أنهم يبايعون شيوخهم على الطرق الصوفية الأربع التي ذكرها الشيخ التويجري ويزعمون أن هذه البيعة تمتد إلى رسول الله ﷺ، بينما كثير من العرب المنتسبين لهذه الجماعة لا يدرون عن أمر هذه البيعة شيئا، ويصرون على نفيها.

يقول الشيخ محمد تقي الدين الهلالي في معرض رده على التبليغيين: وهذه البيعة التي

---

(١) المرجع السابق ص (١٣)

(٢) الجماعات الإسلامية في ضوء القرآن والسنة ص (٩٠) تأليف: سليم الهلالي و زياد الديبج. ط (١٣٩٩) هـ و لم يذكر المولفان اسم الرسالة أو اسم مؤلفها

(٣) السراج المنير ص (١٠)

(٤) المرجع السابق ص (١١)

(٥) انظر محمد إلياس حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص (٧٥)

يستعملها أصحاب الطرائق من المتصوفه والإجازة في إعطائها كل ذلك ضلال مبين، فلا توجد في الإسلام بيعة إلا بيعة الصحابة للنبي ﷺ وبيعة المسلمين لخليفتهم(١)

وما تقدم من انتقادات لهذه الجماعة ليست كل ما يقال عنها، بل هي شيء يسير مما نسب إليها، ذكرتها على سبل المثال لا الحصر.

ولا يعني نقلي لهذه الأقوال أني أشارك من أوردوها القول بصحة نسبة هذه الأخطاء إلى الجماعة، ولا أن كل من ينتسب إلى هذه الجماعة متلبس بما نسب إليها.

لكني لا أستبعد أن يكون عند بعض من انتسب إلى هذه الجماعة شيء مما قيل، فقد تجد من بين أفرادها من هو سلفي العقيدة يرى في انضمامه للجماعة وسيلة لخدمة الدين وإصلاح ما يمكن إصلاحه مما لديها من خلل، كما تجد نقيض ذلك من أهل التصوف والقبوريين وغيرهم.

والسبب في نظري يعود إلى أن الجماعة ليس لديها منهج واضح في العقيدة تلزم أفرادها بالتقيد به والدعوة وفق ضوابطه مما يدعوها إلى مراجعة ما هي عليه لتتدارك ما فاتها وتصحح مسارها وتستفيد من النصائح التي توجه إليها، حتى تكون دعوتها وفق منهج صحيح يهتدي بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

كما أنه من السمات البارزة عند هذه الجماعة أنها لا تولي العلم الشرعي أدنى اهتمام ولا يهمها أن يكون المنتسب إليها متزودا بالعلم، وقد سن لهم هذا الأمر مؤسس الجماعة الشيخ محمد إلياس حيث يقول: إن كل الأعمال لا تؤتي ثمارها إلا بالإيمان واليقين الكامل، وإن البداية لابد أن تكون بالعمل قبل العلم، لأن تحصيل العلم ليس إلا لاحتياج العمل به، وإن العلم لن يحصل إلا بأن يقوم بعمل للحصول عليه.

وإذا اعتقدنا أن العلوم هي المقصودة بالذات فسيستغني الناس عن العمل، وستكون النتيجة أننا نعلم كل شيء ولا نعمل به شيئا، وبذا يقل العمل ويكثر الكلام(٢).

والسؤال المهم الذي لابد من الإجابة عنه كيف يدعو المسلم بدون علم وإلى أي شيء

---

(١) السراج المنير في تنبيه جماعة التبليغ على أخطائهم ص (٥٣)

(٢) الشيخ محمد إلياس الدهلوي حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ ص (٢١٧-٢١٨)

يدعو وهو لا يعلم؟ وقد قال الله في كتابه: {فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبـــك}(١) الآية، وقد بوب البخاري على هذه الآية بقوله: باب العلم قبل القول والعمل لقـــول الله تعالى { فاعلم أنه لا إله إلا الله} فبدأ بالعلم(٢)

وليس المراد مما تقدم ألا يقوم المسلم بالدعوة إلى الله إلا إذا أصبح عالما، بل المقصود ألا يقول في دين الله إلا بعلم، ولا يتكلم إلا بما علم وإن كان قليلا ولا يضـــيره ذلـــك لأن النبي ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية»(٣)الحديث.

وقد سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: أيهما أولى طلب العلم الشرعي أم الدعـــوة إلى الله؟ فأجاب: بأن طلب العلم الشرعي لابد منه لأن البلاد الإسلامية مغزوة من كـــل جانب في العقيدة والأخلاق وغير ذلك فإذا لم يكن عند الإنسان علم راسخ مبني علـــى الأصول الشرعية وعلى الدلائل العقلية فإنه يضيع،

أما إذا كان الإنسان ليس عنده قدرة على الرسوخ في العلم والتعمق فيه فحينئذ يتفرغ للدعوة لكن يجب ألا يدعو إلا بما يعلم أنه الحق(٤).

وفي فتاوى اللجنة الدائمة: وأقل ما يجب على كل مكلف الإيمان بالله وملائكته وكتبـــه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره وفهم معنى ذلك ولو إجمـــالا والنطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وفهم معناها ولو إجمالا(٥).

وفي المبحثين التاليين من هذا الفصل سنتحدث بإيجاز حول حقيقة توحيـــــد الألوهيـــة وتوحيد الأسماء والصفات وفق فهم السلف لهذين القسمين من أقسام التوحيد، نعقـــــب ذلك بذكر أمثلة لما وقع فيه بعض الدعاة من أخطاء في هذين القســـــمين مـــن أقســـام التوحيد، مما كان له أثر في وقوع الاختلاف بين الدعاة.

---

(١) سورة محمد (١٩)

(٢) صحيح البخاري كتاب العلم باب رقم (١٠)

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث (٣٤٦١) والترمذي، كتاب العلم، باب ما جـاء في الحديث عن بني إسرائيل، رقم الحديث (٢٦٦٩) والإمام أحمد(٢/١٥٩-٢٠٢)

(٤) انظر الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات ص (٨٧-٨٨) الشيخ محمد بن صالح العثيمين إعداد: علي بن حسين أبـــو لـــوز دار المجد، ط (١) ١٤١٤هـ

(٥) فتاوى اللجنة الدائمة (٣/١٨٢)

المبحث الأول
حول حقيقة توحيد الألوهية

حقيقة توحيد الألوهية وأهميته:

لما ذكر الله في أول سورة البقرة فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هزا للسامع وتنشيطا له واهتماما بـــأمر العبـــادة، وتفخيما لشأنها وجبرا لكلفة العبادة بلذة المخاطبة، فقال تعالى:{ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون}[١].

وهذا أول أمر في كتاب الله تعالى، وهو أمر عام لجميع الناس بأمر عام، وهو العبـــادة الجامعة لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم لـــه قال تعالى:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}[٢].

واستدل على وجوب عبادته وحده بأنه الرب الذي ربى عباده بأصناف النعم الظـاهرة والباطنة[٣].

وتوحيد الألوهية يقال له توحيد العبادة باعتبارين، فباعتبار إضافتـــه إلى الله يســـمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى: توحيد العبادة وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة.

والمستحق للعبادة هو الله تعالى قال تعالى:{ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل}[٤].

والعبادة تطلق على شيئين: الأول التعبد فهي بمعنى التذلل لله عز وجل بفعل أوامـــره واجتناب نواهيه محبة وتعظيما.

الثاني: المتعبد به.

مثال ما تقدم: الصلاة، ففعلها عبادة وهو التعبد.

ونفس الصلاة عبادة وهو المتعبد به.

---

(١) سورة البقرة (٢١)

(٢) سورة الذاريات (٥٦)

(٣) انظر تفسير البيضاوي (١/٣٥) وتيسير الكريم الرحمن (١/٥٧)

(٤) سورة لقمان (٣٠)

وإفراد الله بالتوحيد: أن يفرد الإنسان الله وحده بالعبادة تذللا ومحبة وتعظيما[١].

وهذا القسم من أقسام التوحيد هو الذي بعثت به الرسل ووقعت من أجله الخصومة بين الأنبياء وأممهم، وهو متضمن توحيد الربوبية الذي يقر به المشركون، ولم يغن عنهم هذا الإقرار لإخلالهم بتوحيد الألوهية، يقول ابن أبي العز الحنفي شارح العقيدة الطحاوية: التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: والمشركون من قريش وغيرهم الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبيﷺ دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار، كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال تعالى:{ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون}[٣] وقال:{ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنى تسحرون}[٤].

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة، ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى:{ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون}[٥][٦].

---

(١) انظر القول المفيد على كتاب التوحيد (١/٩ــ١٠) شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين ــ دار العاصمة. ط(١) ١٤١٥هــ

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص (٧٩)

(٣) سورة لقمان (٢٥)

(٤) سورة المؤمنون (٨٤-٨٩)

(٥) سورة يونس (١٨)

(٦) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١/١٥٥)

وكلما ازداد المرء علما بالله ومعرفة للتوحيد وما يضاده، ازداد ارتقاؤه في درجاته، إذ الموحدون ليسوا على درجة واحدة في توحيدهم، يقول الإمام ابن القيم: لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم علما ومعرفة وحالا، تفاوتا لا يحصيه إلا الله، فأكمل الناس توحيدا: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولوا العزم من الرسل أكمل توحيدا، وأكملهم توحيدا الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما ـ علما، ومعرفة، وحالا، ودعوة للخلق، وجهادا – ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه، كما قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته: { أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}(١).

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء قال تعالى:{ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين}(٢).

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيها لا أسفه منه، ورشيدا، فالسفيه من رغب عن ملته إلى الشرك، والرشيد من تبرأ من الشرك قولا وعملا وحالا، فكان قوله توحيدا، وعمله توحيدا، وحاله توحيدا(٣).

وقد فسر العلماء كلمة التوحيد التي لا تحصل النجاة إلا لمن حققها، بأن تكون العبادة كلها لله تعالى لا يصرف منها شيء لغيره عز وجل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يصف حال الرافضة الذين يتبعون شيوخهم الذين يأمرونهم بالغلو في أئمتهم، وإلى أي شيء يؤول أمرهم حين يوافقونهم فيما يدعونهم إليه فيقول: كما تأمر شيوخ الشيعة أتباعهم تهم يأمرونهم بالإشراك بالله، وعبادة غير الله، ويصدونهم عن سبيل الله،

---

(١) سورة الأنعام (٨٩-٩٠)

(٢) سورة البقرة (١٣٠-١٣١)

(٣) انظر مدارج السالكين (٣/٤٤٥-٤٤٦)

فيخرجون عن حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

ثم بين حقيقة التوحيد بقوله: فإن حقيقة التوحيد أن تعبد الله وحده، فلا يدعى إلا هو ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيين أربابا فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم!؟[١].

ويقول الإمام ابن القيم: وروح هذه الكلمة ــ أي كلمة التوحيد ــ وسرها إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره: بالمحبة والإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء وتوابع ذلك: من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يحب سواه، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعا لمحبته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يخاف سواه، ولا يرجى سواه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يرهب إلا منه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا إليه ولا يطاع إلا أمره ولا يتحسب إلا به، ولا يستغاث في الشدائد إلا به ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه، ويجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله[٢].

وحاجة العبد إلى هذا التوحيد أعظم الحاجة فلا تستقيم حياته إلا به ولا تستقر نفسه إلا إليه وهو سبب سعادته في الدنيا والآخرة.

يقول الإمام ابن القيم: فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به وينعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، وحاجة العبد إلى أن يعبد الله لا يشرك به شيئا في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف به ولا في النذر له ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد، روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره وهي كادحة إليه كدحا فملاقيته، ولا بد من لقائه ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه

---

(١) منهاج السنة (٣/٤٨٩-٤٩٠)

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. ص (٢٠٢) الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، ت: عبد اللطيف آل محمد الفواعي، دار الفكر ١٩٨٧م

لها[1].

وكتابات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب[2] رحمه الله ورسائله حافلة بالحديث عن هذا القسم من أقسام التوحيد حيث عاش في بيئة أخطأ كثير من أهلها في فهم هذا القسم فأبدى فيه وأعاد وأطنب في الحديث عن بيان أهميته والخطر الناتج عن مجانبته.

يقول رحمه الله تعالى: اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده،

ثم بين أن الرسل وأولهم نوحا عليه السلام، قد بعثوا لتنقية التوحيد مما علق به من شوائب الشرك وأن الله تعالى ختمهم بمحمد ﷺ الذي بعثه ليجدد لهم دين أبيهم إبراهيم، ويخبرهم أن التقرب والاعتقاد محض حق لله لا يصلح منه شيء لغيره لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلا عن غيرهما[3].

وبعد أن يذكر الشيخ أقسام التوحيد الثلاثة: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات يقول: وأما الثاني وهو توحيد الألوهية: فهو الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر وحديثه وهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد، كالدعاء والنذر والنحر والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة[4].

وعن أهمية هذا التوحيد يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها، وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح،

([1]) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص (٥٧ ــ٥٨) الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، دار الوطن

([2]) الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب ولد ونشأ في العيينة بنجد ورحل مرتين إلى الحجاز فمكث في المدينة مدة وقرأ على بعض أعلامها، دعا إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتأثر بدعوته الكثير من رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، توفي سنة ١٢٠٦هـ له كثير من المصنفات أكثرها رسائل مطبوعة انظر الأعلام (٦/٢٥٧) وانظر كتاب محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه تأليف مسعود الندوي ص(٣٠- ٣١-٥٢)

([3]) كشف الشبهات ص (١٥٥) ضمن القسم الأول من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، العقيدة والآداب الإسلامية. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

([4]) كتاب مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، ملحق به الرسالة المفيدة ص (٧٤) للشيخ محمد بن عبد الوهاب. ت: إسماعيل الأنصاري ١٤٠٧ هـ

وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين(١).

ويقول الإمام ابن القيم: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد(٢).

ويقول الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي الشافعي في بيان توحيد الألوهية: هو إفراد الله بالعبادة. فهو المستحق لأن يعبد لا سواه مهما سمت درجته وعلت منزلته، وهو التوحيد الذي جاءت به الرسل إلى أممهم، لأن الرسل عليهم السلام جاءوا بتقرير توحيد الربوبية الذي كانت أممهم تعتقده، ودعوتهم إلى توحيد الألوهية كما أخبر الله عنهم في كتابه المجيد.

وبعد أن ذكر الآيات الدالة على أن الأنبياء جميعا قد بعثوا بهذا التوحيد، ذكر تعريف العبادة وبين أنها تشمل جميع أفعال المكلف فقال: اعلم أن العبادة تشمل الصلاة والطواف والحج والصوم والنذر والاعتكاف والذبح والسجود والخوف والرهبة والرغبة والخشية والتوكل والاستغاثة والرجاء، إلى غير ذلك من أنواع العبادات التي شرعها الله في قرآنه المجيد أو شرعها رسول الله بالسنة الصحيحة القولية أو العملية(٣).

نواقض توحيد الألوهية:

وبعد تقرير معنى توحيد الألوهية وبيان أهميته اعتمادا على الآيات والأحاديث وكلام

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن ص (١٩٢) عبد الرحمن السعدي، مكتبة المعارف، ١٤٠٠هـ

(٢) مدارج السالكين (٣/٤١٧-٤١٨)

(٣) تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران. ص (٢٣-٢٤-٢٩) أحمد بن حجر آل بوطامي الشافعي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦هـ

أهل العلم نعرض بإيجاز لما يناقض هذا التوحيد ويضاده ويخدش كماله وهو صرف العبد شيئا من العبادة لغير الله تعالى مما يخرجه من زمرة الموحدين إلى زمرة المشركين المستحقين للطرد عن رحمة رب العالمين.

فالشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله تعالى، ولا تنال رحمة الله التي وسعت كل شيء من مات مشركا. يقول الله تعالى: { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما }(1).

وهو الظلم العظيم الذي لا يغفره الله تعالى كما قال عز وجل مخبرا عن وصية لقمان لابنه: { وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}(2).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم}(3) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: { يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}»(4).

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك»(5) الحديث.

وأصل الشرك أن يجعل لله عديل فيصرف له شيء من العبادة، فالمشركون عدلوا بالله بعض خلقه فصرفوا لهم شيئا من عبادتهم قال تعالى: { الحمد لله الذي خلق السموات

---

(1) سورة النساء (٤٨)

(2) سورة لقمان (١٣)

(3) سورة الأنعام (٨٢)

(4) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، رقم الحديث (٣٢) ومسلم، واللفظ له، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، حديث رقم (١٢٤) والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الأنعام) رقم الحديث (٣٠٦٧) الإمام أحمد (٣٧٨/١و٤٢٤و٤٤٤)

(5) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى(فلا تجعلوا لله أندادا) رقم الحديث (٧٥٢٠) ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم الحديث (٨٦)

والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}[١] قال ابن كثير: ومع هذا كله ــ أي خلق السموات والأرض ــ كفر به بعض عباده وجعلوا له شريكا وعدلا واتخذوا له صاحبة وولدا[٢].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: {يعدلون} يجعلون له نظيرا في العبادة من قول العرب: عدلت فلانا بفلان إذا جعلته له نظيرا وعديلا[٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به[٤].

وفي معنى يعدلون أيضا يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: يسووهم به في العبادة والتعظيم مع أنهم لم يساووا الله في شيء من الكمال وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه[٥].

وفي بيان الأعمال التي تخرج صاحبها من التوحيد إلى الشرك يقول الإمام ابن القيم: وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين}[٦].

وقد فصل القول في بيان نواقض هذا التوحيد التي من فعل شيئا منها صار في عداد المشركين المستحقين لمقت رب العالمين الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي الشافعي فقال: فمن ركع أو سجد لحي أو ميت أو نذر لغير الله كأن ينذر لقبور الأولياء أو الصالحين، أو

---

(١) سورة الأنعام (١)

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٢٣/٢)

(٣) أضواء البيان (١٨٠/٢)

(٤) الاستقامة (٣٤٤/١) لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت: محمد رشاد سالم نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٣٧١/٢)

(٦) سورة الشعراء (٩٧-٩٨)

يذبح لهم، أو للأشجار أو للعيون، أو يطوف بقبر نبي أو ولي، كأن يطوف بقبر الرسول أو بقبر علي بن أبي طالب أو بقبر الحسين أو على بن موسى الرضا، أو عبد القادر الجيلاني، أو البدوي أو الرفاعي أو غيرهم.

أو يستغيث بهم في الشدائد، كأن يقول يا رسول الله أنقذني، يا رسول الله فرج عني هذا الكرب، المدد يا عبد القادر يا جيلاني، أو يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يطلب عافية من مرض له أو لغيره، أو قدوم غائب، أو يرزقه ولدا، أو يأتي له برزق، أو يفرج عنه شدة وكربة أو نحو ذلك من الأمور التي ليست في قدرة المخلوق أن يفعلها فإنه يكون في كل فعل من هذه الأفعال مشركا بالله العظيم شركا أكبر لا يغفره الله له إلا أن يتوب[1].

ويقول إسماعيل الدهلوي: إن حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال خصها الله بذاته العلية، وجعلها شعارا للعبودية لأحد من الناس، كالسجود لأحد والذبح باسمه والنذر له والاستغاثة به في الشدة[2].

ولعظم أمر الشرك وشدة خطره فإن السلامة منه شرط لدخول الجنة، فبعد أن ذكر الله عبده وخليله إبراهيم عليه السلام وذكر ما من به عليه من العلم والدعوة والصبر ذكر ما أكرمه به من الذرية الصالحة التي فضلها عز وجل على العالمين ووصفها بالهداية إلى صراطه المستقيم قال عز شأنه: { ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون}[3].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي فإن الشرك محبط للعمل موجب للخلود في النار، فإن كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا ـ وحاشاهم ـ لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى[4].

وكل الأنبياء الذين بعثهم الله وآخرهم نبينا محمدﷺ أوحى الله إليهم أن الشرك محبط

([1]) تطهير الجنان ص (٤٣)

([2]) رسالة التوحيد ص (٣٢) إسماعيل الدهلوي

([3]) سورة الأنعام (٨٨)

([4]) تيسير الكريم الرحمن (٢ / ٤٣٠)

للعمل موجب للخلود في النار، مستحق صاحبه الخسران حكم الله نافذ فيه مهما كـــان فاعله لا يغني عنه حسب ولا جاه ولا ما سلف من صالح الأعمال، فقال تعـــالى: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين}(١).

مسائل من توحيد الألوهية أخطأ في فهمها بعض الدعاة:

بعد بيان حقيقة هذا التوحيد وبيان ما يضاده ويناقضه أو يخدش في كماله نذكر مسائل من لوازمه ومقتضياته أخطأ في فهمها بعض الدعاة، أو عبروا عنها بألفاظ جـــانبوا فيـــها الصواب، مما جعلهم عرضة للنقد ودعا غيرهم من الدعاة للقيام بمهمة الرد عليهم وبيـــان أخطائهم والتحذير من متابعتهم فيها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر سنذكر بعضا من هذه المسائل التي كانت موضع استدراك ونقاش، مما يعطي صورة واضحة لما يؤول إليه الاختلاف العقدي مـــن فرقـــة وتنـــازع، ويؤكد على ضرورة رد المسائل التي وقع فيها النزاع إلى كتاب الله تعالى وسنة رســـولهﷺ واقتفاء أثر السلف الصالح في طريقة الاستدلال بها وفهم معانيها، استجابة لأمر الله تعـــالى حيث يقول: { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} فهما المعين الصافي الذي لم تكدره الدلاء وحبل النجاة المنقـــذ من ظلمات الشك والحيرة، وسبيل العصمة المنقذ من الضلال كما بين النبي ﷺ ذلـــك، فما على من أراد الهدى واجتناب الردى إلا أن ينهل منهما ويقبل عليهما، ففي الموطـــأ والمستدرك أن النبي ﷺ قال: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله عز وجل وسنة رسولهﷺ.(٢).

ولما كان حصر المسائل المتعلقة بتوحيد الألوهية التي وقع بسببها الاختلاف بين الدعـــاة ليس هدفنا في هذه الرسالة، فسنعرض لقضيتين منها يتبين من عرضهما ومناقشة أقـــوال المختلفين فيهما، وتشعب الاختلاف بين الدعاة بسببهما، الحاجة إلى رد كل مسألة وقـــع

---

(١) سورة الزمر (٦٥)

(٢) رواه أبو هريرة وابن عباس كما في مستدرك الحاكم (٩٣/١) متصلا ورواه مالك في الموطأ واللفظ له (١٨٧٤) وله طرق غير هذه بهذا المعنى وبلفظ (عترتي بدل سنتي) في السنن ومسند الإمام أحمد وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني حديث(١٧٦١)

النزاع فيها إلى الكتاب والسنة واتباع منهج السلف في الفهم دون تعصب لقول متبوع مهما علت مرتبته إذ الخطأ جائز عليه حاشا رسول الله ﷺ الذي لا يقول إلا حقا.

وهاتان المسألتان هما:

١- الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه:

الدعاء من أعظم العبادات إن لم يكن أعظمها على الإطلاق وقد سماه الله تعالى عبادة وندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة فقال: { وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}(١).

وبين قربه ممن دعاه وسرعة إجابته له فقال: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}(٢) وفي دعاء العباد لربهم صلاح دنياهم وأخراهم، ومن رحمته بهم أرشدهم تعالى إلى دعائه، وبين لهم الكيفية المشروعة في الدعاء فقال سبحانه: { ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين}(٣)

قال ابن كثير في معنى قوله تعالى: {ادعوا ربكم تضرعا وخفية} قيل معناه تذللا واستكانة كقوله: {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين}(٤).

وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير(٥) رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ

---

(١) سورة غافر (٦٠)

(٢) سورة البقرة (١٨٦)

(٣) سورة الأعراف (٥٥-٥٦)

(٤) سورة الأعراف (٢٠٥)

(٥) النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة، كان من أمراء معاوية، ولاه الكوفة ثم ولاه قضاء دمشق ثم ولي إمرة حمص، قتل سنة ٦٤ وقيل ٦٥ هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤١١/٣-٤١٢) والإصابة (٤٤٠/٦)

«إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ: {ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}»[١].

وقال الشوكاني: قوله الدعاء هو العبادة، هذه الصفة المقتضية للحصر من جهة تعريف المسند إليه ومن جهة تعريف المسند، ومن ضمير الفصل تقتضي أن الدعاء هو أعلى أنواع العبادة وأرفعها وأشرفها[٢].

وتتبع الآيات والأحاديث الدالة على مكان الدعاء من الدين والحث عليه يطول وليس هذا موضع بسطه، ولكن مع هذا الوضوح التام الذي لا لبس فيه في أن الدعاء من صميم العقيدة وأن الله قريب ممن دعاه، لا واسطة بينه وبين خلقه، يجيب الداعين ويعطي السائلين، إلا أن بعض الدعاة وقع عندهم لبس في فهم هذا الركن العظيم من أركان الدين وتساهلوا فيما ينبغي التشديد فيه وتجوزوا في العبارة، واحتمل كلامهم معنى خاطئا، والأدهى من ذلك وأمر أن يأتي تلاميذهم وأتباعهم من بعدهم فيأخذون كلامهم مأخذ المسلم لهم المدافع عن أقوالهم.

ومن الأمثلة على ما تقدم قول الإمام حسن البنا: (والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة)[٣].

فقد أكد البنا رحمه الله تعالى أن هذه المسألة خارجة عن مسائل العقيدة وأن الخلاف فيها خلاف فرعي، وقد تابعه على قوله عدد من المنتسبين لجماعة الإخوان المسلمين مرددين لأقواله مدافعين عنها.

والحق أن مسألة الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه مسألة الخلاف فيها قديم والنزاع حولها شديد، وممن بسط الكلام في هذه المسألة من المتقدمين شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية ومن المتأخرين الشيخ ناصر الدين الألباني مما يدل على خطورة هذه المسألة وأنها من الدين بمكان.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٦٧/٤) واللفظ له، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم الحديث (١٤٧٩) والترمذي، كتاب الدعوات،باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم الحديث وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح(٣٣٧٢) وابن ماجة، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم الحديث (٣٨٢٨) وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجة(٢٥٢/٣)

(٢) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ص (٢٥) محمد بن علي الشوكاني ط (٤) ١٣٩٣هـ مكتبة الحلبي

(٣) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص (٢٧٠)

ومن الفروق الجلية بين ما قاله البنا وما قاله مخالفوه أن البنا عرض لها عرضا مجملا دون ذكر فرق بين التوسل بذات النبيﷺ أو غيره من البشر مما يفهم منها أن الحكم عنـــده في هذه المسألة سواء، بينما فصل مخالفوه القول وناقشوا هذه المسألة نقاشا علميا مســتفيضا مما يجعل القارئ على بينة من أمره يزن الأقوال بالدليل من الكتاب والسنة وفعل السلف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: لفظ الوسيلة والتوسل فيه إجمال واشتباه يجب أن تعـرف معانيه، ويعطى كل ذي حق حقه، فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه ومـا كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك، ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفـــظ ومعناه فإن كثيرا من اضطرار الناس في هذا الباب هو بسبب مـــا وقـــع مـــن الإجمـــال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب(١).

ففي البداية بين رحمه الله تعالى أن من أهم أسباب الوقوع في الخطأ في فهم هذه المســألة عدم التفصيل فيها ومعرفة معاني الألفاظ وما يصح منها ومالا يصح.

ثم شرع في توضيح التوسل المشروع فقال: فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قولـــه تعالى: { ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة}(٢).

وفي قوله تعالى: { قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا}(٣).

فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه هي مـــا يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات.

فجماع الوسيلة التي أمر الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرســول، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك.

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (٤٨) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميـــة والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٤هـــ

(٢) سورة المائدة (٣٥)

(٣) سورة الإسراء (٥٧)

الثاني لفظ الوسيلة في الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ «سلو الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد»(١) الحديث، إلى أن قال شيخ الإسلام: وأما التوسل بالنبي ﷺ والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته.

والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الاقسام به والسؤال به كما كانوا يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقد فيه الصلاح.

وحينئذ فلفظ التوسل يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة، فأما المعنيان الأولان ــ الصحيحان باتفاق العلماء ــ فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان بطاعته والثاني دعاؤه وشفاعته فهذان جائزان بإجماع المسلمين، ومن هذا قول عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا)(٢) أي بدعائه وشفاعته.

فهذا التوسل الأول هو أصل الدين، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين.

وأما التوسل بدعائه وشفاعته ــ كما فعل عمرــ فإنه توسل بدعائه لا بذاته، ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس(٣) ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته، بخلاف التوسل الذي هو الإيمان به والطاعة له فإنه مشروع دائما(٤).

وبعد أن بين رحمه الله مشروعية التوسل بطاعته والتوسل بدعائه وشفاعته قال: والثالث التوسل بمعنى الاقسام على الله بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة (باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمع ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة) رقم الحديث (٣٨٤) وأبو دواد، كتاب الصلاة (باب ما يقول إذا سمع المؤذن) رقم الحديث (٥٢٣) والترمذي، كتاب المناقب (باب في فضل النبي ﷺ) رقم الحديث (٣٦١٤)

(٢) رواه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم الحديث (١٠١٠) وانظر (٣٧١٠)

(٣) العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، عم رسول الله ﷺ ولد قبل رسول الله ﷺ بسنتين قيل إنه أسلم بعد بدر ثم هاجر قبل الفتح بقليل، شهد الفتح وثبت يوم حنين، مات بالمدينة سنة ٣٢هـ انظر البداية والنهاية (٧/١٨١-١٨٢) والإصابة (٣/٦٣١-٦٣٢)

(٤) انظر قاعدة جليلة (٤٨-٤٩)

الاستسقاء ونحوه لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا عند غير قبره، ولا يعرف هـــذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة[١].

أما حديث الأعمى الذي يتشبث به المجيزون للتوسل بذوات الأشخاص والذي رواه الإمام أحمد والترمذي عن عثمان بن حنيف[٢] أن رجلا ضرير البصر أتى النبيﷺ فقال: ادع الله أن يعـــافيني قال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك قال: فادعه قال: فأمره أن يتوضأ فيحســـن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي اللهم فشفعه فيّ[٣].

فقد ساق رحمه الله طرق الحديث ونبه على اختلاف ألفاظه وطرقه وقال: وحديث الأعمى هـــو من القسم الثاني من التوسل بدعائه، فإن الأعمى قد طلب من النبيﷺ أن يدعو له بـــأن يـــرد الله عليه بصره.

وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبيﷺ ودعائه المستجاب وما أظهر الله ببركة دعائـــه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنهﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره[٤].

واستدل على عدم مشروعية التوسل بالنبيﷺ بعد مماته بفعل عمـــر بمحضـــر الصحابـــة مـــن المهاجرين والأنصار دون نكير من أحد منهم حيث إنه لما استسقى بالناس عام الرمادة قال: (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا)[٥] فيسقون.

---

(١) المرجع السابق (٥٠)

(٢) عثمان بن حنيف بن واهـــب الأنصـــاري الأوســـي، صحـــابي شـــهد أحـــدا، واســـتعمله عمـــر علـــى خـــراج الكوفـــة، ثم اســـتعمله علي على البصرة فغلبه عليها طلحة والزبير، كان يكنى أبا عبد الله، توفي في خلافة معاوية انظر سير أعـــلام النبـــلاء (٢/٣٢١ــ٣٢٢) والإصابـــة ج (٤/٤٤٩)

(٣) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٣٨) والترمذي واللفظ له،كتاب الدعوات، باب في دعاء الضيف، رقم الحديث(٣٥٧٨) وقال الترمذي هـــذا حديـــث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو الخطمي، وابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جـــاء في صلاة الحاجة، رقم الحديث(١٣٨٥) وصححه الألباني. انظر صحيح سنن ابن ماجة (٤١٢/١) والتوسل أنواعه وأحكامه (٧٥-٧٦)

(٤) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص (٩٢)

(٥) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء ، باب سؤال الناس الإمام إذا قحطوا، رقم الحديث(١٠١٠) وفي كتاب فضائل أصحاب النبيﷺ، باب ذكـــر العباس بن عبد المطلب ﷺ، رقم الحديث(٣٧١٠)

ودعا بمثله معاوية بن أبي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس.

فلو كان توسلهم بالنبيﷺ بعد مماته كتوسلهم به في حياته لقالوا: كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود[١] ونحوهما؟ و نعدل عن التوسل بالنبي.ﷺ الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته[٢].

وما تقدم يعد نبذة يسيرة من كلام شيخ الإسلام الذي أفاض في الحديث عن هذه المسألة واستقصى أدلتها وجاء فيها بما يشفي ويكفي.

وممن بسط الكلام في هذه المسألة من المتأخر الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه التوسل أنواعه وأحكامه فقد بين فيه الجائز والممنوع من التوسل.

وقد حاول بعض المنتسبين لجماعة الإخوان المسلمين تبرير كلام البنا وتكلفوا الرد على مخالفيه، ومن هؤلاء على ـ سبيل المثال ـ سالم البهنساوي في كتابه (شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر) واستدل البهنساوي بكلام نسبه لشيخ الإسلام فقال في رده على الشيخ صالح الفوزان والشيخ محمد بن سيف العجمي اللذين استدركا على البنا عبارته السابق الإشارة إليها: وبما قاله ـ أي نرد ـ الإمام ابن تيمية: (يقول بعضهم إذا كانت لك حاجة استوص الشيخ فلانا فإنك تجده أو توجه إلى ضريحه خطوات وناده يقضي حاجتك، وهذا غلط لا يحل فعله).

يقول البهنساوي تعليقا على الكلام السابق فالإمام ابن تيمية يخطئ هذا ولا يحله ولكن لا يرمي صاحبه بالكفر، ولو كان ذلك من الشرك الصريح لصرح بذلك[٣].

والكلام الذي نسبه إلى مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية وأشار إلى موضعه (١٨/١١) لا أرى مناسبة للاستدلال به في هذا الموضع فهو غير موجود في الموضع

---

(١) يزيد بن الأسود الجرشي، من سادة التابعين بالشام، كان عابدا زاهدا صالحا أدرك الجاهلية، أسلم في حياة النبيﷺ، واختلف في صحبته، كان أهل الشام يستسقون به، استسقى به معاوية بن أبي سفيان، كما استسقى به الضحاك بن قيس، مات بدمشق سنة ٧١هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤/١٣٦-١٣٧) والبداية والنهاية (٨/٣٥٦- ٥٧) الإصابة (٦/٦٩٧-٦٩٨)

(٢) قاعدة جليلة ص (١٠٤-١٠٥)

(٣) شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر، ص (٩٦-٩٧) سالم البهنساوي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ دار الوفاء

المشار إليه، وعلى فرض صحة نسبته إلى شيخ الإسلام فلا يعني بالضرورة أن شيخ الإسلام لا يحكم بكفر قائله، فقوله: (هذا غلط لا يحل) قول عام يشمل كل محرم الشرك فما دونه وهو مفسر بكلام كثير لشيخ الإسلام قلما خلا منه مؤلف من مؤلفاته يقول فيها بتكفير من دعا غير الله، يقول رحمه الله تعالى: فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى[١].

وقوله: لا يجوز أن يسأل الميت شيئا، لا يطلب منه أن يدعو الله له، ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يشكى إليه شيء من مصائب الدنيا والدين، ولو جاز أن يشكى إليه ذلك في حياته، فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك وهذا يفضي إلى الشرك[٢].

وقوله: ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب، ويستغيث به عند المصائب يقول: يا سيدي فلان كأنه يطلب منه إزالة ضره أو جلب نفعه، وهذا حال النصارى في المسيح وأمه وأحبارهم ورهبانهم[٣].

فهذا غيض من فيض كلام شيخ الإسلام الذي يحكم فيه على من دعا غير الله بالشرك الأكبر والخروج من الملة وهو في ذلك لا يتعدى الكتاب والسنة.

ويستدل عصام البشير ــ وهو أحد المدافعين عن البنا ــ على صحة قول البنا، بكلام لشيخ الإسلام وهو قوله: (فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به بخلاف دعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم)[٤].

وهو بالرغم من نقله من كتاب شيخ الإسلام (قاعدة جليلة ....) إلا أنه يظهر أنه لم يستوعب كلام شيخ الإسلام، أو أنه نقل ما يرى أنه يؤيد ما يذهب إليه، فشيخ الإسلام عندما نقل أن بعض السلف جوز السؤال بالنبيﷺ رجح بأن المراد سؤال السائل بإيمانه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٥٩/١)

(٢) المرجع السابق (٣٥٤/١)

(٣) المرجع السابق (٨١/٢٧-٨٢)

(٤) أضواء على الأصول العشرين للإمام حسن البنا ص (٥٧) عصّام أحمد البشير، مكتبة المنار، ط (١) ١٤١٠هـ

بنبوته ومحبته، وحمل على هذا المعنى كلام السلف المجيزين للسؤال به كالإمام أحمد وغيره، فقال شيخ الإسلام: فيحمل قول القائل أسألك بنبيك محمد، على أنه أراد: إني أسألك بإيماني به ومحبته، ونحو ذلك ..... من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع وإذا حمل على هذا المعنى لكلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسنا وحينئذ فلا يكون في المسألة نزاع[١].

أما متابعته للبنا في القول بأن الدعاء المقترن بالتوسل ليس من مسائل العقيدة، واستدلاله على صحة هذا القول بما نقله من كلام الشيخ الألباني الذي سبقت الإجابة عنه ففي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ما يدل على أن التوسل من مسائل العقيدة حيث يقول: وكنت وأنا بالديار المصرية في سنة إحدى عشرة وسبعمائة قد استفتيت عن التوسل بالنبي ﷺ فكتبت في ذلك جوابا مبسوطا، وقد أحببت إيراده هنا لما في ذلك من مزيد الفائدة، فإن هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نورا على نور والله المستعان[٢].

ونقل الشيخ محمد سيف العجمي إجابات لبعض العلماء المعاصرين عن هذه المسألة وهل هي من مسائل العقيدة أم لا؟ فكانت إجابتهم كما يلي:

أجاب الشيخ حمود التويجري بعد أن ذكر حكم مشروعية التوسل بذات النبي ﷺ بقوله: ما كان مردودا بالنص الثابت عن النبي ﷺ فالقول بجوازه قول باطل يمس العقيدة وليس من الخلاف في الفروع[٣].

وبنحو ذلك أجاب الشيخ صالح الفوزان عضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية فقال: إن التوسل في الدعاء بذوات المخلوقين أو حقهم أو جاههم يعتبر أمرا مبتدعا ووسيلة من وسائل الشرك، والخلاف فيه يعتبر خلافا في مسائل العقيدة لا في

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص (٦٢)

(٢) قاعدة جليلة ص (١٢٥)

(٣) وقفات مع كتاب للدعاة فقط ص (٢٨) محمد بن سيف العجمي

الفروع، لأن الدعاء أعظم أنواع العبادة ولا يجوز فيه إلا ما ورد في الكتاب والسنة[١].

ومن توسع في مسألة التوسل بذات النبي ﷺ وخلط بينه وبين التبرك الدكتور محمد سعيد البوطي في كتابه فقه السيرة[٢]، وتعلق بشبهات يظن أنها تؤيده في ما ذهب إليه، وقد تعقبه الشيخ الألباني في كتابه التوسل أنواعه وأحكامه، فليرجع إليه من أراد التوسع في معرفة أقوال الرجلين.

٣- دعاء الأموات والصلاة في المساجد التي بنيت على القبور:

الكلام حول الدعاء والاختلاف بين الدعاة بسببه يقود إلى مسألة أخرى أهم منها بكثير وهي دعاء الأموات والصلاة في المساجد المقامة على المشاهد، فقد تساهل بعض الدعاة في هذا الأمر وجوزوا ما وردت الآيات والأحاديث بالنهي عنه، بل إن بعضهم أغلظ في العبارة في حق من اهتم من الدعاة ببيان أن الدعاء والاستغاثة حق محض لله لا يشاركه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عن غيرهم من سائر خلق الله تعالى، واتهموا هؤلاء بالغلو والرغبة في تكفير المسلمين واتهامهم بالشرك.

ومما يزيد من خطورة هذه المسألة أن بعض هؤلاء المتساهلين أو المجيزين قادة متبوعون يضل بقولهم كثير ممن ورائهم.

فهذا الأستاذ عمر التلمساني المرشد السابق لجماعة الإخوان المسلمين يرى أن استغفار الرسول ﷺ ليس خاصا بمن طلب منه ذلك في حياته، فيقول: قال البعض: إن رسول الله ﷺ يستغفر لهم إذا جاؤه حيا فقط ولم أتبين سبب التقييد.

وما ذنب الذين جاؤا بعد وفاته ﷺ حتى يحرموا من استغفاره.

ولذا أراني أميل إلى الأخذ بالرأي القائل: إن رسول الله ﷺ يستغفر حيا وميتا لمن جاءه قاصدا رحابه الرحيم[٣].

يرد على من قال بمثل هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: أما دعاء الرسول ﷺ وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف،

---

(١) المرجع السابق ص (٢٩-٣٠).

(٢) انظر فقه السيرة ص (٣٢٦-٣٢٧) د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ط (٨) ١٤٠٠هـ

(٣) شهيد المحراب عمر بن الخطاب ص (١٩٧) عمر التلمساني، دار التوزيع والنشر الإسلامية

ومعلوم أنه لو كان مقصد الدعاء عند القبر مشروعا لفعله الصحابة والتابعون[١].

وفي موضع آخر يقول: ومنهم من يتأول قوله تعالى:{ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما }[٢] ويقولون إذا طلبنا الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين، فإن أحدا منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم[٣].

ويتوصل التلمساني بكلامه السابق إلى جواز الاستنجاد بالأموات ومشروعية اللجوء إليهم في قبورهم والدعاء فيها عند الشدائد فيقول:

فلا داعي إذن في التشديد في النكير على من يعتقد في كرامة الأولياء واللجوء إليهم في قبورهم الطاهرة والدعاء فيها عند الشدائد[٤].

ثم سرد بعض الآثار الدالة على إثبات الكرامة لأولياء الله – وهي ثابتة لا شك – ولكنه اختلط عليه الأمر فظن أن إثبات الكرامات للأولياء يقتضي إجابتهم لمن دعاهم بعد موقم ومشروعية شد الرحال إلى قبورهم والدعاء عندها، وعلل ذلك بقوله: فعلى مقابر الصالحين تتنزل رحمات الله وبركاته ونفحاته، ولا بد للمسلم أن يتعرض وأن يقترب وأن يدعو في أماكن تغمرها رحمات أرحم الراحمين[٥].

وينهى عن الإنكار على من زار قبور الأموات – الذين يعتقد أهم من أولياء الله – ودعا عند قبورهم فيقول: فما لنا وللحملة على أولياء الله وزوارهم والداعين عند قبورهم ومقاماقم[٦].

ولئن كان هواي مع أولياء الله وحبهم والتعلق بهم، ولئن كان شعوري الغامر بالأنس

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢٣٣/١)

(٢) سورة النساء (٦٤)

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٥٩/١)

(٤) شهيد المحراب ص (١٩٧)

(٥) المرجع السابق ص (١٩٨)

(٦) المرجع السابق (٢٠١)

والبهجة في زيارهم ومقاماهم بما لا يخل بعقيدة التوحيد فإني لا أروج لاتجاه بذاته فالأمر من أوله إلى آخره أمر تذوق، وأقول للمتشددين في الإنكار هونا مافي الأمر من شرك ولا وثنية ولا إلحاد. وأقول للمحبين رفقا ما حتى لا تجعلوا لمنكر عليكم سبيلا وإن كان الهوى غلابا[١].

والحق أن استنتاج التلمساني في غير محله وهو مردود بكلام أهل العلم المتقدمين والمتأخرين الذين يوثق بقولهم لعلمهم بالكتاب والسنة مما يرد ذلك و يخالفه ويبين خطأ من أساغه وهون من أمره.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية لم يكن النبيﷺ ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ولا يستشفعوا بهم لا بعد مماهم، ولا في مغيبهم، فلا يقول أحد يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا.

وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين: يا نبي الله يا رسول الله ادع الله لي سل الله لي أن يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني، ولا يقول أشكو إليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي، أو أشكو إليك فلانا الذي ظلمني ولا يقول: أنا نزيلك أنا ضيفك أنا جارك أو أنت تجير من يستجير، أو أنت خير معاذ يستعاذ به[٢].

وفي موضع آخر يقول: ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب[٣].

ويقول أيضا وأما الرجل إذا أصابته نائبة أو خاف شيئا فاستغاث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع فهذا من الشرك.

فإذا قال قائل: أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعا لي فهو من جنس دعاء النصارى لمريم والأحبار والرهبان[٤].

ويقول الإمام ابن القيم: ومن أنواعه ــ أي الشرك الأكبر ــ طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا

---

(١) المرجع السابق ص (٢٠٢)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١/١٦٠-١٦١)

(٣) المرجع السابق (٢٧/٨١)

(٤) المرجع السابق(٢٧/٨٧)

يملك لنفسه ضرا ولا نفعا. فضلا عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده[١].

ويقول الإمام الشوكاني: فلا شك أن من اعتقد في ميت من الأمـوات أو حـي مـن الأحياء أنه يضره أو ينفعه إما استقلالا أو مع الله تعالى، أو ناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق، فلم يخلص لله ولا أفرده بالعبادة[٢].

وجاء في إجابة للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السـعودية: زيارة القبور للتذكر والاتعاظ والعبرة والدعاء للأموات بالمغفرة والرحمة سنة، وزيارتها لطلب التبرك بأهلها والاستغاثة بهم ورجائهم في قضاء الحاجات وكشف الكربات شـرك أكبر يخرج من الإسلام[٣].

وقد حاول الشيخ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين الاعتذار عما قالـه التلمسـاني وقال: بأن ما أخطأ فيه التلمساني في مواضع من (كتابه شهيد المحراب) يوجد خلافه مـن الحق مما هو تأصيل لمنهج الجماعة وأنها جماعة سلفية وقال ما معناه: إن منطوق العبـارات التي كتبها التلمساني في كتابه (بعض ما علمني الإخوان) والتي صرح فيـها أن جماعـة الإخوان المسلمين جماعة سلفية، يقطع المفهوم المتبادر إلى الذهن من الفقرات الموجـودة في (شهيد المحراب).

وذكر في الهامش أنه لا ينبغي أن ينسب خطأ الفرد إلى الجماعة التي حددت منهجـها في رسائل مؤسسها[٤].

ومن تأمل كلام التلمساني تبين له تكلف الشيخ جاسم في الاعتـذار عنـه، فكـلام التلمساني صريح لا يحتمل التأويل فأولى له بأن يقر بخفاء الحق على التلمساني وأنه خالف السلف في هذه المسألة: فالانتساب إلى السلف ليس مجرد ادعاء، فهل أغنى عن الأشاعرة والماتريدية قولهم: إنهم أهل الكتاب والسنة؟، وهل رضي منهم السلف هـذا الادعـاء

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٥٣)

(٢) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ص (٦٩) الإمام محمد بن علي الشوكاني، دار ابن خزيمة، ط (١) ١٤١٤هـ

(٣) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/٣٤١) فتوى رقم (٣٦٢٧) الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميـة والإفتـاء والدعوة والإرشاد، ١٤١٢هـ

(٤) جلسات مع كتاب الوقفات ص (٢٧) جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، دار الدعوة، ط (١)١٤١٠هـ

وألحقوهم بأهل السنة والجماعة، والمهلهل محق في قوله إنه ما ينبغي أن ينسب خطأ الفرد إلى الجماعة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: { ولا تزر وازرة وزر أخرى}(١).

ولكن أليس من الواجب أن يبادر المنتمون إلى جماعة الإخوان إلى بيان ما أخطأ فيه مرشدهم بدلا من السكوت عليه هذه المدة الطويلة ولا يتكلم عن هذه القضية إلا من أجل الدفاع عن التلمساني.

وسؤال آخر ينبغي أخذه في الاعتبار وهو: لو أن واحدا من المنتمين إلى مذهب السلف قولا وعملا الذين لهم مؤلفات ودروس تشهد على صحة انتمائهم، أخطأ في مسألة من مسائل العقيدة وقال فيها بما يخالف قول السلف، أترى السلفيين الحقيقيين يسكتون عنه ويقبلون قوله أو يدافعون عنه مع تحقق خطئه؟ لا شك أنهم أول من يحذر الناس من متابعته فيما جانب فيه الصواب، نصحا للأمة وقياما بالواجب الذي أناطه الله بالعلماء، والشواهد على ذلك قائمة قديما وحديثا.

إن بيان الحق والرد على المخالف ممكن مع التزام أدب الاختلاف وحسن المحاورة، وينبغي ألا تكون عاطفة الانتماء الحركي أو أي عاطفة أخرى غشاء يحجب عن الأنظار أخطاء من يجمعهم هذا الانتماء.

كما يجب أن تكون الرغبة في إحقاق الحق فوق أي اعتبار، وأن يقبل الحق الذي قامت الأدلة على صحته دون النظر إلى من قال به، واعتراف الإنسان بخطئه أو خطأ من يحب دليل على رغبته في الحق ورجوعه إليه.

وإلى أبعد مما قاله التلمساني ما ورد في كتاب سالم البهنساوي (الحكم وقضية تكفير المسلم) حيث اعتذر لمن دعا الأموات واستغاث بهم ووصف من حكم عليهم بالكفر بانحراف الفكر عن فهم حكم الإسلام فقال: إن الذين يستغيثون بالصالحين من الأموات بندائهم أو التوسل بهم إلى الله لقضاء الحاجات لا يعتقدون قدرة الأموات على تصريف الأمر، وبالتالي فالحكم بكفرهم هو انحراف عن فهم حكم الإسلام، ومن باب أولى من

---

(١) سورة فاطر (١٨)

حكم لهم بالإيمان لا يصبح كافرا بدعوى أنه لم يكفر الكافر[١].

أما الأستاذ مصطفى السباعي المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا ففي قصيدة له تحت عنوان (مناجاة بين يدي الحبيب) يخاطب فيها النبي ﷺ ويشتكي إليه ما أصابه من الألم فيقول:

يا سيدي يا حبيب الله جئت إلى ... أعتاب بابك أشكو البرح من سقمي
يا سيدي قد تمادى السقم في جسدي ... من شدة السقم لم أغفل ولم أنم
الأهل حولي غرقى في رقادهم ... أنا الوحيد جفاه النوم من ألم
قد عشت دهرا مديدا كله عمل ... واليوم لا شيء غير القول والقلم
يا سيدي طال شوقي للجهاد فهل ... تدعو لي الله عودا عالي العلم[٢]

ومن دل إلى هداية وحذر من غواية لكنه قسى في عبارته أو تجاوز الحد في رده أولى بالعذر ممن أصر على الخطأ، فلربما دفعه إلى ذلك حرارة الحق في صدره، ورغبته في رجوع الناس إليه، مع أن ما أرشد إليه القرآن في ذلك هو الحق الذي يجب التزامه، يقول الله تعالى: { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}[٣].

وقسوة الداعي إلى الحق وشدته في الحث عليه يجب ألا تستجرنا إلى موالاة أهل الباطل والدفاع عنهم وإقرار ما هم عليه، ورفض الحق الذي دعينا إليه.

يقول الشيخ محمد الغزالي: لقيني أحدهم وقال لي مغاضبا: بلغنا أنك صليت في مسجد الصنم، فقلت دهشا: أي صنم؟ قال: في مسجد الحسين[٤].

ثم يقول: لو قدرت على جلد هذا السفيه لجلدته.

إنني نظرت إليه في تغيظ ثم قلت: مسعر فتنة أنت، ما يجد الشيطان خيرا منك في إذكاء العناد وتمزيق الأمة.

---

(١) الحكم وقضية تكفير المسلم ص (١٧١) سالم علي البهنساوي، القاهرة، دار الأنصار ١٣٩٧هـ
(٢) مصطفى السباعي رجل فكر وقائد دعوة ص (١١١)
(٣) سورة النحل (١٢٥)
(٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص (١٦٨) محمد الغزالي، دار الأنصار

نعم صليت في المسجد مع جمهور كثيف يوحد الله ويرجو رضاه ويخشى بأسه[١].

والموقف الذي أشار إليه الشيخ الغزالي مثال على ما تقدم، فالذي أنكر على الشيخ نظن أن الذي دفعه إلى ذلك شدة غيرته على التوحيد، وأن يرى شيخا يقتدي به كثيرون يصلي في مسجد أقيم على قبر يطاف عليه كما يطاف على بيت الله ويدعى فيه المقبور الذي يزعم أنه الحسين فيما لا يقدر عليه إلا الله.

ونظن أن الشيخ يعلم كثيرا مما يقع في هذا المسجد من الإشراك بالله، ولو لم يوجد من المخالفات إلا إقامة المسجد على القبر لكان كافيا في منع المسلم من الصلاة فيه لأن النبيﷺ حذر أمته من الصلاة في المساجد التي أقيمت على القبور، ففي الصحيحين عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول اللهﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: بل المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين لا تجوز الصلاة فيها، وبناؤها محرم، كما نص على ذلك غير واحد من الأئمة[٣].

وفي موضع آخر يقول: وأما اتخاذ القبور مساجد فهذا منهي عنه عند كل قبر وإن كان المصلي إنما يصلي لله ولا يدعو إلا الله[٤].

بل إن المساجد التي بنيت على القبور يجب هدمها إن كان القبر سابقا إلى المكان، أو نبش القبر إن كان بناء المسجد أولا.

يقول الإمام ابن القيم: يهدم المسجد إذا بني على قبر كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي النبيﷺ[٥].

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص (١٦٨)

(٢) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب الصلاة باب رقم (٥٥) رقم الحديث(٤٣٥) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم الحديث (٥٣١)

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٤٠/٢٧)

(٤) المرجع السابق (٣٤٤/٢٧)

(٥) زاد المعاد (٢٢/٣)

على أن شدة الشيخ على من أنكر عليه الصلاة في المسجد الذي بني على قبر يقابلها تساهل واعتذار لمن بان خطؤه في التوحيد فيما لا يحتمل التأويل، فالبوصيري[1] الذي له أبيات غلا فيها في مدح النبيﷺ منها قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذ الكريم تحلى باسم منتقم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم[2]

فبالرغم من الشرك الصريح في أبيات البوصيري إلا أن الغزالي يتلطف معه في العبارة ويعتذر له ولا يتجاوز قوله فيه: إنه تجاوز الحد في الإطراء وهي هنات لا تسوغ اتهامه بالشرك كما يفعل أناس لا خبرة لهم بآفاق الأدب وأساليب البيان[3].

---

(1) هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، أصله من المغرب وتوفي في الإسكندرية سنة ٦٩٦هـ له ديوان شعر، من أشهر شعره البردة، انظر الأعلام(٦/١٣٩)

(2) مجموع مهمات المتون ص (٩٠) دار الفكر ط (٤) ١٣٦٩هـ

(3) دستور الوحدة الثقافية ص (١٧٤)

المبحث الثاني
حول حقيقة توحيد الأسماء والصفات

قبل الكلام عن مسائل الأسماء والصفات التي حدث بسببها النزاع بين الدعاة لابد من بيان الأصل الذي يرجع إليه عند التنازع والذي تقاس به الأقوال فيميز بين صحيحها وسقيمها، وهو كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وفهم ما جاء فيهما وفق منهج السلف الصالح،وذكر اعتقاد السلف في هذا الباب مؤيداً بأقوال العلماء التي دونوها بمصنفاتهم، ثم عرض الأقوال التي صرح بها بعض الدعاة والتي كانت محل اعتراض عليهم لمخالفتها اعتقاد السلف، ومناقشتها وبيان ما استدرك عليهم منها.

منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات:

طريقة السلف الصالح من هذه الأمة في باب أسماء الله تعالى وصفاته أنهم يؤمنون بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف وتمثيل.

ويبين الإمام أبو حنيفة رحمه الله منهج أهل السنة فيما وردت به النصوص من الصفات التي أخبر الله بها عن نفسه، وأنه يخالف ما يقوله أهل التأويل فيقول: وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفات الله تعالى بلا كيف(١).

وأهل السنة مجمعون على الإيمان بالصفة حسب ما دل عليه ظاهر اللفظ لا يحرفون الكلم عن مواضعه ويسمون ذلك تأويلا، بل يعتقدون أن ظاهرها مراد، ولا يجعلون العقل حكما على النص، بل وسيلة لفهمه، وفق قواعد الفهم المتفق عليها عندهم.

يقول الإمام أحمد: فعليه الإيمان بها والتسليم، مثل أحاديث الرؤية كلها وإن نبت عن الأسماع، واستوحش منها المستمع، وإنما عليه الإيمان بها، وأن لا يرد منها حرفا واحدا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات(٢).

ويعتقدون أن صفات الله لا تشبه صفات المخلوقين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: القول

---

(١) الشرح الميسر للفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة ص (٣٧) ت: محمد عبد الرحمن الخميس، دار المسلم ط(١)١٤١٤هـ

(٢) المسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة (١/٢٧٧)نقلا عن كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية ص (١١٧)

في الصفات كالقول في الذات فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل صفات سائر الذوات[١].

والمرجع لديهم في معرفة الأسماء والصفات هو الكتاب والسنة يقول شيخ الإسلام: ثم القول الشامل في جميع هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث[٢].

ثم يوضح رحمه الله أن ألفاظ الكتاب والسنة دالة على معان يفهمها العرب من لغتهم وأنها ليست ألفاظا مجردة عن المعاني فيقول: ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه: لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول وأفصح الخلق في بيان العلم وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد[٣].

ثم بين أن مذهب السلف وسط بين أهل التعطيل الذين بالغوا في التتريه حتى أدى بهم ذلك إلى أن عطلوا صفات الله تعالى، وأهل التمثيل الذين بلغ بهم الأمر أن أثبتوا لله صفات تشبه صفات المخلوقين، فيقول: ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ويلحدوا في أسماء الله وآياته[٤].

وفي بيان أهمية الوقوف عند حدود ما دلت عليه ألفاظ الصفات الواردة في الكتاب والسنة وعدم تجاوزها إثباتا أو نفيا يقول الحافظ الخطيب البغدادي[٥] رحمه الله: وأما الكلام في

---

(١) التدمرية تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع ص(٤٣) شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد بن عودة السعوي ط (١) ١٤١٥هـ

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٥/٢٦)

(٣) المرجع السابق (٥/٢٦

(٤) المرجع السابق (٥/ ٢٧)

(٥) الحافظ أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، أبو بكر، الخطيب البغدادي، أحد مشاهير الحفاظ، صاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات العديدة المفيدة. ولد سنة ٣٩١هـ ونشأ ببغداد وتفقه على علماء عصره، رحل إلى البصرة ونيسابور وأصبهان وهمذان

الصفات فإن ما روي منها في السنن الصحاح مذهب السلف رضوان الله عليهم إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله سبحانه، وحققها من المثبتين قوم فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين ودين الله بين الغالي فيه والمقصر عنه[١].

وفي بيان أن الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا قد بينوا لأممهم حقيقة هذا التوحيد، وعرفوهم بربهم ومعبودهم حتى كأنهم يرونه رأي العين يقول الإمام ابن القيم: فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفا مفصلا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته ويدير أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غيره، ويجيب دعوة مضطرهم ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كل يوم هو في شأن[٢].

ويبين الإمام ابن أبي العز الحنفي السبب الذي جعل أهل التعطيل يقولون بقولهم، وهو أنهم أتوا من اشتباه الأمر عليهم وهو توهمهم أن إثبات الصفات لله يستلزم التمثيل فغلوا في التتريه حتى عطلوا صفات الرب عز وجل، وأنهم يطلقون لفظ التشبيه ويلمزون به من يثبت الصفات لله على الوجه اللائق به، فيقول: اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا:

- يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب

والشام والحجاز، عاد إلى بغداد فقربه الوزير أبو القاسم بن مسلمة، كان فصيح اللهجة، عارفا بالأدب، يقول الشعر، توفي ببغداد سنة ٤٦٣هـ انظر سير أعلام النبلاء ج (١٨/٢٧٠ - ٢٧٢ - ٢٧٤-٢٩٦) والبداية والنهاية (١٢/ ١٢٤-١٢٦) و الأعلام للزركلي (١٧٢/١)

(١) مختصر العلو للعلي العظيم ص (٤٨) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، اختصار وتحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط (١) ١٤٢٥هـ

(٢) مدارج السالكين(٣ د ٣٢٥)

تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته.

– ويراد به أنه لايثبت لله شيء من الصفات[١]

فالنفاة أحسنوا في تتريه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه، ولكن أساءوا في نفي المعاني الثابته لله تعالى في نفس الأمر .

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات، ولكن أساءوا بزيادة التشبيه[٢].

وبين الإمام الشوكاني أن منهج السلف في الصفات هو تدبر الأدلة الواردة في الكتـــاب والسنة والإيمان بما دلت عليه من معان، دون تكلف أو تأويل يؤدي إليه القول على الله بـلا علم، فيقول: مذهب السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وتابعيهم: هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشيء منها ولا جبر ولا تشـبيه ولا تعطيل يفضي إليه كثير من التأويل وكانوا إذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلـــو عليه الدليل وأمسكوا عن القال والقيل، وقالوا: قال الله: هكذا ولا ندري بما سوى ذلـــك ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم يعلمه، ولا أذن الله لنا بمجاوزته، فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه وفموه عن طلب ما لا يمكن الوصول إلا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه[٣].

وفي كلام نفيس للإمام ابن القيم يبين فيه حاجة العباد إلى معرفة أسماء الله تعالى وصفاتـــه والإيمان بها. وأنه لا غنى لهم عن ذلك، ويبين ما يترتب على إنكار العبد للصفات من نقــص توحيده لربه ونقص محبته له وزهده فيما عنده فيقول: الإيمان بالصفات ومعرفتها وإثبـــات حقائقها، وتعلق القلب بها وشهوده لها هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا ومثير هممهم إذا قصروا، فإن سيرهم علـى الشواهد. فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له، وأعظـــم الشـــواهد صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم، وذلك هو العلم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربـت

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص (٩٩)

(٢) المرجع السابق (٤٠)

(٣) التحف في مذاهب السلف ص (١٦) محمد بن علي الشوكاني، دار الهجرة ط (٢) ١٤٠٨هـ

بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القدر أن اقعدي مع القاعدين، فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله وحقائق أسمائه هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه وتخافه وترجوه وتشتاق إليه، وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره بحسب معرفتها بصفاته[١].

ويحدد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ثلاثة أسس لابد أن يأتي بها من أراد أن يسلك سبيل الحق في باب الأسماء والصفات وهي مستخلصة مما دل عليه القرآن والسنة وأقوال السلف، فيقول: مبحث آيات الصفات دل القرآن العظيم أنه يرتكز على ثلاثة أسس من جاء بها كلها فقد وافق الصواب وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبيﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخل بواحد من تلك الأسس فقد ضل.

ثم شرع في بيان هذه الأسس وهي:

١ـ تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئا من صفات المخلوقين

٢ـ الإيمان بما وصف الله به نفسه لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله {أأنتم أعلم أم الله}[٢] والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول اللهﷺ[٣].

٣ـ قطع الطمع من إدراك حقيقة الكيفية لأن إدراك الكيفية مستحيل[٤].

ومعتقد أهل السنة والجماعة قاطبة متقدمهم ومتأخرهم في هذا الباب واحد لا يتغير لأن المصادر التي ينبون عليها عقيدهم واحدة، يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[٥]: وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف دلت على كماله جل وعلا، والذي عليه أهل السنة

---

(١) مدارج السالكين (٣/٣٢٧)

(٢) سورة البقرة (١٤٠)

(٣) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص (٣)محمد الأمين الشنقيطي. توزيع: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠١هـ

(٤) المرجع السابق ص (٢٥)

(٥) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ بن محمد بن عبد الوهاب، فقيه حنبلي من علماء نجد، ولد في الدرعية عام ١١٩٣هـ أدرك جده الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودرس عليه، نقله إبراهيم باشا إلى مصر بعد استيلائه على الدرعية، ثم عاد إلى نجد عام ١٢٤١هـ، اشتهر في أيام الإمام تركي بن عبد الله وتولى قضاء الرياض، توفي بالرياض سنة ١٢٨٥هـ، من أشهر كتبه: (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، انظر الأعلام للزركلي (٣/٣٠٤) والأخبار النجدية ص (١٩٠) تأليف محمد بن عمر الفاخري، دراسة وتحقيق د: عبد الله بن يوسف الشبل، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

عليه أهل السنة والجماعة قاطبة متقدميهم ومتأخريهم إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل(١).

ويقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين: وأما توحيد الأسماء والصفات فهو إفراد الله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته، بحيث يؤمن العبد بما أثبت الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، على الوجه الذي أراد الله ورسوله ﷺ وعلى الوجه اللائق به من غير إثبات مثيل له، لأن إثبات المثيل لله تعالى شرك به(٢).

بعض مسائل الأسماء والصفات التي وقع حولها النزاع بين الدعاة:

بعد بيان منهج السلف في باب الأسماء والصفات، وموقفهم من النصوص الدالة عليها وأهمية معرفة الدعاة لهذا التوحيد، وضرورة اقتفائهم أثر السلف في التعامل مع النصوص الدالة على الصفات، نورد أمثلة لما صدر من بعض الدعاة من أقوال أدت إلى وجود الاختلاف بينهم، إما لأن هذه الأقوال مجانبة للصواب بشكل صريح لا يحتمل التأويل، أو أنها ليست من الوضوح بما يكفي، حيث عدها مخالفوهم شاهدا على قصور علمهم بحقيقة مذهب السلف في هذا الباب أو دليل إدانة لتعمدهم مخالفة مذهب السلف والدعوة إلى ما يضاده.

وفيما يلي أمثلة مختارة لمسائل تتعلق بتوحيد الأسماء والصفات جرى حولها الاختلاف بين الدعاة.

١.هل مذهب السلف في الصفات هو التفويض؟

كثيرا مانقرأ أو نسمع كلاما لبعض الدعاة يصرح فيه بالتزامه بمنهج السلف واقتفائه أثرهم، خصوصا فيما يتعلق بمسائل العقيدة، وهذا التصريح فيما يظهر يدل على محبة السلف والرغبة الأكيدة لدى من يصرح بذلك في متابعتهم والانضمام إلى ركبهم واتباع منهجهم، لكن هذه التصريحات غير كافية في جعل من يقول ذلك محسوبا في عداد السلف

---

(١) قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين ص (٢٢٦) حاشية الشيخ عبد الرحمن بن حسن على كتاب التوحيد تعليق وتصحيح: إسماعيل الأنصاري، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والإرشاد، ط (٣) ١٤٠٤هـ

(٢) المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين(١٦/١) جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان دارالوطن ط(١)١٤١٠هـ

منظوما في سلكهم إذ لابد مع القول من الفهم الصحيح لمنهج السلف والالتزام به.

ومسألة التفويض التي سنعرض لها فيما يأتي مثال على ذلك، ومنها يتبين هل يعد من يقول بتفويض معاني نصوص الصفات موافقا لقول السلف أم مخالفا له، رغم نسبته هذا القول إلى السلف وزعمه أن هذا مقتضى مذهبهم.

يقسم شيخ الإسلام ابن تيمية المنحرفين عن طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان في باب الأسماء والصفات إلى ثلاث طوائف هي:

١ـ أهل التخييل: وهم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم الذين يقولون إن ما ذكره الرسولﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور لا أنه بين به الحق، ولا هدى به الخلق، ولا أوضح به الحقائق[١].

٢ـ أهل التأويل: الذين يقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل، ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم تلك المعاني، ولا دلهم عليها، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها، ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه، ويعرف الحق من غير جهته[٢].

٣ـ أهل التجهيل: الذين يقولون إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك.

وكذلك قولهم في أحاديث الصفات إن معناها لا يعلمه إلا الله مع أن الرسولﷺ تكلم بها ابتداء، فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه[٣].

والذي يعنينا من الأقسام الثلاثة السابقة: الصنف الثالث الذين سماهم شيخ الإسلام أهل التجهيل، فهذا القسم ينفي علم النبي ﷺ بمعاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات، كما ينفي علمه بمعاني ما تكلم به من أحاديث الصفات، و يسمون أنفسهم أهل التفويض، ولا يعنون بالتفويض تفويض كيفية الصفات، بل يفوضون معاني الألفاظ التي دلت عليها،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(٥/٣١)

(٢) المرجع السابق (٥/٣٢-٣٣)

(٣) المرجع السابق (٥/٣٤)

ويزعمون أن هذه الألفاظ تدل على معان لا يعلمها إلا الله.

ولازم قول أهل التفويض أن كلام الله متناقض، فكيف يأمرنا في موضع من كتابه بتدبر كلامه وفهم معانيه، وفي موضع آخر يريد منا الإعراض عن فهمه وتدبره،

يقول شيخ الإسلام مبينا هذا التناقض في قول أهل التفويض: وأما التفويض فمن المعلوم أن الله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله[١].

ويلزم على قولهم أيضا اتهام النبيﷺ بالجهل وأنه يقول كلاما لا يفهم معناه، وأن ما أمرنا الله باتباعه والرجوع إليه عند التنازع ظاهره يدل على الكفر والباطل، وأن الله أراد منا ألا نفهم منه شيئا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وحقيقة قول هؤلاء في المخاطب لنا: أنه لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقده، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه، بل دل ظاهره على الكفر والباطل، وأراد منا أن لا نفهم منه شيئا، أو أن نفهم منه ما لا دليل عليه فيه، وهذا كله مما يعلم بالاضطرار تتريه الله ورسوله عنه[٢].

وأما على قول أكابرهم: إن معاني هذه النصوص المشكلة المتشابهة لا يعلمه إلا الله وأن معناها الذي أراده الله بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها، فعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة ولا السابقون الأولون.

ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء إذ كان الله أنزل القرآن، وأخبر أنه جعله هدى وبيانا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه ــ وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقا لكل شيء وهو بكل شيء عليم.

لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بين للناس ما نزل إليهم ولا بلغ البلاغ المبين.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل(١/٢٠١)

(٢) المرجع السابق(١/٢٠٢)

فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد[١].

ويتضح مما تقدم أن قول أهل التفويض لا يمكن الجمع بينه وبين قول أهل السنة والجماعة، فضلا عن أن يقال إنه قول أهل السنة والجماعة، أو أن الخلاف بين القولين يسير، إلا عند من أطلق اسم التفويض على أهل السنة والجماعة وأراد به أنهم يفوضون علم كيفية الصفات إلى الله، فمعنى كلامه صحيح، على أنه ينبغي أن لا يطلق اسم التفويض على أهل السنة دون تقييده بأن المراد تفويض علم الكيفية إلى الله، منعا للبس الذي قد يقع عند بعض الناس فيظن أن أهل السنة يفوضون معاني الألفاظ الدالة على إثبات الصفات.

ومع أن البون شاسع بين قول أهل السنة وقول أهل التفويض إلا أن الشيخ حسن البنا رحمه الله حاول الجمع بين هذين القولين وتكلف التوفيق بين المذهبين.

والذي يتتبع عبارات حسن البنا في بيانه لمنهج السلف في الصفات يجد أنه اقتصر في نقله على عبارات رويت عن بعض أئمة السلف قالوها في معرض ردهم على الجهمية المنكرين للصفات، فشددوا في زجرهم والتحذير من طريقتهم، مثل ما رواه اللالكائي[٢] بسنده إلى محمد بن الحسن[٣] صاحب أبي حنيفة أنه قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول (جهم)[٤] فقد فارق الجماعة لأنه قد وصفه بصفة لا شيء[١].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل(١/٢٠٤ـ٢٠٥)

(٢) الإمام هبة الله بن الحسن بن منصور، أبو القاسم اللالكائي، حافظ الحديث، من فقهاء الشافعية، من أهل طبرستان، استوطن بغداد، وخرج في آخر أيامه إلى الدينور، توفي سنة ٤١٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٧/٤١٩ـ ٤٢٠) و البداية والنهاية(١٢/(٣٠) والأعلام للزركلي (٨/٧١)

(٣) العلامة محمد بن الحسن بن فرقد، فقيه العراق، أبو عبد الله الشيباني الكوفي، صاحبُ أبي حنيفة، ولد بواسط سنة ١٣٢هـ ونشأ بالكوفة، وأخذ عن أبي حنيفة وأبي يوسف، أخذ عنه الشافعي فأكثر جدا، ولي القضاء للرشيد بعد القاضي أبي يوسف، يضرب به المثل في الذكاء، توفي بالري سنة ١٨٩هـ انظر سير أعلام النبلاء (٩/١٣٤ ـ ١٣٦) و الأعلام للزركلي(٦/٨٠)

(٤) جهم بن صفوان السمرقندي، رأس الجهمية، هلك في زمن صغار التابعين، وقد زرع شرا كثيرا، كان يقضي في عسكر الحارث بن سريج، الخارج على أمراء خراسان، فقبض عليه نصر بن سيار، فطلب جهم استبقاءه فقال نصر: (لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت) وأمر بقتله فقتل سنة ١٢٨هـ، كان ينكر الصفات ويقول بخلق القرآن، ويقول إن الله في الأمكنة كلها، وكان يقول الإيمان

فمن قرأ النص السابق قد يفهم من قول محمد بن الحسن (من غير تفسير) وقوله (ولم يفسروا) أنهم لا يثبتون لنصوص الصفات معاني، وهذا الفهم خلاف الحق، لأن قصد محمد ابن الحسن بالتفسير تفسير الجهمية،

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله من غير تفسير أراد به تفسير(الجهمية المعطلة) الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات([٢]).

ونقل شيخ الإسلام قول الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام([٣]) في بعض أحاديث الصفات أنه قال: وهذه الأحاديث في الرؤية هي عندنا حق حملها الثقات بعضهم من بعض، غير أنا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها، وما أدركنا أحدا يفسرها.

يقول شيخ الإسلام مبينا المقصود من قول أبي عبيد (لا نفسرها): وقد كان ـ أي أبو عبيد ـ في الزمان الذي ظهرت فيه الفتن والأهواء، وقد أخبر أنه ما أدرك أحدا من العلماء يفسرها: أي تفسير الجهمية([٤]).

والذي يؤكد أن حسن البنا فهم من النصوص السابقة وما شابهها أن مذهب السلف في الصفات هو تفويض المعاني وليس كيفية الصفات هو النتيجة التي توصل إليها وهي قوله: أما السلف رضوان الله عليهم فقالوا نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى، فهم يثبتون اليد والعين والأعين، والاستواء والضحك والتعجب..... إلخ وكل ذلك بمعان لا ندركها، ونترك لله تبارك وتعالى الإحاطة بعلمها([٥]).

وبعد أن ساق آيات وأحاديث دالة على إثبات الصفات قال: قدمت لك أن السلف رضوان الله عليهم يؤمنون بآيات الصفات وأحاديثها كما وردت ويتركون بيان المقصود

عقد القلب وإن تلفظ بالكفر، انظر سير أعلام النبلاء (٦/٢٦ ـ ٢٧) و الأعلام للزركلي (٢/١٤١)

([١]) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٤٨٠)

([٢]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(٥/٥٠)

([٣]) القاسم بن سلام البغدادي، أبو عبيد، الفقيه القاضي، صاحب التصانيف، أحد أئمة اللغة والفقه والحديث والقرآن والأخبار وأيام الناس، ولد بهراه، ولي قضاء طرطوس، رحل إلى بغداد ومصر، وثقه ابن معين، كان يقسم الليل أثلاثا فينام ثلثه ويصلي ثلثه ويصنف ثلثه، توفي بمكة وقيل بالمدينة سنة ٢٢٤هـ، انظر البداية والنهاية (١٠/٣١٩-٣٢٠) وتهذيب التهذيب(٤/٥١٧-٥١٩)

([٤]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٥/٥١)

([٥]) مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص (٣٢٥)

منها لله تبارك وتعالى، مع اعتقادهم بتنزيه الله تبارك وتعالى عن المشابهة لخلقه[١].

ثم نقل قول الخلف في الصفات فقال: فأما الخلف فقد قالوا: إننا نقطع بأن معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا يراد بها ظواهرها، وعلى ذلك فهي مجازات لا مانع من تأويلها فأخذوا يؤولون (الوجه) بالذات (واليد) بالقدرة وما إلى ذلك، هربا من شبهة التشبيه[٢].

ثم نقل أقوال الخلف القائلين بالتأويل وذكر نماذج لتأويلاتهم وقال بعد ذلك: إلى هنا وضح أمامك طريقا السلف والخلف، وقد كان هذان الطريقان مثار خلاف شديد بين علماء الكلام من أئمة المسلمين، وأخذ كل يدعم مذهبه بالحجج والأدلة،

ثم خلص في النهاية إلى الحكم بأن الفرق بين المذهبين يسير ولا يستدعي كل ما أثير حوله من جدل لأن الفريقين يلتقيان في النهاية عند القول بالتفويض فيقول: ولو بحثت الأمر لعلمت أن مسافة الخلف بين الطريقين لا تحتمل شيئا من هذا، لو ترك أهل كل منهما التطرف والغلو، وأن البحث في مثل هذا الشأن مهما طال فيه القول لا يؤدي في النهاية إلا إلى نتيجة واحدة هي التفويض لله تبارك وتعالى[٣].

ثم رجح مذهب السلف الذي هو في عنده التفويض فقال: ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى، أسلم وأولى بالإتباع، حسما لمادة التأويل والتعطيل[٤].

وكلام حسن البنا رحمه الله شاهد على أنه لم يقل بقول السلف في باب الأسماء والصفات، وأن الأمر اشتبه عليه فنسب قول أهل التفويض إلى السلف، ومن ثم حكم بقربه من قول أهل التأويل، ولكن مع هذا الوضوح الذي لا إشكال فيه من أن حسن البنا يقول بالتفويض إلا أن بعض أتباعه من المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين يغالطون هذه الحقيقة الجلية ويستدلون ببعض عبارات حسن البنا التي صرح فيها باتباع مذهب السلف وأنه ارتضاه وأوصى به ورجحه على مذهب الخلف، على صحة مذهبه، وأنه موافق لما عليه سلف الأمة،

---

(١) المرجع السابق ص (٣٢٧)

(٢) المرجع السابق ص (٣٢٧)

(٣) المرجع السابق ص (٣٢٩)

(٤) المرجع السابق ص (٣٣٠)

وقد تكلفوا تصحيح أقواله والتوفيق بينها وبين أقوال السلف بما لا قبل لهم به، وأشد هؤلاء تكلفا عصام البشير في كتابه (أضواء على الأصول العشرين للإمام حسن البنا) وسالم البهنساوي في كتابه (شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر)،

والكلام السابق كاف في الرد عليهما، وبيان أن حسن البنا رحمه الله أراد بمذهب السلف الذي رجحه وأوصى به مذهب أهل التفويض، ونقول لكل واحد من الرجلين: هب أننا أخذنا بقولك من أن حسن البنا على عقيدة السلف في الصفات وأن التفويض الذي ورد ذكره في كلامه هو تفويض كيفية الصفات فما قولك في النتيجة التي توصل إليها حسن البنا وهي حكمه بأن مذهب السلف ومذهب الخلف ليس بينهما كبير فرق، ونقلِه رحمه الله لأقوال الخلف المنكرين للصفات وتأويلاتهم البدعية دون إنكار لها، ثم حكمه في النهاية على أن السلف والخلف قد اتفقوا على أصل التأويل، وأن الخلاف انحصر بينهم في أن الخلف حددوا المعنى المراد حيثما ألجأتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك حفظا لعقائد العوام من شبهة التشبيه.

ثم استدل حسن البنا على قرب المذهبين من بعض بتأويلات منسوبة للإمام أحمد فقال: وقد لجأ أشد الناس تمسكا برأي السلف رضوان الله عليهم إلى التأويل في عدة مواطن، وهو الإمام أحمد بن حنبل ﷺ ومن ذلك تأويله لحديث «الحجر الأسود يمين الله في أرضه»(١) وقوله ﷺ «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»(٢) وقوله ﷺ «إني لأجد نفس الرحمن من جهة اليمن»(٣).

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي (٣٢٨/٦) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي، حدثنا أبو معشر المدائني عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعا، وذكره الخطيب في ترجمة الكاهلي وقال: يروي عن مالك وغيره من الرفعاء أحاديث منكرة، ثم ساق له هذا الحديث، ثم روى تكذيبه عن أبي بكر بن أبي شيبة، وقال المناوي متعقبا على السيوطي حيث أورده في الجامع من رواية الخطيب وابن عساكر: قال ابن الجوزي: حديث لايصح، ويقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: ثم وجدت للكاهلي متابعا وهو أحمد بن يونس الكوفي وهو ثقة أخرجه ابن عساكر (٢/٩٠/١٥) من طريق أبي علي الأهوازي....، ولم يذكر فيه جرحا ولاتعديلا، لكن أبو علي الأهوازي متهم، فالحديث باطل على كل حال، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة (٢٥٧/١) حديث رقم (٢٢٣) تخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ولم أجد الحديث في مسند الإمام أحمد، والغريب أن ينسب إلى الإمام أحمد أنه لجأ إلى تأويل الحديث مع أنه لم يخرجه في مسنده مما يعني أنه لم ير صحته والله أعلم.

(٢) رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم الحديث (٢٦٥٤) والإمام أحمد (١٦٨/٢)

(٣) لم يرد الحديث بهذا اللفظ في مسند الإمام أحمد ولكن ورد في موضع واحد من مسند الإمام أحمد لفظ بمعناه، وهو زيادة في الحديث إنفردت بها رواية الإمام أحمد عن المصادر الأخرى، ولفظه عن شبيب بن أبي روح أن أعرابيا أتى أبا هريرة فقال يا أبا هريرة: حدثنا عن النبي ﷺ فذكر الحديث فقال: قال النبي ﷺ: (ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية وأجد نفس ربكم من قبل اليمن وقال أبو المغيرة: من قبل المغرب ألا إن الكفر والفسوق وقسوة القلب في الفدادين أصحاب الشعر والوبر الذين يغتال الشياطين على أعجاز الإبل) المسند (٥٤١/٢) وانظر صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، رقم الحديث(٣٣٠٢) وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه، رقم الحديث(٥٢)

وقد كذب شيخ الإسلام ابن تيمية صحة نسبة هذه التأويلات للإمام أحمد وقال: وأما ما حكاه أبو حامد الغزالي عن بعض الحنبلية: أن أحمد لم يتأول إلا ثلاثة أشياء ـ وذكر الأحاديث التي استدل بها حسن البنا ـ فهذه الحكاية كذب على أحمد لم ينقلها أحد عنه بإسناد، ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف، لا علمه بما قال، ولا صدقه فيما قال(١).

وأخيرا نقول للمتكلفين في تصويب كلام حسن البنا: إن الظن الغالب لدينا أن حسن البنا رحمه الله تعالى كان حريصا على معرفة منهج السلف في هذا الباب وقد بذل وسعه لذلك لكنه لم يوفق لإصابته.

فينبغي أن تتسع صدور أتباعه ومحبيه لتقبل ذلك، وأن يعلموا أن الذي يجب أن تخطأ الأفهام إن لم توافق فهمه، وتتهم العقول إن ظنت في كلامه تعارضا هو رسول الله ﷺ أما من عداه فالخطأ وارد عليه، وليس لأحد العصمة بعده(٢).

٣-حدود العقل في إثبات الصفات لله تعالى:

من المسائل التي حدث بسببها الاختلاف قديما، مسألة الجمع بين الأدلة العقلية والأدلة النقلية، وأيهما يقدم ويعول عليه.

وقد انقسم المختلفون إلى فريقين هما:

ـ فريق يرى أن العقل هو أساس النقل، والطعن فيه طعن في النقل، فما دلت القواطع العقلية على إثباته فإنه يثبت حتى وإن خالف ظاهر النقل، وهؤلاء هم أهل التأويل الذي يعرف بأنه: صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقتضيه(٣).

ـ وفريق يرى أن ما دل العقل السليم على إثباته فلا يمكن أن يعارض ماصح به النقل وكان دليلا في موضع الاستشهاد.

وقد استند أصحاب الاتجاه الأول في نفيهم لصفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة أو بعضها ى العقل، وحجتهم أن ظاهرها يوهم التشبيه، فحكموا العقل فيما يثبت لله وما

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٥/٣٩٨)

(٢) ناقش الأستاذ أحمد سلام هذه المسألة نقاشا علميا هادئا في كتابه نظرات في منهج الإخوان المسلمين ص (٥١) وما بعدها. فليرجع إليه

(٣) تقريب التدمرية ص (٨٦) محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، ط (١)١٤١٢هـ

ينفى عنه، ولتفاوت مدارك العقول تفاوتت درجات هؤلاء فيما أثبتوه لله تعالى من الصفات وما نفوه عنه.

وأشهر من يمثل الاتجاه الأول فخر الدين الرازي[١] في كتابه (أساس التقديس في علم الكلام) وقد وضع قانونا كليا للتوفيق بين الأدلة العقلية والنقلية يقول فيه: إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية، أو السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية.

ــ فإما أن يردا جميعا

ــ وإما أن يقدم السمع وهو محال، لأن العقل أصل النقل، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا، فوجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يتأول، وإما أن يفوض[٢].

وأشهر من يمثل الاتجاه الثاني شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي أورد كلام الرازي السابق ورد عليه ردا مفصلا في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) واستفتح الرد عليه بقوله:

وهذا الكلام جعله الرازي وأتباعه قانونا كليا فيما يستدل به من كتب الله تعالى وكلام أنبيائه عليهم السلام وما لايستدل به، ولهذا ردوا الاستدلال بما جاءت به الأنبياء والمرسلون في صفات الله تعالى، وغير ذلك من الأمور التي أنبأوا بها، وظن هؤلاء أن العقل يعارضها، وقد يضم بعضهم إلى ذلك أن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين [٣].

ويبين شيخ الإسلام أن هذا القانون الذي وضعوه يعتمد على العقل وهو غير منضبط، لأنه لا يوجد عقل يرضى جميع العقلاء بالاحتكام إليه في كل المسائل المتنازع حولها أو بعضها، فضلا عن أن عقل الإنسان لا يبقى على حال واحدة في كل الأحوال والأزمان، فيقول: ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء يضع كل فريق لأنفسهم قانونا فيما جاءت

([١]) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيُّ، ولد في الري سنة ٥٤٤هـ ونسب إليه. رحل إلى خوارزم، وما وراء النهر وخراسان، من أئمة المتكلمين، قيل إنه رجع عن مذهب المتكلمين عند موته وكتب وصية بذلك، مات سنة ٦٠٦هـ. انظر طبقات الشافعية الكبرى(٨/٨١و ٨٦ و٨٧و٩٣) و البداية والنهاية (١٣/٦٦ــ ٦٨) والأعلام للزركلي(٦/٣١٣)

([٢]) انظر درء تعارض العقل والنقل(١/٤)

([٣]) المرجع السابق (١/٤-٥)

الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفتـــه، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعا له، فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفه لم يتبعوه(١).

ثم شرع في الرد التفصيلي على القانون الذي وضعه الرازي بكلام طويل جدا خلاصته ما يلي:

- إثبات التعارض بين الدليل العقلي والسمعي والجزم بتقديم العقلي، معلـــوم الفســاد بالضرورة وهو خلاف ما اتفق عليه العقلاء، والجواب من وجوه:

أحدها: أن قوله إذا تعارض النقل والعقل:

إما أن يريد به القطعيين، فلا نسلم إمكان التعارض حينئذ.

وإما أن يريد به الظنيين، فالمقدم هو الراجح مطلقا.

وإما أن يريد به ما أحدهما قطعي، فالقطعي هو المقدم مطلقا،

وإذا قدر أن العقلي هو القطعي كان تقديمه لكونه قطعيا، لا لكونه عقليا.

فعلم أن تقديم العقلي مطلقا خطأ، كما أن جعل جهة الترجيح كونه عقليا خطأ.

الوجه الثاني: أن يقال لا نسلم انحصار القسمة فيما ذكرته من الأقسام الأربعـــة إذ مـــن الممكن أن يقال:

يقدم العقلي تارة والسمعي أخرى، فأيهما كان قطعيا قدم، وإن كانا جميعا قطعيين، فيمتنع التعارض، وإن كانا ظنيين فالراجح هو المقدم.

الوجه الثالث: قوله: (إن قدمنا النقل كان ذلك طعنا في أصله الذي هو العقـــل فيكـــون طعنا فيه) غير مسلم(٢).

وحدد شيخ الإسلام المراد بهذا القول بأنه يحتمل أمرين هما:

١ــ أن العقل أصل في ثبوت النقل

وهذا الافتراض في رأي شيخ الإسلام لا يقول به عاقل، وهو ظاهر البطلان.

٢ــ أن العقل أصل في علمنا بصحة النقل.

وهذا الاحتمال جزم شيخ الإسلام أنه الذي أراده المتكلمون، ثم يرد عليه متسائلا عـــن

(١) المرجع السابق (٦/١)

(٢) درء تعارض العقل والنقل(٨٦/١-٨٧)

المراد بالعقل هل هو الغريزة التي في الإنسان؟ أم العلوم التي تستفاد بتلك الغريــزة؟ والأول غير مراد، ورجح شيخ الإسلام الاحتمال الثاني وهو: أن يراد بـــالعقل العلــوم الحاصلــة بالعقل[1].

وقد أطال في رده على هذا الاحتمال، والذي يعنينا من كلامه قوله:

أن من أقر بصحة السمع وأنه علم صحته بالعقل لايمكنه أن يعارضه بالعقل ألبتـــه، لأن العقل عنده هو الشاهد بصحة السمع، فإذا شهد مرة أخرى بفساده كانت دلالته متناقضة، فلا يصلح لا لإثبات السمع ولالمعارضته.

فإن قال: أنا أشهد بصحته مالم يعارض العقل.

قيل: هذا لايصح لوجوه:

أحدها: أن الدليل العقلي دل على صدق الرسول وثبوت ما أخبر به مطلقا، فلا يجـوز أن يكون صدقه مشروطا بعدم المعارض.

الثاني: أنك إن جوزت عليه أن يعارضه العقل الدال على فساده لم تثق بشيء منه، لجـواز أن يكون في عقل غيرك ما يدل على فساده، فلا تكون قد علمت بعقلك صحتـــه ألبتـه، وأنت تقول: إنك علمت صحته بالعقل.

الثالث: أن ما يستخرجه الناس بعقولهم أمر لاغاية له، سواء كان حقا أو باطلا، فإذا جوز المجوز أن يكون في المعقولات ما يناقض خبر الرسول لم يثق بشيء من أخبار الرسول، لجـوز أن يكون في المعقولات التي لم تظهر له بعد ما يناقض ما أخبر به الرسول، ومن قال: أنا أقـر من الصفات بما لم ينفه العقل، أو أثبت من السمعيات مالم يخالفه العقل، لم يكن لقوله ضابط، فإن تصديقه بالسمع مشروط بعدم جنس لاضابط له ولامنتهى، وما كان مشروطا بعدم مـا لاينضبط لم ينضبط، فلا يبقى مع هذا الأصل إيمان[2].

وليس الغرض من إيراد كلام الرازي وما رد به عليه شيخ الإسلام ابـــن تيميـــة، مجـــرد الحديث عن اختلاف نشأ بين اتجاهين مختلفين في مرحلة زمنية مر عليها قرابة سبعة قـــرون، بل هو في الواقع تنظير وتأصيل لخلاف نشأ قبل ذلك بكثير، مثل فيه شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(1) انظر درء تعارض العقل والنقل(٨٩/١)

(2) المرجع السابق (١٧٧/١)

رأي السلف وانتصر بما قاله لمذهبهم، ويعد فيه الرازي أحد كبار أئمة الأشاعرة المتـأخرين الذي ضبط المذهب وقعد أصوله، كما أن الإيجي[١] الذي كان معاصرا لشيخ الإسلام ألـف كتاب المواقف الذي يعد تقنينا وتنظيما لفكر الرازي ومدرسته وهو عمدة المذهب قديمـا وحديثا، واستمرت حدة الاختلاف بين المنهجين إلى وقتنا الحاضر تخبو حينا وتظهر حينا، ومما يدل على أن هذا الفكر لازال حيا وله من ينافح عنه، ويرى أنه المعول عليه والمحتكم إليه في معرفة صفات الله تعالى، أن رسالة الشيخ محمد عبده في التوحيد التي نالت مـن التقريـظ والثناء من كثير من الدعاة المعاصرين للشيخ وممن جاء بعدهم، ماهي إلا تهذيـب لكتـب الكلام، فهي شرح لكتاب المواقف للإيجي، قرب فيه عباراتها وأحسن صياغتها، وقد عـرف عنه المبالغة في تقدير العقل ومحاكمة نصوص الكتاب والسنة إلى تصورات عقليـة خاصـة وليس إلى مسلمات عقلية عامة، فأحدث ذلك خليطا عجيبا من التناقضات ورد النصـوص الشرعية لشبهة أنها لاتوافق العقل، وقد أطلق على هذا الاتجاه أخيرا مسمى العقلانيـة، أو العصرانية، وهو وإن كان استمرارا لفكر الرازي ومدرسته، إلا أن رافدا آخر غذى هـذا الاتجاه ونماه وهو الانفتاح على الحضارة الغربية، ففي هذا العصر الذي حقق فيـه الغـرب تفوقا ظاهرا في العلوم التجريبية والعسكرية مما مكن للحضارة الغربية وجعل للأفكار الـتي ابتكرها أو طورها فلاسفة الغرب رواجا وقبولا، في أرجاء شاسعة مـن العـالم، وبحكـم الصلات المستمرة بين البلاد الإسلامية وبلاد الغرب وحركة الترجمة التي نقلت بواسـطتها كتبا كثيرة إلى اللغة العربية، فقد وجدت الفلسفة الوضعية التي تغـالي في تقديـر العقـل، طريقها إلى عقول بعض أبناء المسلمين، وبحكم تلاقح الأفكار وتلاقيـها امـتزجت هـذه الفلسفة العقلية، بما دعا إليه الفخر الرازي، فكان لها دور أيضا في المغالاة للدعوة إلى إعطاء العقل قدرا أكبر من الحرية في محاكمة النصوص الشرعية[٢].

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي، عالم بالأصول والمعاني العربية، من أهل (إيج) بفـارس، ولي القضاء، وجرت له محنة مع صاحب كرمان، فحبسه بقلعة دريميان فمات مسجونا بها سنة ٧٥٦هـ. انظـر طبقـات الشـافعية الكبرى(١٠/٤٦- ٤٧) و الأعلام للزركلي(٣/٢٩٥)

(٢) في بداية القرن التاسع عشر الميلادي تجدد الصراع العقلي عند الأوربيين وهو وإن لم يختلف عن ذي قبل، فموضوعه: هـو الديـن والعقل والطبيعة، إلا إن القرن التاسع عشر تميز بأنه عصر الوضعية التي قامت على أساس تقدير الطبيعة وتقييمـها وحدهـا كمصـدر للمعرفة، والطبيعة أو الحقيقة أو الواقع، أو الحس، كلها تدل على معنى واحد في نظر الوضعيين وترى هذه الفلسفة أن الطبيعة تنقـش الحقيقة في عقل الإنسان، وهي التي توحي بها وترسم معالمها الواضحة، بل هي التي تكون عقل الإنسان، إن عقل الإنسان في منطق هـذه

والمتأثرون بهذا التيار ليسوا على درجة واحدة، بل ربما يوجد من وافق العقلانيين ببعض أقوالهم مع انتقاده لمنهجهم، وثنائه على طريقة السلف، لكنه أتي من عدم فهمه لحقيقة مذهب السلف فاختلط عليه الأمر فرد بعض أقوال السلف الثابتة عنهم وفسر بعض الصفات أو تأولها تأويلا وافق به المعطلة الذين أنكروا الصفات أو بعضها اعتمادا على العقل، وهو يظن أنه يقول بقول السلف، ويشنع على من يخالفه بأنه لا يفهم حقيقة مذهب السلف أو أنه ينكر أي دور للعقل ولو كوسيلة لفهم النص.

ويذكر الشيخ على الطنطاوي أن السبب الذي ألجأ العقلانيين من المعتزلة والأشاعرة، إلى تحكيم العقل هوتأثرهم بالفلسفة اليونانية التي ترجمت إلى العربية فدخلت عن طريقها الشبه على العقيدة الإسلامية الصافية فعكرت جانبا منها في عقول من نهل من هذه الفلسفة وأوردت اعتراضات لا معنى لها، ولكن لا يجوز السكوت عنها، ولا بد أن ينفرد من المسلمين طائفة للرد عليها فكانت طائفة المعتزلة، التي حاربت الخصم بسلاحه، ولكنهم غالوا في تقدير العقل، وأعطوه أكثر مما له وحكموه في أمور لا يملك بطبيعته الحكم فيها[1].

أما الأشاعرة فوصفهم بقوله: إنهم شاركوا المعتزلة في تحكيم العقل، ولكن لا على منهاج واضح، فكانوا عقليين أحيانا وكانوا متبعين أسلوبا غريبا لا هم فيه مع السلف، يقفون عند حدود الإيمان القرآني فهما صحيحا واعتقادا، ولا هم فيه مع المعتزلة الذين يتبعون أسلوب المنطق العقلي.

وقبل إيراد كلام الشيخ الذي أرى أنه يحتاج إلى التوقف عنده ومناقشته أرى أنه من الإنصاف إحسان الظن بالشيخ علي الطنطاوي، فإن له ماضيا في الدعوة لاينكر، و تحس عندما تقرأ له أوتسمع حديثه حرارة العاطفة في صدرة والغيرة على الدين والتألم لما آل إلى حال المسلمين.

ينتقد الشيخ العقلانيين وتأويلاتهم الفاسدة التي سببها إقحام العقل في غير مجاله، ويصف

الفلسفة ــ أي ما فيه من معرفة ــ وليد الطبيعة، إنه مخلوق ولكن خالقه الوجود الحسي إنه يفكر ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به، وهكذا يستبعد الدين أصلا كمصدر للمعرفة، ويتاح للعقل البشري حرية تفسير النصوص الدينية دون قيد، بل إن الدين ذاته في رأي هذه الفلسفة مصدره العقل. انظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي الصفحات (٣٤١و٣٤٣و٣٤٤)

[1] فصول إسلامية ص (١٨٨) علي الطنطاوي، دار الفكر، ط(١) ١٤٠٥هـ

فهم السلف لنصوص الصفات بقوله: ورأوا في الكتاب ذكر الوجه واليد والاستواء على العرش وأمثال ذلك، فأدركوا أن المراد منه الإيمان بعظمة الله وإخلاص العبادة له، وتنزيهه عن الشريك الظاهر والخفي، وإن كانوا قد فهموها على المجاز، ولم يقولوا كما قال الآخرون من أنها حقائق، فجعلوا لله وجها ويدا ثم تنبهوا إلى ما في ذلك من التجسيم فزادوا عليه ما هو في حكم الإحالة، فقالوا: وجه ولكنه لا كالوجوه، ويد لا كالأيدي وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فأخرجوا بذلك معاني الوجه واليد كلها[١].

ثم ينتقد الشيخ من وصفهم بالحنابلة لأنهم يهملون العقل جملة وتفصيلا فيقول: وأما الحنابلة (لا أعني أتباع المذهب الحنبلي الآن) بل من جاء بعد انتصار أحمد بن حنبل على المعتزلة، فقد ظهر فيهم ما يسمونه اليوم بـ (رد الفعل) فانتقلوا من ذلك الغلو الشنيع في تقدير العقل وتحكيمه في كل أمر، إلى غلو شنيع في الوقوف عند ظواهر النصوص، وإهمال العقل جملة و تفصيلا، فجعلوا لله وجها ويدا، وقالوا بأن كلامه بحرف وصوت، وبأنه مستو على عرشه استواء حقيقيا، وأشياء أخر من هذا الباب، أخذوها على ظاهرها مع أن السلف أمروها ولم يخوضوا غمار الكلام فيها[٢].

ويرى الشيخ أن المخرج من ذلك هو حمل نصوص الصفات على المجاز لأنه هو الأصل في الاستعمال، فيقول: والمجاز إن كان متأخرا في الوضع، لكنه هو الأصل في الاستعمال، ولو نسخ ناسخ المجازات من كلام الناس وأخذه كله على الحقيقة لكان مجنونا[٣].

ومن تأمل كلام الشيخ يجد أنه وقع فيما حذر منه، وفيما عابه على المعتزلة الذين حكموا العقل في أمور ليس في مقدوره الحكم فيها،

ووصف من أثبت الصفات على طريقة السلف بإهمال العقل جملة وتفصيلا،

فهل كان السلف يثبتون الصفات على الحقيقة؟ وهل كان قولهم موافقا لمن وصفهم الشيخ بإهمال العقل كرد فعل لغلو المعتزلة في تقدير العقل؟ أم أن المراد من نصوص الصفات الإيمان بعظمة الله، وإخلاص العبادة له وتنزيهه عن الشريك الظاهر والخفي، وأن

---

(١) المرجع السابق ص (١٨٨)

(٢) المرجع السابق (١٩٠)

(٣) المرجع السابق ص (١٩١)

الأصل في الاستعمال هو القول بالمجاز، كما قال ذلك الشيخ علي الطنطاوي؟ هذا ما سيتضح فيما يأتي:

مر في كلام الشيخ أنه ينكر على من أثبت لله وجها ويدا على الحقيقة، وعلى من قال: إن كلام الله بحرف وصوت، وبأنه مستو على العرش استواء حقيقيا، وجزم بأن السلف فهموا النصوص الواردة في الصفات على المجاز، ولبيان الحق وإزالة اللبس حول هذا الموضوع سنذكر ما ورد عن السلف حول كل صفة من الصفات التي أوردها الشيخ، وعندها يتبين هل قوله موافق لقول السلف أم أنه أعمل عقله في تأويل الصفات، ونسب إلى السلف ما ليس من كلامهم.

أ.وجه الله تعالى:

يقول الله تعالى:{كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}(١) ويقول عز وجل:{وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}(٢) قال ابن كثير: {وجوه يومئذ ناضرة} من النضارة أي حسنة هية مشرقة مسرورة، {إلى ربها ناظرة} أي تراه عيانا(٣).

وعن أبي موسى عن النبيﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والإمام أحمد، قال الحافظ ابن حجر: ومعنى حديث الباب أن مقتضى عزة الله واستغنائه أن لا يراه أحد لكن رحمته للمؤمنين اقتضت أن يريهم وجهه كمالا للنعمة(٥).

وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:«إن أدنى أهل الجنة

---

(١) سورة الرحمن (٢٦—٢٧)

(٢) سورة القيامة (٢٢—٢٣)

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٥٠/٤)

(٤) رواه البخاري،كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى:(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) رقم الحديث (٧٤٤٤) ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم الحديث (١٨٠) والترمذي،كتاب صفة الجنة،باب ما جاء في صفة غرف الجنة،رقم الحديث (٢٥٢٨) و ابن ماجة،المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم الحديث(١٨٦) والإمام أحمد (٤١٦/٤)

(٥) فتح الباري(٤٤٢/١٣)

منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ{وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}(١).

وذكر ابن كثير بعض الأحاديث الواردة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة والتي في بعضها التصريح بإثبات الوجه لله تعالى ثم قال: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام(٢).

وقال ابن القيم: وجه الرب جل جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة فليس بمجاز بل على حقيقته(٣).

ثم ذكر الإمام ابن القيم أكثر من عشرين وجها في الرد على من زعم أن لفظ الوجه مجاز يراد به الثواب أو قبلة الله أو الجهة.

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين: المراد بالوجه وجه الله حقا وهو ثابت له على الحقيقة لا يماثل أوجه المخلوقين، لأن هذا هو ظاهر اللفظ، ولا يمنع منه العقل، ومن له وجه بلا شك فهو أكمل ممن ليس له(٤).

ب- صفة اليد لله تعالى:

يقول الله تعالى: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء}(٥) وقال سبحانه: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي}(٦) وقال عز وجل: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه}(٧)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي

---

(١) رواه الإمام أحمد(٢/٦٤) والترمذي واللفظ له،كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة يوم القيامة، رقم الحديث(٣٣٣٠) وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده ضعيف جدا ، المسند بشرح أحمد شاكر (١٧٦/٧)

(٢) تفسير القرآن العظيم(٤/٤٥٠)

(٣) مختصر الصواعق ص(٣٨٦)

(٤) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية(١/٢٤٠-٢٤١)

(٥) سورة المائدة (٦٤)

(٦) سورة ص (٧٥)

(٧) سورة الزمر (٦٧)

السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»(١).

وعن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبيﷺ «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(٢) رواه مسلم والنسائي والإمام أحمد.

وروى مسلم بسنده عن عبيد الله بن مقسم(٣) أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي رسول الله ﷺ قال: «يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه بيديه فيقول: أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها أنا الملك» حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول اللهﷺ(٤).

وبعد أن أورد شيخ الإسلام بعض الآيات الدالة على إثبات اليدين لله تعالى قال: وقد تواتر في السنة مجيء اليد في حديث النبيﷺ، فالمفهوم من هذا الكلام أن لله تعالى يدين مختصتين به ذاتيتين له كما يليق بجلاله، وأنه سبحانه خلق آدم بيده ودون الملائكة وإبليس، وأنه سبحانه يقبض الأرض ويطوي السموات بيده اليمنى، وأن {يداه مبسوطتان}(٥).

وبين شيخ الإسلام أن هذه النصوص لا يمكن أن يكون المراد بها القدرة أو النعمة، فيقول: {لما خلقت بيدي}لا يجوز أن يراد به القدرة، لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد، ولا يجوز أن يراد به النعمة لأن نعم الله لا تحصى، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية(٦).

وبعد أن يورد شيخ الإسلام أدلة من الشرع واللغة والعقل على أن لله يدين حقيقيتين

---

(١) رواه البخاري واللفظ له،كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى(ملك الناس) رقم الحديث (٧٣٨٢) ومسلم،كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم الحديث(٢٧٨٧)

(٢) رواه مسلم واللفظ له،كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم الحديث (١٨٢٧) والنسائي كتاب آداب القضاة، باب فضل الحاكم العادل في حكمه، رقم الحديث(٥٣٩٤) والإمام أحمد (٢/١٦٠)

(٣) عبيد الله بن مقسم القرشي، مولى ابن أبي نمر المدني، ذكره الطبري في الصحابة، روى عن جابر وابن عمر وأبي هريرة وغيرهم، قال أبو داود والنسائي، ثقة وذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم ثقة لا بأس به، انظر تهذيب التهذيب(٤/٣٥) والإصابة (٤/٤٠٥)

(٤) رواه مسلم واللفظ له،كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم الحديث (٢٧٨٨) وابن ماجة في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم الحديث(١٩٨)

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(٦/٣٦٣)

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(٢/ ٣٦٥)

يتساءل مستغربا كيف يقبل تفسير النصوص الشرعية بخلاف ما دل عليه ظاهرها، مع أن هذا التفسير لم يقل به النبي ﷺ ولا أحد ممن يعتد بقوله من أئمة الدين، وإنما ينسب إلى من لم يعرف بعلم ولافضل بل عرف بخلاف ذلك، فيقول: فهل يجوز أن يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد، وأن الله خلق بيده، وأن {يداه مبسوطتان} وأن الملك بيده، وفي الحديث ما لا يحصى، ثم إن رسول الله ﷺ، وأولي الأمر لا يبينون للناس أن هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره، حتى ينشأ (جهم بن صفوان) بعد انقراض عصر الصحابة فيبين للناس ما نزل إليهم، ويتبعه عليه (بشر بن غياث)[1] ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليهم بالوعيد[2]. ويقول الإمام ابن القيم: ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة في أكثر من مائة موضع ورودا متنوعا متصرفا فيه مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقية[3].

وقد بسط ابن القيم القول في إثبات أن اليد المضافة إلى الله تعالى يد حقيقية وأثبت بما لايدع مجالا للشك أن القول بأن المراد باليد النعمة أو القدرة: ضرب من الغباء والجهل بلغة القرآن ولغة العرب ومعانيها، وأتى رحمه الله بما يشفي ويكفي، واستشهد بأقوال كثير من السلف يقولون بمثل قوله ويفهمون النصوص مثل فهمه[4].

ج ـ كلام الله تعالى:

يقول الله تعالى: {وكلم الله موسى تكليما}[5] ويقول سبحانه: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله}[6] وقوله: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه}[7] وقوله: {وإن أحد

---

(1) بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي، المتكلم شيخ المعتزلة، رأس الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء، كان أبوه يهوديا، كان ينظر أولا في شيء من الفقه ثم غلب عليه علم الكلام، وقد نهاه الشافعي عن تعلمه وتعاطيه فلم يقبل منه، قال بخلق القرآن، وكان يقول: إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، وإنما هو علامة الكفر، توفي سنة ٢١٨هـ انظر سير أعلام النبلاء (١٠/١٩٩-٢٠٢) والبداية والنهاية (١٠/٣٠٨) والأعلام للزركلي (٢/٥٥)

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦/ ٣٦٨)

(3) مختصر الصواعق ص (٣٨٤)

(4) انظر مختصر الصواعق ص(٣٧٠) وما بعدها

(5) سورة النساء (٩٩)

(6) سورة البقرة (٢٥٣)

(7) سورة الأعراف (١٤٣)

من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله}[١] وقوله: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين}[٢].

ومن السنة ما رواه البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه»[٣] وفي الصحيحين أن رجلا سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول أعملت كذا وكذا فيقول نعم ويقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقرره ثم يقول إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[٤]

وروى البخاري تعليقا عن جابر عن عبد الله بن أنيس[٥] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان»[٦].

والآيات والأحاديث السابقة دالة دلالة قطعية على إثبات الكلام لله تعالى وقد فهم منها أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى يتكلم كلاما يليق بجلاله لا يشبه كلام المخلوقين ولا يلزم من إثبات الكلام لله تعالى تشبيهه بخلقه، فكما أنه ليس كمثله شيء في ذاته فليس

---

(١) سورة التوبة (٦)

(٢) سورة القصص (٦٥)

(٣) رواه البخاري واللفظ له، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) رقم الحديث (٧٤٤٣) و مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم الحديث (١٠١٦)

(٤) رواه البخاري واللفظ له،كتاب التوحيد، باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم الحديث (٧٥١٤) ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة التائب وإن كثر قتله، رقم الحديث (٢٧٦٨) وابن ماجة،المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم الحديث(١٨٣) والإمام أحمد (٢/ ٧٤-١٠٥)

(٥) عبد الله بن أنيس الجهني، أبو يحيى المدني، حليف الأنصار، روى عن النبي ﷺ، قال ابن إسحاق: هو من قضاعة حليف لبني سلمة، شهد العقبة وأحدا وما بعدهما وهو الذي بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن نبيح العتري وحدهُ فقتله، توفي بالشام سنة ٥٤ هـ تهذيب التهذيب(٣/١٠٠-١٠١) والإصابة (٤/١٥-١٧)

(٦) رواه البخاري معلقا في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له}الآية. ويلاحظ أن البخاري رواه هنا معلقا بصيغة التمريض فقال: ويذكر عن جابر لكنه في كتاب العلم علقه بصيغة الجزم فقال: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، وقد رواه الإمام احمد بطوله مسندا (٣ / ٤٩٥) وقد احتج به الإمام ابن القيم على إثبات كلام الله تعالى وأنه بصوت قال: ولا التفات إلى ما أعله به بعض الجهمية ظلما منهم وهضما للحق، مختصر الصواعق ص (٤٦٧)

كمثله شيء أيضا في كلامه وسائر صفاته، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أقوال الفرق في كلام الله ومن بينها قول أهل السنة والجماعة وهو: إنه لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء بكلام يقوم به وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام أزلي قديم، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديما، وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة(١).

وفي جواب لشيخ الإسلام لمن سأل فقال: إن كلام الله هل هو حرف وصوت أم لا؟ فأجاب بقوله: والصواب الذي عليه سلف الأمة ـ كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتاب (خلق أفعال العباد) وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم ـ اتباع النصوص الثابتة، وإجماع سلف الأمة، وهو أن القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه ليس شيء من ذلك كلاما لغيره. وأن الله تعالى يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح(٢).

وقد جاء إثبات الكلام لله تعالى في القرآن والسنة بألفاظ مختلفة منها المناداة، والمناجاة والقول، والكلام، وغيرها مما يدل على أن كلام الله يكون بصوت، وقد استدل الإمام ابن القيم بإخبار الله تعالى عن نفسه أنه ينادي عباده، على إثبات أن كلام الله تعالى بصوت، فقال: وقد ذكر سبحانه النداء في تسعة مواضع في القرآن، أخبر فيها عن ندائه بنفسه، ولا حاجة إلى أن يقيد النداء بالصوت، فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة، فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعا(٣).

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين: كلام الله عز وجل لموسى كلام حقيقي سمعه، ولهذا جرت بينهما محاورة كما في سورة طه وغيرها، وحينئذ نقول: إن كلام الله بحرف وصوت(٤).

مما تقدم يتبين لنا أن نفي الشيخ على الطنطاوي عن السلف القول: إن كلام الله تعالى بحرف وصوت وزعمه أن هذا قول لمتقدمي الحنابلة الذين أهملوا العقل بالكلية، قد جانب فيه الصواب، وما نقلته من كلام لبعض العلماء المعتبرين من المتقدمين والمتأخرين كاف لإثبات أن كلام الله بحرف وصوت وأن هذا هو قول أهل السنة والجماعة.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٣٦٢)

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٢/ ٢٤٣-٢٤٤)

(٣) مختصر الصواعق ص (٤٦٥)

(٤) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (١/ ٣٨٣)

د – هل يوصف الله تعالى بأنه مستو على عرشه استواء حقيقيا؟

يعيب الشيخ علي الطنطاوي على من قال إن الله مستو على عرشه استواء حقيقيا، ويزعم أن هذا القول خلاف ما عليه السلف لأن هذا أخذ بظاهر النصوص بينما السلف أمروها ولم يخوضوا غمار الكلام فيها، وفيما يلي يتضح هل ما أيده هو قول السلف؟ أم أن القول الذي رده ونسبه إلى متقدمي الحنابلة هو قول السلف؟

يقول الله تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش}[1] الآية.

وقد تكرر إثبات الاستواء لله جل شأنه في سبعة مواضع من القرآن العظيم منها الآية السابقة، وقد فهم السلف من هذه الآيات أن الله تعالى مستو استواء حقيقيا يليق بجلاله، واتفقت أقوالهم على إثبات ذلك.

ولم يقل أحد من السلف إن الاستواء ليس له معنى يعرف من حيث اللغة ويجب إمرار اللفظ وعدم إثبات معنى له، لكن إنكارهم انصب على من سأل عن الكيفية، أو أنكر حقيقة الصفة فحرف الكلم عن مواضعه، فمن ذلك ما رواه أبو القاسم اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة عن جعفر بن عبد الله[2] قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ قال فما رأيت مالكا وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضاء — يعني العرق — قال: وأطرق القوم جعلوا ينظرون ما يأتي منه فيه، قال: فسُرِي عن مالك فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالا وأمر به فأخرج[3].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وهكذا سائر الأئمة قولهم يوافق قول مالك: في أنا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته، ولكن نعلم المعنى الذي دل عليه الخطاب، فنعلم

---

(1) سورة الأعراف (٥٤)

(2) الشيخ أبو القاسم، جعفر بن عبد الله بن يعقوب الفناكي الرازي، سمع من عبد الرحمن بن أبي حاتم، وصف بالعدالة وحسن الديانة، روى عنه اللالكائي وأبو الفضل عبد الرحمن بن بندار الرازي، توفي سنة ٣٨٣هـ انظر سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٣٠ـ٤٣١)

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١)

الاستواء ولا نعلم كيفيته([1]).

وقال الإمام ابن القيم: إن الإجماع منعقد على أن الله سبحانه استوى على عرشه حقيقة لا مجاز([2]).

أما الذي دعا أهل السنة إلى القول بأن الله مستو بذاته وأن استواءه على الحقيقة لا على المجاز، فهو الرد على الجهمية الذين ينكرون الصفات بحجة أن إثباتها يستلزم التشبيه، يقول الإمام ابن القيم: إن الجهمية لما قالوا: إن الاستواء مجاز، صرح أهل السنة بأنه مستو بذاته على عرشه، ونقل ابن القيم أقوالا لبعض مشاهير السلف ممن يصرحون بأن استواء الله تعالى على الحقيقة لا على المجاز([3]).

يقول أبو عمر الطلمنكي([4]): أجمع أهل السنة على أن الله تعالى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز.

وقال الإمام القرطبي([5]): لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وإنما جهلوا كيفية الاستواء كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول([6]).

ويتضح مما تقدم بيانه أن قول من وصفهم الشيخ على الطنطاوي ــ غفر الله لنا وله ــ بمتقدمي الحنابلة أو الذين يسمون أنفسهم بالسلفيين، كما سماهم بذلك في موضع آخر من كتابه([7]) قول يؤيده ظاهر النصوص، وصرح بمثله أئمة السلف الذين يعتد بقولهم، وأن ما ذهب إليه الشيخ أقرب شيء إلى مذهب أهل التفويض الذين يثبتون ألفاظا مجردة لا تعرف معانيها.

([1]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٥/ ٣٦٥)

([2]) مختصر الصواعق ص (٣٥٧)

([3]) مختصر الصواعق ص (٣٥٧)

([4]) الإمام المقرئ المحقق الحافظ، أبو عمر، أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى المعافري الأندلسي الطلمنكي، من بحور العلم، كان سيفا على أهل الأهواء والبدع، غيورا على الشريعة، شديدا في ذات الله، صنف كتبا في السنة يلوح فيها فضله وحفظه وإمامته واتباعه للأثر، توفي بطلمنك سنة ٤٢٩هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٧/٥٦٦ ــ ٥٦٩)

([5]) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله القرطبي، من كبار المفسرين، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط بمصر) وتوفي بها سنة (٦٧١) هـ. كان ورعا متعبدا صالحا انظر الأعلام للزركلي (٥/ ٣٢٢)

([6]) مختصر الصواعق (٣٥٧)

([7]) فصول إسلامية ص (١٧٢)

٣- أحاديث الآحاد والاحتجاج بها في مسائل العقيدة:

جميل جدا أن يصرح الداعية إلى الله أنه على منهج السلف الذين عرفوا باتباع الكتاب والسنة يدورون مع الدليل حيث دار، دون أن يستثني من أمور الدين شيئا كأن يوافقهم في مسائل الأحكام دون الاعتقاد، ففي هذا التصريح إعلان بتقديم منهج السلف ودعوة الناس للتمسك به، لكن هذه الدعوى لايتم جمالها حتى يصدق القول العمل، وإلا كانت هذه الدعوى تشويها لمنهج السلف مغلفا بمكر ومخادعة لمن يحسنون الظن بالداعية فيأخذون قوله مأخذ التسليم على أنه القول الصحيح المؤيد بأدلة الكتاب والسنة.

وعندما نحسن الظن بالداعية الذي هذا حاله، فإننا نقول إن الذي دعاه إلى هذا القول هو فرط ثقته بأنه على الحق، وعدم إدراكه لحقيقة مذهب السلف وحدود الالتزام به ومن الذي يستحق أن يوصف بالانتساب إليه، ولا نتهمه بتعمد المخادعة والتلبيس على الناس، لأن من يتعمد المخادعة على هذا النحو لايستحق أن يوصف بالانتساب إلى الدعوة.

وسنكتفي بمثال واحد لداعية مشهور وهو الشيخ: محمد الغزالي الذي وقع الاختلاف بسبب مؤلفاته - خصوصا المتأخر منها - بين كثير من الدعاة، وذلك لأنه لو قال قائل إنه لم يترك أمرا من أمور الدين إلا وتجشم الكلام حوله، لكاد أن يكون محقا.

وقد كان لتوحيد الأسماء والصفات نصيب مما تناوله قلمه، وقد أوتي الرجل جدلا، وقلما سيالا سخره لصياغة أفكاره، لكنه عندما يتناول قضايا العقيدة يتبين لك تعدد مشاربه ولاتستطيع أن تصنفه ضمن أهل اتجاه بعينه، فتارة تراه يوافق السلف في بعض أقوالهم ثم لاتكاد تجاوز الصفحة التي استنتجت منها هذا الحكم حتى تراه يصرح بما يخالف مذهب السلف ويؤيد خصومهم من المعتزلة أو الأشاعرة أو غيرهم في بعض ما ردوا به على أهل السنة، ويرد أقوالا قال بمثلها السلف، وينسب من قال بها إلى التجسيم أو الجهل بحقيقة التوحيد.

فحين تقرأ قوله: وأنا شخصيا أوثر مذهب السلف، وأرفض أن يشتغل العقل الإسلامي بالبحث المضني فيما وراء المادة، وأرتضي قبول الآيات والأحاديث التي تضمنت أوصاف الله

جل شأنه دون تأويل[١].

يعجبك هذا القول وتظن أنه صدر عن فهم عميق لعقيدة السلف، واقتفاء لآثرهم، لكن هذا الإعجاب سرعان ما يتبدد، حين تكتشف أن مذهب السلف الذي عناه هو ما يقول به الأشاعرة، كما يرى أن طريقتهم في التأويل هي الطريقة المثلى التي جذبت إليها جماهير المسلمين، حيث يقول: أما الأشاعرة فتنزيههم لله واضح وثناؤهم عليه جميل، وقد اقتصدوا في التأويل، وسلكوا مسلكا وسطا جعل جماهير المسلمين تنضم إليهم منذ ألف سنة إلى اليوم[٢].

كما أنه يقرب شقة الخلاف بين السلف والخلف، ويؤكد أن هدف الطرفين واحد وإن اختلفت مناهجهم، وأن النزاع الذي وقع بين الطرفين لفظي لاحقيقي فيقول: سلف الأمة وخلفها متفقون على تنزيه الله سبحانه، وعلى أنه أهل الثناء والحمد والمجد.

ولست أحب أن أحيي الجدال القديم ولا أن أخوض فيه، ولا أن أعلق عليه، فقد كرهته بفطرتي واعتمدت على القرآن الكريم وأنا أبني العقيدة في نفسي وفي المجتمع الذي أعيش فيه، ولعلي استفدت من أستاذي حسن البنا في هذا الاتجاه، كما استفدت من الشيخ محمد عبده في اعتذاره عن الأقدمين واعتباره العراك الناشب بينهم لفظيا لاحقيقيا[٣].

ويرفض بعض ما ينسب إلى السلف من تفسير لمعاني بعض نصوص الصفات بحجة أن هذه التفسيرات قد ألجأهم إليها شدة الخصومة مع مخالفيهم، وإلا فإن حقيقة مذهب السلف هو تفويض المعاني فيقول: وربما قيلت كلمات في المساجلات الأولى تحتاج إلى ضبط، أو تفهم في نطاق ملابسات خاصة وإلا فهي كلمات مرفوضة.

ونحسب أن المبالغة في التمسك بالنقل هي من وراء تلك العبارات الحذرة، وقد لجأ الخلف إلى تأويل كل ما يوهم المادية، وآثر السلف عدم الخوض في هذه المرويات مفوضين المعنى إلى الله، ومؤمنين بدلالتها مع إثبات التنزيه المطلق لرب العالمين[٤]

---

(١) عقيدة المسلم ص (٣٧ ـــ ٣٨) محمد الغزالي، دار القلم، ط (٧) ١٤٠٩هـ

(٢) سر تأخر العرب والمسلمين ص (٥٧) محمد الغزالي، دار الصحوة، ط (١) (١٤٠٥)هـ

(٣) السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث (١٥٣-١٥٤)

(٤) المرجع السابق (١٥٤)

ومع أنه دعا إلى قبول الآيات والأحاديث الدالة على صفات الله تعالى دون تأويل إلا أنه أيد الأشاعرة في تأويلاتهم، لأن التأويل في زعمه لا بد منه للجمع بين الآيات، وإن حكم العقل في إثبات الكمال لله يقتضيه، حيث يقول: إن المتكلمين من سلف وخلف اضطروا إلى التأويل في بعض جمل من الكتاب الكريم، والسنة كذلك، توفيقا بينها وبين الآيات الأخرى، وتمشيا مع حكم العقل في إثبات الكمال لله تبارك اسمه ونفي أي إيهام بما لا يليق(١).

ثم بين منهجه الذي يعتمد عليه في إثبات الصفات لله تعالى ونوع الأدلة التي يعدها حجة في مسائل العقيدة، وهو أن أحاديث الآحاد لا يركن إليها في هذا الشأن ولا ينبني عليها عقيدة، وإن كانت حجة في المعاملات، فيقول: إن أحكام الناس ومسالكهم تبنى غالبا على ما يترجح لديهم من أحكام، وأحاديث الآحاد ثبت(٢) في الدماء والأموال والأعراض.

أما أصول الاعتقاد وأركان الإسلام فتستمد من نص قطعي الدلالة قطعي الثبوت، وهذا ما عليه جمهور الأئمة، ليس في ديننا عقائد تقوم على أحاديث آحاد، وعقائدنا كلها ثابتة بأدلة قاطعة(٣).

إن الإسلام تقوم عقائده على المتواتر النقلي والثابت العقلي، ولاعقيدة لدينا تقوم على خبر واحد، أو تخمين فكر(٤).

ثم يستشهد بموقف جرى له يحدد فيه موقفه من أحاديث الآحاد وممن يعتمدون عليها في إثبات الصفات لله تعالى، فذكر أن موقفا جمعه بطالب وصفه بأنه سلفي اعترض عليه حين قال: إن أحاديث الآحاد يعمل بها في الأحكام الشرعية القائمة على العلم الظني أو الظن الراجح، أما أصول الاعتقاد وأركان الإسلام فتستمد من نص قطعي الدلالة قطعي الثبوت، فقال الطالب: إن حديث الآحاد مصدر الاعتقاد.

فرد الغزالي قائلا: ليس في ديننا عقائد تقوم على حديث آحاد، عقائدنا كلها ثابتة بأدلة قاطعة، قال الطالب: عقيدة القدم ثبتت بحديث آحاد،

---

(١) سر تأخر العرب والمسلمين(٥٨)

(٢) أي يحتج ويستدل بها في هذه الأحكام

(٣) سر تأخر العرب والمسلمين ص (٥٥)

(٤) السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ص (٨٠)

يقول الغزالي: فرددت كلمة الطالب بضيق شديد، وغاظني منه أن يستأنف كلامه قائلا: وفي رواية أخرى ذكرت كلمة رجل بدل كلمة قدم.

ثم يضيف الغزالي قلت: تعنون أن نثبت أن لله رجلا؟ ونعد ذلك من عقائد الإسلام التي نلزم الناس بها؟ قال: نعم، وذاك رأي سلف الأمة.

فأجاب الغزالي قائلا: ما أجرأكم على الافتراء(!) إن سلف الأمة ما تدري شيئا عن هذه الرجل، ولا سمع داع إلى الإسلام يكلف الناس أن يؤمنوا بها.

وأخيرا ينتهي الحوار بينهما بعد أن يسخر الشيخ من فكر الطالب قائلا: إن العقائد لا تخترع ولا تفتعل على هذا النحو المضحك! عقيدة رجل لله(!!) ما هذا.

ويصف الطالب بقوله: وعلمت أن الغلام مملوء بالجهالة، وأنه مثل غيره من أدعياء السلفية لا تصلح الأرض معهم ولا بهم[1].

وهو فيما يظهر من كلامه لا ينكر صحة الحديث الذي ورد فيه ذكر إثبات القدم لله تعالى فقد أورد الحديث وقال: ورد في صحيح مسلم والبخاري والترمذي عن أنس بن مالك عن النبيﷺ أنه قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة».

ولكنه يفسره بتفسير المعطلة حيث يقول: قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القدم هنا فهم قوم يقدمهم الله إلى النار وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار، وكذلك الرجل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم يقال: رأيت رجلا من الناس ورجلا من جراد.

والجواب على ما تقدم من وجهين هما:

أولا: حول موقف الشيخ من الحديث الذي دل على إثبات القدم لله تعالى.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك قال النبيﷺ: «لاتزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول قط قط وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض»[2].

([1]) سر تأخر العرب والمسلمين ص (٥٥ ــ ٥٧)

([2]) رواه البخاري واللفظ له،كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلامه،رقم الحديث (٦٦٦١) و مسلم،كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم الحديث (٢٨٤٨) والإمام أحمد (٣/ ٢٢٩)

وجاء في رواية في الصحيحين «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رِجْلَهُ فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض»[١] ففي هذه الرواية جاء التصريح بلفظ الرجل.

وفي رواية للإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتزال جهنم تقول {هل من مزيد} قال: فيدلي فيها رب العالمين قدمه فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنه في فضول الجنة»[٢]

قال الحافظ ابن حجر: واختلف في المراد بالقدم فطريق السلف في هذا و غيره مشهورة وهو أن تمر كما جاءت ولا يتعرض لتأويله، بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله[٣].

ويقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين: أما الرجل والقدم فمعناهما واحد،

قال: (فيزوي بعضها إلى بعض) فيزوي بمعنى ينضم بعضها إلى بعض من عظمة قدم الباري عز وجل.

وخالف الأشاعرةُ وأهلُ التحريف أهلَ السنة فقالوا: «يضع عليها رجله» يعني طائفة من عباده مستحقين للدخول.

والرِجل تأتي بمعنى الطائفة كما في حديث أيوب عليه الصلاة والسلام[٤]، أرسل الله إليه رجل جراد، يعني طائفة من جراد وهذا غير صحيح، لأن اللفظ (عليها) يمنع ذلك.

وأيضا: لا يمكن أن يضيف الله عز وجل أهل النار إلى نفسه، لأن إضافة الشيء إلى الله تكريم وتشريف.

قالوا في القدم: قدم بمعنى مقدم، أي يضع الله عليها مقدمه، أي من يقدمهم إلى النار.

فنقول: أهل النار لا يقدمهم الباري عز وجل ولكنهم{يدعون إلى نار جهنم دعا}[٥]

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري واللفظ له، كتاب التفسير، باب قوله تعالى(وتقول هل من مزيد) رقم الحديث (٤٨٥٠) ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم الحديث (٢٨٤٦)

(٢) رواه الإمام أحمد (١٣٤/٣) بسند صحيح رجاله رجال الصحيحين.

(٣) فتح الباري(٤٦١/٨)

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ«بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»حديث رقم(٣٣٩١)

(٥) سورة الطور (١٣)

ويلقون فيها إلقاء، فهؤلاء المحرفون فروا من شيء ووقعوا في شر منه، فروا من تنزيه الله عز وجل عن القدم والرجل لكنهم وقعوا في السفه، ومجانبة الحكمة في أفعال الله عز وجل[١].

ثانيا: هل موقف الشيخ من أحاديث الآحاد موافق لموقف السلف؟

وهنا يحق لنا أن نسأل الشيخ: هل كان السلف يشترطون في أحاديث الصفات أن تكون متواترة، ويرفضون الاحتجاج بأحاديث الآحاد؟

يعرف الحديث المتواتر بأنه: ما رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب[٢]، وأما الآحاد فهو ما لم يبلغ حد التواتر[٣].

بحث علماء مصطلح الحديث عند تقسيمهم الحديث إلى متواتر وآحاد هذه المسألة، وعند الكلام على أحاديث الصحيحين وتلقي الأمة لهما بالقبول، يقول ابن الصلاح عن المتفق عليه بين البخاري ومسلم: وهذا القسم جميعه مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النظري واقع به خلافا لقول من نفى ذلك محتجا بأنه لا يفيد في أصله إلا الظن وإنما تلقته الأمة بالقبول لأنه يجب عليهم العمل بالظن، والظن قد يخطئ، وقد كنت أميل إلى هذا وأحسبه قويا، ثم بان لي أن المذهب الذي اخترناه أولا هو الصحيح[٤]، وقال ابن كثير: وأنا مع ابن الصلاح فيما عول عليه وأرشد إليه[٥].

ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية على أن خبر الواحد إذا احتفت به قرائن يفيد العلم اليقيني، فيقول: الصحيح أن خبر الواحد قد يفيد العلم إذا احتفت به قرائن تفيد العلم، وعلى هذا فكثير من متون الصحيحين متواتر اللفظ عند أهل العلم بالحديث وإن لم يعرف غيرهم أنه متواتر ولهذا كان أكثر متون الصحيحين مما يعلم علماء الحديث علما قطعيا أن النبي ﷺ قاله، تارة لتواتره عندهم، وتارة لتلقي الأمة له بالقبول.

---

(١) انظر المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية (٢ / ٤٥١-٤٥٣)

(٢) تيسير مصطلح الحديث ص (١٧) محمود الطحان، دار التراث ١٤٠١هـ

(٣) المرجع السابق ص (١٩)

(٤) علوم الحديث ص (٢٨) للإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، الشهير بابن الصلاح، دار الفكر، ١٤٠٦هـ ت. نور الدين عتر

(٥) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص(٣٣) الحافظ ابن كثير. تعليق: أحمد محمد شاكر. دار الكتب العلمية. ط(١) ١٤٠٣هـ

وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء[1].

ويرى شيخ الإسلام أن عدد الرواة ليس وحده المعول عليه في إفادة العلم اليقيني، فقد يحصل هذا العلم بسبب ضبط الرواة أو دينهم كما يحصل بقرائن تحف بالخبر، أو تلقي الأمة له بالقبول تصديقا له أو عملا بموجبه، يقول رحمه الله: ثم الأحاديث التي أجمعوا على صحتها قد تتواتر وتستفيض عند بعضهم دون بعض، وقد يحصل العلم بصدقها لبعضهم لعلمه بصفات المخبرين وما اقترن بالخبر من القرائن التي تفيد العلم[2].

أما عدم حجية خبر الآحاد في العقيدة فقد قال به المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم وأبرز من عرف عنه ذلك الفخر الرازي الذي يقول: أما التمسك بخبر الواحد في معرفة الله تعالى فغير جائز يدل عليه وجوه: الأول:

أن أخبار الآحاد مظنونة، فلم يجز التمسك بها في معرفة الله تعالى وصفاته، وإنما قلنا إنها مظنونة لأنا أجمعنا على أن الرواة ليسوا معصومين، ثم ساق أدلة منكري حجية خبر الآحاد، ثم قال عن الصحابة في الوجه الثاني: إلا أنا قلنا: إن الله أثنى على الصحابة رضي الله عنهم في القرآن على سبيل العموم، وذلك يفيد ظن الصدق، فلهذا الترجيح قبلنا روايتهم في فروع التشريع، أما الكلام في ذات الله تعالى وصفاته فكيف يمكن بناؤه على هذه الرواية الضعيفة[3].

ويعد الرازي أبرز القائلين بهذا القول والمدافعين عنه والمنظرين له، ويوافقه على قوله كل من يسلك طريقة المتكلمين، بينما يخالفهم من ينتسبون إلى مذهب السلف سواء من الذين تقدموا الرازي كالإمام البخاري أو ممن جاء بعده وبلغته مقالته وحججه فردوا عليه وفندوا أقواله وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه كتابا تحت عنوان (كتاب أخبار الآحاد) ضم اثنين وعشرين حديثا استدل بها على إجازة خبر الواحد دون استثناء لمسائل الاعتقاد، وقسمه البخاري إلى ستة أبواب، عنون للباب الأول منها بقوله: باب ما جاء في إجازة خبر

---

[1] مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٨/ ٤٠-٤١)

[2] انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(١٨/ ٤٨-٤٩)

[3] أساس التقديس للرازي ص(١٦٨-١٧٠) محمد بن عمر الرازي، ت. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٦هـ
وانظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧٣٨) وما بعدها. د.عبدالرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، ط (١) ١٤١٥هـ

الواحد الصدوق في الآذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، وقول الله تعالى {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}(١) ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا}(٢) فلو اقتتل رجلان دخلا في معنى الآية وقوله تعالى{إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا}(٣) وكيف بعث النبي ﷺ أمراء واحدا بعد واحد فإن سها أحد منهم رد إلى السنة.

وقد أيد الحافظ ابن حجر الإمام البخاري في احتجاجه بأخبار الآحاد، وأورد شبه المانعين ورد عليها(٤).

وممن جاء بعد الرازي شيخ الإسلام ابن تيمية الذي تتبع أقواله في كتابه نقض التأسيس ورد عليها(٥).

ويقول الإمام ابن القيم مبينا حال الصحابة وموقفهم حين يسمع بعضهم من بعض حديث رسول الله ﷺ وكيف أنهم لا يردون الخبر بحجة أنه خبر واحد لا يفيد العلم اليقيني: ومن هذا أخبار الصحابة بعضهم بعضا، فإنهم كانوا يجزمون بما يحدث به أحدهم عن رسول الله ﷺ ولم يقل أحد منهم لمن حدثه عن رسول الله ﷺ خبرك خبر واحد لا يفيد العلم حتى يتوافر(٦)، وتوقف من توقف منهم حتى عضده آخر منهم، لا يدل على رد خبر الواحد عن كونه خبرا واحد، وإنما كان يستثبت أحيانا نادرة جدا إذا استخبر.

وكان أحدهم إذا روى لغيره حديثا عن رسول الله ﷺ في الصفات تلقاه بالقبول، واعتقد تلك الصفة به على القطع واليقين كما اعتقد رؤية الرب وتكليمه ونداءه يوم القيامة لعباده بالصوت الذي يسمعه البعيد كما يسمعه القريب، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة، وضحكه وفرحه وإمساك سمواته على إصبع من أصابع يده وإثبات القدم له.

---

(١) سورة التوبة (١٢٢)

(٢) سورة الحجرات (٩)

(٣) سورة الحجرات (٦)

(٤) انظر فتح الباري (١٣/ ٢٤٧ ــ ٢٤٨)

(٥) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧٤٥)

(٦) لعل أصل الكلمة (حتى يتواتر)

من سمع هذه الأحاديث ممن حدث بها عن رسول الله ﷺ أو عن صاحب اعتقد ثبوت مقتضاها بمجرد سماعها من العدل الصادق ولم يترتب فيها حق حتى أنهم ربما تثبتوا في بعض أحاديث الأحكام حتى يستظهروا بآخر.

ولم يطلب أحد منهم الاستظهار في رواية أحاديث الصفات البتة بل كانوا أعظم مبادرة إلى قبولها وتصديقها والجزم بمقتضاها، وإثبات الصفات بها من المخبر لهم بها عن رسول الله ﷺ، ومن له أدنى إلمام بالسنة والتفات إليها يعلم ذلك، ولولا وضوح الأمر في ذلك لذكرنا أكثر من مائة موضع(١).

ثم بين رحمه الله حال المخالفين للصحابة في ذلك، ومدى بعدهم عن الحق وما يترتب على قولهم من فساد فيقول: فهذا الذي اعتمده نفاة العلم من أخبار رسول الله ﷺ خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة، وإجماع التابعين، وإجماع أئمة الإسلام، ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة، وتبعهم بعض الأصوليين والفقهاء، وإلا فلا يعرف لهم سلف من الأئمة بذلك بل صرح الأئمة بخلاف قولهم(٢).

وبعد أن بين أن قبول خبر الواحد وإفادته للعلم اليقيني قد درج عليه الصحابة، ذكر أن ذلك كان شأن أئمة الدين من التابعين وأنه قد نص عليه بعضهم مثل الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وغيرهم(٣).

وقد أفاد رحمه الله وبسط القول في بيان هذه المسألة وأتى فيها بما فيه غنية لمن قصده الحق، وبما يبدد شبهات الممترين من المتكلمين ومن سلك سبيلهم، ويشفي صدور المؤمنين فرحمه الله ورضي عنه.

و يتضح مما سبق بيانه أن السلف والمقتفين لآثارهم لا يردون أحاديث الصفات وينكرون ما دلت عليه بحجة أنها أخبار آحاد، كما يتضح أن انتساب الشيخ محمد الغزالي إلى مذهب السلف ورده لبعض الأحاديث التي قبلها السلف وأفتوا بما دلت عليه دون تأويل، موقف متناقض غير مقبول.

---

(١) مختصر الصواعق ص (٥٢٧ ــ ٥٢٨)

(٢) مختصر الصواعق ص (٥٢٨)

(٣) انظر المرجع السابق ص (٥٢٨) وما بعدها

وما تقدم يؤكد أهمية فهم الدعاة لعقيدة الأسماء والصفات والرجوع في المسائل المتنـــازع فيها إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ واتباع السلف الصالح في التعامل مـــع النصـــوص الشرعية الدالة على صفات الله عز وجل.

الفصل الثاني الاختلاف الفقهي

المبحث الأول: فقه العبادات

بعث الله نبيه محمدا ﷺ إلى الخلق كافة على حين فترة من الرسل، بعثه بدين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، وفرض على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم، ووصفه بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، فهدى الله الناس ببركة نبوته وبما جاء به من الهدى، هداية جلت عن وصف الواصفين(١).

ولما كان إرساله إلى الناس نعمة لا تعدلها أي نعمة فقد ذكر سبحانه و تعالى عباده بها ممتنا بها عليهم ليعرفوا قدرها فقال سبحانه: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}(٢)

وقد قام النبي ﷺ بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ونصح الأمة وبلغ البلاغ المبين، فما ترك خيرا إلا وأمر به، ولا شرا إلا حذر منه، حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة وأقام به الحجة على العباد قال تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا }(٣) الآية.

وأمر الله تعالى عباده باتباع ما أنزل إليهم من ربهم واتباع ما يأتي منه من الهدى، وأنزل عليهم الكتاب والحكمة، قال تعالى: { واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به }(٤) والحكمة من الهدى، قال تعالى: {وإن تطيعوه تهتدوا}(٥) والأمر باتباع الكتاب يوجب الأمر باتباع الحكمة التي بعث بها الرسول ﷺ وبإتباعه وطاعته مطلقا(٦).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فعلينا أن نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول، واتباع

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٦٤/١)

(٢) سورة آل عمران (١٦٤)

(٢) سورة المائدة (٣)

(٣) سورة البقرة (٢٣١)

(٤) سورة النور (٥٤)

(٦) انظر فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٨٤/١٩)

أحدهما هو اتباع الآخر، فإن الرسول بلغ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول، ولا يختلف الكتاب والرسول ألبته، كمالا يخالف الكتاب بعضه بعضا[١].

والواجب في الأصل إنما هو طاعة الله لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل، والمبلغ عنه إما مبلغ أمره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه في جميع ما أمر وأخبر، وأما ما سوى ذلك فيطاع في حال دون حال، كالأمراء الذين تجب طاعتهم على المستفتي والمأمور فيما أوجبوه عليه مبلغين عن الله، أو مجتهد اجتهادا تجب طاعتهم فيه على المقلد[٢].

وقد اختار الله جماعة من الخلق لصحبة نبيه ﷺ والجهاد معه وتلقي حديثه وسماع كلامه وهم صحابته الكرام الذين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوه سيئا فهو سيئ»[٣].

وكان من حفظ الله تعالى لدينه أن هيأ له من يقوم به علما وتعليما وقد كان الصحابة ﷺ شديدي الحرص على تلقي حديث رسول الله وسماعه منه حتى أن بعضهم كان ينيب غيره عند غيابه أن يخبره بما يسمع من رسول الله ﷺ في حال غيابه ففي الصحيح عن عمر ﷺ قال: «كان رجل من الأنصار إذا غاب عن رسول الله ﷺ وشهدته أتيته بما يكون من رسول الله وإذا غبت عن رسول الله وشهده أتاني بما يكون من رسول ﷺ»[٤].

وهذا أحد كبار علماء الصحابة وهو عبد الله بن مسعود يحدث عن نفسه وما بلغ من شغفه في طلب العلم والاستزادة منه والاستعداد لتحمل الصعاب من أجله فيقول:والله

---

(١) المرجع السابق (٨٢/١٩)

(٢) المرجع السابق (٦٩/١٩)

(٣) رواه الإمام أحمد (١ /٣٧٩) قال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح وهو موقوف على ابن مسعود، وهو في مجمع الزوائد (١٧٧/١- ١٧٨) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثوقون. المسند للإمام أحمد، ت: أحمد شاكر (٢١١/٥)

(٤) رواه البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، رقم الحديث (٧٢٥٦)

الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه[1] رواه البخاري ومسلم.

وقد كان حرص الصحابة ﷺ على التعلم، من أجل العمل، فحصّلوا العلم والعمل جميعا روى الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن السلمي[2] قال: «حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يتعلموا ما في هذه من العلم والعمل قالوا فعلمنا العلم والعمل»[3].

وقد كان الصحابة ﷺ لا يبتدرون النبي ﷺ بالسؤال إجلالا له إلا عندما تلجئهم الضرورة إلى ذلك كأن تنزل بأحدهم نازلة فيحتاج لمعرفة حكم الله فيها فلا يرى بدا من سؤال رسول الله ﷺ، وقد عقد البخاري في صحيحه بابا تحت عنوان (باب الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله) وروى بسنده عن عقبة بن الحارث[4] أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز[5] فأتته امرأة فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج، فقال: لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني، ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فسأله، فقال: رسول الله ﷺ : كيف وقد قيل؟ ففارقها عقبة، ونكحت زوجا غيره[6].

وهذا الحديث شاهد من شواهد كثيرة على سؤال الصحابة ﷺ للنبي ﷺ لما هم بحاجة إلى معرفة حكمه.

---

(1) رواه البخاري واللفظ له،كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ، رقم الحديث (٥٠٠٢) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنها، رقم الحديث (٢٤٦٣)

(2) أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي، مقرئ أهل الكوفة، تابعي ثقة، اسمه عبد الله بن حبيب بن ربيعة، قرأ القرآن على عثمان بن عفان وابن مسعود، وسمع من جماعة من الصحابة، وغيرهم، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج، توفي بالكوفة سنة ٧٢هـ وقيل ٧٠هـ. انظر البداية والنهاية (٩/ ١٠) و تهذيب التهذيب (٣/ ١٢١و ١٢٢)

(3) رواه الإمام أحمد (٥/٤١٠) والحاكم في المستدرك (١/٥٥٧) وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي

(4) عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف القرشي، أبو سروعة في قول أهل الحديث ويقال إن أبا سروعة أخوه وهو قول أهل النسب، وقيل إن أبا سروعة أخو عقبة لأمه، أسلم يوم الفتح، وروى عن النبي ﷺ، مات في خلافة ابن الزبير. انظر الإصابة (٤/ ٥١٨) و تهذيب التهذيب (٤/ ١٥١و ١٥٢)

(5) أبو إهاب ابن عزيز بن قيس بن سويد بن ربيعة بن زيد التميمي الدارمي، حليف بني نوفل بن عبد مناف، قدم أبوه مكة فحالفهم وتزوج منهم فاختة بنت عمرو بن نوفل، قيل إنه أول من صُلي عليه بالمسجد الحرام لما مات، انظر الإصابة (٧/٢٤)

(6) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله، رقم الحديث (٨٨)

وعندما يقع اختلاف بين الصحابة حول مسألة من المسائل فإنه لا يلبث أن يزول وذلك بالرجوع إلى النبي ﷺ والرضى بحكمه والانتهاء عند قوله.

ولم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلى وقد وعى أصحابه سنته، على تفاوت بينهم في قدر ما يكون عند الواحد منهم من العلم بالسنة، وكل يحدث بما حفظ من سنة رسول الله ﷺ ويدلى بما عنده من العلم إن احتيج إليه، وحين يخفى الحكم في مسألة على أحد منهم فإنه يسأل غيره إن كان عنده علم فيها أن يبينه، فطاعة الرسولﷺ تكون مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به، وذلك لأن الإحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة، فهذا الصديق الذي كان ملازما لرسول الله ﷺ في غالب الأحيان خفيت عليه بعض مسائل العلم فما بالك بمن دونه، روى أبو داود والترمذي بسندهما عن قبيصة بن ذؤيب[1] أنه قال: «جاءت الجدة إلى أبي بكر تطلب ميراثها فقال: مالك في كتاب الله شئ وما أعلم لك في سنة رسول الله ﷺ شيئا ولكن أسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس، فقال: هل معك غيرك، فشهد له محمد بن مسلمة فأمضاه لها أبو بكر»[2].

وقد تلقف الصحابة ﷺ حديث رسول الله ﷺ بغاية الاهتمام ونهاية الحرص، وذلك لحث رسول الله ﷺ وتحريضه إياهم على حفظ حديثه وأدائه إلى الناس، في أحاديث كثيرة تدل على عنايته ﷺ بذلك[3] منها حديث زيد بن ثابت[4] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه

([1]) الإمام الكبير الفقيه أبو سعيد الخزاعي المدني ثم الدمشقي، مولده عام الفتح سنة ٨ هـ مات أبوه ذؤيب صاحب بدن النبي ﷺ في آخر أيام النبي ﷺ فأتي بقبيصة بعد موت أبيه فيما قيل فدعا له النبي ﷺ ولم يع هو ذلك، روى عن كثير من الصحابة وكان من فقهاء المدينة، توفي بدمشق سنة ٨٧هـ وقيل ٨٨هـ انظر سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٨٢ ٢٨٣) و البداية والنهاية (٩/ ٨٨) وتهذيب التهذيب (٤/ ٥٣٧)

([2]) رواه أبو داود واللفظ له،كتاب الفرائض، باب في ميراث الجدة، رقم الحديث (٢٨٩٤) والترمذي،كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة، رقم الحديث (٢١٠٠) وابن ماجة،كتاب الفرائض، باب ميراث الجدة، رقم الحديث(٢٧٢٤)

([3]) انظر منهج النقد في علوم الحديث ص (٣٧ـ ٣٨) د.نور الدين عتر دار الفكر ط (٣) ١٤٠١هـ

([4]) الإمام الكبير شيخ المقرئين والفرضيين، مفتي المدينة، أبو سعيد، زيد بن ثابت بن الضحاك بن مالك بن النجار، أحدكتاب الوحي، حدث عن النبي ﷺ وعن صاحبيه، أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة فأمره النبي ﷺ أن يتعلم خط اليهود ليقرأ له كتبهم، أول مشاهده الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، استعمله عمر على القضاء، توفي سنة ٤٥هـ وقيل ٥٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٦ـ ٤٢٨و ٤٤١) والبداية والنهاية (٨/ ٣٣)

ورب حامل فقه ليس بفقيه»[١] رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ هم أول المجتهدين وفي مقدمة العلماء العاملين لا يبغون بكتاب الله وسنة رسول ﷺ بديلا، إذا نزلت بهم نازلة فإن مرجعهم إلى الكتاب والسنة، لا يأنف كبيرهم أن يسأل من هو دونه، إن كان عنده علم عن المسألة، أو يجتمعون فيما لا نص فيه فيجتهدون فيُجمعون، فعن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغَ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بأرض الشام فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تُقدمهم على هذا الوباء فقال: ارتفعوا عني ثم قال: ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر في الناس إني مصبّح على ظهر فأصبحوا عليه فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كان لك أبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إذا رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه» قال: فحمد الله عمر ثم انصرف)[٢]

وقد يظهر الاختلاف أحيانا بين أصحاب النبي ﷺ ويصرح أحدهم بمخالفته للآخر إن

---

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم الحديث(٣٦٦٠) والترمذي واللفظ له، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم الحديث (٢٦٥٦) وابن ماجة، المقدمة، باب من بلغ علما، رقم الحديث(٢٣٠) والإمام أحمد (١٨٣/٥) وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجة (٩٥/١)

(٢) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث (٥٧٢٩) ومسلم، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم الحديث (٢٢١٩) وأبو داود، كتاب الجنائز، باب الخروج من الطاعون، رقم الحديث (٣١٠٣)

ترجح لديه أن المصلحة متحققة في إعلان المخالفة، ومن ذلك ما جرى من إعلان علي ﷺ مخالفته لعثمان ﷺ حين نهى عثمانُ عن التمتع بالعمرة إلى الحج فأهل علي بهما جميعا ليبين لمن يخفى عليه جواز ذلك أن السنة قد جاءت بجوازه.

روى البخاري عن مروان بن الحكم[١] قال : شهدت عثمان وعليا، وعثمانُ ينهى عن المتعة وأن يُجمع بينهما، فلما رأى علي أهل بهما، لبيك بعمرة وحجة قال: ما كنت لأدع سنة النبي ﷺ لقول أحد[٢]

وروى مسلم عن عبد الله بن شقيق[٣] قال: كان عثمان ينهى عن المتعة، وكان علي يأمر بها فقال عثمان لعلي كلمة ثم قال علي لقد علمت أنا قد تمتعنا مع رسول الله ﷺ فقال أجل ولكنا كنا خائفين[٤]، قال الحافظ: وفي قصة عثمان وعلي من الفوائد، إشاعة العالم ما عنده من العلم وإظهاره، ومناظرة ولاة الأمور وغيرهم في تحقيقه لمن قوي على ذلك لقصد مناصحة المسلمين، والبيان بالفعل مع القول، وجواز الاستنباط من النص لأن عثمان لم يخف عليه أن التمتع والقران جائزان، وإنما نهى عنهما ليعمل بالأفضل كما وقع لعمر، لكن خشي عليٌّ أن يحمل غيرُه النهي على التحريم فأشاع جواز ذلك، وكل منهما مجتهد مأجور[٥].

وقد كان عمر ﷺ أيضا ينهى عن التمتع ولم يعترض عليه أحد من الصحابة ﷺ لأنهم رأوا أن من المصلحة عدم إعلان مخالفته، وربما علموا أن الأمر لن يلتبس على أحد فيظن

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، أبو عبد الملك ويقال أبو الحكم ويقال أبو القاسم، صحابي عند طائفة كثيرة لأنه ولد بمكة في حياة النبي ﷺ وروى عنه في حديث صلح الحديبية وروى عن عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم، ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من التابعين، كان عثمان يكرمه وكان كاتب الحكم بين يديه، استنابه معاوية على المدينة غير مرة يعزله ثم يعيده إليها، استولى على الشام ومصر تسعة أشهر ومات سنة ٦٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٦و٤٧٧و٤٧٩) والبداية والنهاية (٨/ ٢٨٢ـ ٢٨٣و ٢٨٥) والأعلام للزركلي (٧/ ٢٠٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحج، باب التمتع والقرا والإفراد بالحج، وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي، رقم الحديث (١٥٦٣)

(٣) عبد الله بن شقيق العقيلي، أبو عبد الرحمن، ويقال أبو محمد البصري، روى عن عمر وعثمان وعلي وغيرهم، ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل البصرة، ثقة في الحديث، كان مجاب الدعوة، كانت تمر به السحابة فيقول: اللهم لا تجوز كذا وكذا حتى تمطر فلا تجوز ذلك الموضع حتى تمطر، توفي سنة (١٠٨هـ) وقيل قبل ذلك. انظر تهذيب التهذيب (٣/١٦٦)

(٤) رواه مسلم، كتاب الحج، باب جواز التمتع، رقم الحديث (١٢٢٣)

(٥) فتح الباري (٣/٤٩٧)

أن النهي لتحريم التمتع، بينما نهيُ عمر كما قال النووي: نهي تنزيه لا نهي تحريم، لأنه مـأمور بصلاح رعيته وكان يرى الأمر بالإفراد من جملة صلاحهم،[١] وقد كان أبو موسى الأشعري ﷺ يفتي الناس بالتمتع في زمن عمر ﷺ لكنه توقف وأمر من كان أفتاه بالإقتداء بأمير المؤمنين حين علم أن عمر ينهى عن التمتع، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قدمت على رسول الله ﷺ وهو منيخ بالبطحاء فقال: بما أهللت؟ قال: قلت: أهللت بإهلال النبي ﷺ، قـال هل سقت من هدي؟ قلت: لا، قال: فطف بالبيت وبالصفا والمروة ثم حـل فطفـت بـالبيت وبالصفا والمروة ثم أتيت امرأة من قومي فمشطتني وغسلت رأسي فكنت أفتي الناس بذلـك في إمارة أبي بكر وإمارة عمر، فإني لقائم بالموسم إذ جاءني رجل فقال: إنك لا تدري ما أحـدث أمير المؤمنين في شأن النسك فقلت: أيها الناس من كنا أفتيناه بشيء فليتئد فهذا أمير المؤمنـين قادم عليكم فبه فائتموا، فلما قدم قلت: يا أمير المؤمنين ما هذا الذي أحدثت في شأن النسـك؟ قال: إن نأخذ بكتاب الله فإن الله عز وجل قال {وأتموا الحج والعمرة لله}[٢] وإن نأخذ بسـنة نبينا عليه الصلاة والسلام فإن النبي ﷺ لم يحل حتى نحر الهدي[٣].

وقد أتم عبد الله بن مسعود ﷺ الصلاة في منى موافقة لعثمان ﷺ، مع أنه يرى القصـر، وذلك خوفا من الخلاف وما يترتب عليه من مفاسد، ففي الصحيحين عن عبد الرحمن بن يزيد قال: صلى بنا عثمان ﷺ بمنى أربع ركعات، فقيل ذلك لعبد الله بن مسعود ﷺ، فاسترجع ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر ﷺ بمنى ركعتين وصليت مـع عمر بن الخطاب ﷺ بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان[٤]، وعنـد أبي داود أن ابن مسعود صلى أربعا فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعا، فقال: (الخـلاف شر)[٥]

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٣٠٢/٨)

(٢) سورة البقرة (١٩٦)

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، باب في فسخ التحلل من الإحرام والأمر بالتمام، رقم الحديث (١٢٢١)

(٤) رواه البخاري واللفظ له،كتاب تقصير الصلاة، باب الصلاة بمنى،رقم الحديث (١٠٨٤) ومسلم،كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب قصـر الصلاة بمنى، رقم الحديث (٦٩٥)

(٥) رواه أبو داود،كتاب المناسك، باب الصلاة بمنى، رقم الحديث (١٩٦٠) وقال الألباني سنده صحيح، سلسلة الأحاديث الصحيحة(٣٩٤/١)

وقد اقتفى التابعون وأئمة الدين أثر الصحابة فكان المعول عليه في الفتيا عندهم هو الدليل من الكتاب والسنة، وإذا بذل أحدهم وسعه وأفرغ جهده في الوصول إلى دليل مسألة فأعيله ذلك اجتهد رأيه ولم يألو، مع عزمه أنه إن تبين له الدليل رجع إليه وطرح قوله، وحين بعث النبي ﷺ معاذا إلى اليمن قال له كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ »[1] رواه أبو داود والترمذي والإمام أحمد.

نهي أئمة المذاهب عن تقليدهم في كل ما يقولون:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وهؤلاء الأئمة الأربعة ﷺ قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه، وذلك هو الواجب عليهم، فقال أبو حنيفة: هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت، فمن جاء برأي خير منه قبلناه، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف[2] بمالك فسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات ومسألة الأجناس فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك، فقال رجعت إلى قولك يا أبا عبد الله ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع إلى قولك كما رجعت[3].

وكان مالك يقول: إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه، وهو لا يدري.[4]

وكان يقول: إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجة على الطريق

---

(1) رواه أبو داود واللفظ له، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، رقم الحديث (٣٥٩٢) و الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، رقم الحديث (١٣٢٧) وقال الترمذي هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل، ورواه الإمام أحمد(٥/٢٣٠)

(2) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه، أول من نشر مذهبه، كان فقيها علامة من حفاظ الحديث، ولد بالكوفة، وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد مات في خلافة الرشيد ببغداد وهو على القضاء سنة ١٨٢هـ، أول من لقب قاضي القضاة، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، انظر البداية والنهاية (١٠/ ١٩٣ـ ١٩٦) والأعلام للزركلي (٨/ ١٩٣)

(3) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢٠/ ٢١١)

(4) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٣)

فهي قولي.

ويقول الإمام أحمد: لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكا ولا الشافعي ولا الثوري[1] وتعلموا كما تعلمنا.

وكان يقول من قلة علم الرجل أن يقلد دينه الرجال[2].

يقول الإمام الشوكاني بعد أن أورد أقوال الأئمة في النهي عن تقليدهم: وليت هؤلاء المقلدة الجناة الأجلاف نظروا بعين العقل إذ حرموا النظر بعين العلم، ووازنوا بين رسول الله ﷺ وبين أئمة مذاهبهم، وتصوروا وقوفهم بين يدي رسول الله ﷺ، فهل يخطر ببال من بقيت فيه بقية من عقل هؤلاء المقلدين أن هؤلاء الأئمة المتبوعين عند وقوفهم المعروض بين يدي رسول الله ﷺ كانوا يردون عليه قوله أو يخالفونه بأقوالهم؟ كلا والله بل هم أتقى لله وأخشى له فقد كان أكابر الصحابة يتركون سؤاله ﷺ في كثير من الحوادث هيبة وتعظيما.

وكانوا بين يديه كأن على رؤوسهم الطير يرمون بأبصارهم إلى ما بين أيديهم ولا يرفعونها إلى رسول الله ﷺ احتشاما وتكريما، وكانوا أحقر وأقل عند أنفسهم من أن يعارضوا رسول الله ﷺ بآرائهم[3].

ويؤكد العلماء المنكرون للتقليد أنه لم يوجد من بين الصحابة ولا التابعين ولا في القرون الثلاثة المفضلة من اتخذ إماما يقلده في كل ما يقول ويعتبر قوله حجة لا يرد منه شيئا، يقول الإمام ابن القيم: لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله فلم يسقط منها شيئا، وأسقط أقوال غيره، ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في عصر التابعين، ولا تابعي التابعين، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ، وإنما حدثت هذه البدعة في القرن

---

(1) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أحد أئمة الإسلام وعبادهم، أبو عبد الله الثوري، أمير المؤمنين في الحديث، ولد ونشأ في الكوفة، طلب منه المنصور العباسي أن يلي القضاء فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤هـ فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي، فتوارى وانتقل إلى البصرة، فمات فيها مستخفيا، توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ. انظر البداية والنهاية (١٠/ ١٤٢و ١٤٣) والأعلام للزركلي (٣/ ١٠٤و ١٠٥)

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢٠/ ٢١١، ٢١٢)

(3) القول المفيد ص (٥٩)

الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ [١].

وينقل الإمام الشوكاني عن سند بن عنان المالكي في شرحه على مدونة سحنون قوله: نعلم بالقطع أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن في زمانهم وعصرهم مذهب لرجل معين يدرك ويقلد، وإنما كانوا يرجعون في النوازل إلى الكتاب والسنة، أو إلى ما يتمخض بينهم من النظر عند فقد الدليل، وكذلك تابعوهم أيضا يرجعون إلى الكتاب والسنة فإن لم يجدوا نظروا إلى ما أجمع عليه الصحابة، فإن لم يجدوا اجتهدوا واختار بعضهم قول صحابي فرآه الأقوى في دين الله تعالى، ثم كان القرن الثالث وفيه كان أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل[٢].

وكانوا على منهاج من مضى لم يكن في عصرهم مذهب رجل معين يتدارسونه.

ثم قال الإمام الشوكاني: وقد عرفت بهذا أن التقليد لم يحدث إلا بعد انقراض خير القرون ثم الذين يلونهم، وأن حدوث التمذهب بمذاهب الأئمة الأربعة إنما كان بعد انقراض الأئمة الأربعة، وأنهم كانوا على نمط من تقدمهم من السلف في هجر التقليد وعدم الاعتداد به وإن هذه المذاهب إنما أحدثها عوام المقلدة لأنفسهم من دون أن يأذن بها إمام من الأئمة المجتهدين[٣].

وقد فهم تلاميذ الأئمة الأربعة هذا الأمر فتابعوا أئمتهم فيما رأوه صوابا وخالفوهم فيما تبين لهم أن الحق بخلافه، ولذلك اشتملت كتب المذاهب على أقوال لا يقول بها إمام المذهب، لكن بعض المنتسبين للمذاهب الفقهية غلوا في تقليد الأئمة وخالفوهم فيما أوصوا به من منع تقليدهم تقليدا أعمى يؤدي بصاحبه إلى التمسك بقول الإمام ويتعصب له حتى بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلَد.

وهذا الموقف المغالي في التعصب للأئمة وأقوالهم أدى إلى غلو من طرف آخر دعا

---

(١) إعلام الموقعين (١٩١/٢)

(٢) المقصود أن هؤلاء الأئمة تكامل وجدوهم في القرن الثالث الهجري، وقد وضح سند بن عنان المالكي ذلك فبين أن أولهم هو الإمام أبو حنيفة وقد توفي عام ١٥٠هـ وفي هذه السنة ولد الإمام الشافعي ثم الإمام مالك توفي عام ١٧٩هـ ثم الإمام أحمد ولد عام ١٦٤هـ القول المفيد (٤٤)

(٣) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ص (٤٣-٤٤-٤٥) محمد بن علي الشوكاني ت: عبدالرحمن عبد الخالق، ط (٣) ١٤٠٣هـ دار القلم

أصحابه إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وأوجبوه على كل مسلم مهما قل علمه وقصر فهمه عن معرفة الأدلة الشرعية.

والتراع بين الفريقين قديم النشأة ولم يزده تعاقب الأزمان إلا قوة، وكل طرف يرى الحق بجانبه وينبز من يخالفه بألقاب السوء والمروق عن جادة الصواب.

ولبيان مدى التفاوت بين أقوال الفريقين وصعوبة التوفيق بينها نورد طرفا منها فيما يأتي.

المانعون من التقليد:

شدد بعض العلماء في النهي عن التقليد الذي مبناه على تقليد الآباء والمشايخ بلا حجة أو تقليد عالم بعينه في كل ما يقول، وفرقوا بينه وبين الاتباع للعلماء والأخذ بفتاواهم المؤيدة بالأدلة من الكتاب والسنة، وجاء نهيهم عن التقليد متوافقا مع ما قال به الأئمة المتبَعون، وقد عرَّفوا التقليد بتعريفات تبين مرادهم منه.

يقول الإمام أبو محمد بن حزم الظاهري وهو من أشد المنكرين للتقليد: التقليد هو اعتقاد الشيء لأن فلانا قاله ممن لم يقم على صحة قوله برهان[1].

ويضيف قائلا: التقليد على الحقيقة إنما هو قبول ما قاله قائل دون النبي ﷺ بغير برهان، فهذا هو الذي أجمعت الأمة على تسميته تقليدا، وقام البرهان على بطلانه[2].

ويعرفه أبو عبد الله بن خويز منداد[3] البصري المالكي بقوله: التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه[4].

وذكر الإمام ابن القيم ثلاثة أنواع من التقليد يحرم العمل بها وهي:

١ــ الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء

٢ــ تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن يوسف بن حزم الأندلسي الظاهري (١/ ٣٧)

(٢) المرجع السابق (٢/ ٨٣٦)

(٣) محمد بن أحمد بن عبد الله تفقه على الأبهري، له اختيارات في أصول الفقه وفي بعض مسائل الفقه، كان يجانب الكلام وينافر أهله حتى يؤدي ذلك إلى منافرة المتكلمين من أهل السنة ويحكم على الكل منهم بأنهم من أهل الأهواء، انظر كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تأليف الإمام برهان الدين إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧)

٣ــ التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد[1].

ويصفه العلامة صالح بن مهدي المقبلي[2] بقوله: التقليد أخذ فتوى العالم من دون نظر في دليله[3].

ويقول الإمام الشوكاني: أما التقليد فأصله في اللغة مأخوذ من القلادة التي يقلد غيره بها ومنه تقليد الهدي فكأن المقلد جعل ذلك الحكم الذي قلد فيه المجتهد كالقلادة في عنق من قلده[4].

ومن التعريفات السابقة يتضح موقف هؤلاء الأئمة من التقليد كما يتضح أنهم أرادوا بالتقليد المنهي عنه تقليد عالم بعينه في كل ما يأمر به أو التزام مذهب معين لا يخالفه في أي مسألة وإن كان مع مخالِفه الدليل.

وقد يفهم بعض الناس أن المراد بهذا الكلام منع هؤلاء العلماء العامي أو المبتدئ من سؤال العلماء واستفتائهم في ما يشكل عليه وأنهم يقولون بوجوب الاجتهاد على كل أحد مهما ضعف إدراكه عن معرفة الحق من مظانه، وقد توقع من سبق ذكر أقوالهم ورود هذا الإشكال عند من لم يفهم كلامهم على وجهه الصحيح، فأوضحوا مرادهم، منه حيث فرقوا بين التقليد والاتباع.

الفرق بين التقليد والاتباع:

من المعلوم من الدين بالضرورة أن الله لم يتعبدنا بقول أحد من الناس بحيث يطاع في كل ما يقول إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ولا يقول إلا حقا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا كان الرجل متبعا لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد، ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتبعه كان قد أحسن في ذلك، ولم

---

(1) إعلام الموقعين (٢/ ١٦٨)

(2) صالح بن مهدي المقبلي، مجتهد من أعيان الفقهاء، ولد في قرية مقبل في جهة (لاعة) من بلاد كوكبان باليمن في الشمال الغربي من (صنعاء) ونشأ في (ثلا) وتعلم فيها وفي كوكبان، وكان على مذهب الإمام زيدُ فنبذ التقليد، وناظره بعض المشايخ بصنعاء، فأدت المناظرة إلى المنافرة، فعاف المقام باليمن، فرحل بأهله إلى مكة (١٠٨٠)هـ فاشتهر وكتب فيها مؤلفاته، كان كثير الحط على المعتزلة في بعض المسائل الكلامية، وعلى الأشعرية في بعض آخر، وعلى الصوفية في غالب مسائلهم، ولا يبالي بمن يخالفه حين يجد الدليل كائنا من كان، توفي بمكة سنة ١١٠٨هـ انظر الأعلام للزركلي (٣/ ١٩٧) و العلم الشامخ ص(٥ــ٧)

(3) العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ ص (٢٥٩)

(4) إرشاد الفحول ص (٤٤٢)

يقدح ذلك في دينه ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله ﷺ ممن يتعصب لواحد معين غير النبي ﷺ، كمن يتعصب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول الإمام الذي خالفه، فمن فعل هذا كان جاهلا ضالا، بل قد يكون كافرا، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر، فإنه يجب أن يستتاب فإن تاب و إلا قتل، بل غاية ما يقال: إنه يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي أن يقلد واحدا بعينه، من غير تعيين زيد أو عمرو.

وأما أن يقول قائل: إنه يجب على العامة تقليد فلان أو فلان فهذا لا يقوله مسلم[١].

وبين رحمه الله أن هذه المرتبة لا تكون إلا للنبي ﷺ فقال: أما وجوب اتباع القائل في كل ما يقوله من غير ذكر دليل يدل على صحة ما يقول فليس بصحيح، بل هذه المرتبة هي مرتبة الرسول التي لا تصلح إلا له[٢].

ويوضح الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الفرق بين التقليد والاتباع، بأن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو إجماع المسلمين لا يجوز فيه التقليد بحال، لأن كل اجتهاد يخالف النص فهو اجتهاد باطل، ولا تقليد إلا في محل الاجتهاد، لأن نصوص الكتاب والسنة حاكمة على كل المجتهدين فليس لأحد منهم مخالفتها كائنا من كان.

ولا يجوز التقليد فيما خالف كتابا أو سنة أو إجماعا إذ لا أسوة في غير الحق.

فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط ولا اجتهاد ولا تقليد فيما دل عليه نص من كتاب أو سنة سالم من المعارض[٣].

ويقول الشيخ عبد العزيزبن باز: لا يجب تقليد أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم مهما كان علمه لأن الحق في اتباع الكتاب والسنة لا في تقليد أحد من الناس[٤].

ونقل ابن عبد البر في جامعه عن ابن خويز منداد التفريق بين الاتباع والتقليد فقال:

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢٢/٢٤٩)

(٢) المرجع السابق (٣٥/ ١٢١)

(٣) أضواء البيان (٧/ ٥٤٨)

(٤) تنبيهات في الرد على من تأول الصفات (٤و٥)

كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه، والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع[١].

ويقول الإمام ابن القيم: وقد فرق الإمام أحمد بين التقليد والاتباع، فقال أبو داود: سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبيﷺ، وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير[٢].

وقد كان علماء السلف ربما أمسكوا عن إجابة من سألهم إن ظنوا في السائل عدم الفهم لكلامهم ومن أين استدلوا له أو أنه سيعمل به دون تمييز بين راجح ومرجوح.

وقد أورد الإمام ابن عبد البر واقعة تدل على ذلك وهو أن مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبي سلمة[٣] ومحمد بن إبراهيم بن دينار[٤] وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز[٥]، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما وإذا سأله محمد بن دينار وذووه لم يجبهم.

فقال له محمد بن دينار: يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذوي فلا تجيبنا.

فقال: أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك؟

قال: نعم

فقال له: إني قد كبرت سني ورق عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني.

ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا مني حقا قبلاه، وإذا سمعا خطأ تركاه.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١٧/٢)

(٢) إعلام الموقعين (١٨٣)

(٣) الإمام المفتي الكبير أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، المدني، من فقهاء المدينة، أصله من أصبهان، نزل المدينة ثم قصد بغداد فتوفي بها، سنة ١٦٤هـ انظر سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٠٩ و ٣١٠) و تهذيب التهذيب (٣/ ٤٦٤و ٤٦٥) و الأعلام للزركلي (٤/ ٢٢)

(٤) محمد بن دينار المدني، أبو عبد الله الجهني، ويقال الأنصاري، ثقة، فقيه فاضل له علم بالرواية وعناية توفي سنة ١٨٢هـ. انظر تهذيب التهذيب (٥/ ٨)

(٥) فقيه المدينة أبو بكر عبد الله بن يزيد بن هرمز الأصم، أحد الأعلام، وقيل اسمه يزيد بن عبد الله بن هرمز، عداده في التابعين، وقلما روى،كان قليل الفتيا، شديد التحفظ، متعبدا زاهدا، جالسه مالك كثيرا وأخذ عنه، توفي سنة ١٤٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء (٣٧٩/٦و٣٨٠)

وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه[١].

من الذي يحق له التقليد؟

من نافلة القول الاعتراف بأن في المسلمين من لا يميز بين الأدلة فلا يميز في الأحكام بين ما هو مؤيد بنصوص الكتاب والسنة والإجماع، وما هو محل اجتهاد يختلف فيه المفتون، فما قيل لهم عدوه حكم الشرع القطعي الثبوت والدلالة، فهؤلاء استثناهم العلماء المشددون في النهي عن التقليد وشبهوا حالهم بالمضطر الذي يجوز له أكل ما حرم الله في حال الاضطرار إليه.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: لا خلاف بين أهل العلم في أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاما غير أحكام الاختيار، فكل مسلم ألجأته الضرورة إلى شيء إلجاء حقيقيا، فهو في سعة من أمره فيه.

وبعد أن أورد الشيخ الآيات التي تجيز للمضطر أكل ما حرم الله من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، التي هي من أغلظ المحرمات تحريما، وبين أن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة، فأخرجها من حكم التحريم، شبه حال من جاز له الأكل من هذه المحرمات بسبب الضرورة بحال من يصح له التقليد الأعمى بسبب الاضطرار إليه فقال: وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطرارا حقيقيا، بحيث يكون لا قدرة له البتة على غيره مع عدم التفريط لكونه لا قدرة له أصلا على الفهم أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم، أو هو في أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجيا لأنه لا يقدر على تعلم كل ما يحتاج في وقت واحد، أو لم يجد كفئا يتعلم منه، ونحو ذلك فهو معذور في التقليد المذكور للضرورة، لأنه لا مندوحة له عنه، أما القادر على التعلم المفرط فيه، والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحي فهذا الذي ليس بمعذور[٢].

ومن الحالات التي أفتى العلماء بجواز التقليد فيها: حال من نزلت به نازلة لا يعلم حكمها فإنه مضطر لتقليد عالم يثق بعلمه، وهذا غاية ما يستطيعه، يقول الإمام ابن القيم:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧)

(٢) انظر أضواء البيان (٧/ ٥٥٣-٥٥٤-٥٥٥)

أما من قلد فيما نزل به من أحكام شريعته عالما يتفق على علمه، فيصدر في ذلك عما يخبره فمعذور، لأنه قد أدى ما عليه، وأدى ما لزمه فيما نزل به لجهله، ولا بد من تقليد عالم فيما جهله لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره في القبلة، لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك[١].

ويخرج العامي عن حد التقليد إن رجع إلى عالم بالكتاب والسنة، لكنه يدخل في حد التقليد إن رجع إلى غير عالم بالكتاب والسنة، لأنه قبل رأي من لا تقوم به الحجة بلا حجة، والعمل بقول من ليس عالما بالكتاب والسنة عمل بغير حجة وهذا هو التقليد[٢].

ويسمي ابن حزم وهو ممن يقول بإيجاب الاجتهاد على كل مسلم مهما قل حظه من العلم سؤال العامي الذي نزلت به نازلة للعالم اجتهادا فيقول: فإذا قال قائل فكيف يصنع العامي إذا نزلت به النازلة؟

فالجواب وبالله التوفيق: إنا قد بينا تحريم الله تعالى التقليد جملة، ولم يخص الله تعالى بذلك عاميا من عالم، ولا عالما من عامي، وخطاب الله تعالى متوجه إلى كل أحد، فالتقليد حرام على العبد المجلوب من بلده، والعامي، والعذراء المخدرة، والراعي في شعف الجبال، كما هو حرام على العالم المتبحر ولا فرق.

والاجتهاد في طلب حكم الله تعالى ورسوله ﷺ في كل ما خص المرء من دينه، لازم لكل من ذكرنا كلزومه للعالم المتبحر ولا فرق، فمن قلد من كل من ذكرنا فقد عصى الله عز وجل وأثم، ولكن يختلفون في كيفية الاجتهاد، فلا يلزم المرء منه إلا مقدار ما يستطيع منه.

فاجتهاد العامي إذا سأل العالم عن أمور دينه فأفتاه أن يقول له هكذا، أمر الله ورسوله؟ فإن قال له: نعم، أخذ بقوله، ولم يلزمه أكثر من ذلك[٣].

ويلاحظ في كلام ابن حزم المبالغة في ذم التقليد وإيجاب الاجتهاد على كل من لا يتأتى منه ولا يكتفي بمجرد سؤال العامي للعالم وصدوره عن قوله، بل يوجب عليه الاجتهاد،

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٨١)

(٢) انظر الدرة البهية في التقليد والمذهبية ص (٩) محمد شاكر الشريف مكتبة ابن الجوزي ط (١) ١٤٠٨هـ

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ٨٦٢)

واجتهاده في هذه الحالة هو بسؤال العالم عن مصدر فتواه، وهل هي موافقة للكتاب والسنة أم لا.

وربما دفع ابن حزم إلى هذا التشدد، الواقع الذي كان يعيشه في بلاد الأندلس من التعصب الشديد لمذهب الإمام مالك، والفتيا بمجرد الرواية عن أشخاص، واعتبار أقوالهم حججا ملزمة، بل ربما زاد الأمر عن ذلك فأُخذ بأقوالهم مع صريح مخالفتها لما ثبت في الكتاب والسنة، يصور هذا الواقع المرير في أبيات من الشعر أحد أعيان الأندلس وهو منذر بن سعيد[١] الذي يصف حال أهل الأندلس وإلى أي شيء بلغ بهم التعصب المذهبي فيقول:

عذيري من قوم يقولون كلما
طلبت دليلا هكذا قال مالك
فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب[٢]
وقد كان لا تخفى عليه المسالك
فإن زدت قالوا قال سحنون[٣] مثله
ومن لم يقل ما قال فهو آفك
فإن قلت قال الله ضجوا وأكثروا
وقالوا جميعا أنت قرن مماحك
وإن قلت قد قال الرسول فقولهم
أتت ما لكا في ترك ذاك المسالك[٤]

---

(١) منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن القرطبي، أبو الحكم البلوطي، قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان فقيها خطيبا شاعرا فصيحا، نسبته إلى (فحص البلوط) قرب قرطبة، رحل حاجا سنة ٣٠٨هـ فأقام في رحلته أربعين شهرا أخذ فيها عن بعض علماء مكة ومصر، ولي قضاء (ماردة) ثم قضاء (الثغور الشرقية) فقضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٣٩هـ واستمر إلى أن توفي بها سنة ٣٥٥هـ، كان كثير الصيام والتهجد واستسقى غير مرة فسقي، انظر سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٧٣و ١٧٤و ١٧٥و ١٧٨) والأعلام للزركلي (٧/٢٩٤)

(٢) أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري الجعدي، أبو عمرو فقيه الديار المصرية في عصره، صاحب الإمام مالك، قيل اسمه مسكين وأشهب لقبه، مات بمصر سنة ٢٠٤هـ. انظر البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٧) والأعلام للزركلي (١/٣٣٣)

(٣) محمد أبو عبد الله ابن فقيه المغرب عبد السلام سحنون ابن سعيد التنوخي القيرواني شيخ المالكية، كان محدثا بصيرا بالآثار واسع العلم، وكان ذا تعبد وتواضع ورباط وصدع بالحق، ولد سنة ٢٠٢ وتوفي سنة ٢٥٦هـ انظر سير أعلام النبلاء (١٣/٦٠ـ٦٢)

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٧٢)

المؤيدون للتقليد:

على الضد مما يراه أصحاب القول الأول من منع التقليد وذم أهله وعدم السماح باللجوء إليه إلا في حالة الضرورة، يرى أصحاب هذا القول ضرورة التقليد وأنه فرض لازم لجميع المكلفين وأن الاجتهاد قد أغلق بابه بانتهاء القرون المفضلة، ولازمُ قول هؤلاء أن المرء ينبغي عليه أن يلغي ما وهبه الله من العقل والعلم ويسلم قياد فكره وعقله لغيره، ولا يقدم المقلد بين يدي إمامه ويجهد نفسه في تأويل آرائه واجتهاداته لتوافق النصوص المحكمة.

وقد تفوه هؤلاء المقلدون المتعصبون بأقوال تنم عن مدى ولعهم بالتقليد واعتقادهم أنه الحق الذي لا محيد عنه، وجزموا أن باب الاجتهاد قد أغلق، لكنهم اختلفوا متى كان هذا الإغلاق هل كان بعد المائتين من الهجرة، أم بعد زمن الشافعي، أم بعد غيره من الأئمة.

وعندهم أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلم بعلم أو ينظر في كتاب الله أو سنة رسولهﷺ لأخذ الأحكام منها، ولا يحكم ولا يفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول من يقلده ويتبعه، فإن وافقه حكم وأفتى به وإلا رده ولم يقبله[1].

فهذا أحد المقلدين المتعصبين لمذهب أبي حنيفة، يعد تعصبه نعمة يحمد الله عليها فيقول: الحمد لله الذي هدانا إلى اتباع الملة الحنيفية، وأرشدنا إلى سلوك طريقة العلماء الحنفية، وجعلني ممن عرف مراتب الشرع وكيفية دلالتها، وجبلني على التعصب لمجتهد كان من قرون شهد النبيﷺ بخيرها وعدالتها[2].

وكذلك كل أتباع مذهب يرون أن إمامهم هو الإمام الواجب الاتباع ويبحثون عن حجج نقلية أوعقلية لإثبات دعواهم وربما وصل الأمر ببعضهم للتشبث بآثار واهية لا يصح التعويل عليها، أو تأويل بعض النصوص، وصرف مدلولها لتوافق ما يذهبون إليه من أن إمامهم واجب الاتباع وأن مذهبه مقدم على سائر المذاهب.

---

(1) انظر رسالة الاتباع للإمام ابن أبي العز الحنفي ص (٤١) عالم الكتب ط (٢) ١٤٠٥هـ

(2) المرجع السابق ص (٢٢ - ٢٤) ورسالة ابن أبي العز (الاتباع) كلها في الرد على قائل هذه العبارة وهو الشيخ محمد بن محمود بن أحمد الحنفي، كما صرح باسمه في آخر الرسالة ص (٧٨) ورحم الله الإمام ابن أبي العز فرغم انتسابه لمذهب أبي حنيفة إلا أن ذلك لم يمنعه من الصدع بالحق والإنكار على من يوافقه في المذهب، كحال كثير من المنتسبين للمذاهب الفقهية الذين تمنعهم الحمية المذهبية من الرد على من جانب الصواب ما دام على مذهبهم.

يقول الإمام الشاطبي وهو يصف أحوال المقلدين مع أئمتهم: ولقد زل بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين واتبعوا أهواءهم بغير علم فضلوا عن سواء السبيل[1].

وذكر لذلك عشرة أمثلة أحدها: رأي المقلدة لمذهب إمام من الأئمة، فقال: الرابع: رأي المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة، بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم، حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد وتكلم في المسائل ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير، وفوقوا إليه سهام النقد، وعدوه من الخلوجين عن الجادة، والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتياد العامي[2].

وذكر واقعة تبين تمسك المقلدين بأقوال من قلدوه وصعوبة تحولهم عنها، مهما جاءهم من البينات الدالة على أن الحق بخلاف قوله فقال: وقد لقي الإمام بقي بن مخلد[3]، حين دخل الأندلس آتيا من المشرق من هذا الصنف الأمرَّين، حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب، لأنه جاءهم من العلم بما ليس عندهم، إذ لقي بالمشرق الإمام أحمد بن حنبل، وأخذ عنه مصنفه، وتفقه عليه، ولقي أيضا غيره، حتى صنف المسند الذي لم يصنف في الإسلام مثله، وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك، بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الحق والغلو في محبة المذهب[4].

وكان بقي أول من كثر الحديث بالأندلس ونشره، وهاجم به شيوخ الأندلس فثاروا عليه لأنهم كان علمهم بالمسائل ومذهب مالك، وكان بقي يفتي بالأثر، فشذ عنهم شذوذا عظيما، فعقدوا عليه الشهادات وبدَّعوه ونسبوه إلى الزندقة وأشياء نزهه الله

---

(1) الاعتصام (٢/ ٥٠٥و ٥٠٦)

(2) الاعتصام (٢/ ٥٠٦)

(3) الإمام بقي بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي، صاحب التفسير، حافظ مفسر محقق من أهل الأندلس، كان إماما مجتهدا صالحا ربانيا صادقا مخلصا رأسا في العلم والعمل، عديم المثل، منقطع القرين، يفتي بالأثر ولا يقلد أحدا، انتشرت كتبه وتداولها القراء و الدارسون في أيام حياته، توفي سنة ٢٧٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٣/٢٨٥و ٢٨٦و ٢٩١و ٢٩٦) والأعلام للزركلي (٦٠/٢)

(4) الاعتصام (٢/ ٥٠٧)

منها[١].

ومتعصبة كل مذهب يتشبثون بأي قول أو رأي يرونه مؤيدا لأقوال إمامهم مقدما لها على أقوال غيره، فإن وجدوا أثرا مرويا في فضل قبيلة ينتمي إليها إمامهم جعلوه دليلا على حجية أقواله وعدم رد شيء منها، وإن وجدوا أثرا في فضل عالم بلد، وإمامهم مقيم فيه جزموا بأنه هو المعني بهذا الفضل ونزّلوا هذا الأثر عليه.

فإن كان المتعصب حنفيا استدل على صحة تعصبه وتقليده لأبي حنفية بتقدم أبي حنيفة على سائر الأئمة وقربه من عهد النبوة وبما صُنع من الآثار في فضله.

وإن كان شافعيا استدل بما ورد من الأحاديث في فضل قريش وأن الإمامة فيهم، وأن الناس تبع لهم، ثم جزم بأن ذلك يوجب تقليد الإمام الشافعي وتقديم مذهبه على غيره.

وإن كان مالكيا استدل بالحديث الوارد في فضل عالم المدينة، والذي أشار إلى أن الناس يوشك أن يضربوا أكباد الإبل لطلب العلم فلا يجدوا أعلم من عالم المدينة، ثم ينزل هذا الأثر على الإمام مالك ويراه دليلا جليا في وجوب اتباعه.

والعبارات التالية لبعض من اشتهر عنهم المغالاة في التقليد والتعصب للأئمة من المتقدمين والمتأخرين تثبت هذه الدعوى، وتدل على أن تصرم السنين وتعاقب الأجيال لم يكن له كبير أثر في تغيير الموقف من هذه القضية.

يقول الفخر الرازي: القول بأن قول الشافعي خطأ في مسألة كذا، إهانة للشافعي القرشي، وإهانة قريش غير جائزة، فوجب أن لا يجوز القول بتخطئته في شيء من المسائل[٢].

ويقول إمام الحرمين الجويني[٣]: نحن ندعي أنه يجب على كافة العاقلين ودعاة المسلمين

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٩٠ـ ٢٩١)

(٢) مناقب الشافعي للرازي (٣٨٤)

(٣) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين لمجاورته بمكة أربع سنين، شيخ الشافعية، أبو المعالي، ولد في (جوين) من نوحي نيسابور، سنة ٤١٩هـ، تفقه على والده الشيخ أبي محمد الجويني ودرّس بعده في حلقته، رحل إلى بغداد فمكة وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس، ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك (المدرسة النظامية) فيها، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء، له مصنفات كثيرة منها: «العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية » و «نهاية المطلب في دراية المذهب»في فقه الشافعية «والورقات» في أصول الفقه، وغيرها توفي سنة ٤٧٨هـ.انظر سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٦٨ -٤٧٠، ٤٧٥، ٤٧٦) والبداية والنهاية (١٢/ ١٥٧) والأعلام للزركلي (٤/١٦٠)

شرقا وغربا وبعدا وقربا انتحال مذهب الشافعي، ويجب على العوام الطغام والجهال الأنذال أيضا انتحال مذهبه بحيث لا يبغون عنه حولا، ولايريدون به بدلا(١).

وبالرغم من تغليظه القول في الأمر بالتزام مذهب الشافعي إلا أنه لايرى تقليد أحد من الصحابة بما فيهم الخلفاء واجبا في وقتهم بل بإمكان المستفتي أن يأخذ بقول الصديق في مسألة وبقول الفاروق في أخرى، وبقول غيرهما من الصحابة، ويبرر هذا بأن ما أبيح في عهد الصحابة من عدم الالتزام بمذهب رجل معين كان لأجل الضرورة(٢).

ويقول أبو الحسن الكرخي(٣)(الحنفي): الأصل أن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ، أو على أنه معارَض بمثله ثم صار إلى دليل آخر، أو ترجيح فيه، بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق، وإنما يفعل ذلك على حسب قيام الدليل، فإن قامت دلالة النسخ يحمل عليه، وإن قامت الدلالة على غيره صرنا إليه(٤).

إلى أن يقول: والأصل أن الحادثة إذا وقعت ولم يجد المسئول فيها جوابا ونظيرا في كتب أصحابنا، فإنه ينبغي له أن يستنبط جوابها من غيرها، إما من الكتاب أو من السنة أو غيرذلك مما هو الأقوى فالأقوى(٥).

ولا أظن أن أحدا من المتعصبين للتقليد بلغ ما بلغه الكرخي في التعصب فهو أولا لا يرى العمل بالآية التي تخالف ما عليه أصحابه من الحنفية ولا يقتصر على مخالفتها لأقوال أبي حنيفة، ثم يبحث عن مخرج لعدم العمل بالآية إما القول بالنسخ أو التأويل أو الترجيح.

أما المسألة النازلة إذا وقعت ولم يجد المسئول عنها جوابا في كتب الأصحاب فإن الواجب

---

(١) مغيث الخلق في ترجيح القول الحق ص (١٦) لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، ط محمد محمد عبداللطيف، القاهرة

(٢) المرجع السابق ص (١٥)

(٣) عبد الله بن الحسين الكرخي، أبو الحسن، فقيه انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق، وُلد بالكرخ، سمع من علماء عصره، انتشر تلامذته في البلاد، واشتهر اسمه وبعد صيته، كان رأسا في الاعتزال، له (رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية) توفي ببغداد سنة ٣٤٠هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٢٦ ٤٢٧) والبداية والنهاية (١١/ ٢٥٤) و الأعلام للزركلي (٤/ ١٩٣)

(٤) رسالة أصول الكرخي في الأصول، لأبي الحسين الكرخي، مطبوع مع تأسيس النظر للدبوسي، ص (١١٦) ط ـ زكريا يوسف، القاهرة، وانظر الدرة البهية في التقليد والمذهبية ص (٤٣ـ ٤٤)

(٥) رسالة الكرخي ص (١١٩)

على المسئول في نظره أن يستنبط جوابها من نظائرها من المسائل التي نصوا عليها، فإن لم يجدوا لها نظيرا بحثوا لها في الكتاب والسنة عن جواب، فأي تقديم لأقوال الرجال على كلام الله تعالى ورسوله ﷺ فوق هذا التقديم؟

ومن دعاة التقليد المعاصرين الشيخ محمد الحامد الذي يرى أن لزوم مذاهب الأئمة الأربعة فرض لازم على أفراد الأمة، وذلك لأن أصحاب هذه المذاهب قد استنفدوا وسعهم في استنباط الأحكام من منابعها الأصلية، وفي تركيز القواعد الشرعية العامة التي تنبني عليها جزئيات الأحكام وفرعيات التكاليف.

ويصف الداعين إلى الاجتهاد بأنهم يعمدون بهذه الدعوى إلى زعزعة الثقة بما قام به الأئمة، وأنهم يدعون إلى اجتهاد مماثل لاجتهادهم، مع أنهم يفتقدون شروط الاجتهاد التي من شبه المستحيل توفرها في هذا العصر.

وبعد أن ذكر شروطا صارمة للاجتهاد يكاد أن يكون وجود من تتوفر فيه ضربا من الخيال انتهى إلى القول بأن باب الاجتهاد قد أغلق، وأنه لا يسمح به إلا في حدود النظر في المسائل التي لم يعهدها الناس من قبل، وهذا النظر مقيد بفروع الفقه وقواعده الكلية، بحجة أن الفقهاء الأقدمين قد توسعوا في تقدير الحوادث واستنباط الأحكام منها.

أما القضايا الجزئية المستجدة فلا مانع من الاجتهاد للتعرف على أحكامها وذلك في حدود ضيقة جدا، ولا يقوم بها إلا أفراد قلائل في الأمة[1].

ويؤكد أن التقليد لا مناص منه وأن معرفة الأحكام الشرعية لا تكون إلا بالتزام مذاهب الأئمة فيقول: وبعد فنحن ملتزمون مذاهبنا فيما عدا الحوادث الفاذة ولسنا مجتهدين حتى نفتي من الأحاديث الشريفة ابتداء، فإن أنظار الأئمة أبعد وأعمق من أنظارنا القاصرة، قد أسرجوا لنا الفقه وألجموه فما علينا أن نتبع إلا ما أقروه، كما لو أفتونا به وهم أحياء[2].

وقد صاغ بعض دعاة التقليد دعوتهم بأبيات من الشعر، دعا بعضهم فيها إلى التقليد بشكل عام بحيث ألزموا كل مكلف أن يتبع واحدا من الأئمة دون تقديم لأحدهم على الآخر، وفيهم من خص إمامه بالتفضيل وادعى أن اتباع غيره غير سائغ.

([1]) انظر لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسما للفوضى الدينية ص (٨ ١٢) الشيخ محمد الحامد مكتبة المنار ط (٣) ١٤٠٣هـ

([2]) المرجع السابق ص (١٣)

يقول اللقاني[١] في قصيدته المسماه (جوهرة التوحيد)

ومالك وسائر الأئمـــــة   كذا أبو القاسم هداة الأمــة
فواجب تقديم حبر منهـــم   كذا حكى القوم بلفظ يفهم[٢]

وللقاضي عياض[٣] رحمه الله قصيدة يذكر فيها ضرورة التقليد، وأن يختار المسلم لدينه ذا علم ودين من المشهورين بذلك فيقلده ويعني بذلك أحد الأئمة الأربعة ثم رجح مذهب الإمام مالك وأوصى باتباعه وذكر من فضائله ما يدعو لذلك فقال:

فاختر لدينك ذا علم تقلـــــده   مشهَّرَ الذكر في شام وفي يمـــن
حوى أصولهم ثم اقتفى أثـــــرا   نهجا إلى كل معنى رائق حســـن
ومالك المرتضى لا شك أفضلهـم   إمــام دار الهــدى والوحــي والسنـــن
فعنه خذ علمه إن كنت متبعــــا   ودع زخارف كالأحلام والوســن
فهو المقلَد في الآثار يسندهــــا   خلاف من هـــو فيــها غــير مؤتـمــن
وهو المقدم في فقه وفي نظــــر   والمقتـــدى في الهــدى في ذلــك الزمـــن
وعالم الأرض طرا بالذي حكمــت   شــهادة المصطفــى ذي الفضــل والمنــن
ومن إليه بأقطار البلاد غــــدت   تُنضى المطايا وتُضحى بُزَّلُ البُـدُن[٤]

ولأبي عبد الرحمن محمد بن إبراهيـــم البوشـــنجي[٥] في الحـث علـى اتبـاع مذهـب

([١]) إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، متصوف مصري مالكي، نسبته إلى (لقانة) من البحيرة بمصر، له مؤلفات في التراجم والفقه واشهرها منظومة (جوهرة التوحيد) التي عليها مدار عقيدة الأشاعرة، توفي سنة (١٠٤١) قرب العقبة عائدا من الحج، انظر جوهرة التوحيد ص (٤٩٢) والأعلام للزركلي (١/٢٨)

([٢]) شرح جوهرة التوحيد ص (٣٣٦-٣٣٨)

([٣]) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، أبو الفضل عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بالفقه واللغة والحديث والأدب، ولد في (سبتة) سنة ٤٧٦هـ، وولي قضاءها ثم ولي قضاء غرناطة، توفي في مراكش سنة٥٥٤هـ. من تصانيفه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى وترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك و شرح صحيح مسلم وغيرها. انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٢ـ ٢١٤و ٢١٧) و البداية والنهاية (١٢/ ٢٨٠) و الأعلام للزركلي (٥/ ٩٩)

([٤]) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٢٠ـ ١٢١)

([٥]) الإمام العلامة الحافظ شيخ أهل الحديث في عصره بنيسابور أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي العبدي، ولد سنة ٢٠٤هـ وارتحل شرقا وغربا ولقي الكبار وجمع وصنف وسار ذكره وبعد صيته، خرج إلى بخارى وروى عنه البخاري حديثا في الصحيح، توفي سنة ٢٩١هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٨١ و ٥٨٩) و طبقات الشافعية الكبرى (٢/١٨٩و ١٩٠و ١٩٢) و تهذيب التهذيب (٥/٩و ١٠) و الأعلام للزركلي (٥/ ٢٩٤)

الشافعي:

ومن شـــعب الإيمـــان حـــب ابـــن شـــافع وفـــرض أكيـــد حبـــه لا تطـــوع
وإني حياتي شافعي فإن أمـــــــــــت فتوصيـــتي بعـــدي بـــأن يتشـــفعوا(١)

ويقول أبو إسماعيل الأنصاري في الإمام أحمد بن حنبل:

نزل المشيب بلمَّتي فأرانـــــي نقصان دهر طالما أرهانـــي
أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي ذاكم إلى الإخوان
إذ دينه ديني وديني دينـــــه ما كنت إمعة له دينـــان(٢)

فتأمل ما يقوله تابع كل إمام من الأئمة في حق إمامه وما يؤدي إليه التعصب المذهـــبي والمغالاة في اتباع الأئمة حتى أن الأمر قد يصل ببعض المتعصبين للأئمة إلى إنزال كلامـــهم منزلة لا تصح إلا لكلام الله ورسوله ﷺ وساووا بين مَنْ ردَ كلامَهم وبين من رد كـــلامَ الله ورسوله ﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٣)

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٠٧)

الموقف الوسط من الأئمة:

الحق الذي يجب على المسلم أن يكون عليه موالاة الأئمة الأربعة ومحبتهم والإقرار بما لهم من الفضائل والمناقب التي سبقوا بها من بعدهم وأدركوا بها من قبلهم، فصاروا من أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وحسب من بعدهم التأسي بهم، في مناقب لهم لا تنكر، ومحامد قد تجاوزت الحصر.

لكن الاعتراف بما لهم من الفضائل لا يستلزم القول بعصمة أحد منهم، ولا أن يتخذ المقلد لواحد منهم ذلك وسيلة للتعصب أو الإفراط في الحب الذي يحيد بصاحبه عن جادة الصواب.

فجميعهم لاشك أصحاب علم وفضل بذلوا وسعهم في الوصول إلى الحق فيما اجتهدوا فيه من مسائل، أصاب كل واحد منهم في بعضها، وأخطأ في بعضها الآخر، فلهم فيما أصابوا فيه أجران، وما لم يوفقوا فيه للصواب فلهم أجر واحد لقول النبي ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما عن عمرو بن العاص[١] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[٢].

والقول بأن أحدهم أخطأ في مسألة أو أكثر ليس ذلك قدحا فيه، وتأمل قول الله تعالى: {وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما}[٣] الآية.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: {ففهمناها سليمان} أي فهمناه هذه القضية، ولا يدل

---

(١) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبد الله فاتح مصر، أحد عظماء العرب ودهاتهم، وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم، أسلم قبل الفتح سنة ثمان وقيل بين الحديبية وخيبر، ولاه النبي ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل، وكان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر ﷺ ولاه معاوية على مصر سنة ٣٨هـ فاستمر إلى أن توفي بها سنة ٤٣هـ وقيل ٤٧هـ. انظر البداية والنهاية (٨/ ٢٨ــ ٢٩) و الإصابة (٤/ ٦٥٠ــ ٦٥٤) والأعلام للزركلي (٥/٧٩)

(٢) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم الحديث(٧٣٥٢) ومسلم،كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم الحديث (١٧١٦) وأبو داود، كتاب الأقضية، بلب في القاضي يخطيء (٣٥٧٤) وابن ماجة،كتاب الحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، رقم الحديث(٢٣١٤) و الإمام أحمد (٤/ ١٩٨ و ٢٠٤)

(٢) سورة الأنبياء (٧٨-٧٩)

ذلك، أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله {وكلا} من داود وسليمان {آتينا حكما وعلما}.

وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده[١].

والأئمة المتَبعون هم في مقدمة علماء السلف الذين نقول فيهم كما قال الإمام الطحاوي[٢] في عقيدته المشهورة: وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين أهل الخبر والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، من ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل[٣].

يقول شارح الطحاوية تعليقا على كلام الطحاوي: فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله، موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصا الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

إلى أن يقول: فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق وتبليغ ما أرسل به الرسولﷺ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم[٤].

وعرْضُ أقوال الأئمة على النصوص والأخذ بما وافقها منها ليس إهدارا لها ولا هضما لحقهم بل إن ذلك من معالم اتباعهم لأنهم جميعا أوصوا أتباعهم بذلك.

يقول الإمام ابن القيم: فمن عرض أقوال الأئمة على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص، لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فإنهم كلهم أمروا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٤٩-٢٥٠)

(٢) الإمام العلامة الحافظ محدث الديار المصرية وفقيهها، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف، ولد ونشأ في قرية طحا من أعمال مصر، انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر، تفقه على مذهب الشافعي ثم تحول حنفيا، رحل إلى الشام فاتصل بأحمد بن طولون فكان من خاصته، توفي بالقاهرة سنة ٣٢١هـ. من تصانيفه: شرح معاني الآثار في الحديث و«مشكل الآثار» في الحديث والعقيدة الطحاوية وغيرها. انظر سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧– ٢٩و ٣٢) والبداية والنهاية(١١/١٩٨) و الأعلام للزركلي (١/ ٢٠٦)

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٥٥٤)

(٤) المرجع السابق (٥٥٥)

بذلك، فمتبعهم حقا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها، من تقديم النص على أقوالهم[١].

ويفرق الإمام ابن القيم بين حكم الله المنزل قطعي الثبوت والدلالة الذي لايسوغ لأحد مخالفته ولا الأخذ بغيره، وبين الحكم المؤول الذي يختاره المكلف إلى أن يجد خيرا منه، فيقول: والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع أن الحكم المنزل هو الذي أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذي لا حكم سواه.

أما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب اتباعها ولا يُكفر ولا يُفسق من خالفها، فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله بل قالوا اجتهدنا برأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة بل قال أبو حنيفة: هذا رأيي فمن جاءنا بخير منه قبلناه، ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه، وكذلك مالك لما استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما في الموطأ فمنعه من ذلك وقال: قد تفرق أصحاب رسول اللهﷺ فصار ما عند قوم غير ما عند الآخرين.

وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه.

وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ويقول: لا تقلدني ولا تقلد فلانا ولا فلانا وخذ من حيث أخذوا.

ولو علموا رحمهم الله أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتها ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتي بخلافه، فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك.

فالرأي والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه[٢].

ولا شك أن الأئمة أعلم منا بالكتاب والسنة فالواجب علينا اتباعهم في العمل بالكتاب

---

(١) الروح لابن القيم ص (٢٦٤) الإمام شمس الدين أبو عبد الله ابن القيم دار الفكر

(٢) الروح لابن القيم ص (٢٦٦-٢٦٧)

والسنة وتقديمهما على رأيهم.

أما أقوالهم فنتعلمها للاستعانة بها على الحق ونترك ما خالف الكتاب والسنة منها، واجتهادهم في المسائل التي لا نص فيها خير لنا وأقرب للصواب من اجتهادنا لأنفسنا، لأنهم أكثر علما وتقوى منا وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ حاكمان عليهم وعلى أقوالهم[1].

فذمهم وانتقاصهم غلو من طرف يقابله غلو من طرف آخر وهو اعتقاد أن أقوالهم مغنية عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أو مقدمة عليهما.

ويبين الشيخ محمد بن صالح العثيمين متى يكون الانتساب إلى المذاهب تعصبا فيفتي بالمنع منه، ومتى يكون هاديا إلى سبيل الرشاد والعلم فيفتي بجوازه فيقول: التمذهب بمذهب معين إذا كان المقصود منه أن الإنسان يلتزم بهذا المذهب معرضا عما سواه سواء كان الصواب في مذهبه أو مذهب غيره فهذا لا يجوز وهو من التعصب المذموم، أما إذا كان الإنسان ينتسب إلى مذهب معين لينتفع بما فيه من القواعد والضوابط ولكنه يرد ذلك إلى الكتاب والسنة فهذا لا بأس به[2].

وجاء في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية ما يلي: على المسلم أن يتبع ما جاء عن الله ورسوله إذا كان يستطيع أخذ الأحكام بنفسه، وإذا كان لا يستطيع ذلك سأل أهل العلم فيما أشكل عليه من أمر دينه، ويتحرى أعلم من يتحصل عليه من أهل العلم ليسأله مشافهة أو كتابة، ولا يجوز للمسلم أن يقلد مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية ولا أشباههم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم، وأما انتسابه إلى بعض المذاهب الأربعة المشهورة فلا حرج فيها إذا لم يتعصب للمذهب الذي انتسب إليه ولم يخالف الدليل من أجله[3].

ويحدد الشيخ محمد ناصر الدين الألباني الموقف من المذاهب بأنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

١ـ قسم متفق عليه بين الجميع، كفرض الصلاة وعدد ركعاتها ويجب العمل به على

---

(١) انظر أضواء البيان (٧/ ٥٥٥- ٥٥٦)

(٢) الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات (١٧٤، ١٧٥)

(٣) فتاوى إسلامية لمجموعة من العلماء ص (٦٢)

كل مسلم.

٢ــ وقسم فيه خلاف ولكنه خلاف تنوع، فهذا يجوز فيه العمل بأي واحد منها مادام ثابتا بالكتاب والسنة، والأفضل تنويعها فيعمل بهذا مرة وبذلك أخرى وهكذا.

٣ــ وقسم فيه اختلاف شديد ولا يمكن الجمع بين الآراء المختلفة فيه بوجه من وجوه الجمع المعروفة، فهذا النوع يجب فيه البحث عن الحق والصواب في المذاهب كلها لا في مذهب واحد معين منها[1].

وأخيرا نختم هذا المبحث بذكر مثالين معاصرين لردود تبادلها بعض الدعاة حول قضية المذهبية بين مؤيد لها ومعارض، مما يدل على أن الاختلاف حول هذه المسألة لا يزال فتيا وأن النزاع حولها لا يزال على أشده.

المثال الأول: رد الدكتور أحمد سلام في كتابه (ما أنا عليه وأصحابي) على مااقترحه الدكتور عبد العزيز القارئ في كتابه (برنامج عملي للمتفقهين) من أنه ينبغي لطالب الفقه الذي يتلقى العلم أن يتخذ واحدا من المذاهب الأربعة وسيلة للتفقه في الشريعة.

يقول الدكتور القارئ: وقد وجدنا لمن يطلب الفقه بالجلوس في حلقات أهل العلم أن أحكم طريقة وأسرع وأحسن وسيلة توصله إلى غايته أن يتخذ واحدا من المذاهب الأربعة وسيلة للتفقه في الشريعة، أي أن (يتمذهب)[2].

وعلل تخصيصه لهذه المذاهب الأربعة بقوله: ولماذا أخص هذه المذاهب الفقهية الأربعة بالذكر؟

لأن باقي المذاهب الفقهية إما اندرس أكثرها مثل الأوزاعية والسفيانية، وإما هو غير معتبر كالظاهرية، فلذلك أحسن وسيلة للتفقه في الشريعة أن تتمذهب بواحد من المذاهب الأربعة تختار أحدها فكلها طرق للتفقه في الشريعة.

وبعد أن بين بعض ما تيسر لهذه المذاهب من كثرة الأتباع وتسابق العلماء على خدمتها ،الشرح والتأليف والتأصيل والتفريع والاستدلال والاستنباط وتخريج الأدلة وما إلى ذلك قال:

---

(1) انظر بدعة التعصب المذهبي ص (٥٩)

(2) برنامج عملي للمتفقهين ص (٢٦) د. عبد العزيز القارئ دار الأرقم ط (١) ١٤١٠هـ

ولذلك يا متفقه إذا اخترت مذهبا منها فاتخذته وسيلة للتفقه في أحكام الشريعة فإنك ترتع في دوحات تلك المدرسة وتروي غليلك وظمأك من أنهارها وثمارها[١].

ثم يذكر أن الذي دعاه إلى هذا الاقتراح هو الرد على الإمام الشوكاني الذي دعا المتفقهين إلى التفقه بعيدا عن المذاهب الأربعة، وبين أن دعوة الشوكاني كانت رد فعل وقتي للجمود الذي سيطر، والتعصب الذي استفحل في عصره.

وجزم أن المنهج الذي دعا إليه الشوكاني غير قابل للتطبيق وغير محمود العواقب عند تطبيقه، وحكم بأن الذين حاولوا أن ينفذوا رأي الشوكاني فروا من كتب المذاهب إلى كتب الشوكاني فاقتربوا من التمذهب ولكن بمذهب الشوكاني، وسماهم الشوكانيين .

ثم بين في النهاية أنه لا مفر للمتفقه من التمذهب وأنه لا سبيل أمامه إلا التقليد فيقول: فعليك يا متفقه أن تتخذ (التمذهب) وسيلة إلى التفقه في أحكام الشريعة.

ثم يبين الآثار المترتبة على طلب الفقه من خلال متون أحاديث الأحكام بعيدا عن متون الفقه، وهي أن المبتدئ يخسر بصنيعه هذا ملكة الاستنباط ولغة الفقه، لأن متون الفقه التي درج المتعلمون على تلقيها هي خلاصة تلك النصوص القرآنية والحديثية، استخرجت بالاستنباط والاستدلال والتفريع، ثم صيغت بلغة علمية فقهية دقيقة[٢].

وقد خالف الدكتورُ أحمد سلام الدكتورَ عبد العزيز القارئ فيما ذهب إليه ولم يفرق بين ما دعا إليه وما دعا إليه مقلدوا المذاهب قبله ثم حدد النقاش معه في ثلاث نقاط هي باختصار:

١ـ قول الشيخ القارئ بانقراض المذاهب الفقهية غير الأربعة المشهورة.

فقد اعترض الدكتور أحمد سلام على هذا القول وفسر اعتراضه بقوله: إن صح شرعا أن يقال إن أكثر المذاهب قد درست فلا يجوز مثل هذا القول عن فقه الأحكام عند السلف، ذلك أن فقه السلف هو جماع الحق بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وضياعه يعني اجتماع الأمة على الضلال، وهذا محال في حق الأمة[٣].

٢ـ قول الشيخ القارئ بأن قوله هذا رد على بعض العلماء المتأخرين وهو الشوكاني

---

(١) المرجع السابق ص (٢٦- ٢٧)

(٢) برنامج عملي للمتفقهين ص (٢٧-٢٩)

(٣) انظر ما أنا عليه وأصحابي ص (٢٠٩) أحمد سلام دار ابن حزم ط (١) ١٤١٥هـ

الذي بدأ من عنده الإنكار على المقلدين ومن ثم فلا حرج من الرد عليه.

فقد أوضح سلام: أن الشوكاني نقل في رسالته «القول المفيد» أقوال العلماء منذ أيام التابعين ومنهم الأئمة الأربعة، وهم ينهون عن التقليد وينكرون على أهله، أما التقليد الذي وصفه بأنه التدين بأقوال الرجال فقد بدأ بعد القرون الخيرية، وبعد زمن الأئمة وعلى غير رضى منهم، ثم استنتج سلام من ذلك أن رد القارئ في الحقيقة ليس على الشوكاني فقط وإنما على علماء السنة عموما منذ عصر التابعين، لكن هذا الرد جاء في غلاف الرد على الشوكاني[1].

٣ــ قول الشيخ القارئ إنه لا مفر من التمذهب لطالب العلم في بداية التفقه وإن التجربة قد أثبتت أن طلب الفقه من خلال متون أحاديث الأحكام غير عملي.

وقد كان لسلام على هذه النقطة عدة وقفات وهي باختصار كما يلي:

أ ــ قوله: إنه لابد لطالب العلم من التمذهب في البداية: تقرير إنشائي خلي من الأدلة الشرعية الحاكمة وما كان كذلك فلا حرج على من أعرض عنه،

ب ــ إشارته إلى السلفيين بالشوكانيين فيها نبز للسلفيين الذين لا يرتضون بالانتساب لغير السنة.

ج دعوى خسارة المبتدئ للتفقه بالحديث ملكة الاستنباط ولغة الفقه، فالحق بخلافها لأنه إذا كان التقليد هو بداية الطريق فأي استنباط في القول العاري عن الدليل وأي فقه أو لغة للفقه فيه، كما أن المتون ستكون عائقا بين عقل المتعلم ونصوص العلم، إضافة إلى ما يترتب على ذلك من تقديس أقوال العلماء ووقوف عقل المتعلم أمام معاني النصوص دون مقررات مسبقة وقناعات محسوسة، مما يجعله أحيانا يطوع النص لفتوى العالم ورأيه[2].

المثال الثاني: الردود المتبادلة بين الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية) والشيخ محمد عيد عباسي في كتابه (المذهبية هي البدعة أو بدعة التعصب المذهبي).

والحق أن الإلمام بكل ما جاء في الكتابين المذكورين غير ممكن لطولهما وتوسع الكاتبين في

---

(١) انظر ما أنا عليه وأصحابي ص (٢١٣-٢١٤)

(٢) انظر ما أنا عليه وأصحابي ص (٢١٩)

نقاشهما لقضية المذهبية، ولكن حسبنا الاقتصار على ما يفي بالغرض الذي نحـــن بصـــدد الكتابة عنه وهو بيان استمرار الاختلاف بين الدعاة حول هذه المسألة وتبـــاين مواقفـــهم بسببها.

يذكر الدكتور البوطي أهم ما يريد بيانه في كتابه فيقول: إن أهم ما قصدت إلى إيضاحه في الكتاب هو أن شأن المسلمين الذين لم يبلغوا درجة الأخذ من الكتاب والسنة مباشـــرة في عصر الصحابة والتابعين، ومن بعدهم أن يتبعوا مذهب إمام من الأئمة الذين بلغوا تلـــك الدرجة، وللواحد منهم أن يلازم إماما من الأئمة إن شاء وله أن يتحول إن شاء إلى غيره.

ويستدل البوطي بقدم التقليد وأنه يعود إلى صدر الإسلام، بفعل الناس الذين أدركوا زمن الصحابة ﷺ في عدة أرجاء من الدولة الإسلامية حيث كان أهل العراق يلتزمون مذهب عبد الله بن مسعود متمثلا في شخصه أو في شخص تلاميذه من بعده، كما أن أهل الحجاز التزموا مذهب عبد الله بن عمر وتلاميذه وأصحابه.

ويتوصل بعد ذلك إلى القول: بأن القول بحرمة التزام مذهب إمام معـــين في الاســـتفتاء والتقليد بدعة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان[1].

ويتضح من كلام البوطي السابق مخالفته للمانعين من التقليد حيث استدل على جـــوازه بشيوعه في زمن السلف من الصحابة والتابعين دون نكير من أحد منهم، بينما قال مخـــالفوه إن التقليد لم يعرف إلا بعد القرون المفضلة كما سبق بيانه.

ويقرر في النهاية أنه لا مناص من التقليد وأنه مشروع بإجماع المسلمين وأن المقلد مخير بين التزام مذهب معين لا يتحول عنه أو التنقل بين المذاهب، وأن من فعل ذلك لا يعد مرتكبـــا لمنهي ولا مقترفا لمحرم.

وقد بين البوطي مراده من التقليد بأنه: اتباع قول إنسان دون معرفة الحجة على صحـــة ذلك القول.

والتقليد عنده والاتباع بمعنى واحد حيث يقول: ولا فرق بين أن تسمي هذا العمل تقليدا أو اتباعا، فكلاهما بمعنى واحد، ولم يثبت أي فرق لغوي بينهما.

---

(١) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية ص (١٠- ١١) د: محمد سعيد رمضان البوطي مؤسسة الرسالة ط (٣) ١٤٠٤هـ

ويتضح من عدم تفريقه بين معنى التقليد والاتباع مخالفته لابن عبد البر وابن القيم والشنقيطي فيما أكدوا عليه من التفريق بين التقليد والاتباع.

ثم ذكر البوطي مشروعية التقليد ووجوبه عند عدم التمكن من الاجتهاد، وبين أن ذلك مشروع من وجوه هي:

الوجه الأول: قوله جل جلاله {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} أجمع العلماء على أن الآية أمر لمن لايعلم الحكم ولادليله باتباع من يعلم ذلك.

الوجه الثاني: ما دل عليه الإجماع من أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يتفاوتون في العلم ولم يكن جميعهم أهل فتيا.

بل كان فيهم المفتي المجتهد وهم قلة بالنسبة لسائرهم وفيهم المستفتي المقلد، وهم الكثرة الغالبة فيهم، ولم يكن المفتي من الصحابة يلتزم مع ذكر الحكم بيان دليله للمستفتي.

الوجه الثالث: الدليل العقلي وعبر عنه بقوله: ولما رأى العلماء تكامل كل من دليل الكتاب والسنة والعقل على أن العامي أو العالم الذي لم يبلغ درجة الاستنباط والاجتهاد، ليس له إلا أن يقلد مجتهدا متبصرا بالدليل قالوا إن فتوى المجتهد بالنسبة للعامي مثل دليل الكتاب والسنة بالنسبة للمجتهد، لأن القرآن كما ألزم العالم به التمسك بدلائله وبراهينه، فقد ألزم الجاهل بالتمسك بفتوى العالم واجتهاده[1].

ويحدد البوطي الحالات التي لا يصح معها التقليد بحالتين هما:

١ــ أن يصل في معرفة مسألة من المسائل إلى الإحاطة بها والإطلاع على كافة أدلتها ومعرفة كيفية استنباط الحكم منها.

٢ــ إذا رأى حديثا يدل على عكس ما يذهب إليه إمامه الذي يقلده في دينه وتأكد من صحة الحديث ودلالته على الحكم[2].

وكتاب البوطي في مجمله دعوة إلى المذهبية واستدلال لمشروعيتها وبيان للمخاطر المترتبة على الانطلاق من قيد المذاهب واتباعها والانسياح في رحاب الأُجتهاد.

---

(1) المرجع السابق (٧١-٧٣)

(2) اللامذهبية (٨٦)

وقد اشتمل الكتاب على تعليقات أعقبت مناقشات جرت بين البوطي والشيخ ناصر الدين الألباني الذي لا يرى التقليد، ويدعو إلى التخلص من قيود المذاهب الفقهية، وقد صرح الشيخ ناصر الدين الألباني أن الدافع للبوطي في تأليف كتابه هو الرد على رسالته (صفة صلاة النبي ﷺ).

وينكر البوطي صحة نسبة كتاب (بدعة التعصب المذهبي) لمؤلفه الشيخ محمد عيد عباسي ويقول: والكتاب ليس بقلمه ولا من تأليفه، وإنما تعاون في كتابته، كل من الشيخ ناصر الدين الألباني ومحمود مهدي الاستانبولي وخير الدين وائلي ولم يشترك محمد عيد العباسي إلا في كتابة بعض يسير من أبحاثه[1].

أما محمد عيد عباسي فقد اشتمل كتابه الذي تجاوز خمسمائة صفحة ناقش فيها مسألة الاجتهاد والتقليد وتتبع البوطي فيما أورده في كتابه واتفق معه في بعض الأمور وخالفه في أمور كثيرة أخرى.

فمن الأمور التي اختلفا فيها: إثبات العباسي لمرتبة الاتباع التي ينفيها البوطي.

ويؤكد عباسي أنه لايرى مانعا من دراسة الفقه على الطريقة المذهبية ولكن بشرط عدم التعصب، وهذا في رأيه يؤدي للوصول بالفقه إلى الوضع الذي كان عليه السلف الصالح حيث يمر طلاب العلم بمرحلة انتقال يحبب فيها إليهم دراسة الكتاب والسنة وترجيح ما يحكمان برجحانه وتضعيف ما يحكمان بضعفه، دون تعصب لمذهب.

ويرى أن هذا المنهج يؤدي إلى تقارب بين المذاهب بل وإلى توحيدها، وبعد ذلك تبقى مسائل قليلة تحتمل أكثر من وجه وتتقارب من حيث الدليل فتجعل كالأقوال في المذهب الواحد ويسمح بالإفتاء بأي واحد منها[2].

أما مسألة التزام مذهب معين التي يقول البوطي بمشروعيتها، بل ووجوبها عند عدم التمكن من الاجتهاد، فقد خالفه فيها العباسي فصرح بأنه لايجوز لمسلم أن يقصد التزام مذهب معين في كل مسألة، ورد على الوجوه التي أيد بها البوطي قوله بمشروعية التقليد بما يلي:

---

(١) المرجع السابق ص (١١٣)

(٢) بدعة التعصب المذهبي ص(٦٢)

١ـ إن عدم التزام مذهب معين هو الأصل والأيسر والأقرب إلى الفهم الصحيح لمراد الله سبحانه وتعالى لأن الله حين أمر الجاهل بسؤال أهل الذكر لم يحدد واحدا معينا منهم بل اطلق ذلك ومن المعروف أن المطلق يبقى على إطلاقه حتى يأتي ما يقيده

٢ـ أن عدم التزام مذهب معين واجب لغرض معين تجاهله الدكتور وهو التفريق بين اتباع المعصوم وبين اتباع غير المعصوم لأن من يلتزم اتباع مذهب ما يكون قد سوى في واقع الأمر بين اتباع النبيﷺ وبين اتباع الفقيه الذي يخطئ ويصيب.

٣ـ أن فعل الصحابة والسلف الصالح من أهل القرون الثلاثة الفاضلة الذين أمرنا بالاقتداء بهم هو عدم الالتزام بمذهب معين، فكان الذي لا يعرف طريقة استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية فيهم يسأل أي واحد من العلماء دون تعيين، ولم يكن الصحابة منقسمين إلى مذاهب علمائهم

ونعود فنقول: إن انقسام الناس إلى طوائف كل طائفة تقلد إماما هو بدعة ولم يكن ذلك في عهد الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم.

ثم دعا عباسي إلى توحيد المذاهب الفقهية وذلك بأن تؤلف لجنة تضم أكبر علماء المسلمين في العالم الإسلامي وتضم مختلف التخصصات الشرعية وتكون مهمتها توحيد المذاهب الفقهية في مذهب واحد.

وخطة عمل هذه اللجنة تتمثل فيما يلي:

أ ـ تقرر الأحكام المتفق عليها بين فقهاء الإسلام دون خلاف

ب ـ في المسائل المختلف عليها اختلاف تنوع يؤخذ بجميع الأقوال ما دامت ثابتة في الشرع.

ج ـ المسائل المختلف عليها اختلاف تضاد ينظر في دليل كل مذهب ويؤخذ بأقوى الآراء وأرجحها من ناحية الدليل دون تعصب لرأي على الآخر

د ـ المسائل التي يصعب ترجيح رأي من الآراء فيها وتتساوى أدلتها في القوة يجوز الأخذ بأي رأي منها ويحسن تقديم ما يرجح من ناحية المصلحة للمسلمين.

هـ ـ يترك كل رأي ظهر بطلانه وضعفه.

يسمى هذا المذهب مذهب الكتاب والسنة وجميع الأئمة[1].

وقد سخر البوطي من هذا الاقتراح ورأى أن تحققه من الصعوبة بمكان وأنه أقـــرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة فيقول: ثم إن الكاتب يدعو الناس بعد ذلك إلى الســـعي الحثيـــث لتوحيد المذاهب ووضع لذلك الوسائل، متخيلا أن أمر هذا التوحيد من السهولة بمكـــان وأنه ليس إلا كمن يجمع صفحات منثورة أو يحزم عيدانا متفرقة[2].

والواقع أن استقصاء نقاط الاختلاف بين الطرفين يطول، لكن من طالع الكتابين تبين لـــه شدة الخصومة بين الطرفين وتباين المواقف، مع حدة في العبارة تدل على صعوبة التوفيق بين هذه الأقوال، كما أنها شاهد على ما يؤدي إليه الاختلاف الفقهي من نزاع واختلاف بـــين الدعاة.

---

(١) المرجع السابق ص(٦٧-٦٨)

(٢) اللامذهبية ص (١٢٢)

أمثلة للاختلاف حول مسائل من فقه العبادات:

بعد أن تعرفنا على سبب هام من أسباب الاختلاف الفقهي، وهو الموقف من المذهبية الذي ليس الدعاة بمعزل من التأثر به، سنذكر بعض الأمثلة لمسائل من فقه العبادات، على سبيل المثال لا الحصر تُظهر جانبا من جوانب الاختلاف الفقهي الذي يتأثر به الدعاة بشكل أو آخر.

١- وضع اليدين على الصدر بعد القيام من الركوع:

دلت السنة الصحيحة على أن الأفضل للمصلي حال قيامه في الصلاة أن يضع كفه اليمنى على كفه اليسرى على صدره، قال البخاري رحمه الله في صحيحه: باب وضع اليمنى على اليسرى، وروى بسنده عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة[١].

قال ابن حجر: قوله:كان الناس يؤمرون هذا حكمه الرفع لأنه محمول على أن الآمر لهم هو النبيﷺ[٢].

وفي سنن الترمذي عن قبيصة بن هلب[٣] عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ يؤمنا فيأخذ شماله بيمينه» وقال الترمذي :حديث حسن وعليه العمل عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين من بعدهم[٤].

وفي حديث وائل بن حجر[٥] عند أبي داود والنسائي «ثم وضع يده اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد[٦]».

---

(١) رواه البخاري،كتاب الأذان، باب وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، حديث رقم (٧٤٠)

(٢) فتح الباري (٢/٢٦٢)

(٣) قبيصة بن الهلب واسمه يزيد بن عدي الطائي الكوفي، روى عن أبيه، له صحبة.ذكره ابن حبان في الثقات، انظر تهذيب التهذيب(٤/٥٣٩)

(٤) رواه الترمذي واللفظ له، كتاب الصلاة، باب ما جاء في وضع اليمين على الشمال في الصلاة، حديث رقم(٢٥٢) وابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، رقم الحديث (٨٠٩) وقال الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن ابن ماجة (٢٤٩/١) والإمام أحمد(٥/٢٢٦و٢٢٧)

(٥)وائل بن حجر بن سعد، أبو هنيدة الحضرمي، أحد الأشراف، وفد على النبيﷺ واستقطعه أرضا فأقطعه إياها وبعث معه معاوية ليتسلمها، نزل العراق فلما دخل معاوية الكوفة أتاه وبايعه، مات في ولاية معاوية بن أبي سفيان، انظر سير أعلام النبلاء(٢/٥٧٢-٥٧٤) والإصابة ٦/٥٩٦-٥٩٧ وتهذيب التهذيب (٦/٧١-٧٢)

(٦) رواه أبو داود واللفظ له، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الصلاة، رقم الحديث (٧٢٦) والنسائي كتاب الاستفتاح، باب موضع اليمين من الشمال في الصلاة، رقم الحديث (٨٨٨) وابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب وضع اليمين على الشمال في الصلاة، رقم الحديث(٨١٠) وقال الألباني:صحيح، صحيح سنن ابن ماجة(١/٢٤٩)

وقال البغوي في شرح السنة: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم لايرون إرسال اليدين، ثم منهم من يقول: يضع يده اليمنى على اليسرى، ومنهم من قال: يأخذ كوعه الأيسر بكفه الأيمن[١].

وفي بيان الحكمة من قبض اليدين بهذه الهيئة قال ابن حجر: قال العلماء: الحكمة في هذه الهيئة أنه صفة السائل الذليل وهو أمنع من العبث وأقرب إلى الخشوع، وكأن البخاري لحظ ذلك فعقبه ببيان الخشوع، إلى أن قال: ومن اللطائف قول بعضهم: القلب موضع النية، والعادة أن من احترز على حفظ شيء جعل يديه عليه[٢].

والأدلة على قبض اليدين حال القيام متضافرة ولا حجة لمن قال بغير ذلك، ولن نتحدث عن الاختلاف حول هذه المسألة لأن القائل بالإرسال ليس معه دليل يعول عليه.

لكن الاختلاف الذي سنتحدث عنه هو هل القبض يستمر بعد الرفع من الركوع؟ أم أن ذلك خلاف السنة؟.

وأهمية الحديث عن هذه المسألة والاختلاف حولها تنبع من أن كل قول يقول به أحد قطبي الرحى في قيادة الصحوة الإسلامية في هذا الوقت وهما الشيخ عبد العزيز ابن باز والشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

ففي حاشية كتاب صفة صلاة النبيﷺ للألباني، أورد الشيخ تنبيها عند شرحه لقول النبيﷺ للمسيء صلاته «ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما[٣]» قال فيه: إن المراد من هذا الحديث بين واضح وهو الاطمئنان في هذا القيام، وأما استدلال بعض إخواننا من أهل الحجاز وغيرها بهذا الحديث على مشروعية وضع اليمنى على اليسرى في هذا القيام، فبعيد جدا عن مجموع روايات الحديث، بل هو استدلال باطل لأن الوضع المذكور لم يرد له ذكر في القيام الأول في شئ من طرق الحديث وألفاظه، فكيف يسوغ تفسير الأخذ المذكور فيه بأخذ اليسرى باليمنى قبل الركوع؟ هذا لو ساعد على ذلك مجموع

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي (٣/ ٣٢)

(٢) فتح الباري (٢/ ٢٦٢-٢٦٣)

(٣) جزء من حديث رواه البخاري واللفظ له، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، رقم الحديث (٧٥٧) ومسلم، كتاب الصلاة، باب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر من غيرها، رقم الحديث (٣٩٧)

ألفاظ الحديث في هذا الموطن، فكيف وهي تدل دلالة ظاهرة على خلاف ذلك؟

إلى أن قال: ولست أشك في أن وضع اليدين على الصدر في هذا القيام بدعة وضلالة لأنه لم يرد مطلقا في شيء من أحاديث الصلاة، ولو كان له أصل لنقل إلينا.

ثم تطرق إلى الرد على ما نقله الشيخ حمود التويجري عن الإمام أحمد في رسالة الصلاة، أنه قال: (إن شاء أرسل يديه بعد الرفع من الركوع وإن شاء وضعهما) فيرى أن كلام الإمام أحمد هذا لا يعد حجة لأن الإمام أحمد قاله باجتهاده ورأيه، والرأي قد يخطئ، وإذا قام الدليل الصحيح على بدعية أمر ما فقول إمام به لا ينافي بدعيته[1].

وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز عن موضع اليدين بعد الرفع من الركوع، فأجاب بجواب مبسوط، واستدل بأحاديث منها حديث سهل بن سعد[2] الذي رواه البخاري ونصه (كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة[3] ونقل أقوال العلماء في ذلك وتطرق إلى ذكر موضع وضع اليدين ورجح القول بوضعهما على الصدر.

وبأسلوب علمي رزين بين الشيخ أن ما ذهب إليه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني من أن وضع اليدين على الصدر بعد القيام بدعة ضلالة لا أصل لها في الدين، وهو اجتهاد قد جانب فيه الصواب مع الاعتراف للشيخ بالعلم والفضل وسعة الاطلاع والعناية بالسنة وأن مجانبته للصواب في هذه المسألة لا تحط من قدره ولا تقلل من علمه بل هو كغيره ممن سبقه من العلماء ممن وقع منهم الخطأ وهم في ذلك مجتهدون بين أجر وأجرين.

وقد جاء جواب الشيخ عن هذه المسألة من عدة وجوه هي:

الأول: أن جزم الشيخ الألباني بأن وضع اليمنى على اليسرى في القيام بعد الركوع بدعة ضلالة، خطأ ظاهر لم يسبقه إليه أحد من أهل العلم، وهو مخالف للأحاديث الصحيحة.

([1]) صفة صلاة النبي ﷺ (١٠٥-١٠٦)

([2]) سهل بن سعد بن مالك بن ثعلبة، الإمام الفاضل أبو العباس الخزرجي الأنصاري، كان أبوه من الصحابة الذين توفوا في حياة النبي ﷺ، توفي سنة ٨٨هـ وقيل ٩١هـ وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، انظر سير أعلام النبلاء (٣/٤٢٢-٤٢٣) وتهذيب التهذيب (٢/٤٤٣) والأعلام للزركلي (٣/ ١٤٣)

([3])رواه البخاري،كتاب الأذان، باب وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، حديث رقم (٧٤٠)

الوجه الثاني: أن من تأمل الأحاديث اتضح له دلالتها على شرعية وضع اليمنى على اليسرى في حال القيام في الصلاة قبل الركوع وبعده، لأنه لم يذكر فيها تفصيل والأصل عدمه.

الوجه الثالث: أن العلماء ذكروا أن من الحكمة في وضع اليمين على الشمال أنه أقرب إلى الخشوع والتذلل وأبعد عن العبث، وهذا المعنى مطلوب للمصلي قبل الركوع وبعده فلا يجوز أن يفرق بين الحالين إلا بنص ثابت يجب المصير إليه.

وختم هذا الجواب بقوله: فاتضح مما ذُكر أن ما قاله أخونا فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين في هذه المسألة حجة عليه لا له عند التأمل والنظر ومراعاة القواعد المتبعة عند أهل العلم[١].

وحري بكل داعية أن يقف على أسلوب الشيخ في تناول هذه المسألة وقفة تأمل وتمعن، وسيجد أنها مثالا يجب أن يحتذى في مسائل الاختلاف بين الدعاة، وذلك لما تضمنه من أدب في الحوار مع قوة في عرض الأدلة ووجه الاستشهاد منها.

٣- زكاة الفطر هل تخرج طعاما أم نقدا؟

دلت السنة على أن زكاة الفطر واجبة على كل مسلم ذكرا كان أم أنثى حرا أو عبدا، صغيرا او كبيرا، ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة»[٢].

وروى الترمذي عن عمرو بن شعيب[٣] عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ بعث مناديا في فجاج مكة ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر أو أنثى حر أو عبد صغير أو

---

(١) انظر مجموع فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (٢/ ٢٢٢- ٢٢٩)

(٢) رواه البخاري واللفظ له،كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر، رقم الحديث (١٥٠٣) ومسلم،كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم الحديث(٩٨٤) وأبوداود، كتاب الزكاة، باب كم يؤدي في صدقة الفطر، رقم الحديث(١٦١١) والترمذي،كتاب الزكاة، باب ما جاء في صدقة الفطر، رقم الحديث (٦٧٥) والنسائي (٢٥٠٤)

(٣) الإمام المحدث فقيه أهل الطائف عمرو بن شعيب بن محمد ابن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي، كان يتردد كثيرا إلى مكة وينشر العلم فيها، حدث عن أبيه وعن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، توفي سنة ١١٨هـ انظر سير أعلام النبلاء ٥/١٦٥ وتهذيب التهذيب ٤/ ٣٤٧ والأعلام للزركلي (٥/٧٩)

كبير.....([1]) الحديث.

ومع اتفاق الجميع على وجوب زكاة الفطر إلا أن الاختلاف جرى بين العلماء قديما وحديثا حول مسألة هل تقوم القيمة مقام الطعام، أم أنه لابد من إخراجها من قوت البلد، ولا زال الاختلاف حول هذه المسألة يتجدد ويكاد أن يكون خلاف موسمي يظهر حين يقترب موعد إخراجها، وكل طرف يتشبث بموقفه معتقدا أنه أولى بالحق من مخالفه.

وفيما يلي عرض لأقوال الفريقين وما أدلى به كل طرف من حجج يؤيد بها قوله.

المانعون من إخراج القيمة وأدلتهم:

يعتمد المانعون من إخراج القيمة في زكاة الفطر على الأحاديث النبوية التي نصت على إخراج الطعام، ويقولون: إنه لم يأت في شيء من الأحاديث ذكر إخراج الدراهم بدل الطعام، ولوكان إخراجها جائزا لورد في بعض الأحاديث ما يدل على ذلك، ويرون أن إخراج القيمة خلاف أمر رسول الله ﷺ، الذي قال فيما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »([2]) وقد بنى المانعون من إخراج القيمة كلامهم على عدة أدلة منها ما يلي:

أن الزكاة قربة إلى الله وعبادة مفروضة من جنس معين فلا يجزئ إخراجها من غير الجنس المعين، كما لا يجزئ إخراجها في غير الوقت المعين، فالعبادات توقيفية الأصل فيها الاتباع لا الابتداع، قال ابن قدامة: ولنا قول ابن عمر: «فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر صاعا من تمر وصاعا من شعيرإذا عدل عن ذلك فقد ترك المفروض»([3]).

واستدل ابن قدامة بما جاء في كتاب أبي بكر ﷺ الذي كتبه في الصدقات أنه قال: إن هذه فرائض الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين التي أمر الله عز وجل بها رسوله ﷺ، فمن سُئِلها من المسلمين على وجهها فليعط ومن سُئِل فوق ذلك فلا يعط([4]).

([1]) رواه الترمذي كتاب الزكاة، باب ماجاء في صدقة الفطر، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب، رقم الحديث(٦٧٤)

([2]) رواه البخاري،كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم الحديث (٢٦٩٧)

([3]) المغني (٦٥/٣)

([4]) رواه النسائي واللفظ له، كتاب الزكاة، باب زكاة الإبل، رقم الحديث (٢٤٤٦) والإمام أحمد (١٢/١) وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح ورواه البخاري مفرقا في مواضع من صحيحه (١٨٣/١) وانظر المنتقى بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي (١٢٢/٢) رقم الحديث (١٩٧٤)

أما حديث معاذ ﷺ حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن فقال له: خذ الحب من الحب والشاة من الغنم والبعير من الإبل والبقرة من البقر[١]» رواه أبو داود وابن ماجة فقال ابن قدامة بعد إيراده: الحاجات متنوعة فينبغي أن يتنوع الواجب ليصل إلى الفقير من كل نوع ما تندفع به حاجته ويحصل شكر النعمة بالمواساة من جنس ما أنعم الله عليه به، ولأن مخرج القيمة قد عدل عن المنصوص فلم يجزئه كما لو أخرج الردئ مكان الجيد[٢].

وقال الشوكاني: وقد استدل بهذا الحديث من قال إنها تجب الزكاة من العين، ولا يعدل عنها إلى القيمة إلا عند عدمها وعدم الجنس.

وقال أيضا: فالحق أن الزكاة واجبة من العين لا يعدل عنها إلى القيمة إلا لعذر[٣].

وعدم جواز إخراج القيمة قول الإمام أحمد رحمه الله وقد نقل ذلك عنه ابن قدامة في المغني فقال: قال أبو داود: قيل لأحمد وأنا أسمع أعطي دراهما ــ يعني صدقة الفطر ــ قال أخاف أن لا يجزئه، خلاف سنة رسول الله ﷺ.

ولما قيل له إن قوما يقولون إن عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالقيمة قال: يدعون قول رسول الله ﷺ ويقولون قال فلان؟ قال ابن عمر فرض رسول الله ﷺ ......، وقال الله تعالى: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول} وقال: قوم يردون السنن قال فلان قال فلان، فظاهر مذهبه أنه لا يجزئه إخراج القيمة في شيء من الزكوات[٤].

وقد نص على ذلك الخرقي[٥] في مختصره فقال: ومن أعطى القيمة لم تجزئه[٦]، وهو الذي اختاره ابن قدامة.

وإلى المنع يذهب ابن حزم فيقول: ولا تجزئ قيمة أصلا، لأن كل ذلك غير ما فرض

---

(١) رواه أبو داود واللفظ له،كتاب الزكاة، باب صدقة الزرع، رقم الحديث (١٥٩٩) وابن ماجة،كتاب الزكاة، باب ما تجب فيه الزكاة من الأموال، رقم الحديث(١٨١٤) وضعفه الألباني، ضعيف سنن ابن ماجة ص(١٤٢)

(٢) المغني (٦٦/٣)

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (٢١٦/٤) محمد بن علي الشوكاني

(٤) المغني (٦٥/٣)

(٥) عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقي، أبو القاسم، فقيه حنبلي من أهل بغداد، رحل عنها لما ظهر فيها سب الصحابة، له تصانيف منها: (المختصر) في الفقه ويعرف بمختصر الخرقي، توفي بدمشق سنة ٣٣٤هـ انظر سير أعلام النبلاء (٣٦٣/١٥ــ٣٦٤) و الأعلام للزركلي(٥/ ٤٤)

(٦) المغني (٦٥/٣)

رسول الله ﷺ، والقيمة في حقوق الناس لا تجوز إلا بتراض منهم، وليس للزكاة مـــالك بعينه فيجوز رضاه أو إبراؤه(١).

كما أن فتاوى العلماء والدعاة المعاصرين تختلف بين مانع ومجيز، فقد سئل الشيخ عبـد العزيز بن باز عن حكم إخراج زكاة الفطر نقودا، فأجاب بالمنع وعلل ذلك بأسباب هي:

١ــ أن زكاة الفطر عبادة بإجماع المسلمين، والعبادات الأصل فيها التوقيف، فلا يجـوز لأحد أن يتعبد لله بأي عبادة إلا بما أخذ عن المشرع الحكيم عليه صلوات الله وســـلامه، وقد شرع صلوات الله وسلامه عليه زكاة الفطر بما ثبت عنه في الأحاديث الصحيحـــة: صاعا من طعام، أو صاعا من تمر، أو صاعا من شعير، أو صاعا من زبيب، أو صاعا مـــن أقط.

٢ــ معلوم أنه في وقت هذا التشريع وهذا الإخراج كان يوجد بـــين المســـلمين ــ وخاصة مجتمع المدينة ــ الدينار والدرهم اللذان هما العملة السائدة آنذاك، ولم يذكرهمـا صلوات الله وسلامه عليه في زكاة الفطر، فلوكان شيء يجزئ في زكاة الفطر منهما لأبانه صلوات الله وسلامه عليه إذ لايجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

٣ــ ما ورد في زكاة السائمة من الجبران المعروف مشروط بعدم وجـــود مـــا يجـب إخراجه وخاص بما ورد فيه.

٤ــ لا نعلم أن أحدا من أصحاب النبي ﷺ أخرج النقود في زكاة الفطر، وهم أعلـــم الناس بسنتة ﷺ وأحرص الناس على العمل بها ولو وقع منهم شيء من ذلك لنقل كمـــا نقل غيره من أقوالهم وأفعالهم المتعلقة بالأمور الشرعية.

وختم الفتوى بقوله يتضح لصاحب الحق أن إخراج النقود في زكاة الفطر لا يجـوز ولا يجزئ عمن أخرجه، لكونه مخالفا لما ذكر من الأدلة الشرعية(٢).

ويعلل الشيخ محمد بن عثيمين عدم جواز إخراج القيمة بأن إخراج الطعام يظهر هـــذه الشعيرة ويبينها ويعرف' أهل البيت جميعا، أما إخراجها نقدا فيجعلها مخفية وقـــد يحـــابي

(١) المحلى(١٣٧/٦) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد حزم، ت. أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث

(٢) فتاوى الزكاة (٧٦-٧٨) جمع: محمد المسند، دار الوطن ط (١) ١٤١١هـ

الإنسان نفسه إذا أخرجها نقدا فيقلل قيمتها[١].

ويبين الشيخ عطية محمد سالم بأن القول بإخراج القيمة فيه مخالفة للأصول من جهتين:

الجهة الأولى: أن النبي ﷺ لما ذكر تلك الأصناف لم يذكر معها القيمة ولو كانت جائزة لذكرها مع ما ذكر،كما ذكر العوض في زكاة الإبل، وهو أشفق وأرحم بالمسكين من كل إنسان، ويشترك الشيخ عطية في سبب المنع هذا مع أحد الأسباب التي لأجلها منع الشيخ عبد العزيز بن باز إخراج القيمة كما تقدم.

الجهة الثانية: وهي القاعدة العامة أنه لا ينتقل إلى البدل إلا عند فقد المبدل منه[٢].

وفي معرض الرد على من جوز إخراج القيمة محتجا بما ورد في حديث أنس[٣] في كتاب الأنصباء وبما جاء فيه من التعويض بين الجذعة والمسنة أو الحِقة إلى آخره في الإبل «بشاتين وعشرين درهما» يقول الشيخ: فليس في هذا دليل على قبول القيمة في زكاة الفطر، لأن نص الحديث فمن وجبت عليه سن معينة وليست عنده، وعنده أعلى أو أنزل منها فللعدالة بين المالك والمسكين جعل الفرق لعدم الحيف، ولم يخرج عن الأصل، وليس فيه أخذ القيمة مستقلة، بل فيه أخذ الموجود ثم جبر الناقص. فلو كانت القيمة بذاتها وحدها تجزئ لصرح بها ﷺ، ولا يجوز هذا العمل إلا عند افتقاد المطلوب، والأصناف المطلوبة في زكاة الفطر إذا عدمت أمكن الانتقال إلى الموجود مما من جنسه، لا إلى القيمة وهذا واضح[٤].

القائلون بجواز إخراج القيمة وأدلتهم:

نظر بعض العلماء إلى أن المقصود من زكاة الفطر هو دفع حاجة المساكين وإغناؤهم عن المسألة، وذلك يتحقق بالقيمة كما يتحقق بالطعام، وربما كانت القيمة أفضل حيث تمكنه القيمة من شراء ما يلزمه من الأطعمة والملابس.

---

(١) فتاوى الصيام (٩٥) جمع وترتيب: محمد المسند ط ١٤٠٥هـ

(٢) أضواء البيان (٤٩٢/٨)

(٣) الحديث رواه البخاري،كتاب الزكاة، باب من بلغت عنده صدقة بنت مخاض وليست عنده، رقم الحديث (١٤٥٣) والنسائي (٢٤٤٦) وأبو داود،كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، رقم الحديث (١٥٦٧) وابن ماجة،كتاب الزكاة، باب إذا أخذ المصدق سنا دون سن أو فوق سن، رقم الحديث(١٨٠٠)

(٤) أضواء البيان (٤٩٠/٨)

قال ابن قدامة: وقال الثوري وأبو حنيفة يجوز ـ أي إخراج القيمة ـ وقد روي ذلك عن عمر بن عبد العزيز والحسن[١].

وروى ابن أبي شيبة[٢] في مصنفه عن الحسن قال: لابأس أن تعطى الدراهم في صدقة الفطر[٣].

ويستدل المجيزون بحديث ابن عباس الذي رواه أبو داود وابن ماجة قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين[٤]» الحديث، فيقولون: إنه بالنظر إلى المعنى العام لزكاة الفطر وجدنا إشارة إلى جواز إخراجها من كل ما هو طعمة للمساكين ولا نحده بحد أو نقيده بصنف، فإلحاق غير المنصوص بالمنصوص بجامع العلة متجه[٥].

وممن يقول بإخراج القيمة من المعاصرين الدكتور يوسف القرضاوي الذي أورد أقوال المانعين وأدلتهم ثم أورد أقوال المجيزين، وقال إن الإغناء يتحقق بالقيمة، كما يتحقق بالطعام، وربما كانت القيمة أفضل، إذ كثرة الطعام عند الفقير تحوجه إلى بيعها والقيمة تمكنه من شراء ما يلزمه من الأطعمة والملابس وسائر الحاجات.

ثم إن هذا هو الأيسر بالنظر لعصرنا وخاصة في المناطق الصناعية التي لا يتعامل الناس فيها إلا بالنقود كما أنه في أكثر البلدان وفي غالب الأحيان هو الأنفع للفقراء، والذي يلوح لي أن الرسول ﷺ إنما فرض زكاة الفطر من الأطعمة لسببين:

الأول: لندرة النقود عند العرب في ذلك الحين، فكان إعطاء الطعام أيسر على الناس.

الثاني: أن قيمة النقود تختلف وتتغير قوتها الشرائية من عصر إلى عصر بخلاف الصاع

---

(١) المغني (٣/ ٦٥)

(٢) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، مولاهم الكوفي، حافظ للحديث، توفي سنة ٢٣٥هـ. انظر البداية والنهاية (١٠/٣٤٦) والأعلام للزركلي (٤/ ١١٧-١١٨)

(٣) المصنف في الأحاديث والآثار(٣/١٧٤) الحافظ عبد الله بن محمد أبو بكر ابن أبي شيبة، الدار السلفية، توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد

(٤) رواه أبو داود واللفظ له،كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم الحديث (١٦٠٩) وابن ماجة،كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر، رقم الحديث(١٨٢٧) وحسنه الألباني، انظر إرواء الغليل (٣/٣٣٢)

(٥) انظر هل تجزئ القيمة في الزكاة ص (١١) محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، وهي رسالة قيمة على وجازتها، دار الدعوة السلفية، ط(٢) ١٤١٢هـ

من الطعام فإنه يشبع حاجة بشرية محدودة، كما أن الطعام كان في ذلك العهد أيسر على المعطي، وأنفع للآخذ، والله أعلم بالصواب[١].

أما الدكتور نور الدين عتر فلا يرى في إخراج القيمة حرجا، وذلك لأنه يرى البر والشعير والتمر وغيرها من الأطعمة والأنعام والملح كانت هي نفسها فيما مضى نقودا، وأنها كانت تستعمل كوسيط للمبادلة نظرا لقلة الذهب والفضة، فكانت هذه الأنواع المذكورة سلعا نقدية بمعنى أنها كانت في زمنهم قوتا معتادا للناس يدخر ويتداول كالدراهم، وقد تغير حال الناس الآن، فلا يدخرون لقوتهم شيئا منها، بل إنهم في أغلب الأمصار والمدن المتحضرة يعتمدون في قوتهم على الخبز تُقدمه المخابز للأسواق، فأصبح دفع القيمة في زماننا أجدى للفقير وأنفع[٢].

والذي يظهر بعدما تقدم ذكره من أقوال الفريقين أن الأحوط إخراج الأعيان المنصوص عليها أو أجناسها خروجا من الخلاف واتقاء للشبهات التي أمر النبي ﷺ باجتنابها كما جاء في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»[٣] الحديث، ولقوله ﷺ فيما رواه الترمذي والنسائي من حديث الحسن بن علي أنه حفظ من رسول الله ﷺ قوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة»[٤].

أما إن ألجأت المسلم الضرورة إلى إخراج القيمة كما هو الحال في بعض البلدان الأوربية أو غيرها التي ربما لا يوجد من يستفيد منها لو أخذها طعاما، فلعله يعذر والحال هكذا، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن إخراج القيمة في الزكاة فإنه كثيرا ما يكون أنفع للفقير هل هو جائز أم لا؟

---

(١) انظر فقه الزكاة (٩٤٩/٢) الدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط(٢٢) ١٤١٤هـ

(٢) انظر مجلة الوعي الإسلامي عدد (١١٦) ص (٥٢)

(٣) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث (٥٢) والترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في ترك الشبهات، رقم الحديث(١٢٠٥)

(٤) رواه الترمذي واللفظ له، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم الحديث (٢٥١٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي في كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، رقم الحديث(٥٧١١)

فكان من ضمن جوابه: **الأظهر في** هذا أن إخراج **القيمة لغيرحاجة ولا مصلحة راجحة ممنوع منه** ولهذا قدر النبي ﷺ الجبران بشاتين أو **عشرين درهما،ولم يعدل إلىالقيمة، ولأنه متى جوز** إخراج القيمة **مطلقا فقد يعدل المالك** إلىأنواع ردیئة، **وقد يقع في التقويم ضرر، ولأن الزكاة** مبناها على المواساة **وهذا معتبر في قدر** المال وجنسه، **وأما إخراج القيمة للحاجة أو** المصلحة أو **العدل، فلابأس** به(١).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٨٤/٢٥)

المبحث الثاني

الفقه السياسي للدولة الإسلامية

من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة شمول الإسلام لنواحي الحياة المختلفة وأن الإسلام عقيدة وشريعة، وأن أي فعل يقوم به المسلم يدخل تحت حكم من أحكام الله تعالى إما الوجوب أو الندب أو التحريم أو الكراهة أو الإباحة، فالمطلوب فعله قسمان: الواجب والمندوب.

والمطلوب الكف عن فعله قسمان: المحرم والمكروه.

والمخير بين فعله وتركه القسم الخامس: وهو المباح(١).

فما موقع قضية الحكم بين هذه الأقسام الخمسة؟

إن قضية الحكم من الدين بمكان، يقول الله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين}(٢).

فالدين كما يفهم من هذه الآية ليس جزءا من الحياة بل هو الحياة بأسرها، وهو معيار التفريق بين الخطأ والصواب، ودين الله جاء ليبين العلاقة بين الله والإنسان وبين الإنسان والإنسان حاكما ومحكوما.

وهو المرجع في كيفية استخدام ما سُخر في يد الإنسان من سنن الله في الكون، وهو العدل في القوانين التي يجب اتباعها داخل المجتمع المسلم.

إن الفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا أمر غير ممكن لمن أراد أن يقيم دين الإسلام على نحو صحيح، لأن الدنيا والآخرة في نظر من فهم الإسلام فهما صحيحا مرحلتان من مراحل الحياة المتصلة التي لا تنقطع، أولاها مرحلة السعي والعمل، والأخرى مرحلة النتائج(٣).

والمسلمون إذا أرادوا أن يحيوا حياة إسلامية صحيحة فلا بد لهم من اتباع شرع الله تعالى في كافة أمورهم وأن يحكّموا شريعته في سائر شئون حياتهم، وهذا يتطلب وجود حاكم مسلم يحكم بحكم الله في أرضه وبين خلقه.

---

(١) انظر علم أصول الفقه ص (١٠٥) عبد الوهاب خلاف، دار القلم ط (١٤)

(٢) سورة الأنعام (١٦٢-١٦٣)

(٣) انظر الحكومة الإسلامية ص (١٨ و ٢٦) أبو الأعلى المودوديّ ــ ترجمة أحمد إدريس، الدار السعودية للنشر ١٤٠٤هـ

وبناء على هذا فالحاكم عبدٌ لله ليس له حق التشريع لأنه مخلوق محكوم، مهمته تتركز في اتباع وتنفيذ شرع الله، وله حق الاستنباط والاجتهاد وفق ضوابط محددة مبينة في مكانها ليس هذا موضع الاستفاضة فيها.

وواجب الأمة طاعته وإعانته ما لم يأمر بمعصية، وقد جاءت النصوص الشرعية مجلية هذا الأمر مبينة مكانة الإمام ووجوب طاعته في غير معصية الله ملزمة بالوفاء ببيعته محرمة الخروج عليه ما لم يأمر بكفر بواح، يقول الله عز وجل {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم }[1]، فولاة الأمر يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله ﷺ، ولا يفردون بالطاعة، فقد أعاد الفعل {أطيعوا} مع الرسول لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله، والرسول ﷺ لا يأمر بغير طاعة الله، أما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله فعند إذن لا يطاع[2].

والأحاديث الواردة في حق ولاة الأمر ووجوب طاعتهم كثيرة جدا منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني وإنما الأمير جُنَّةٌ يُقاتل من ورائه ويُتقى به فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا وإن قال بغيره فإن عليه منه»[3].

وفي التحذير من نقض بيعة الإمام حتى وإن جار في حكمه وأظهر المعاصي التي هي دون الكفر، يقول النبي ﷺ: فيما رواه مسلم عن عوف بن مالك[4] عن رسول الله ﷺ قال «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم

([1]) سورة النساء (٥٩)

([2]) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٤٢٩-٤٣٠)

([3]) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى بُه، رقم الحديث(٢٩٥٧) ومسلم، كتاب الإمارة، باب الإمام جنة يقاتل به من ورائه ويتقى به، رقم الحديث(١٨٤١)والنسائي(٤١٩٣)وابن ماجة، كتاب الجهاد، باب طاعة الإمام، رقم الحديث(٢٨٥٩)

([4]) عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني، قيل أبو عبد الرحمن وقيل أبو محمد، شهد فتح مكة، آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، قال الواقدي: شهد خيبر ونزل حمص وبقي إلى خلافة عبد الملك توفي سنة ٧٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء(٢/٤٨٧٤٩٠) والإصابة (٤/٧٤٢_٧٤٣) وتهذيب التهذيب (٤/٤٢٤)

الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم، قيل يا رسول الله: أفــــلا ننــابذهم بالسيف؟ فقال لا ما أقاموا فيكم الصلاة وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فــاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعة»[1]

وفي صحيح مسلم عن نافع[2] قال جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع[3] حـــين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية[4] فقال اطرحوا لأبي عبد الرحمن وســادة فقال إني لم آتك لأجلس أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله ﷺ يقوله سمعت رســول الله ﷺ يقول من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليــس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[5].

على أن ذلك لا يعني إقرارهم على مخالفة الحق أو اتباعهم في الباطل، فقد نهى النـبي ﷺ عن، ذلك ففي صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال «علـــى المــرء المســـلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصيــــة فــلا سمــع ولا طاعة[6]»

والحكمة في وجوب طاعتهم حتى وإن جاروا في حكمهم وأعلنوا بالمعــاصي، ظــاهرة جلية لمن كان له بصيرة نافذة وفَهْمٍ لحكمة الشريعة في الأمر بالصبر على بعض المفاســـد التي يؤدي السعي إلى إزالتها إلى وقوع أضعافها.

يقول ابن أبي العز الحنفي: أما لزوم طاعتهم وإن جاروا، فلأنه يترتب على الخروج مــن

---

(1) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، رقم الحديث (١٨٥٥)

(2) الإمام المفتي الثبت عالم المدينة أبو عبد الله مولى ابن عمر، من أئمة التابعين بالمدينة، أصله من المغرب وقيل من نيسابور، أصابه عبـــد الله بن عمر صغيرا في بعض مغازيه، نشأ بالمدينة، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن،كان كثير الرواية للحديث، ثقـة لا يعرف له خطأ فيما رواه، توفي سنة (١١٧)هـ.انظر البداية والنهاية (٣٤٩/٩) والأعلام للزركلي (٨/٥ـــ٦)

(3) عبد الله بن مطيع بن الأسود القرشي العدوي، ولد في حياة النبي ﷺ، كان أمير أهل المدينة من قريش وغـــيرهم في وقعـــة الحـــرة، استعمله ابن الزبير على الكوفة ثم غلبه عليها المختار بن أبي عبيد فأخرجه فلحق بابن الزبير فكان إلى أن قتل معه في حصار الحجاج لـــه وحمل رأسه مع رأس ابن الزبير وكان ذلك سنة ٧٤هـ انظر الإصابة (٥/٢٥ـــ٢٧) و تهذيب التهذيب (٢٧٣/٢)

(4) ، يد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب أمير المؤمنين أبو خالد الأموي، بويع له بالخلافة في حياة أبيه أن يكون ولي العهد من بعـده، وتسلم الملك عند موت أبيه سنة ٦٠هـ واستمر إلى أن توفي بحوران من أرض حمص، سنة ٦٤هـ، وفي عهده فتح المغرب الأقصـــى على يد الأمير عقبة بن نافع، انظر سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٥ـــ٣٦ـــ٤٠) و البداية والنهاية (٢٤٨/٨) والأعلام للزركلي (١٨٩/٨)

(5) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة الجماعة عند ظهور الفتن، وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقـــة الجماعة، رقم الحديث(١٨٥١)

(6) رواه مسلم واللفظ له، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، رقم الحديث (١٨٣٩) والنسائي (٤٢٠٦)

طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل[١].

يتضح من ذلك أن قضية الحكم من الدين بمكان، وأن السياسة جزء من الدين وأن إقامة الدين لا تكون بالوعظ والإرشاد فقط، بل لابد من قوة تمكن لإقامة شرع الله وتنفيذ حدوده وجهاد أعدائه.

وفي تفسير قول الله تعالى{واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا}[٢] يقول قتادة: إن نبي اللهﷺ علم أن لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدُهم ضعيفَهم.

قال ابن كثير تعليقا على كلام قتادة وبيانا لمعنى الآية: لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا قال تعالى:{ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس }[٣] وفي الحديث «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد وهذا هو الواقع[٤].

ولقد مر بأمة الإسلام ثلاثة عشر قرنا كانت الشريعة فيها محكمة في كافة شئون الحياة يخضع لها الحاكم والمحكوم، لا يُبَايَعُ فيها حاكم إلاوكان أول مهماته القيام بأمر الدين وتحكيم شرع رب العالمين، وإن جار حاكم أو قاض في حكمه بأن زاغ عن حكم الله في حادثة معينة كان ذلك على وجل واستحياء وإحساس بالذنب وزعم بأن الذي دعاه

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص (٤٣٠)

(٢) سورة الإسراء (٨٠)

(٣) سورة الحديد (٢٥)

(٤)تفسير القرآن العظيم (٥٩/٣)

لذلك مراعاة الحال في تلك القضية والاجتهاد في إصابة الحق فيها، خلا فترات ضعف تسلطَ فيها أعداء الإسلام على بعض بلاد المسلمين فساموا المسلمين الخسف بأن حكموهم بقوانين جاهلية أحلوها مكان أحكام الشريعة، لكن الحق لا يلبث أن يعود إلى نصابه حين يزول أثر الاعتداء فيكون أول المهمات إقصاء حكم الجاهلية وعودة التحاكم إلى حكم الله تعالى.

ولم يدر بخلد أحد من المسلمين أن تقوم في بلاد المسلمين حكومات تدعي الإسلام وهي في نفس الوقت تعلن أن التحاكم ليس إلى شرع الله بل إلى دساتير مستوردة من الشرق أو الغرب، لكن ذلك ـــ للأسف ـــ وقع حين غلب الاحتلال الصليبي على كثير من بلاد المسلمين فنحى الشريعة جانبا واستبدلها بقوانينه الجاهلية، وقد عد المسلمون هذا إهانة لا تعدلها أي إهانة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: والإنسان متى أحل الحرام المجمع عليه وحرم الحلال المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله على أحد القولين {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}[١] أي هو المستحل للحكم بغير ما أنزل الله[٢].

ولما غزا التتار بلاد المسلمين وسيطروا على بعض النواحي كانوا يتحاكمون إلى شريعتهم التي يسمونها (الياسق) وكانوا يظهرون الإسلام ومع ذلك حكم العلماء بكفرهم وجواز قتالهم.

يقول الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون}[٣]: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ماسواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به، من

---

(١) سورة المائدة (٤٤)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٣/ ٢٦٧ ـــ ٢٦٨)

(٣) سورة المائدة (٥٠)

الضلالات والجهالات مما يضعوها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدموها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكّم سواه في قليل أو كثير[1].

وبمثل ذلك قال بعض العلماء المعاصرين الذين شاهدوا ما آل إليه أمر المسلمين في كثير من بلاد العالم الإسلامي وكيف ابتلوا بحكام صرحوا بإقصاء الشريعة والاحتكام إلى القوانين الوضعية بحجة أن هذا ما تقتضيه ضرورة العصر ومسايرة الأمم المتقدمة، فتضافرت فتاوى العلماء في بيان أن هذا من الكفر الأكبر المخرج من ملة الإسلام.

يقول الشيخ أحمد شاكر بعد أن عقد مقارنة بين تحكيم التتار لقانونهم وكيف أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام أتى عليها الزمن سريعا فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت، وبين ما آل إليه حال الأمة في هذا العصر فيقول: ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا وأشد ظلما وظلاما منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة والتي هي أشبه شيء بذلك الياسق الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون إلى الإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك أباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا (الياسق العصري) ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم «رجعيا» و«جامدا» إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة، ويصرحون ولا يستحيون بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين، إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة[2].

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ــ مفتي الديار السعودية السابق: إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد

---

(1) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٧)

(2) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (٤/ ١٧٣و ١٧٤) اختيار وتحقيق أحمد محمد شاكر

ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين في الحكم به بين العالمين والرد إليه عند تنازع المتنازعين، مناقضة ومعاندة لقول الله عز وجل: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا}(١)(٢).

ثم يبين الشيخ الحال التي يكون فيها الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا كفر عمل لا يخرج من الملة وهو الذي يسمى كفر دون كفر، والحالات التي يكون الحاكم فيها كافرا كفر اعتقاد مخرجا من ملة الإسلام، ومنها القسم الخامس الذي وصفه بقوله: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعدادا وإمدادا وإرصادا وتأصيلا وتفريعا وتشكيلا وتنويعا وحكما وإلزاما، ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني وغيرها من القوانين ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة للشهادة بأن محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة(٣).

وقبل الانتقال من هذه النقطة لابد من الإشارة أنه لا يندرج تحت هذا الحكم الراية التي تلتزم بالشريعة ابتداء، وتتحاكم إليها على الجملة فالدولة التي هذا حالها تجب لها الطاعة في ما هو طاعة لله ورسوله ﷺ، ولا يصح نزع اليد من طاعتها أو الخروج عليها أو تكفيرها حتى وإن حدثت بعض المخالفات الجزئية أثناء التطبيق ما دامت الدولة تدين بالشريعة وتتحاكم إلى ما جاء فيها وتعلن أن الحق هو ما أقرته وأن الباطل هو ما خالف

---

(١) سورة النساء (٥٩)

(٢) تحكيم القوانين ص(١) الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ــ دار الوطن ط (٢) ١٤١١هـ

(٣) المرجع السابق ص(٢٠-٢١)

أحكامها[1].

واقع البلاد الإسلامية التي تدعي أنها ديمقراطية في هذا العصر:

تمخض الواقع السياسي في كثير من بلاد المسلمين في هذا العصر عن وجود نوعين من أنظمة الحكم هما:

١ـ النظم العسكرية القائمة على فكرة الحزب الواحد، وهذه النظم لا يسمح فيها بالتكتل الحزبي أو الرأي الآخر المخالف لما ينادي به الحزب الحاكم، ومع ذلك فإن هذا النوع من الأنظمة يتشدق بأنه ديمقراطي وأن الشعب قد اختاره وارتضاه وأنه يمثل الأمة، وأن دساتيره وأنظمته التي يسنها قد اختارها بناء على رغبة الشعب الذي يحكمه.

وهذه الأنظمة لايدان للإسلاميين في المشاركة فيها أو تقويم اعوجاجها إلا بالقوة العسكرية التي استعجل بعض الإسلاميين التغيير عن طريقها رغم عدم استكمالهم لأسباب القوة اللازمة لتحقيق ما يريدون، فباءت محاولاتهم بالفشل وعادت نتائجها بالضرر البالغ على الدعوة والدعاة في تلك البلدان، بل طال أذى هذه الأنظمة كل ما يمت للإسلام بصلة فكان الفساد المترتب على تلك المحاولات أضعاف المصالح المتحققة.

وهذه الأنظمة كما تبين لا مدخل للإسلاميين فيها بأي شكل من الأشكال فلذلك ليست معنية بهذه الدراسة.

٢ـ الأنظمة القائمة على التعدد الحزبي وهذه الأنظمة يطبق فيها بعض مبادئ الديمقراطية ويسمح بوجود أحزاب معارضة تنتقد نظام الحكم القائم، بل ولها الحق نظرياً في الوصول إلى السلطة إن وجدت التأييد الشعبي الكافي.

وهذه الأنظمة اجتذبت إليها بعض الإسلاميين الذين رأوا أن دخول المعترك السياسي وتولي مناصب قيادية في الدولة أسلوب من أساليب التغيير المتاحة، فسعوا إلى تكوين أحزاب سياسية تحمل شعارات إسلامية، أو التحالف مع أحزاب قائمة، ودخول البرلمانات وغيرها من المؤسسات السياسية في الدولة، بحجة أن هذا العمل هو الوسيلة الممكنة للتمكين للإسلام، أو التقليل من المفاسد التي ترتكبها هذه الأنظمة، وتحصيل

---

(1) انظر مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية (٦٢ــ ٦٣)

بعض المصالح ومزاحمة العلمانيين وعدم فسح المجال لهم في الاستحواذ على كافة المقاعد في البرلمان مما يتيح لهم الحرية في اتخاذ القرارات وسن الأنظمة التي تحقق أهدافهم.

وقبل أن نبين مواقف الإسلاميين المختلفة من هذا العمل ينبغي أن نعرف بالنظام الديمقراطي الذي يسعى بعض الإسلاميين للمشاركة فيه والاستفادة من إيجابياته للتمكين للإسلام من خلاله، وبيان الأصول التي استمد منها.

الديمقراطية:

ينبغي لمعرفة معنى كلمة الديمقراطية التعرف على أصل الكلمة وماذا تعني عند واضعيها ومعرفة البيئة التي نشأت بها هذه الكلمة والظروف التي أحاطت بها.

تتكون كلمة الديمقراطية من لفظين يونانيين هما(**demos**) وتعني الشعب و(**kratos**) فصارت الكلمة المركبة من هاتين الكلمتين تعني حكم الشعب أو سلطة الشعب[١].

والتطبيق الصحيح للديمقراطية حسب ما تدل عليه الكلمة يعني أن تكون السيادة لجميع الأمة وأن الشعب يحكم نفسه بنفسه، فسن القوانين وتصريف الشئون الإدارية للدولة والقضاء، حق مشاع لجميع أفراد المجتمع لا تمييز فيه بين فرد وآخر.

ويرى الأستاذ محمد قطب أن تطبيق الديمقراطية على هذا النحو لم يحدث إلا عند الإغريق في مدينتي أثينا وأسبرطة، حيث كانت تقوم في كل من المدينتين حكومة يطلق عليها اصطلاحا اسم حكومة المدينة، وكان كل أفراد الشعب من الرجال يشاركون في حكم المدينة، فيجتمعون في هيئة جمعية عمومية فيتشاورون في كل أمور الحكم فينتخبون الحاكم ويصدرون القوانين ويشرفون على تنفيذها ويضعون العقوبات على المخالفين.

فكان حكم الشعب مطبقا بصورة مباشرة في كلتا المدينتين، وكانت التسمية منطبقة على الواقع[٢].

لكن هذه الصورة من صور الديمقراطية لم تستمر طويلا حيث انتهت بانتهاء الحكومة في هاتين المنطقتين، ومرت الديمقراطية بأنماط مختلفة خضعت فيها لظروف الحكم القائمة التي أسوأها عهد الإقطاع الذي حكم أوربا أكثر من ألف عام في ظل الإمبراطورية

---

(١) حقيقة الديمقراطية ص (١٥) محمد شاكر الشريف، دار الوطن ط (١) ١٤١٢

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة (١٧٨) وحقيقة الديمقراطية ص (١٠)

الرومانية والقانون الروماني، حيث لم يكن للشعب وجود إلا بوصفه قِطعا آدمية لا كرامة لها ولا حقوق.

وحين اعتنقت أوربا الدين النصراني ووقعت تحت سلطة الباباوات ورجال الدين لم يتغير الأمر، لأن الكنيسة لم تحاول تطبيق الشريعة المنزلة من عند الله فقد كان الفصل بين الدين والسياسة قائما من أول اعتناق الدولة الرومانية للنصرانية، حيث اعتنقتها عقيدة محرفة ولم تأخذ من الشريعة ـ المنزلة في التوراة والمعدلة تعديلا جزئيا في الإنجيل ـ إلا ما يتعلق بالأحوال الشخصية، أما الأمور الجنائية والمدنية وعلاقة الحاكم بالمحكوم وغيرها من شئون الحياة، فالذي يحكمها هو القانون[1].

أما ما يقال عن فترة الحكم الديني أو الحكم الثيوقراطي في أوربا، فالذي يتبادر إلى ذهن من سمع هذه العبارات أن القساوسة والرهبان كانوا يحكّمون ما بين أيديهم من أحكام اشتملت عليها كتبهم المقدسة، وأنهم سخروا ما أتيح لهم من سلطة للتمكين لما يعتقدونه حكم الله، لكن الواقع كان بخلاف ذلك، حيث استغل رجال الدين سلطتهم في إخضاع الملوك والأمراء لأهوائهم الشخصية وما يعود عليهم بالمصلحة، ومع ذلك اعتبر الأوربيون ما تم حكما دينيا لأنهم لم يفرقوا بين الدين وبين رجال الدين فهم قد ألفوا اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله تعالى.

على أن الصراع بين الملوك ورجال الدين قد استمر درحا من الزمن، وكلما أتيحت الفرصة لأحد الملوك في التحرر من شيء من سلطة رجال الدين لم يتوان في استغلالها، واستمرت العلاقة بين الطرفين بين مد وجزر.

لقد تحول رجال الدين إلى طواغيت ومحترفين سياسيين مع نبذ لشريعة الله ليحل محلها شهوة عارمة في التسلط، ورغبة شرهة في الاستبداد، عملت على طمس الدين وتعطيل التشريع، ثم فرضت لنفسها وصاية على الملوك والأمراء ترغمهم على الخضوع المذل لها وتجعل معيار صلاحهم منوطا بمقدار ما يقدمونه لها من مراسم الطاعة وواجبات الخدمة، وظل النصر حليفا للكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة

---

(1) انظرمذاهب فكرية معاصرة (٤٦٢)

وهيكلها التنظيمي الدقيق واستبدادها المطلق حتى أن الباباوات كانوا هم الذين يتولـــون تتويج الملوك والأباطرة كما كان بإمكانهم خلع الملوك، ولم يكن باستطاعة أحد الانفلات من ذلك، ومن رفض الإذعان فإن من حق البابوية أن تعلن الحرب الصليبية عليه وتصــدر صكا بحرمانه، والتاريخ الأوربي حافل بأمثلة كثيرة على ذلك.

لكن محاولات الملوك للتخلص من سلطة رجال الدين لم تتوقف فقد استمر الملـــوك في المطالبة بأن تكون السلطة الزمنية خالصة لهم دون تدخل من الكنيسة، على أن تســـتأثر الكنيسة بالسلطة الروحية، ووجد الملوك مستندا يؤيدهم في مطالبهم وهو مـــا يســـمى بنظرية الحق الإلهي المقدس.

يقول ج. هــ راندال: نشأت نظرية الحق الإلهي للملوك في أول عـــهدها كمحاولـــة لتحرير الحكومة المدنية أو العلمانية من رقابة البابا والكهنة، كما أنها كـــانت ردا علـــى دعواه أن له حقا إلهيا في السيطرة على الأمور الزمنية[1].

ونظرية الحق الإلهي مستمدة من نظرية رومانية تسمى نظرية العقد الاجتماعي تقـــول بأن أساس السلطة المدنية هو الشعب وأن الشعب تنازل عنها للحاكم.

يقول راندال: تعود أصول فكرة العقد الاجتماعي إلى الفكر الروماني وفكر القـــرون الوسطى معا، وقد كانت الإمبراطورية الرومانية على القول بأن كل السلطة وكل حق في وضع القوانين يعودان للشعب الروماني، غير أن الشعب تنازل بموجب قانون شهير عـــن هذه الحقوق للإمبراطور، فجميع حقوق الشعب الروماني وجميع ســـلطاته انتقلـــت إلى الإمبراطور، وله وحده حق إصدار القوانين وحق تفسيرها.

وعندما تم إحياء القانون الروماني في القرون الوسطى، انتبه الإمبراطور إلى هذه النظرية واتخذها سلاحا ضد سيطرة الكنيسة ثم تبعه في ذلك جميع الأمراء، وهكذا نشأت نظريـــة العقد الاجتماعي القائلة بأن كل سلطة مدنية ترتكز في أساسها على الشعب وأن الشعب قد حولها إلى الحاكم ليمكنه من القيام ببعض الوظائف الضرورية[2].

وقد دافع بعض الكتاب الأوربيين عن هذه النظرية خصوصا (مكيافلي) في كتابه الـــذي

---

(1) تكوين العقل الحديث ص (٢٧٧) ج. هــ. راندال ـــ جورج طعمة ـــ دار الثقافة

(2) المرجع السابق ص (٨١)

سماه «الأمير» وعرى فيه السياسة من القناع الأخلاقي المستمد من الدين وأعطى فيه الشرعية للوسائل الدنيئة التي يستخدمها الحاكم بحجة أن الغاية تبرر الوسيلة (١).

أما النظام الاجتماعي الذي هيمن على الحياة الأوربية طيلة القرون الوسطى فهو نظام الإقطاع الذي يعد أبشع وأظلم النظم الاجتماعية في التاريخ، والملامح العامة لهذا النظام تقوم على تقسيم المجتمع إلى طبقتين: إحداهما مترفة وهي طبقة السادة الملاك ورجال الكنيسة، وطبقة مستعبدة وهي طبقة العبيد ورقيق الأرض، التي يتكون منها الشعب، وليس لهذه الطبقة حقوق ولا مشاركة في السلطة بأي شكل، وكل الواجبات مناطة بها إضافة إلى الإتاوات والعشور والعمل بالمجان في أرض الكنيسة والتجنيد في جيوشها لتأديب الخارجين على سلطانها.

وهذه المظالم المتراكمة على هذه الطبقة ولدت لديها الإصرار على تغيير هذا الواقع المؤلم، أما نقطة الانطلاق فهي المجاعة التي وضعت الفقراء على حافة الانهيار وعدم القدرة على تحمل ضرائب جديدة مما ولد لديهم العزم على السير في الاتجاه الصحيح ــ في نظرهم ــ وهو مقاومة القوى المسئولة عن الفقر والمتمثلة برجال الدين والنبلاء؟ وبدأ الناس يتساءلون قائلين: لماذا لا يحكم الشعب نفسه حكما نيابيا برلمانيا يكون الإصلاح فيه عن طريق الشعب ويتساوى الجميع في الأعباء؟

ومما ينبغي التنبه له: الأثر البالغ الذي تركه احتكاك الأوربيين بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية، وفي الأندلس التي وفد إليها المبتعثون الأوربيون لتلقي العلم على أيدي المسلمين، حيث أدرك الأوربيون حجم المعاناة التي يعيشونها حين شاهدوا ما ينعم به المسلمون من حرية وما يتمتع به الأفراد من حقوق في ظل الإسلام.

كل هذه العوامل مجتمعة أدت في النهاية إلى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م والتي كانت نقطة التحول الكبرى في تاريخ أوربا الحديث والمعاصر حيث تلتها ثورات في أنحاء متعددة من القارة الأوربية.

وقد كانت الديمقراطية هي النظام الذي اختارته أوربا بديلا للإقطاع، وذلك لأسباب

---

(١) انظرمذاهب فكرية معاصرة (٤٦٦ــ ٤٦٧)

كثيرة حدث بأوربا لهذا الاختيار، يبينها الأستاذ محمد قطب بقوله: إن طبقة الشعب المكبوتة وهي الطبقة الثائرة التي تسعى إلى المشاركة في السلطة، والطبقة الرأسمالية وهي الطبقة الجديدة التي صار في يدها المال بدلا من طبقة الإقطاعيين بعد تحول الإنتاج من زراعي إلى صناعي تريد انتزاع السلطة من الطبقة المالكة في عهد الإقطاع، فكانت الديمقراطية هي اللعبة المناسبة التي توفق بين هاتين الطبقتين.

مع الأخذ بالاعتبار الفكر الإغريقي القديم وتأثيره على المفكرين الغربيين وهو فكر يحمل في طياته صورة تذكارية للديمقراطية من أيام أثينا وأسبرطة.

ثم الشعارات التي وضعتها الماسونية اليهودية للثورة الفرنسية وهي الحرية والإخاء والمساواة[١]، والديمقراطية هي المنطلق الأنسب لهذه الشعارات، وتبلور ذلك بإطار قلنوني ملزم، كان ذلك في إعلان الحقوق الذي صدر عام ١٧٨٩م حيث جاء في المادة الثالثة "الأمة مصدر السيادة ومستودعها، وكل هيئة أو شخص يتولى الحكم إنما يستمد سلطته منها".

ثم ثُبت ذلك في الدستور الفرنسي الصادر عام ١٧٩١م فنص على أن السيادة ملك للأمة ولاتقبل التجزءة ولا التنازل عنها ولا التملك بالتقادم، ثم انتشرت فكرة الديمقراطية على المستوى العالمي وأخذت بها دول أوربية أخرى، واحتاج الأمر إلى فترة طويلة من الزمن وإلى جهود مضنية، وإلى كفاح استمر قرابة قرن من الزمان لتستقر الديمقراطية في صورتها الحالية التي نراها عليها في الدول الأوربية والولايات المتحدة مع اختلافات جزئية بين هذه الدول لا تؤثر في صورة الديمقراطية العامة ومبادئها الرئيسية[٢].

---

(١) يراجع في ذلك كتاب:حكومة العالم الخفية. لشيريب سبيريدوفيتش ص (٧٩) وما بعدها، وكتاب: أحجار على رقعة الشطرنج، لوليم غاي كار ص (٧٥) الفصل الخاص بالثورة الفرنسية، حيث بين الكاتبان دور اليهود في الثورة الفرنسية وكيف استغلوا أحداثها لخدمة مصالحهم، ورفعوا شعارات الحرية والإخاء والمساواة، الشعارات التي قامت عليها الثورة الفرنسية، ويقصدون بالحرية تحطيم القيود الأخلاقية والتقاليد الموروثة، وبالمساواة كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي كانت في السابق حائلا بينهم وبين الانخراط في أجهزة الدولة وتنظيماتها وإذابة الفوارق الدينية بينهم و بين غيرهم، على أنه لابد من ملاحظة مبالغة الكاتبين في إعطاء اليهود كل الدور في صنع الثورة وأنهم الأيدي الخفية فيها، وهو ما يتبجحون به في بروتوكولاتهم، والحقيقة أنهم استغلوا الأوضاع المتفجرة وأشعلوا عود الثقاب في البارود القابل للاشتعال، كما لا ينكر دورهم في تحويل الثورة من ثورة ضد فساد رجال الدين واستغلالهم الدين لخدمة مصالحهم الذاتية إلى ثورة ضد الدين نفسه، وجعلوا لفظة الدين عند الشعوب الأوربية مرادفة للظلم والرجعية والاستبداد، فكان من العبارات التي رددتها الجماهير الثائرة المضللة (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)

(٢) انظر مذاهب فكرية (١٨٠-١٨١) وتاريخ أوربا الحديث والمعاصر (٢٨٢و٢٨٩) عبد الفتاح أبو علية و د: إسماعيل ياغي، دار

الحقوق السياسية في النظم الديمقراطية:

أبرز سمات الديمقراطية في آخر أمرها هي الحقوق السياسية التي يتمتع بها الفرد فله حق الانتخاب وحق الترشيح وحرية الكلام وحرية الاجتماع وحق الاحتجاج، ومع نمو الديمقراطية نمت هذه الحقوق، فمن حق الشعب الإشراف على الحكومة وتوجيهها وحق نقدها والاعتراض على أعمالها ولذلك صورتان:

إحداهما: التمثيل النيابي ويشمل حق الانتخاب وحق الترشيح لدخول البرلمان.

الثانية: حق الاجتماع وإبداء الرأي خارج البرلمان، ويشمل الصحافة والاجتماعات السياسية والمظاهرات السلمية التي تقام للمطالبة بأمر معين أو الاحتجاج على أمر معين.

وفي داخل البرلمان تتوفر للعضو كل الضمانات التي تتيح له حرية التعبير عن رأيه وأن ينتقد الحكومة بما شاء، ويحاط بالحصانة البرلمانية التي تكفل عدم محاسبته على مايقول.

وبهذا يكون لدى العضو حرية واسعة لتوجيه الحكومة إلى الطريق الذي يرى أنه الصواب، ويملك البرلمان في مجموعه سلطة توجيه الحكومة وتقييد تصرفاتها وجعل الشعب حارسا على هذه التصرفات، أما خارج البرلمان فالحقوق السياسية تتضمن حرية التعبير عن الرأي وحرية النقد وحرية الاحتجاج[1].

واقع الأنظمة الديمقراطية:

عند مقارنة حال الشعوب ومعرفة قدر معاناتها في ظل الإقطاع بما تحقق لها في ظل النظام الديمقراطي في صورته التي انتهى إليها، يتبين مدى التفاوت الشاسع بين النظامين، وكيف أن الإنسان نال كثيرا من حقوقه المسلوبة وأصبح له دور في الحياة يستطيع أن يؤديه، واستعاد شيئا من إنسانيته المفقودة.

لكن هذا الجانب الذي يبدوا لأول وهلة أنه مضيء ليس هو الجانب الوحيد بل ثمة جوانب أخرى شديدة القتامة، والتطبيق الواقعي للديمقراطية يكشف عوارها ويوضح حقيقة الحرية والمشاركة في الحكم التي يشعر بها الإنسان الأوربي في بلدانه التي يعد

المريخ ١٣٩٩هـ والإسلاميون وسراب الديمقراطية (٣٨:٣٩) والديمقراطية الغربية في ضوء الشريعة الإسلامية (٢٦- ٢٧) محمود الخالدي، مكتبة الرسالة ط (١) ١٤٠٦هـ

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة (١٩٣-١٩٥)

تطبيقها للديمقراطية الصورة المثالية للتطبيق مقارنة بكثير من دول العالم التي نصيبها من الديمقراطية مجرد دعوى عارية عن الصحة، وقد تبين فيما سبق أن أكبرالدعاوى التي تقوم عليها الديمقراطية هي أن الحكم يكون للشعب وأن الشعب هو الذي يحكم نفسه ويختار حكامه، ومن عاش في بلد ديمقراطي أو تابع ما يجري في البلدان الأوربية التي تتناقل وسائل الإعلام تفاصيل ما يجري فيها يتبين له حقيقة هذه الدعوى وكيف يجري استفتاء الجماهير فيما يسن من أنظمة أوما يُجرى من إصلاحات، فعندما يراد وضع دستور لبلد من البلدان فإن مهمة وضع هذا الدستور تسند إلى هيئة سياسية تختار من بين كبار المحامين أو الحقوقيين المشرعين، ثم يقوم من وقع عليهم الاختيار بوضع دستور لذلك البلد إما من بنات أفكارهم وإما نقلا من دساتير لدول أخرى مع إجراء بعض التعديلات عليها حسب ما تدعو إليه الحاجة، ثم يطبق هذا الدستور على الناس دون الرجوع إليهم أحيانا، أو يعرض على ما يسمى بالمجلس التشريعي ليرى رأيه في تعديل بعض المواد أو إقرارها، أو عرضه على الملأ الذين ليس عند الغالبية العظمى منهم أدنى إطلاع على أمور الدستور أو سن القوانين، لأن تنظيم أمور الدولة وأجهزتها وصلاحيات كل جهاز من الأمور التي لا يتقنها إلا أهل الخبرة والاختصاص.

أما تصويت الناخبين واختيارهم لقرار معين فيتم عن طريق إقناعهم بجدوى هذا القرار الذي يجري التصويت عليه والذي تريد الدولة كسب أصوات الناخبين لإعطاء ذلك القرار صفة الشرعية، فتعمد الدولة إلى تشكيل الرأي العام وتهيئته لتقبُل ذلك الرأي ثم المطالبة بتحقيقه بصورة يبدو فيها الرأي كأنما تشكل من تلقاء نفسه دون تأثير من جهات رسمية لها مصلحة في تأييد ذلك القرار.

فتبدأ وسائل الإعلام في نشر أخبارٍ موجهةٍ تثير عند الرأي العام نوعا من التطلع والانتباه ثم يتطور الأمر حتى يصبح ذلك الخبر هو حديث الناس على كافة مستوياتهم ثم تبدأ وسائل الإعلام في استطلاع آراء الناس حول ذلك القرار، فيتبين أن الجميع متحمس له ويطالب بإقراره، وحينها تتحقق أهداف الحكومة ويطبق القرار نزولا عند رغبة

الجماهير المخدوعة[١].

أما القول بأن الشعب يختار حكامه فإنها مغالطة يكذبها الواقع، ففي أي دولة بها ديمقراطية حقيقية ــ وليست مُدَّعَاة ــ حين يريد الشعب اختيار حاكم جديد فإن النظام يسمح لأي واحد من أفراد الشعب بترشيح نفسه للانتخاب، فإذا تقدم المرشحون أتيحت لهم الفرصة للقيام بحملات انتخابية ثم تحدد الفئات التي يحق لها الانتخاب والتي غالبا تقيد بالسن والجنس فينتهي الأمر إلى أن يكون الذين يحق لهم الانتخاب أقلية ضئيلة تتنافس لاختيار مرشح من بين عدة مرشحين تتوزع بينهم أصوات الناخبين، والذي يفوز بأكبر عدد من الأصوات هو الذي يرشح للرئاسة فينفرد بحكم عامة الشعب بينما هو في الواقع لم يختاره إلا نسبة قليلة من الشعب، بغض النظر أيضا عن الوسائل التي يسلكها المرشحون في إقناع الناس لاختيارهم.

وهذا كله في الدول التي تعد مثالية في تطبيقها لمبادئ الديمقراطية فما بالك بالدول التي لا تعرف من الديمقراطية إلا اسمها وفي مقدمة هذه الدول البلاد الإسلامية، لذلك يصف بعض منتقدي النظام الديمقراطي بأنه حكم الأقلية وأن الشعب لا يختار حكامه بشكل صحيح ولا يضع دساتيره أوقوانينه، وأن تحقق الشعارات التي تدعيها الديمقراطية مجرد خيال لا يتحقق منه شيء على أرض الواقع[٢].

الديمقراطية في البلاد الإسلامية:

من الأخطاء التي يقع فيها كثير من المسلمين أنهم يحمِّلون أعداءهم من اليهود والنصارى وغيرهم ما يقع لهم من مصائب ومشكلات، وسبب ذلك جهل كثير منهم بحقيقة دينهم وبما ورد في كتاب ربهم من آيات بين الله تعالى فيها أسباب تسليط الأعداء على المسلمين ونيلهم منهم، وما أخبار غزوة أحد عنا ببعيد فقد أصيب المسلمون في هذه المعركة وكانت الغلبة فيها لعدوهم بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النصر، فاستغرب بعضهم كيف يهزم المسلمون وهم على الحق وقائدهم رسول الله ﷺ فكانت

(١) انظر الديمقراطية والحرية(٢٨-٢٩) ومذاهب فكرية معاصرة(٢٠٧) والديمقراطية الغربية في ضوء الشريعة الإسلامية (٥٤-٥٥)

(٢) انظر الديمقراطية والحرية (٣١-٣٣)

الإجابة في قول الله تعالى {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير}[1] فبين الله تعالى أن الهزيمة وقعت للمسلمين بسبب ما اقترفته أيديهم وذلك بمخالفة الرماة لأمر النبيﷺ فتحول النصر إلى هزيمة، يقول الله تعالى: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين}[2].

فمهما بلغت قوة الكفار وإحكامهم للخطط التي يحيكونها ضد المسلمين فإن المسلمين لن يؤتوا إلا من قبل أنفسهم، وسنة الله تعالى لا تتغير ولا تحابي أحدا، يقول تعالى: { ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[3]، وأوضحها النبيﷺ فيما ثبت عنه في صحيح مسلم وغيره عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا [4]

ونتيجة للوهن الذي أصاب الأمة الإسلامية في عصورها الحديثة حين أقبلت على الدنيا وتركت الجهاد وكرهت الموت فابتليت بالضعف المادي والمعنوي ومنيت بالذل وتسليط

---

(1) سورة آل عمران (١٦٥)

(2) سورة آل عمران (١٥٢)

(3) سورة الأنفال (٥٣)

(4) رواه مسلم واللفظ له، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث (٢٨٨٩) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثا في أمته، رقم الحديث (٢١٧٦) وابن ماجة، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢)

الأعداء، في حين كان عدوها ينفض عنه غبار الجهل ويأخذ بأسباب القوة المادية فتحققت له القوة العلمية والعسكرية فانطلق مدفوعا بالحقد الصليبي ــ الذي يزداد قوة مع تعاقب السنين ــ إلى البلاد الإسلامية فبسط نفوذه عليها واقترنت سيطرته العسكرية بحملات التضليل الفكري التي وقع فريسة لها كثير من المسلمين فأحكمت دول الاستعمار على كثير من بلاد المسلمين سيطرتها الفكرية والثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية فأصبحت هذه الدول مسلوبة الإرادة يوجهها الاستعمار كيفما شاء فتثقفت بثقافته وتبنت أفكاره وسياسته وبلغ الأمر بكثير من أبناء المسلمين أن أصبحت غاية الاستعمار هدفا من أهدافهم بل مطلبا شعبيا وأملا يسعون لتحقيقه.

ومما حرص الاستعمار على زرعه في بلاد المسلمين والتمكين له واستمراره بعد رحيل الاستعمار إنشاء الأحزاب التي تقوم على التنكر للدين، لتخلفه بعد رحيله وتتبع خطاه، فأقامت تلك الأحزاب أنظمة حكم اعتمدت فلسفة الديمقراطية واعتمدت وسائلها في الحكم من مجالس نيابية تأخذ بنفس السبل البرلمانية الغربية، من اعتماد لرأي الأكثرية والتسوية بين المواطنين في الحقوق السياسية، بغض النظر عن الدين والعدالة والأمانة حتى اتسع المجال لكل المنحرفين فإذا بهم هم أهل الحل والعقد والرأي والأمانة وفي يدهم أزِمَّة الأمور في بلاد المسلمين[1].

ولما غزت الأفكار الديمقراطية بلاد المسلمين، وبدأ بعضهم يتطلع إلى التجربة الديمقراطية الغربية على أنها التجربة المثلى والنموذج الذي يحتذى، كان على الفكر الإسلامي أن يواجه هذه المتغيرات، ووجد داخل الحركة الإسلامية اتجاهين متضادين:

أولا: اتجاه الرفض وعدم القبول بالتعددية الحزبية والشمولية السياسية ونبذ الديمقراطية وكافة الأفكار الآتية من الغرب، والقول بأن هذا هو حكم الإسلام، ورأوا أن المشاركة السياسية لهذه الأنظمة أمر متصل بأصل الإسلام وناقضا لعقده، وأن المشاركة لأنظمة أقصت حكم الله جانبا، لا تعدوا كونها تلاعبا بدين الله وإقحاما له فيما ينبغي أن يتره عنه.

([1]) انظر الديمقراطية والحرية (٥٧) ومقدمة في فقه أصول الدعوة (٣٣ــ ٣٤)

ثانيا: اتجاه آخر توفيقي يحاول أن يساير الواقع ويرى أن الإسلام في عصر استضعاف، وأن الوضع يستلزم بعض التنازلات عن الوضع الأمثل المنشود استجابة للمتغيرات الواقعية ورغبة في مهادنة السلطات وعدم الدخول في نزاع معها وإيثارا للدعوة السلمية والتأثيرعلى مجرى السياسة من داخل البرلمان ودخول المجالس النيابية، فشاركوا في الانتخابات، ووضعوا في حسباهم أن أقل مكسب يحصلون عليه هو إعلان صوت الإسلام داخل الأجهزة السياسية التي تسيطر على حياة الناس، لإقامة الحجة على من يخفى عليهم الحكم، وتنبيه الغافلين لمطالب الأمة التي حيل بينها وبين تحقيقها فقبلوا بالتعددية الحزبية ولم يتحرجوا في التعامل مع الديمقراطية، بما تقتضيه من دخول في الانتخابات والبرلمان(١).

والمتأمل للساحة الإسلامية يرى أن معظم الجماعات الإسلامية بنت مخططاها في التغيير على مبادئ النظام الديمقراطي، فهي بين مشاركة فيه، أو مدافعة عنه، إضافة إلى الوعود التي تلزم نفسها بها في حال وصولها للحكم بأنها ستجعله ديمقراطيا، وأن مجلسها النيابي ستتاح فيه الفرصة لكافة الطوائف بأن يكون لها فيه ممثلين، يتبنون مطالبها ويتحدثون باسمها.

كما تعد بإطلاق الحريات للأحزاب في التعبير عن كافة الآراء والاتجاهات، مع عدم التعرض لها حال إعلانها أو الدعوة إليها.

وقد انبرى عدد غير قليل من الكتاب الإسلاميين للدفاع عن هذا المنهج، وسارع بعضهم إلى ترشيح أنفسهم عند أول بادرة سنحت لهم.

بينما تصدى لهم مجموعة أخرى رأت أن خطورة هذا المنهج لاتقتصر على ما أصاب العمل الإسلامي من تخبط وتقهقر بسبب سلوك هذا المنهج، بل تمتد خطورته إلى أن يتبنى بعض الإسلاميين منهجا له نظرة في الكون والحياة والإنسان، مخالفة كليا لنظرة الإسلام في هذه المسائل(٢).

ولاشك أن آراء الفريقين المتباينة من هذه القضية أدت إلى انقسام في مسيرة الدعوة

---

(١) مجلة المسلم المعاصر ص (١٤٠-١٤١) العدد (٧٧) السنة العشرون، المحرم، صفر، ربيع الأول ١٤١٦هـ

(٢) انظر الإسلاميون وسراب الديمقراطية ص (٢٥) عبد الغني بن محمد الرحال، مؤسسة المؤتمن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ

وإلى تفرق في صفوف الدعاة، لأن كل اتجاه من الاتجاهين يرى أن الحق بجانبه ويحاول أن يثبت بالأدلة الشرعية والعقلية صحة موقفه، كما يسعى للرد على من خالفه.

وفيما يلي نستعرض أقوال الفريقين وما أورده كل منهما من الحجج التي يؤيد بها موقفه.

أولا: المشاركون أو المجيزون للمشاركة في الأنظمة الديمقراطية:

يتفاوت الموقف داخل الحركة الإسلامية من المشاركة في المجالس النيابية والالتزام بمبادئ النظام الديمقراطي، بين من لا يرى في المشاركة أي حرج أو مساسا بمسلمات العقيدة الإسلامية، وذلك لأنها هي الشورى في رأي بعضهم، أو لقربها من النظام الإسلامي،كما يصرح بذلك فئة أخرى منهم، بينما يتحدث عنها آخرون دون ذكر مسوغات المنع أو الجواز مما يعني أنها أمر مسلم بجوازه.

وفريق آخر جوز المشاركة لهذه الأنظمة إلا أنه اعترف أن الديمقراطية نظام غربي لا تربطه بالإسلام أي صلة، ويمنع هؤلاء من إجراء أي مقارنة بين نظام الحكم في الإسلام والنظام الديمقراطي، لكن المقارنة لديهم بين الديمقراطية ونُظُم الحكم القائمة.

ولكل من هذين الاتجاهين سمات وملامح تميزه عن الآخر، ومن الإنصاف وإحقاق الحق عدم إدراج هؤلاء تحت مسمى واحد واعتبار قبولهم للديمقراطية أو مايتفرع عنها من أنظمة بدرجة متساوية.

التوجه الأول: وهم الذين قبلوا الديمقراطية وأبدوا حماسا شديدا في الدفاع عنها وبحثوا لها عن مسوغات شرعية كقولهم بأن الشورى لب الديمقراطية أو نحو ذلك من التبريرات، وطالب أصحاب هذا التوجه بتبني الديمقراطية ولا مانع لدى بعضهم من إجراء بعض التعديلات عليها إن دعت الضرورة لذلك.

وأبرز من يمثلون هذا الاتجاه الشيخ راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة التونسية الذي يبدو من كتاباته أنه يرى الديمقراطية الغربية من الضرورات التي لا يمكن الاستغناء عنها ويؤكد على أنها تبقى في غياب ما يسميه بالديمقراطية الإسلامية أفضل الأنظمة التي تمخض عنها الفكر البشري، كما أنها تبقى إطارا صالحا لضمان حرية الشعوب في تقرير مصيرها واختيار نوع النظام الذي تريد أن تعيش في ظله.

ويقَسِّمُ الغنوشي الديمقراطية إلى شكل ومضمون، معتبرا كل الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية من فصل السلطات وحرية التعبير والمساواة أمام القانون وحق الانتخاب العام والتعددية، مندرجة تحت عنوان (الشكل)، ويعتبر هذه أسس مهمة بل وتشكل في غياب النظام الإسلامي أفضل أنظمة الحكم على الإطلاق، ويضيف إليها مضمونا للديمقراطية وهو: الاعتراف بقيمة ذاتية للإنسان يكتسب بمقتضاها جملة من الحقوق الفعلية تضمن كرامته وحقه في المشاركة الفعالة في إدارة الشؤون العامة والقدرة على الضغط على الحاكمين والتأثير فيهم من خلال ما يمتلكه من أدوات المشاركة والضغط والتأثير في صنع المصير، والأمن من التعسف والاستبداد، وحرية المحكومين في اختيار حكومتهم[١].

ويبين أن للجهاز الديمقراطي دورا يمكن أن يؤديه في كبح جماح الاستبداد لو هيأت له فلسفة وقيم إنسانية صالحة تعترف بأبعاد الإنسان كلها ــ المادية والروحية الفردية والجماعية ــ وهذا ما لا يتحقق إلا في ظل النظام الإسلامي[٢].

وينتقد الغنوشي الممارسة الغربية للديمقراطية ويصفها بأنها لا ديمقراطية وأنها منافقة، ولكنها في ــ نظره ــ تبقى في ظل غياب النظام الإسلامي أفضل الأنظمة التي تمخض عنها تطور الفكر البشري.

ويدعو إلى تبني الفكرة الديمقراطية بعد إعادة صياغتها فيقول: (إن الفكرة الديمقراطية تحظى باهتمام من الإسلام وحتى لو توفق الفكر الإسلامي في عملية احتواء الديمقراطية فاستنبتها في أرضه الخصبة كعادته مع كل نبتة خيرة بعد تهذيبها وتحريرها من أوشاب العلمنة والقومية، لكان مدُّه لا يقاوم وجاذبيته في تعاظم[٣].

وحول برنامج حركة النهضة الإسلامية في تونس التي يتزعمها يؤكد الغنوشي أن حركة النهضة كانت ولا تزال حركة سياسية فكرية ديمقراطية دافعت ولا تزال على

---

(١) محاور إسلامية ص (٥٠) راشد الغنوشي نقلا عن حول الخيار الديمقراطي ص (٩٣) مجموعة من المؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، ط (١٩٩٤)

(٢) الحريات العامة في الدولة الإسلامية ص (٨٧) راشد الغنوشي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط (١) ١٩٩٣م

(٣) مستقبل التيار الإسلامي ص (٢٦) راشد الغنوشي

صعيد الفكر والممارسة عن الخيار الديمقراطي، بما هو تعددية سياسية لا تقصي أحدا، واحتراما ورعاية لحقوق كل المواطنين والإنسان عامة، وبحرية الاعتقاد والتعبير والمشاركة في الحياة السياسية، والتداول على السلطة عبر صناديق الاقتراع ورفض العنف أداة لحل الخلافات الفكرية والسياسية بين المواطنين[1].

ولايرى في عيوب هذا النظام التي يعترف بوجودها مبررا لرفضه لأن هذا الرفض في زعمه سيكون لصالح الأنظمة الدكتاتورية، ويبرر ذلك بقوله: إن مجتمعا محكوما بقانون ناقص أفضل من مجتمع قانونه إرادة الطغاة.

ويضيف قائلا: نحن الإسلاميين نرفض بشدة فتاوى أنظمة الأقليات المستبدة التي بلغ بها الاستهتار بشعوبها وإيغالها في النفاق إلى حد إصدار الفتاوى بتحريم النظام الانتخابي بدعوى رفض الابتداع وتقليد الغرب، متغافلين أن الحكمة ضالة المؤمن، وأنه حيث المصلحة والعدل فثم شرع الله، وإن الديمقراطية آلية ممتازة لتجسيد الشورى في إطار قيم الإسلام.

ويدعو إلى المزج بين مبادئ الإسلام في الحكم، ومبادئ الديمقراطية لأن ذلك في زعمه سيحصل منه فائدتان هما:

١- أن الإسلام يمكن أن يستوعب النظام الديمقراطي وهذا الاستيعاب سيحفظ للمسلمين والبشرية الإيجابيات التي جاء بها الفكر الإسلامي السياسي حيث ستتحول هذه الإيجابيات من مواعظ ومبادئ عامة إلى جهاز للحكم.

٢- أن الجهاز الديمقراطي سيجد في قيم الإسلام وفلسفته في الحياة والكون والإنسان أفضل وقود وخير طاقة وقوة توجيه تعطي لهذا الجهاز فعالية عظيمة وتجنبه المزالق والوقوع في الكوارث التي انتهى إليها النظام الديمقراطي المعاصر.

ويرى أنه مادام أن الجهاز الديمقراطي قد عمل في إطار القيم المسيحية[2] فأنتج

---

(1) انظر محاور إسلامية ص (٢٢٧) وحول الخيار الديمقراطي ص (٣٨) والحركة الإسلامية رؤية مستقبلية: أوراق في النقد الذاتي (٢٨٠) تحرير وتقديم: د. عبد الله النفيسي الكويت ١٤١٠هـ فصل أصول العمل السياسي للحركة الإسلامية المعاصرة) عدنان سعد الدين.

(2) هكذا يسميها المؤلف بينما في القرآن والسنة ورد تسميتهم بالنصارى أو أهل الكتاب فينبغي الالتزام بما سماهم به الله تعالى وبما سماهم به رسوله ﷺ وعدم موافقتهم في انتسابهم للمسيح عليه الصلاة والسلام.

المسيحيات الديمقراطية وفي إطار الفلسفة الاشتراكية فأنتج الديمقراطيات الاشتراكية، وفي إطار القيم اليهودية فأنتج الديمقراطية اليهودية، فلامانع أن يعمل الجهاز الديمقراطي في إطار القيم الإسلامية لإنتاج الديمقراطية الإسلامية.

ويُعقب على ما تقدم بقوله: نحن مع هذا التوجه ونرى فيه خيرا عظيما لا للإمة الإسلامية الرازحة في ظل الاستبداد فحسب، وإنما للبشرية كلها، وبذلك يكون البديل الإسلامي ليس في قطيعة مع الإرث الحضاري المعاصر، وإنما امتدادا يحفظ خير ما في ذلك الإرث ويتجاوز سلبياته المدمرة.

وينتهي به الإعجاب بالنظام الديمقراطي بأن يصرح بأن صورة الحكم الإسلامي مع استبعاد الجهاز الديمقراطي لاتقدم ضمانات كافية[1].

ويتفق مع الغنوشي في قبول الديمقراطية والدعوة إليها والقول بعدم تعارضها مع مبادئ الإسلام عدنان سعد الدين المراقب العام لحركة الإخوان المسلمين في سوريا، الذي يصف الإسلاميين الذين يرفضون قبول الديمقراطية بالإساءة إلى العمل الإسلامي وإلى التنظيمات المحسوبة على الدعوة الإسلامية، حيث وظف خصومُهم هذا الرفض لتنفير الناس منهم ووضع بذور الشك في نفوس كثير ممن ينتمون للتنظيمات الإسلامية[2].

ويركز عدنان سعد الدين فيما يطرحه من آراء يؤيد فيها التوجه للديمقراطية، على الآثار التي أحدثتها المواجهة مع النظام السوري وينصح المعارضين بإجراء مقارنة بين النظم القائمة والنظام الديمقراطي وليس مع النظام الإسلامي، ويخلص في النهاية إلى أن المقارنة سيظهر منها تفوق النظام الديمقراطي على الأنظمة الاستبدادية، ومن ثم يدعو الحركات الإسلامية للتكيف مع نتائج هذه المقارنة العقلانية[3].

ويحاول سعد الدين إبراز نقاط الاتفاق بين الشورى والديمقراطية في حين يحاول تناسي نقاط الاختلاف فيقول: لو تجاوزنا أمر الاصطلاح وتساءلنا ما البديل المعارض والمناقض للديمقراطية؟ لجاءت الإجابة التي لا يختلف عليها اثنان، إنه النظام الدكتاتوري والحكم

([1]) انظر الحريات العامة في الدولة الإسلامية ص (٨٧-٨٨) راشد الغنوشي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى ١٩٩٣م

([2]) انظر حول الخيار الديمقراطي ص (٩٥)

([3]) انظر حول الخيار الديمقراطي ص (٩٥)

الفردي، ولو سألنا نفس السؤال بالنسبة لنظام الشورى لجاءت الإجابة نفسها، بأن الدكتاتورية هي التي تعارض وتناقض نظام الشورى في الشريعة الإسلامية، وهذه النتيجة تنتهي بنا إلى أن ثمة عناصر مشتركة وتقاطعا واسعا بين الديمقراطية والشورى، فكلاهما يعارض الفردية والاستبداد.

فالعنصر الأول والأساسي في الديمقراطية هو حكم الأكثرية

والعنصر الثاني هو المشاركة في الحكم.

وبالنسبة للعنصر الأول والثاني فإن الشورى تلتقي مع الديمقراطية فيهما دون تردد أو تحفظ.

ويؤكد على أن عدم قبول الإسلاميين للديمقراطية ليس له ما يبرره بل إنه يُضر بالحركة الإسلامية ويقوي موقف خصومها، كما يؤكد أن تبني الحركات الإسلامية للديمقراطية سيتيح لها حرية طرح برامج انتخابية تشتمل على مبادئ الإسلام ومن ثم فإن أكثرية الشعوب التي حرمت من التعبير عن ذاتها ستحرص على اختيار الإسلام وما يتفرع عنه من أنظمة.

ثم ينتهي إلى القول بأنه لو جاز لحزب من الأحزاب السياسية سواء أكان في أقصى اليمين أو أقصى اليسار أن يتحفظ على الديمقراطية أو يقيدها بدعوى الديمقراطية الصحيحة أو الموجهة فليس ثمة مسوغ لأي تنظيم أو حزب يلتزم بمبادئ الإسلام أن يتخلى عن الديمقراطية أو أن يفتر عن تأييدها، أو يقف موقف المتفرج من اغتيالها أو التآمر عليها[1].

أما مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا فيتحدث عن الحكم الدستوري مبينا مدى توافقه مع الإسلام بقوله: إن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة، وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب، ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال، وبيان حدود كل سلطة من السلطات، هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها

---

(1) الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية (٢٨١-٢٨٣)

تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم، ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لايعدلون به نظاما آخر[١].

ويفسرعصام العريان –وهو أحد المنتسبين لجماعة الإخوان المسلمين– الديمقراطية بالشورى ومن ثم يبرر تبني جماعته لها فيقول: إن موقف الإسلام معروف من الشورى والتعددية، فالقانون الأساسي لجماعة الإخوان والذي ينظم العلاقة بين الجماعة، يقر الشورى كما أقرها علماء الإخوان بل ينظر الإخوان إلى نظام الحكم الدستوري على أنه أقرب نظم الحكم إلى الإسلام، ولايعدلون به نظاما.

ويرد على من ظن أن الإسلاميين يعادون الديمقراطية بقوله: لماذا نصر على أن الإسلاميين معادون للديمقراطية؟ إن هذا افتراء عظيم، فنحن أول من ينادي بالديمقراطية ويطبقها ويذود عنها حتى الموت[٢].

أما الشيخ محمد الغزالي فبعد أن يبدي أسفه لما آل إليه حال الأمة الإسلامية حيث بلغ بها التخلف المادي شأوا بعيدا فأصبحت عالة على أعدائها ابتداء من صنع الإبرة إلى استخراج النفط وإقامة الجسور، يتحدث بأسلوب يسخر فيه ممن يرفضون الديمقراطية ويشبه من ينادون بعدم الاستفادة مما عند الغرب من حضارة مادية بمن ينادون بإغلاق الباب أمام المبادئ والأفكار حتى لاتتسرب إلى المسلمين بحجة أن ما اشتمل عليه دينهم من أحكام وشمول لجميع نواحي الحياة يجعلهم في غنى عنها، ويزعم أن الأمة قد بلغت حدا من التخلف الفقهي والعملي في الشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأن الفقه الإسلامي قد انحسرداخل حدود ضيقة إن تجاوزت بيوت المياه فإلى ساحة المسجد، وقد يتدخل في شئون الحارة أو القرية، أما دواوين السلطة ومشكلات المال، ومفاصل الحياة الحقيقة للمجتمع والدولة، فإن الفقه لاعلاقة له بها!

ونتيجة ما تقدم ــ كما يزعم ــ عربد الاستبداد السياسي دون حذر، و شاع الخلل الاقتصادي دون علاج، ويذكر ما آل إليه أمر الفقهاء من اهتمام بأمور عفى عليها

---

(١) مجموعة الرسائل ص (١٧٢)

(٢) مجلة لواء الإسلام العدد (٨) السنة (٤٥) في ٢٠/١٠/١٩٩٠م

الزمن، ولا يوجد من بين المسلمين من يشغله السؤال عن حكمها، في حين أنهم يتجاهلون القضايا المهمة التي ينبغي الاهتمام بها فيقول: أما الفقهاء أوالمنسوبون إلى الفقه فهم يذرفون الدموع لأن التصوير الشمسي قد انتشر، وأن التلفزيون دخل كل بيت، فإذا حدثت هؤلاء أو حدثت من هو أنظف فكرا عن الدشاتير التي تقيد الحاكمين، أو القوانين التي تطمئن العاملين، نظر إليك بغباوة هائلة وأشعرك أنك تتحدث معه في غير الإسلام.

ويتضح هدفه من هذا النقد اللاذع للفقهاء حين يقول: ولم يكن بد من الانتفاع من تجارب غيرنا لأن فقهنا المجمد من قرون لايلبي الحاجات الطارئة[1].

وبعد أن يورد عبارات يظهر فيها اعتزازه بالدين والانتماء إليه، والتصدي للغزو الفكري، يبدي تذمرا واضحا بمن يصفون الديمقراطية بأنها كفر حيث يقول: لقد رحبت بالصيحات التي تعلو بالإسلام وحده، وانضممت بفؤادي إلى الذين يعادون الغزو الثقافي، بيد أني شعرت بجزع عندما رأيت بعض الناس يصف الديمقراطية بالكفر، فلما بحثت عما معه لكفالة الجماهير وكبح جماح الاستبداد الفردي وجدت عبارات رجراجة يمكن إلقاؤها من منبر الوعظ.

ويصف الدستور المستورد المبادئ بأنه يحقق ٩٠% من الأهداف الإسلامية[2].

ويقول وهو في معرض الرد على الشيخ محمد قطب الذي يرى أن استيراد المبادئ الغربية، تلفيق لايقره الإسلام وهو في غنى عنه: أرى أن هذا الكلام يحتاج إلى ضوابط، فالديمقراطية مثلا ليست دينا يوضع في صف الإسلام، إنها تنظيم للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، ننظر إليه لنطالع كيف توفرت الكرامة الفردية للمؤيد والمعارض على سواء وكيف شيدت أسوارا قانونية لمنع الفرد أن يطغى، ولتشجيع المخالف أن يقول بملء فيه:لا .. ولايخشى حسابا، إنها تنظيم سياسي لا يجعل إعلان الحروب مسلاة حاكم متفرعن يطلب المجد لشخصه، أو إنفاق المال العام هواية متلاف يطيع هواه ولايخشى حسابا[3].

---

(1) انظر دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص (٢٠٦- ٢٠٧) محمد الغزالي - دار الأنصار

(2) المرجع السابق ص(٢٠٩)

(3) المرجع السابق ص(٢١٠-٢١١)

ويستدل الشيخ سعيد حوى بشرعية المشاركة في الانتخابات بقصة نبي الله يوسف عليه السلام وأنه استوزر لملك مصر مع كون تشريع ملك مصر غير تشريع بني إسرائيل، لكنه يقيد المشاركة بموافقة الجماعة التي ينتمي إليها العضو فإن رأت المصلحة في مشاركته فله ذلك، ويقول: إن المشاركة في وزارة أو برلمان أو في وظائف معينة في بعض الظروف قد يكون مفيدا.

وقد يكون سبيل الجماعة الإسلامية للوصول إلى الحكم وإقامة الدولة الإسلامية في قطر ما هو الانتخابات والمشاركة في الوزارات وذلك هو الطريق البطئ والتدريجي والأسلم للحكم[1].

ويتفق مع من سبق ذكرهم سالم البهنساوي الذي يؤكد على أن المشاركة في الانتخابات والوصول إلى البرلمان من المسائل الاجتهادية التي لا ينبغي الإنكار على من رأى المشاركة، ويبرر جواز الدخول في المجالس النيابية بأن العضو المشارك ليس جزءا من السلطة التنفيذية ولا يقوم بعمله بوصفه نائبا عن رئيس الدولة بل هو يمثل الشعب وينوب عنه ولا يعد مشاركا في إصدار أي تشريع إذا أعلن معارضته له.

ثم يعدد المصالح التي تتحقق بمشاركة الإسلاميين في هذه الأنظمة والتي يرى أنها تبرر هذه المشاركة وهي:

١ــ التمتع بالحصانة البرلمانية باعتباره يمثل الأمة فلا سلطان للأجهزة الحكومية عليه.

٢ــ أعضاء البرلمان لا يجوز محاسبتهم على الآراء والمطالب التي يتقدمون بها للمجالس أو لجانه وبالتالي يمكنهم كشف المؤامرات والوقوف ضد الإجراءات التي يتعرض لها الإسلاميون.

٣ــ يكفل الدستور لأعضاء المجلس استجواب الوزراء لأن الوزير مسئول أمام مجلس الشعب عن أعمال وزارته.

٤ــ يجيز الدستور بناء على طلب خمسة من أعضاء المجلس أن يطرحوا موضوعا على مجلس الشعب للمناقشة وطلب بيان من الحكومة في هذا الشأن وكف أجهزتها عن

---

(1) دروس في العمل الإسلامي (٧٧-٧٨) سعيد حوى، دار عمار ١٤٠٨هـ

الظلم[1].

وقد أطال البهنساوي في مناقشة الأستاذ محمد قطب الذي لا يرى المشاركة، وقرر أن مسألة المشاركة مثلُها مثلَ بقية قضايا الخلاف التي لا ينبغي الإنكار فيها، ونقل بعض الأمثلة من تعامل السلف مع المسائل المختلف فيها وكيف أنهم يُجل بعضهم بعضا بالرغم من الاختلاف.

التوجه الثاني: ويضم مفكرين إسلاميين مثل الدكتور يوسف القرضاوي والدكتور صلاح الصاوي وغيرهما، ويوجد قدر من التنوع في كتابات هؤلاء المفكرين تجاه مسألة الديمقراطية، وبعضهم له بعض التحفظات تجاه جانب أو أكثر منها إلا أن القاسم المشترك بينهم أنهم ينظرون إلى فكرة المشاركة نظرة إيجابية، ويعتقدون بإمكان التمكين للإسلام عن طريقها أو على أقل تقدير يمكن تحقيق بعض المصالح ودرء بعض المفاسد، ولسان حالهم يقول: ما لا يدرك كله لا يترك جله.

ويظهر في كتابات هذه الفئة أن قبولها للمشاركة في الأنظمة الديمقراطية لا يعني المزج بين مبادئها ومبادئ الإسلام ولكن باعتبارها أمرا واقعا يحسن استغلال الجوانب الإيجابية فيه، أو أنها الخيار الوحيد المتاح للإسلاميين ليحققوا بواسطته بعض المنافع.

وبعد أن يقارن القرضاوي بين حال الدعوة الإسلامية في مناخ القهر والاستبداد وحالها في ظل الأنظمة الديمقراطية، يبين الفوائد التي حققتها الدعوة في ظل الديمقراطية فيقول: رأينا انتعاش الدعوة والحركة والصحوة في مناخ الديمقراطية السياسية، وعقب انهيار الأنظمة الطغيانية المسلطة على رقاب العباد، لهذا لا أتصور أن يكون موقف الحركة الإسلامية إلا مع الحرية والديمقراطية السياسية.

وبعد أن يؤكد على وجوب التفريق بين الإسلام والديمقراطية وأنه لا يصح أن يفَسَّر الإسلام بأنه هو الديمقراطية، يدعو إلى تحديد الجوانب الإيجابية التي ينبغي الاستفادة منها مع إجراء بعض التعديلات على الديمقراطية حتى تكون جزءا من النظام الإسلامي فيقول: والذي أود قوله وتأكيده هنا: أن الإسلام ليس هو الديمقراطية ولا الديمقراطية هي

---

[1] انظر شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر (٢٣٣-٢٣٦)

الإسلام، وما أحب أن ينسب إلى الإسلام أي مبدأ أو نظام آخر، وما أحب أن ننقل الديمقراطية الغربية بعجرها وبجرها دون أن نضفي عليها من قيمنا وفكرنا ما يجعلها جزءا من نظامنا[1].

ويحدد الجانب الذي ينبغي أخذه من الديمقراطية بأنه الجانب السياسي الذي يصفه بأنه: أفضل جوانب الليبرالية الديمقراطية والذي يتمثل في إقامة حياة نيابية يتمكن فيها الشعب من اختيار ممثليه الذين تتكون منهم السلطة التشريعية في البرلمان، وهذا الانتخاب إنما يتم عن طريق الانتخاب الحر العام لمن ينال أغلب الأصوات من المرشحين المنتمين إلى الأحزاب السياسية أو المستقلين عنها[2].

ويذكرحاجة الحركة الإسلامية إلى النمو في جو الديمقراطية فيقول: والحركة الإسلامية والصحوة الإسلامية لا تتفتح أزهارها ولا تنبت بذورها ولا تتعمق جذورها أو تمتد فروعها إلا في الحرية ومناخ الديمقراطية.

ويثني القرضاوي على الأدوات والضمانات التي وصلت إليها الديمقراطية ـــ وذلك لأنها على حد قوله ـــ أقرب ما تكون إلى تحقيق المبادئ والأصول السياسية التي جاء بها الإسلام لكبح جماح الحكام، وهي الشورى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفض الطاعة عند الأمر بمعصية ومقاومة الكفر البواح، وتغيير المنكر بالقوة عند الاستطاعة[3].

ويؤكد على أن السلطة التشريعية المنتخبة تملك التشريع للأمة كما تملك مراقبة السلطة التنفيذية، وبهذا يكون أمر الشعب في يد نفسه وتصبح الأمة مصدر السلطات[4].

ولا يرى القرضاوي مبررا لخوف بعض الإسلاميين من كون الديمقراطية تجعل الشعب مصدر التشريع مع أن التشريع لله وحده، وذلك لأن الحديث عن شعب مسلم في أغلبيته، فلا يتصور منه أن يصدر تشريعا يخالف قطعيات الإسلام وأصوله المحكمة.

---

(1) انظر أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة (١٥٧) يوسف القرضاوي ـــ مؤسسة دار الرسالة ط(١٣) ١٤١٢هـ

(2) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا (٧٧) د: يوسف القرضاوي ـــ مؤسسة الرسالة ـــ ط (١٥) ١٤٠٩هـ

(3) انظر أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة (١٥٧ـــ ١٥٨)

(4) الحلول المستوردة ص (٧٧)

ويطمئن من صدر منه بعض الخوف بقوله: إن هذا التخوف يمكن أن يزال بمادة واحدة تنص على أن أي تشريع يخالف الأصول القطعية للإسلام يعتبر باطلا[١].

أما الدكتور صلاح الصاوي: فبعد أن ذكر مبررات المانعين ناقش هذه المبررات واعترف بأن المحاذير التي بنى عليها المانعون موقفهم من الأهمية بمكان، وأنه يجب على كل من انتصب لهذا العمل أن يضعها نصب عينيه وأن يسأل نفسه دائما عن مدى توقيه لها وبراءته منها، وأن يوازن بينها وبين المصالح المنشودة والمتحققة فعلا من وراء هذه المشاركة، وبعد هذه الموازنة تتحدد إمكانية المشاركة من عدمها.

ورجح أن سبب حدة الرفض للمشاركة من قبل بعض الإسلاميين يرجع إلى خلط هؤلاء المانعين بين كون هذه المجالس شركية لم تقم ابتداء على التسليم لشرع الله والانقياد لحكمه والأصل فيها الاجتناب، وبين كون الداخل لهذه المجالس من الإسلاميين قد دخل من أجل الصدع بكلمة الحق في هذه المعاقل الشركية وإقامة الحجة على سدنتها.

فإذا حدث التمييز بين الأمرين أمكن القول أن هذه المشاركة من جنس الاجتهاد الفروعي في الخطط والأساليب يقبله من يقبله ويرفضه من يرفضه، أما إن تجرد من المقاصد الشرعية وخلا من المصالح المعتبرة شرعا كان إثما من الآثام، أما إذا كان لمصلحة الإنكار على هؤلاء والقيام بحجة الله عليهم وتعطيل المظالم أو تخفيفها فإنه بهذا القصد يرجى أن تكون قربة من القربات، أو على الأقل يدخل في نطاق الفروع والمسائل الاجتهادية.

وإذا تم إقرار هذا المنطلق وحدث تجاوز في تقدير هذه المصلحة أو شاب الموازنة بينها وبين المفاسد المتوقعة خلل أو قصور وكانت هذه المصالح المرجوة متوهمة ابتداء فقد يكون الأمر خطأ في الاجتهاد يرجى أن يسع أصحابه عفو الله أو يؤاخذون على تقصيرهم في بذل الجهد الواجب الذي ترتفع معه المسئولية عن الخطأ، وهذا لا يخرج المسألة عن نطاق الفروع والمسائل الاجتهادية، فكيف يمكن مع ذلك القول بأن المسألة من مسائل

---

(١) انظر أولويات الحركة الإسلامية (١٥٨)

الاعتقاد وأن الاختلاف فيها من جنس الاختلاف في الأصول والمذاهب الاعتقادية[١].

ويعتبرالصاوي المفاسد التي يحتج بها المانعون من العوارض الطارءة التي يمكن الاجتهاد في توقيها أو تقليلها وحصر نطاقها، ومن ثم يمتهد السبيل إلى قبول المشاركة أو اعتبارها على الأقل ضمن دائرة الفروع والخلافيات.

أما المصالح المنشودة والمتحققة فعلا من وراء هذه المشاركة، وهل توازي المحاذير التي تغشى هذا العمل؟ فيرى أن جملة من المصالح تتحقق بسبب هذه المشاركة والتي يرى أنها على درجة كبيرة من الأهمية ويكفي تحقق بعضها لجعل هذه المشاركة مبررة شرعا[٢].

وفي بحث موجز لمؤلفه محمد أبو زيد مصطفى تحت عنوان (المفهوم السلفي للعمل السياسي) تبرز أهميته من خلال تأييد جماعة أنصار السنة المحمدية في السودان لما جاء فيه، فقد تلي أمام مجموعة من الباحثين في مؤتمر علمي للجماعة وأصدر المؤتمرون عدة توصيات خصُّوه منها بما يلي:

في الفقرة(٥) من خلاصات البحوث المقدمة في المؤتمر العلمي الأول لجماعة أنصار السنة بالسودان الذي أقيم في ١٨ جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ والتي تم الاتفاق عليها بين الأخوة الباحثين وسكرتارية المؤتمر ووافق عليها المركز العام، تحت عنوان: خلاصة بحث المشاركة في الانتخابات والاتحادات والنقابات ما نصه:

١ـ الديمقراطية نظام كافر لأنها تعطي الإنسان حق التشريع وهو حق لا يكون إلا لله تعالى، قال تعالى {إن الحكم إلا لله}[٣].

٢ـ الانتخابات بالترشيح والتصويت جائزة في حد ذاتها.

٣ـ التنظيم النقابي للعاملين وغيرهم واتحاد الطلاب تنظيمات مهنية وطلابية لا شأن لها بالتشريع، والمشاركة فيها متوقفة على المصالح والمفاسد بالضوابط الشرعية.

٤ـ مزاحمة أهل الديمقراطية لتقليل شرهم في الانتخابات العامة وغيرها بالضوابط

---

(١) مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي (٩٢-٩٣)

(٢) المرجع السابق ص (١٠٣)

(٣) سورة يوسف (٤٠)

الشرعية أمر جائز إذا ترجحت المصالح على المفاسد[1].

وقد قدم لهذا البحث الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية في السودان السابق الشيخ محمد هاشم الهدية، وقال عنه: لقد اطلعت على (المفهوم السلفي للعمل السياسي) الذي عرض على المؤتمر العلمي الذي أقيم بالخرطوم في ١٨ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ الموافق ٢٥يناير ١٩٨٩م والذي كان أساسا في الاتفاق التام بين المؤتمرين ووافق عليه المركز العام[2].

والكتاب في معظمه نقول لأقوال بعض السلف التي يرى المؤلف أنهم أجابوا فيها بإجابات يصح أن تكون أدلة يستدل بها المجيزون للمشاركة، فمثلا يرد على من يقول: بعدم صحة الوصول للسلطة عن طريق الديمقراطية، لأن الديمقراطية نظام طاغوتي بقوله: إن التحاكم للأغلبية من أهل الرأي والمشورة فيما لا نص فيه،كاختيار من يمثلون الأمة أو الإمام الأعظم فليس هناك نص صريح يمنع ذلك، واستشهد على جواز ذلك بتكليف الفاروق عمر ﷺ لعبد الرحمن بن عوف أن يعرض على الستة الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض ليختاروا من بينهم إماما[3].

ويجيب على قول المانعين: (إن الديمقراطية نظام كافر ولا يجوز تقلد منصب تحت رايتها) بقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ثم الولاية وإن كانت جائزة أو مستحبة أو واجبة، فقد يكون في حق الرجل المعين غيرها أوجب، أو أحب فيقدم حينئذ خير الخيرين وجوبا تارة واستحبابا أخرى[4].

واستشهد شيخ الإسلام على ذلك بتولي نبي الله يوسف عليه السلام على خزائن الأرض لملك مصر مع أنه وقومه كانوا كفارا.

ومعظم ما في الكتاب يجري على هذا المنوال، والذي يظهر لي أن فيه تكلفاً وقياساً لبعض ما يجري في الأنظمة الديمقراطية بأقوال أوأفعال للسلف مع فوارق جوهرية.

---

(1) المفهوم السلفي للعمل السياسي (٦- ٧) محمد أبو زيد مصطفى، مكتبة دار السلام، ط (١) ١٤١٤هـ

(2) المرجع السابق (٩)

(3) المفهوم السلفي للعمل السياسي (١٨)

(4) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢٠/ ٥٦)

ثانيا: المعارضون للمشاركة في الأنظمة الديمقراطية

يرفض عدد كثير من المشتغلين بالدعوة الإسلامية قبول الديمقراطية وما يتفرع منها من أنظمة وتتلخص أهم أسباب معارضتهم للمشاركة بما يلي:

أن قبولها يعد تلاعبا بالدين وناقضا لعقد الإسلام.

أنها تنطلق من أصول إلحادية ليست من الإسلام في شيء.

أن المجالس البرلمانية هي في الحقيقة مجالس شركية قامت على محادة أمر الله وإقصاء شرعه.

أن الأصل فيها الاجتناب امتثالا لقول الله تعالى {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا}[١].

ويتفق الجميع على أن النتائج التي تمخضت عن مشاركة الإسلاميين لهذه الأنظمة مجرد إصلاحات جزئية عارضة في بعض نواحي الحياة لا توازي الآثار السيئة التي نتجت عن هذه المشاركة التي شرها أكبر بكثير من نفعها حتى ليكاد ينطبق عليها قول الله تعالى في وصف الخمر والميسر {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}[٢].

ومن ثم فإن هذه النتائج شاهد على فشل هذه المشاركة يضاف إلى مبررات الرفض الأخرى.

وفيما يلي ذكر نماذج لأقوال بعض المانعين والأسباب التي دعتهم لاتخاذ هذا الموقف منها.

تظهر الدعوة إلى رفض الديموقراطية في أقوال وكتابات الذين يرون ضرورة المحافظة على الأصالة والخصوصية الفكرية والثقافية التي ينبغي أن يتميز بها المسلمون عن غيرهم،

---

(١) سورة النساء (١٤٠)

(٢) سورة البقرة (٢١٩)

وعلى الحاجة للعودة لنهج السلف الصالح لتكون مرتكزات فكرية أساسية لكافة شئون الحياة ومنها الجانب السياسي، وقد توفرت عند هؤلاء أسباب كثيرة لرفض الديمقراطية، يكفي أحدها لو تحقق ليكون دليلا على بطلان المشاركة في هذه الأنظمة وردا على المتساهلين بأمر المشاركة، وتتمثل هذه الأسباب فيما يلي:

أ - الحكم الديمقراطي ينافي توحيد الألوهية:

من الأسباب القوية التي يحتج بها المانعون من المشاركة في المجالس البرلمانية أن هذه المجالس لا تتورع أن تشرع ما لم يأذن به الله، وهي بهذا الواقع تضع نفسها موضع الشريك لله تعالى في التشريع.

يقول حافظ صالح: إنه لمعرفة مدى موافقة هذه الفكرة ـ أي الديمقراطية ـ لابد من محاكمتها على الأسس العقيدية، أي المسلمات العقيدية، فنحن مسلمون، وعقيدتنا هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فما هي عقيدة الديمقراطية وما الأسس التي تقوم عليها كي نقرر الحكم؟

يقول: لأجل الحكم على هذه الفكرة لابد من معرفة عقيدة الديمقراطية، والأسس التي تقوم عليها كي نقرر الحكم.

يجيب على هذا السؤال بقوله: إن الديمقراطية رفضت أن تقرر حقيقة الوجود وساوت بين الإيمان والإلحاد، وفرضت عدم تدخل الإله في حياة الناس، وقد ناقضها الإسلام في هذا مناقضة تامة، حيث قرر حقيقة الوجود في العديد من آيات القرآن المجيد، وجعل أساس الإيمان هو الإيمان بالله جلت قدرته، وأنه هو خالق الكون والإنسان والحياة، وأمر أن تكون الطاعة له ولرسوله ﷺ.

كما بين للإنسان كافة الأحكام والنظم التي تُسَيِّر أفعاله في الحياة، من حكم واقتصاد واجتماع وعلاقات دولية، إلى غير ذلك مما يلزم الإنسان في علاقاته الثلاث، مع ربه، ومع نفسه، ومع غيره.

أما الديمقراطية فقد حددت مصدر التشريع فجعلت السيادة للشعب، أي أن الشعب هو الذي يسن القوانين ويضع النظم والدساتير.

أما الإسلام فإنه قد جعل مصدر التشريع هو الوحي، وقد نفى الإيمان عن أي إنسان أو

جماعة تلجأ في الأحكام لغير الله تعالى.

فهل القول: إن السيادة للشعب كالقول: إن السيادة للشرع؟ وهل هذا يدل من بعيد أو قريب على وجود تقارب بين الإسلام والديمقراطية أم أنهما نقيضان، والعقل السليم يقضي بعدم اجتماع النقيضين(١).

ويؤيده في هذا الموقف من الديمقراطية محمد شاكر الشريف الذي لايرى مسوغا للقبول بالديمقراطية وذلك لأنها تنطلق من أصول إلحادية، ولما اشتملت عليه من الكفر الغليظ بالله، وإذا تبين ذلك يصبح من الأمور المنكرة جدا أن نسمع من يقول إن الديمقراطية من الإسلام، أو أن الإسلام نظام ديمقراطي.

ويرى أنه لأجل إزالة كل ما يعلق بنفس المسلم من هذا المصطلح الذي طال ترديده وافتتن كثير من المسلمين به فينبغي تسميته حكم الطاغوت أوحكم الجاهلية، فهل يصح أن يقال: إن الإسلام نظام طاغوتي أو جاهلي أو الجاهلية الإسلامية، فهل يقبل أحد من المسلمين هذا الكلام.

ويخلص إلى القول بأن النظام الديمقراطي نظام باطل شرعا وأن البلاد التي تعلوها أحكامه تعد بلادا خالية من الحاكم أو الوالي المعترف به شرعا، الذي له على الناس حق الطاعة والنصرة(٢).

ويقول الأستاذ محمد قطب: إن رد الحاكمية لله فضلا عن كونه من حق الله تعالى على عباده لأنه من الخصائص الخالصة للألوهية، فإنه في الوقت نفسه هو الضمان الحقيقي لحرية البشر في الأرض، إن إخلاص العبودية لله وحده سواء في إفراده بشعائر التعبد أو إفراده بالحاكمية هو الذي يلغي وجود الأرباب(٣).

وبعد أن يذكر واقع الأنظمة الديمقراطية وكيف أنها تقوم على مراعاة آراء الناس ورغباتهم وتسند الحاكمية إليهم، يشرعون لأنفسهم في كافة شئون الحياة يقول: فإذا قومنا الديمقراطية بهذا الميزان فكيف تكون النتيجة آلله هو المعبود في الديمقراطية الليبرالية

(١) انظر الديمقراطية والحرية ص (٦٣- ٦٧) حافظ صالح، دار الفتح، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ

(٢) انظر حقيقة الديمقراطية ص (٤١-٤٢) محمد شاكر الشريف، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

(٣) مذاهب فكرية معاصرة (٢٢٦)

وحده دون شريك أم أن هناك عشرات من الآلهة الزائفة التي تُعبد مع الله أو من دون الله[١].

وبعد أن ينقل الأستاذ عبد الغني الرحال أقوال العلماء الدالة على أن التشريع حق لله وأنه مما يتضمنه إفراد الله بالألوهية، يبين كيف أن المجالس النيابية اعتدت على هذا الحق وأعطت لنفسها حق التشريع الذي هو محض حق لله تعالى ويبين وجوه مناقضتها لتوحيد الألوهية وأنها تتمثل فيما يلي:

١ـ أن هذه المجالس المستقلة بنفسها بالتشريع لا تتورع أن تشرع ما لم يأذن به الله فهي بهذا الواقع تضع نفسها موضع الشريك لله تعالى في التشريع.

٢ـ أن إعطاء المجالس النيابية الحق لنفسها بالتشريع إنما هو تعطيل لتوحيد الألوهية وتثبيت لحكم الجاهلية.

٣ـ أن المجالس النيابية بانتحالها حق التشريع لنفسها من دون الله تكون قد اقتفت ما كان عليه مشركو العرب من جرأة على الله بمبادرتهم التحليل والتحريم بموجب هوى نفوسهم ومن غير أن يأذن الله تعالى لهم[٢].

وإذا كان هذا هو حال هذه المجالس فالأصل فيها الاجتناب لأنها بذلك تكون من الطاغوت الذي يجب اجتنابه.

يقول الشيخ سيد الغباشي: إن هذا المجلس قائم على الشرك الواضح، والشرك ضلال مبين وذنب عظيم لا يغفره الله أبدا إلا بالتوبة والإيمان، وصاحبه مخلد في النار، لذلك كان تحذير الشرع منه أبلغ تحذير، قال الله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}[٣] فعبر تعالى بلفظ الاجتناب للطاغوت، والاجتناب المبالغة في الابتعاد والتوقي والاحتراز، لذا شدد الشرع وعظم في سد ذرائع الشرك، فإذا اعتقدت هذه الأصول علمت أن الأصل في هذه المجالس الشركية هوالاجتناب والابتعاد والحظر[٤].

---

(١) المرجع السابق (٢٢٩-٢٣٠)

(٢) الإسلاميون وسراب الديمقراطية (٢٩٨و ٣٠٣و ٣٠٤) عبد الغني بن محمد الرحال، ج (١) مؤسسة المؤمن، ط (١) ١٤١٣هـ

(٣) سورة النحل (٣٦)

(٤) القول السديد في أن دخول المجلس مناف للتوحيد (١٢-١٣) سيد الغباشي

ويقول الأستاذ محمد قطب: فكيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها، والذي يقول له دينه: إن كل حكم غير حكم الله هو حكم جاهلي لا يجوز قبوله، ولا الرضى عنه ولا المشاركة فيه، كيف يجوز له أن يشارك في المجلس الذي يشرع بغير ما أنزل الله ويعلن بسلوكه العملي في كل مناسبة أنه يرفض التحاكم إلى شريعة الله، كيف يجوز له أن يشارك فيه فضلا عن أن يقسم يمين الولاء له ويتعهد بالمحافظة عليه وعلى الدستور الذي ينبثق عنه»[1].

ومع أن الدكتور صلاح الصاوي يرى الاستفادة من بعض الإيجابيات التي يتيحها النظام الديمقراطي إلا أنه يعترف بفساد هذا النظام وتعارضه مع الإسلام من نواح عدة من بينها أنه يُأله البشر حيث يقرر أن الحاكمية العليا والسيادة المطلقة للشعب وهذا يتناقض مع أصل دين الإسلام[2].

ب ـ نقد مبدأ الحرية في النظام الديمقراطي:

مما تفتخر به الأنظمة الديمقراطية قاطبة أنها توفر للشعوب الحرية الشخصية في الاعتقاد وإبداء الرأي وحرية الأشخاص على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم في فعل ما يشاءون، بشرط أن لا تستخدم هذه الحرية للتخريب وإشاعة الفتنة وإفساد النظام القائم.

ومبدأ الحرية الذي تدعيه الأنظمة الديمقراطية موضع نقد كثير من الإسلاميين لهذه الأنظمة ولمن يشارك فيها من الدعاة لأن هذه الحرية تنطوي على مخالفات جمة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فالحرية في هذه الأنظمة تفسر بالمفهوم الغربي للحرية والذي هو رد فعل للاستعباد الذي عانى منه الأوربيون في ظل الإقطاع وسلطة الكنيسة.

وأول سهام النقد موجهة إلى ما تنادي به الديمقراطية من أن الناس أحرار فيما يعتقدون ولهم أن يبدلوا دينهم كيف شاءوا فهي بذلك تسمح للمسلم أن يبدل دينه إلى أي ملة شاء دون مؤاخذة، وهو ما يتعارض مع أحكام الدين التي جرى العمل عليها بين المسلمين ففي صحيح البخاري وغيره عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه أن النبيﷺ بعثه إلى اليمن ثم أرسل معاذ بن جبل بعد ذلك فلما قدم قال: «أيها الناس إني

([1]) واقعنا المعاصر (٤٦٣)

([2]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية (١٣) د. صلاح الصاوي

رسول رسول الله إليكم فألقى له أبو موسى وسادة ليجلس عليها فأتي برجل كان يهوديا فأسلم ثم كفر فقال معاذ لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله ثلاث مرات فلما قتل قعد»[١] عملا بما ثبت عن النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه»[٢]

يقول الأستاذ محمد قطب: الحرية الحقيقية التي تتيحها الديمقراطية وكأنها أنشئت من أجلها هي الحرية الشخصية: حرية الإلحاد وحرية الفساد الخلقي، إن الديمقراطية الليبرالية تقيد الحرية حيث ينبغي أن توسع، وتوسعها حيث ينبغي أن تضيق، والحرية معناها أن من شاء أن يلحد ويعلن إلحاده على الناس ويدعو إلى الإلحاد ويسخر من القيم الدينية كلها ومن عقيدة الألوهية ذاتها فمن حقه أن يفعل[٣].

ويبين الأستاذ محمد قطب كيف استغلت هذه الحرية من قبل الإنسان الأوربي في التحلل من الدين والتهجم عليه وعلى المنتسبين إليه فيقول: فتحت هذا الشعار ـ شعار الحرية ـ ظل الإنسان الأوربي يجد التشجيع المستمر على التحلل من دينه وعقيدته، على أن هذه أمور خاصة يتصرف فيها الإنسان على مزاجه الخاص، فمن شاء أن يبقى على عقيدة ودين فليبق، وليتلق السخرية الدائمة من المجتمع ومن الكتاب والمفكرين وأهل الفن، فضلا عن المخذلات الدائمة من حوله في صرفه عن الدين والعقيدة، فمن شاء أن يلحد فليلحد[٤].

وفي كثير من البلاد الإسلامية تستغل هذه الحرية من قبل المرتدين والمنحرفين، في الاستهزاء بالدين وأهله والطعن بالقرآن ونبي الإسلام والقول بعدم صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق في هذا العصر، وأن التمسك بالإسلام يعني الرجعية وعدم مواكبة

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم الحديث (٤٣٤٥) وأبوداود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، رقم الحديث(٤٣٥٤) والنسائي، واللفظ له، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في المرتد، رقم الحديث (٤٠٧٧)

(٢) رواه البخاري واللفظ له، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، رقم الحديث (٣٠١٧) وأبوداود كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد(٤٣٥١) والترمذي،كتاب الحدود، باب ما جاء في المرتد، رقم الحديث(١٤٥٨) والنسائي (٤٠٦١) وابن ماجة،كتاب الحدود، باب المرتد عن دينه، رقم الحديث(٢٥٣٥)

(٣) مذاهب فكرية معاصرة (٢١٤-٢١٦)

(٤) مذاهب فكرية معاصرة (٢١٩)

التقدم العلمي الذي توصلت إليه البشرية.

وسماح هذه الأنظمة لهؤلاء المارقين بالتهجم على الإسلام وتعاليمه، بل إنها تعتبرهم مفكرين ينبغي تكريمهم، ومكافأتهم على ما قدموه، يقوي جانب المانعين من المشاركة في هذه الأنظمة في إنكارهم على من سعى إلى مشاركة هذه الأنظمة في مجالسها التشريعية والانتخابات التي تنظمها للوصول إلى المجالس البرلمانية، فكيف يسوغ للمسلم أن يكون عضوا في حكومة تقر حرية الكفر والاستهزاء بالدين.

بل إن حرية الاعتقاد بهذا المعنى قد تبنته أحزاب سياسية تعلن صراحة محادتهاالله ورسوله وسبيل المؤمنين وترى هذه الأنظمة أن وجود هذه الأحزاب من صلب اللعبة الديمقراطية ولا ديمقراطية بدون هذه الأحزاب.

وقد اشتملت برامج بعض الأحزاب الإسلامية التي ترى التغيير من خلال المجالس البرلمانية على إعطاء حرية تكوين الأحزاب السياسية وحددت مرادها بالأحزاب من خلال تحالفها مع بعض الأحزاب العلمانية(١).

ج: عدم مراعاة الأهلية في الاختيار، والتسوية بين الكافة في عملية التصويت.

من أسباب الرفض التي يبديها بعض الإسلاميين لقبول المشاركة في الأنظمة الديمقراطية مبدأ المساواة بين الناس في عملية التصويت التي تعتمدها هذه الأنظمة بل وتعدها مفخرة لها، ويطعنون في هذا المبدأ لأنه لا يتفق مع الشرع والعقل،

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: إن المبادئ التي على أساسها يتم اختيار القيادات في الحكومة الإسلامية تخالف إلى حد كبير المبادئ التي تتبعها الحكومات الأخرى، لأن أساسها في الحكومة الإسلامية الأهلية والأمانة والدين والتقوى وحسن الخلق والسلوك.

ويستشهد المودودي بقول الله تعالى {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا}(٢).

---

(١) انظر الإسلاميون وسراب الديمقراطية (٤٠٠) وللمزيد من المعلومات حول مفهوم حرية الاعتقاد في النظم الديمقراطية انظر الديمقراطية والحرية (٤٩) وحقيقة الديمقراطية (٢٦) والديمقراطية في الميزان (٧٩)

(٢) سورة النساء (٥٨)

ويرى أن الأمانة التي أمر الله تعالى أن تؤدى تشمل الإمارة وكل منصب قيـــادي ولا تقتصر فقط على ما يتبادر إلى أذهان العامة من أن المقصود بها إيداع المال ونحـــوه عنـــد الغير[١].

وهو رأي وجيه تؤيده الأحاديث النبوية فعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها يا رسول الله قال إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[٢]»

وكذاك جواب النبيﷺ لأبي ذر حين طلب الولاية، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قـال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال:«يا أبا ذر إنـــك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليـــه فيها»[٣].

ويرى المعترضون على هذا المبدأ أنه يؤدي إلى تولي الفساق والعصاة والنساء، ومنـــهم ليسوا أهلا للولايات، والمسؤليات العامة.

يقول الدكتور صلاح الصاوي: المنطق الديمقراطي يقوم على التسوية بـــين الكافـــة في عملية التصويت وأهلية الاختيار، ولا فرق عنده بين الأبرار والفجار ولا بـــين الذيـــن يعلمون والذين لا يعلمون، فاختيار الجاهل الأمي كاختيار الإمـــام المجتـــهد أو الخبـــير المتخصص سواء بسواء.

ويرى الصاوي أن هذا المبدأ يدل على تناقض دعاة الديمقراطية لأنهم يزعمـــون أنهـــم يحترمون التخصص في كل شيء ويأبون أن تسند أدنى الأعمال الإداريـــة أو المهنيـــة إلا ضمن أطر وضوابط تكفل حسن الاختيار وأهلية الاختيار، ولكنهم في مجـــال الاختيـــار للولايات العامة التي هي جماع الولايات كلها يهدرون هذه الضوابط، وهـــذه التســـوية تناقض الوحي والعقل، إذ كيف تسوي بين رأي العامة والدهماء ورأي الصفوة والخـبراء، وكيف تشترط مؤهلات في أدنى الوظائف الإدارية للدولة ولا تشترط مؤهلات في القيـــام

---

(١) انظر الحكومة الإسلامية (١٨١-١٨٢)

(٢) رواه البخاري كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، حديث رقم(٦٤٩٦)

(٣) ومسلم كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم الحديث(١٨٢٥)

بمهمة الاختيار للأمة وعقد الولايات العامة[1].

ويورد الدكتور محمود الخالدي أسبابا إضافية لرفض الديمقراطية كنظام يعتمد على رأي الأغلبية ويقول: إنه من استقراء الواقع في هذه الحياة نصل إلى قناعة مطلقة مفادها أن رأي الأغلبية لا يمثل دائما الحق والعدل بمعنى أن ما تراه الأغلبية لا يعني بالضرورة أنه صواب وأن رأي الأقلية خطأ، والنظام الديمقراطي من خلال هذا الواقع يحرم الأمة من خيرة رجالها ويفرز للسلطة الممارِسة للسيادة مجموعة من الجهلة والمرتزقة والمصفقين، لأن الديمقراطية تفترض أن عامل البناء يتساوى مع أستاذ الجامعة في حق ممارسة أعمال السيادة، فمن هذه الجهة نرى أن الديمقراطية خطر على أصحاب العقول لأنها تقدم للقيادة من هو ليس أهلا لها فتخلوا الساحة السياسية من الرجال الأكفاء[2].

د- المفاسد الناجمة عن مشاركة الإسلاميين في المجالس البرلمانية:

لاشك أن معظم الإسلاميين الداعين إلى المشاركة في المجالس البرلمانية أو المشاركين فعلا في هذه المجالس يهدفون من هذه المشاركة التمكين للإسلام ودرء المفاسد على قدر استطاعتهم.

لكن مخالفيهم يرون أن هذا الموقف مبني على حسن نية لم يصحبها حسن عمل، ويصف الأستاذ محمد قطب، تفكير الإسلاميين بدخول البرلمان للتمكين للإسلام من خلاله بأنه تفكيرساذج رغم كل ما يُقدم له من المبررات، وفوق ذلك يحتوي على مزالق خطيرة تصيب الدعوة في الصميم وتعوقها كثيرا، على الرغم مما يبدوا لأول وهلة من أنها تمكن لها[3].

أما المزالق الخطيرة فتتمثل فيما يلي:

-المزلق العقدي: فكيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها، أن يشارك في المجلس الذي يشرع بغيرما أنزل الله، ويعلن بسلوكه العملي في كل مناسبة أنه يرفض التحاكم إلى شريعة الله.

---

(1) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية (١٣)

(2) الديمقراطية الغربية في ضوء الشريعة الإسلامية (٥٧-٥٩)

(3) انظر واقعنا المعاصر ص (٤٦٣) محمد قطب، مؤسسة المدينة، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ

– تمييع القضية بالنسبة للجماهير التي نقول لها في كل مناسبة: إن الحكم بغير ما أنزل الله باطل وإنه لاشرعية إلا للحكم الذي يحكم بشريعة الله ثم تنظر الجماهير فترانا قد شاركنا فيما ندعوها هي لعدم المشاركة فيه، فكيف تكون النتيجة؟

– أن الجماعات الإسلامية الداخلة في التنظيمات السياسية لأعداء الإسلام هي الخاسرة والأعداء هم الكاسبون سواء بتنظيف سمعتهم أمام الجماهير بتعاون الجماعات الإسلامية معهم، أوبتمييع قضية الإسلاميين في نظرهم وزوال تفردهم وتميزهم الذي كان لهم يوم أن كانوا يقفون متميزين في الساحة لايشاركون في جاهلية السياسة من حولهم[١].

ويؤيد الأستاذ محمد قطب فيما ذهب إليه من أن الضرر سيعود إلى أصحاب الدعوة من جراء مشاركتهم الأستاذ عبد الغني الرحال الذي يرى أن موافقة الأنظمة الحاكمة على تبني الديمقراطية يكون بعد دراسة الساحة الشعبية ومكوناتها بعمق وإحصاء وهي تعلم أن مصالح الإسلاميين ومصالحها متناقضة بشكل تام أو شبه تام بينما الإسلاميون يهدفون من هذه المشاركة تحكيم الشريعة الإسلامية أو الإصلاح حسب الاستطاعة وعدم تمكين أعداء الله من الانفراد بمواقع التوجيه ونشر الدعوة من خلال أكبر منبر إعلامي وبحماية حصانة نيابية والدفاع عن حقوق المسلمين.

وهذه المصالح التي يسعى الإسلاميون إلى تحقيقها هي في الواقع تعني تقويض نظام الحكم، ومن ثم فإن من السذاجة الظن بأن الأنظمة الحاكمة ستمكن لمن هدفه تقويضها[٢].

ثم إن تحقيق المصالح التي يسعى الإسلاميون للمشاركة من أجلها ظني وليس قطعيا فهل يبيح هذا الظن انتهاك الأصول والقواعد الإسلامية القطعية؟

وما دام الأمر متعلقا بتحقيق المصالح وأول هذه المصالح تحكيم الشريعة ولايمكن تحكيم الشريعة من خلال انتهاكها، إذ إن هذا تناقض واضح[٣].

ويُطالِبُ المجيزين للمشاركة بالدليل حيث يقول: إن أي مصلحة مدعاة فعلى مدعيها أن يأتي بدليل من الكتاب والسنة أو الإجماع أو القياس، فإذا لم ينتصب لها دليل، فهي

---

(١) انظر المرجع السابق ص (٤٦٣-٤٦٥)

(٢) الإسلاميون وسراب الديمقراطية (٥٦-٥٨)

(٣) انظر الإسلاميون وسراب الديمقراطية (٦٣)

مصلحة موهومة لا أساس لها من الواقع، وهذا ينطبق على مشاركة الإسلاميين في المجالس النيابية، إذ هي مصلحة موهومة لافتقارها للدليل الشرعي، ولاينقل هذا الوهم إلى عالم الحقيقة بتوهم العقل أنها مصلحة، مع افتقارها للدليل الشرعي[١].

أما دعوى المجيزين مثل الصاوي والبهنساوي بأن مجيء الإسلاميين إلى هذه المجالس محاولة لمخاطبة الأمة من خلال هذه المجالس وإلزامها بالإسلام، وأن المحذور هو مشاركة الإسلاميين في الوزارة ولا ينطبق هذا المحذور على العضوية في مجلس الشعب[٢]، فيرد عليها الأستاذ محمد قطب بعد أن يورد شبهةً ربما احتج بها المجيزون وهو قولهم: ألم يكن النبي ﷺ يذهب إلى قريش في ندوتها ليبلغها كلام الله؟

ويجيب على هذه الشبهة بقوله: بلى كان يذهب إليهم في ندوتهم، ولكنه لم يكن يشاركهم في ندوتهم، ولو أن مسلما يدعو إلى تحكيم شريعة الله استطاع أن يذهب إلى ندوة الجاهلية المعاصرة، ويسمح له بالكلام فيها كما كانت تسمح الجاهلية الأولى لرسول الله ﷺ لكان واجبا عليه أن يذهب وأن يبلغ، لأنه في هذه الحالة لا يكون عضوا في الندوة إنما هو داعية من خارجها، جاء يدعوها إلى اتباع ما أنزل الله، فلا الندوة تعتبره منها ولا هو يعتبر نفسه من الندوة[٣].

تقييم التجربة البرلمانية للحركات الإسلامية في بعض البلاد الإسلامية:

تبين مما تقدم أن مسألة المشاركة في الأنظمة الديمقراطية ودخول المجالس البرلمانية موضع اختلاف بين الدعاة، بين من يسلّم بجوازها أويرى أن القول بجوازها ألجأت إليه الضرورة وظروف العصر، وقد أدلى هؤلاء بما لديهم من حجج يرون أنها تؤيدهم فيما ذهبوا إليه، وبين من يقول بأن المشاركة مخلة بأصل الدين وأنها من جنس التحاكم إلى الطاغوت، وقد تعقب هؤلاء ما أدلى به مخالفوهم من حجج، وأتوا بما لديهم من أدلة يرون أنها داحضة لحجج مخالفيهم.

وفي حين يؤيد المجيزون موقفهم بالنتائج التي تمخضت عنها التجارب البرلمانية التي

---

(١) المرجع السابق ص (٦٩)

(٢) انظر مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي (٩٩-١٠٠) وشبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر (٢٣٨)

(٣) واقعنا المعاصر (٤٦٣-٤٦٤)

شارك فيها بعض الإسلاميين وما تحقق فيها من إيجابيات، يرى المانعون أن نتائج هذه المشاركة دليل يضاف إلى بقية الأدلة التي تثبت فشل هذه المشاركة.

وفي الصفحات التالية نذكر أهم التجارب البرلمانية التي شارك فيها الإسلاميون، ونقف بموضوعية على إيجابياتها وسلبياتها مما يساعد في الحكم على هذه التجارب ومن ثم ترجيح قول أحد الطرفين.

تجربة الإخوان المسلمين تحت قبة البرلمان المصري:

خاضت جماعة الإخوان المسلمين في مصر التجربة البرلمانية في وقت مبكر نسبيا، وكان الإخوان يعتقدون أن حصولهم على مقعد في مجلس النواب كفيل بأن يؤثر في هذا المجلس خصوصا إذا كان صاحب هذا المقعد هو الشيخ حسن البنا، ولهذا اتخذ الإخوان قرارا بترشيح البنا عن دائرة الإسماعيلية في الانتخابات التي أعلنت حكومة الوفد إجراءها عام ١٩٤٢م[١] لكن الظروف السياسية التي كانت تمر بها مصر أثناء الاحتلال البريطاني وأثناء الحرب العالمية الثانية، حالت دون فوز الإخوان أو حتى قبول ترشيح مرشحهم الشيخ حسن البنا في دائرة الإسماعيلية، ثم شارك الإخوان مرة أخرى في انتخابات البرلمان «مجلس الأمة» ٤٤/ ١٩٤٥م لكن التزوير في هذه المرة كان فاضحا مما أدى إلى سقوط حسن البنا بعد تدخل الإنجليز، ثم دخلت الجماعة بعد ذلك في أزمات مع السلطة انتهت بمقتل المرشد العام في فبراير ١٩٤٩م ودخلت الجماعة في صراع غير متكافئ أبعدها تماما عن العملية السياسية حتى السبعينات.

وفي أعقاب خروج بعض قيادات الإخوان من السجون بين عامي ٧١ـ ١٩٧٥م وتولي الأستاذ عمر التلمساني قيادة الحركة استطاع بأسلوبه الهادئ والدؤوب أن يلم صفوف الإخوان من جديد، وأن يعبر جسر المحنة مع السلطة، حتى نجح في أواخر السبعينات في أن يصل إلى مواقع كثيرة للتأثير الجماهيري خصوصا داخل الجامعات المصرية، ولم يكد عقد السبعينات ينتهي حتى كانت حركة الإخوان المسلمين قد امتلكت قاعدة جماهيرية شبابية لا بأس بها، حتى إن الرئيس السادات انقلب يهاجمها في خطبه

---

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (١/٢٩٤-٢٩٥)

الأخيرة بشكل دائم وسرعان ما اعتقل قيادات الجماعة ورموزها وعلى رأسهم مرشد الجماعة الأستاذ عمر التلمساني في أحداث سبتمبر الشهيرة في عام ١٩٨١م وقبيل اغتيال السادات بشهر واحد.

وبعد أن خرج التلمساني من المعتقل سعى لإقناع قيادات الحركة وأفرادها بأهمية خوض الانتخابات التي جرت في ٢٧مايو ١٩٨٤م وتم التنسيق مع حزب الوفد الذي يهدف إلى الاستفادة من الانتشار الجماهيري الذي بدا واضحا للإخوان، ووجدت الجماعة فيه الإطار القانوني لخوض الانتخابات.

وقد نجح تسعة من قيادات الجماعة في الوصول إلى مجلس الشعب في انتخابات ١٩٨٤م،وقد أكسبتها هذه المشاركة خبرة مما مهد لنجاح الحركة في التحالف مع حزبي العمل والأحرار في انتخابات إبريل ١٩٨٧م وبالتالي نجاحها بالفوز بـ٣٦ مقعدا، وحصلت الحركة على أكثر من مليون صوت انتخابي من بين حوالي ستة ملايين شاركوا في انتخابات ١٩٨٧م[1].

التجربة البرلمانية للحركة الإسلامية في تركيا:

تختلف تجربة الإسلاميين البرلمانية في تركيا دون شك عن تجارب باقي الإسلاميين في مختلف الدول التي أتاحت لهم حرية العمل السياسي، إذ إن تجربة تركيا بدأت منذ السماح بتعدد الأحزاب قبل نهاية الأربعينيات وإن كانوا مختبئين في عباءات الحزب الديمقراطي بزعامة عدنان مندريس لصعوبة الإعلان عن هويتهم بشكل واضح في بلد علماني يرفض توظيف الدين في السياسة، ثم انتقلوا بعد إغلاق الحزب عام ١٩٦١م إلى حزب العدالة بزعامة سليمان دميريل إلا أنهم قرروا التبلور في حزب إسلامي واضح المعالم، فتم تشكيل حزب النظام الوطني في ٢٦يناير ١٩٧٠م ليكون أول حزب يعلن رغبته في أسلمة الحياة في تركيا، ويدعو لسوق إسلامية مشتركة بدلا من السوق الأوربية

---

(١) مجلة المجتمع العدد (١١٧٩)ص (٥١)

ويعارض النظام الربوي ويركز على القيم الإسلامية للتنمية الوطنية.

وعقد حزب النظام الوطني أول مؤتمر عام له بزعامة نجم الدين أربكان في ٨ فبراير عام ١٩٧٠م ليكون بذلك أول صوت إسلامي منذ إعلان العلمانية في تركيا.

ولم يحتمل العسكر بروز حزب النظام كصوت إسلامي فجاءت ضربة ١٢مارس ١٩٧٠م فقاموا بانقلاب عسكري وإن ظل الحكم مدنيا، وبقرار من المحكمة الدستورية أغلق حزب النظام بحجة أنه يعمل دعاية للشريعة تم رصدها في ٣ كتب أصدرها حزب شباب أزمير المرتبط بالحزب.

مرحلة حزب السلامة:

بعد سبعة عشر شهر من إغلاق حزب النظام تأسس حزب السلامة الوطني في ١١ أكتوبر ١٩٧٢ بزعامة سليمان عارف، ونجح الحزب في التجربة الأولى في الحصول على مليون و٢٦٥ ألف صوت أي بنسبة ١١,٨٪ من أصوات انتخابات عام ١٩٧٣م وليحصل على ٨٤ مقعدا بمجلس الشعب التركي وقرر سليمان عارف ترك موقعه لأربكان ليتولى زعامة الحزب.

وتحالف حزب السلامة مع حزب الشعب الجمهوري ليشارك الإسلاميين لأول مرة في الحكم.

ورغم اختلاف طريقي السلامة والشعب الجمهوري قرر الاثنان الاشتراك بحكومة ائتلافية، تولى فيها أربكان منصب نائب رئيس الوزراء ووزارة الدولة للقطاع الاقتصادي وكذلك حصل حزب السلامة على وزارة الدولة لشئون الديانة والأوقاف بالإضافة إلى وزارات الصناعة والزراعة والتجارة، أي الوزارات الاقتصادية.

وفي انتخابات عام١٩٧٧م تراجعت شعبية حزب السلامة وأهم أسباب هذا التراجع غضب قاعدة الحزب الانتخابية لتحالف الحزب مع حزب الشعب الجمهوري، ولذلك حصل على نسبة ٨,٦٪ لتهبط مقاعده إلى ٢٤ مقعدا بينما حصل الشعب الجمهوري على ٢١٣ مما يعني احتياجه لحزب آخر، مما اضطره لتشكيل ائتلاف مع السلامة والحركة القومية، وحصلت تلك الحكومة على الثقة في أغسطس ١٩٧٧م وظلت في الحكم حتى نهاية ١٩٧٧م وهكذا شارك حزب السلامة لمدة ٤سنوات في حكومات

حصل على نسبة ٦,٨% لتهبط مقاعده إلى ٢٤ مقعدا بينما حصل الشعب الجمهوري على ٢١٣ مما يعني احتياجه لحزب آخر، مما اضطره لتشكيل ائتلاف مع السلامة والحركة القومية، وحصلت تلك الحكومة على الثقة في أغسطس ١٩٧٧م وظلت في الحكم حتى نهاية ١٩٧٧م وهكذا شارك حزب السلامة لمدة ٤سنوات في حكومات مشتركة مع الحزبين الرئيسيين الجمهوري والعدالة.

السلامة في المعارضة:

في ٢٠ أكتوبر عام١٩٧٩م أجريت انتخابات تكميلية لم يدخلها السلامة وقام بدور بالمعارضة، ثم جاء مؤتمر قونية ردا على الممارسات الإسرائيلية في القدس، ودعا فيه حزب السلامة كافة زعماء الأحزاب التركية وسفراء الدول الإسلامية، إلا أن رفع الأذان أثناء عزف السلام الوطني وعدم قيام الناس علاوة على تحطيم حوانيت الخمور ورفع شعارات الشريعة قادمة «إما الشريعة وإما الموت» وقال أربكان في كلمته: إن اسطنبول ستفتح من جديد، ووجه كلامه للحاضرين قائلا: (استعدوا لتكونوا جيش الفاتح الجديد) كان مبررا لضرب حزب السلامة.

وفي سبتمبر ١٩٨٠م قام كنعان إيفرن بانقلابه العسكري واعتقل أربكان وأركان حزبه[1].

عصر حزب الرفاة:

بعد قرار عودة الحياة الحزبية ثانية بعد انقلاب إيفرن تقدم علي تركمان بطلب لوزارة الداخلية التركية في ١٩يوليو ١٩٨٣م لتشكيل حزب الرفاة الذي راعى هذه المرة أن يكون برنامجه الإسلامي أكثر غموضا من برنامجي النظام والسلامة، وبعد إعادة الحقوق السياسية لأربكان ورفاقه عادوا جميعا للالتحاق بحزب الرفاة امتداد النظام والسلامة يوم ٢٥سبتمبر ١٩٨٧م وتم اختيار نجم الدين أربكان رئيسا للحزب وكان هو المرشح الوحيد، إلا أن الحزب هذه المرة لم ينجح مثل المرة السابقة إذ لم يستطع الحصول على أكثر من ٧,٢%،

وفي انتخابات عام ١٩٨٩م المحلية كانت نسبة الحزب من الأصوات ٨, ٩% ارتفعت

---

(١)المرجع السابق العدد (١١٧٦)ص (٢٦-٢٨)

إلى٩, ١٦% في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩١م عندما تحالف معه حـــزب الحركـــة القومية والإصلاح الديمقراطي «الملة» وكانت نسبة الرفاة وحده ٨ ,١١% ليعود هـــذه المرة إلى مجلس الشعب التركي بـــ٤٠ نائبا، ونجح الرفاة في تلك الانتخابات بشكل كبير إذ حصل على ٥ مليون و٣٤٠ ألف و٩٦٩صوتا، بنسبة ١٩%صوتا ليفـــوز بذلـــك برئاسة البلديات العامة في٦ مدن كبرى[١].

وفي انتخابات عام ١٩٩٥م حصل حزب الرفاه على المركز الأول بـــ ١٥٨مقعدا هي حصيلة ٥ مليون و٩٧٠ من الأصوات بنسبة ٢١,٣٢% يليه الطريق القـــويم ١٣٥ مقعدا ثم الوطن الأم ١٢٤مقعدا.

وبالرغم من حصول الرفاه على هذه النتيجة إلا أنها لم تكن كافية للحزب كي يتمكـــن من تشيكل الحكومة بمفره مما اضطره للتحالف مع حزب الطريق القويم الـــذي تقاسم معه السلطة لفترة لم تبلغ عاما واحدا حيث اســـتطاعت قـــوى الضغـــط الماليـــة والعسكرية والسياسية إبعاده عن المشاركة في حكم تركيا، ولم يكف في إقناع تلك القوى الضمانات التي قدمها الرفاه ومنها الحفاظ على المبادئ الأتاتركيـــة والاســـتمرار علـــى العلمانية كي ترضى عن استمراره في الحكم حتى وإن كان ذلك مشاركه مـــع حـــزب عالماني[٢].

تطور الرفاة:

أهم تطور حدث في الرفاة هو ما أعلنه أربكان في المؤتمر العام الرابع للحـــزب يـــوم ١٠أكتوبر ١٩٩٣م، عن أن الحزب لم يعد قاصرا على الإسلاميين فقط بل أصبح لكـــل الشعب التركي، فالتحق به عشرات الضباط السابقين والقضاة وأعضاء مـــن أحـــزاب أخرى وعلويون ونصارى، وبدأ الخطاب السياسي للرفاة يأخذ منحنى جديدا فهو دائـــم الحث على احترام حقوق الإنسان، وحرية الفكر، ولا يقتصر في تركيزه على الأخذ مـــن الإسلام فقط، مثلما طالب مؤخرا نجم الدين أربكان بتطبيق الدســـتور السويســـري في تركيا لأنه يحمل كما يقول: روح الإسلام.

---

(١) المرجع السابق العدد (١١٧٦)ص(٢٨)

(٢) انظر المجتمع عدد (١١٩١) ص (٣٢)

التجربة البرلمانية للجماعة الإسلامية في باكستان

تأسست الجماعة الإسلامية بمدينة لاهور الباكستانية في الثاني من شعبان عام١٣٦٠هـ وتم انتخاب مؤسس الجماعة الأستاذ أبو الأعلى المودودي أميرا للجماعة وتعد الجماعة أساسا للحركة الإسلامية في منطقة جنوب غرب آسيا.

وبحكم المكونات الشخصية لأميرالجماعة الإسلامية الذي بدأ حياته في العمل الصحفي كان من الطبيعي أن تنخرط الجماعة في العمل السياسي منذ البداية، فكانت انتخابات المحليات عام١٩٥١م هي التجربة الأولى في الميدان الانتخابي للجماعة التي استطاعت أن تبرهن على حضورها الفاعل في المدن وخاصة العاصمة كراتشي(١).

وفي عام ١٩٧٠م شاركت الجماعة في الانتخابات البرلمانية، واستطاعت أن تدخل البرلمان عبر أربعة من أعضائها، واستمرت الجماعة الإسلامية في مشاركتها في العملية السياسية من خلال التحالف مع قوى سياسية أخرى.

وقد حرصت الجماعة على التنسيق أو التحالف مع القوى السياسية التي تتفق معها حول بعض المبادئ المشتركة أو لمواجهة قوى سياسية أخرى تراها الجماعة مصدر تهديد لهوية باكستان، غيرأن انتخابات عام ١٩٩٣م كانت نقطة تحول في الفلسفة الانتخابية للجماعة التي رأت أن الوقت قد حان لتخوض العملية الانتخابية بشكل مستقل عن القوى السياسية الأخرى استنادا إلى رؤيتها في أن الأحزاب السياسية الأخرى التي ظلت تتحالف معها لاتختلف كثيرا عن خصومها السياسيين، فحزب الرابطة الذي يتزعمه نواز شريف ــ من وجهة نظر الجماعة ــ ليس سوى واجهة مكررة لحزب الشعب الباكستاني الذي ترأسه بنازير بوتو، غير أن عناصر سياسية داخل الجماعة كان لها تحفظها على وجهة النظر هذه، وكانوا يرون أن الجماعة الإسلامية لم تنضج بعد شعبيا حتى تخوض المعركة الانتخابية بشكل مستقل، وأن الرابطة السياسية بقيادة نواز شريف لا تزال خيارا مناسبا للتحالف معها بحكم المبادئ العديدة التي ترفعها والتي يتفق جانب كبير منها مع ما تنادي به الجماعة الإسلامية، إلا أن القيادة العليا للجماعة كان لها رأيها الذي التزمت به

---

(١) انظر أبو الأعلى المودودي حياته وفكره في العقدي ص (١٠٦)

الجماعة وعلى أساسها دخلت الانتخابات دون تحالف مع قوى أخرى وكانت النتيجة الحصول على ثلاثة مقاعد داخل البرلمان الوطني مسجلة بذلك أدنى مشاركة سياسية لها داخل البرلمان وكانت النتيجة متوقعة رغم الخدع العديدة التي استدرجت إليها الجماعة من جانب خصومها السياسيين الذين أوهموها بأنها القوة الثالثة في البلاد ويمكن أن تحصل على ٤٠ـ ٥٠ مقعدا دون مشاركة أحد، ويرى الكثيرون ممن تابعوا العملية الانتخابية في ذلك الوقت أن كثيرا من المتعاطفين مع الجماعة الإسلامية آثروا التصويت لنواز شريف على الجماعة الإسلامية انطلاقا من قناعة مؤداها أن منح الصوت للجماعة سيكون عديم الجدوى نظرا لتضاؤل فرص الجماعة أمام بنازير بوتو[1].

هل المترجح المنع من المشاركة أم جوازها:

استعرضنا فيما تقدم حقيقة النظام الديمقراطي وظروف نشأته ومدى تطبيق ما ينادي به من شعارات، وبينا موقف الإسلاميين من المشاركة فيه، ثم ذكرنا أمثلة لبعض الحركات الإسلامية التي لها تجارب في المشاركة للأنظمة الديمقراطية، والنتائج التي تمخضت عنها مشاركتها، وقد آن لنا أن نسأل هل الحق في جانب المجيزين أم المانعين؟

إن من الطبيعي أن يكون لدى المسلم عاطفة قوية تجعله يتفاعل مع قضايا الإسلام والمسلمين ولاشيء عنده يساوي انتصار الإسلام والتمكين له، ويتمنى لو بذل الغالي والرخيص من أجل تحقيق هذه الرغبة، لكن هذه العاطفة لاتبرر للمسلم مخالفة أحكام الشرع بحجة تحصيل منفعة للإسلام أو المسلمين، لأن مما ينبغي أن يوضع في الحسبان أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وقبل القول بصحة المشاركة أو خطأها لا بد من الإجابة على الأسئلة التالية بتجرد وموضوعية ليكون القول بصحة المشاركة أو عدمها على بينة:

١- ماذا جنى الإسلاميون من التجارب السابقة؟

الأمثلة التي مر ذكرها تعد نماذج مختارة لمشاركة أبرز الحركات الإسلامية التي جذبت مشاركتها الأنظار إليها وسمع بها القاصي والداني، وفي بلدان أخرى مثل الكويت واليمن والأردن وتونس وغيرها جرت تجارب مشابهة لحركات الإسلامية أخرى، وبعض هذه

---

(١) انظر مجلة المجتمع العدد (١١٧٦)ص(٣٨-٣٩)

الحركات مر عليها فترة من الزمن وهي تعيد المحاولة تلو الأخرى وتسعى للحصول على ما ترجوه من مكاسب، لكن المتأمل لما أسفرت عنه هذه المشاركات يرى أنها لم تحقق شيئا ذا بال، وأن الجهود التي بذلت والتضحيات التي قدمت لا توازي المكاسب المحدودة التي تحققت، فلا الإسلاميون وصلوا إلى الحكم في أي من هذه البلدان ولا الشريعة حكمت في أي منها.

٢- العقبات التي تقف في طريق الإسلاميين في حالة فوزهم:

من السذاجة الظن بأن القوى المعادية للإسلاميين التي بيدها مقاليد الأمور ستقف منهم على الحياد في حالة فوزهم وأنها لن تبذل ما تستطيعه من جهد للحيلولة بينهم وبين الاستفادة مما حققوه من نصر، وهذه السذاجة مردها إلى الجهل بموقف الجيش والمؤسسة العسكرية في البلاد الإسلامية من تطبيق التعددية السياسية، حيث يعد الجيش المؤسسة المنظمة التي تملك (الشوكة) والذي يعد في كثير من البلاد الإسلامية العصا الغليضة التي يجلد بها الشعب ويحال بينه وبين تحقيق آماله، وللأسف أن الجيوش في بعض البلاد الإسلامية لديها قدرة فعالة في قمع الشعوب، كما أن هذه الجيوش تفتقر إلى الوعي الديني وتدين بالولاء لعقليات قمعية مستبدة ربت جيوشها على الاستبداد وفردية القرار والطاعة العمياء في الحق والباطل، لذلك فإن سيطرة العسكريين على الحكم أمر وارد دوما إما عن طريق الانقلابات العسكرية أو عن طريق الثقل الذي تمثله المؤسسة العسكرية داخل هيكل النظام، وقد استخدمت هذه الجيوش في الماضي وستستخدم في المستقبل للحيلولة دون وصول الإسلاميين إلى الحكم عن طريق الانتخابات، وما انتخابات الجزائر وتركيا وما حدث فيها للإسلاميين على يد الجيش عنا ببعيد[1].

وإضافة إلى القوى الداخلية المتمثلة في الجيوش وموقفها المعادي، فإن القوى الخارجية المتمثلة بالدول الغربية لايخفى دورها في التربص بالدعاة واستعدادها للتصدي لهم وتقديم العون المادي والمعنوي للقوى الداخلية المعادية لهم، وهذه القوى تستخدم معايير مزدوجة في موقفها من الديمقراطية، فهي تؤيدها وتقف معها بقوة وحزم، وتتخذ مواقف حازمة

---

(١) انظر مجلة البيان العدد (٤٨) ص (٦١-٦٢)

ضد من يقفون حائلا دون تحقيقها أو التلاعب بنتائجها حين تكون النتائج لصالح حزب علماني يخدم مصالحها ويدفع إلى السلطة دماها المتعددة، فهنا تستحق مبادئ الديمقراطية البكاء والعويل إن حدث التلاعب بها، لكنها تصبح كابوسا مزعجا ودكتاتورية حين يكون الإسلام هو المستفيد، وتكون الدكتاتورية العسكرية والتسلطية البوليسية قمة الحكمة والحرية.

وتجربة النظام والسلامة والرفاة في تركيا جديرة بالدراسة والبحث، فالإسلاميون الأتراك اشتركوا في حكم تركيا العلمانية في السبعينات وقادوا حملة التصنيع الثقيل ولم يكن هناك أي مخاوف غير مبررة من الإسلاميين، ومع ذلك وضعت العقبات أمام السلامة في تركيا، ووضع الجيش التركي حامي المبادئ الغربية أيدي الديمقراطية في أغلال الديكتاتورية العسكرية، ولم تغضب أوربا أو الولايات المتحدة من أجل الديمقراطية أنذاك، حيث كان الإسلاميون هم الذين سيستفيدون منها.

إن العاقل يقف مستغربا وهو يقرأ أو يسمع هذه المواقف للغرب وهو يمد يده لاغتيال كرامة الشعوب ويؤيد الاستبداد والسجون والتعذيب، ويقول بصراحة مكشوفة مرحبا بكل فساد واغتيال للديمقراطية ومبادئها مادام ذلك يقف ضد المد الإسلامي، في الوقت الذي يتشدق فيه بالحرية وحقوق الإنسان.

فلابد لدعاة الإسلام أن يدركوا أن الديمقراطية نظام غربي صمم ليحقق مصالح الغرب، وأن التمكين للإسلام من خلاله عبث لاطائل من ورائه، وأن من صدروا هذا النظام أوصنائعهم الذين بيدهم مقاليد الحكم في البلاد الإسلامية لن يسمحوا باستخدامه في غير مايخدم مصالحهم ويحقق أهدافهم.

٣- التنازلات التي يبذلها الإسلاميون حال مشاركتهم:

عن أبي ثعلبة الخشني [١] ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان

---

(١) أبو ثعلبة الخشني، اختلف في اسمه واسم أبيه، فقيل جرثوم بن عمرو وقيل جرهم بن ناشم، وقيل غير ذلك، نزيل الشام، من أهل بيعةالرضوان، أسهم له النبي ﷺ يوم خيبر، كان يقول: إني لأرجو أن لا يخنقني الله كما أراكم تخنقون، فبينما هو يصلي في جوف الليل، قبض وهو ساجد فرأت ابنته في النوم أن أباها قد مات فاستيقظت فزعة فنادت أين أبي؟ قالوا في مصلاه فنادته فلم يجبها فأتته فوجدته ساجدا فحركته فسقط ميتا، مات سنة ٧٥هـ، انظر سير أعلام النبلاء (٢/٥٦٧ـ٥٧١) وتهذيب التهذيب (٦/٣١٩-٣٢٠)

فلا تبحثوا عنها»رواه الدار قطني وغيره[١].

وقال أبو بكر ابن السمعاني[٢]: هذا الحديث أصل كبيرمن أصول الدين، فمن عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب وأمن العقاب لأن من أدى الفرائض واجتنب المحارم ووقف عند الحدود وترك البحث عما غاب عنه فقد استوفى أقسام الفضل وأوفى حقوق الدين لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأشياء المذكورة في هذا الحديث[٣].

وقد كان السلف رحمهم الله يتوقف أحدهم في تسمية الفرض واجبا أو المكروه محرما، امتثالا لأمر الله تعالى حيث يقول: { ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب}[٤] قال الربيع بن خثيم[٥]: ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم كذا فيقول الله: كذبت لم أحل كذا ولم أحرم كذا[٦].

والإسلام قام على إخلاص الدين لله واتباع صراطه القويم، وحسن القصد لايكفي في الحكم على العمل بأنه جائز، إن لم يكن هذا الحكم مؤيدا بالدليل من الكتاب والسنة، وبعض الدعاة والمصلحين ربما تصرفوا بدافع من الرغبة في الخير والمصلحة للدين فسوغوا لأنفسهم استخدام وسائل غير مشروعة وبرروا لأنفسهم هذا التصرف بأن مصلحة

---

(١) رواه الدارقطني (٤/١٨٣-١٨٤) ورواه الطبراني في الكبير (٢٢/٥٨٩) وقال ابن رجب هذا الحديث من رواية مكحول عن أبي ثعلبة الخشني، وله علتان، إحداها: أن مكحول لم يصح له السماع من أبي ثعلبة، والثانية: أنه اختلف في رفعه ووقفه على أبي ثعلبة، وقال الدارقطني الأشبه بالصواب المرفوع، وقد روي معنى هذا الحديث مرفوعا من وجوه أخر، خرجه البزار في مسنده، والحاكم من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا هذه الآية {وما كان ربك نسيا}وقال الحاكم: صحيح الإسناد، انظر جامع العلوم والحكم(٢/١٥٠ـ ١٥١)

(٢) العلامة الحافظ الأوحد محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار، أبو بكر السمعاني، ولد سنة ٤٦٧هـ، سمع الكثير وحدث ووعظ بالنظامية ببغداد، أملى بجامع مرو مائة وأربعين مجلسا كل من رآها اعترف له أنه لم يسبق إلى مثلها، كان أديبا شاعرا فاضلا له قبول عظيم في القلوب، توفي بمرو سنة ٥١٠ هـ عن ثلاث وأربعين سنة. انظر سير أعلام النبلاء (١٩/٣٧١ـ ٣٧٣) والبداية والنهاية (١٢/٢٢٢)

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/٥٣)

(٤) سورة النحل (١١٦)

(٥) الربيع بن خثيم بن عائذ، الإمام القدوة العابد أبو يزيد الثوري الكوفي، أدرك زمن النبي ﷺ، تابعي ثقة، كان ابن مسعود يقول له: والله لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، من أشد أصحاب ابن مسعود ورعا، توفي سنة ٦٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء (٤/٢٥٨-٢٦١-٢٦٢) و تهذيب التهذيب (٢/١٤٤)

(٦) جامع العلوم والحكم (٢/١٥٥)

الدعوة تقتضي ذلك، ظنا منهم أن شرف الغاية يبرر عدم سلامة الوسيلة، وهذا ينطبق في الغالب على من يقبلون الدخول في البرلمان ويشاركون في الانتخابات، حيث تضطرهم المشاركة في كثير من الأحيان إلى التنازل عن أمور لا يملكون حق التنازل عنها، أو التعاون مع أحزاب علمانية على حساب تعاليم الدين وأحكامه، ظنا منهم أن مصلحة الدعوة وتحقيق مكاسب لها وإن كانت محدودة تجيز لهم هذه الأعمال، وما درى هؤلاء أن أمور الدين لايملك أحد كائنا من كان التنازل عن شيء منها، يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ حين بذل المشركون المحاولة تلو المحاولة لاستدراج النبي ﷺ ليوافقهم في بعض ما هم عليه: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا}[1] فتأمل هذا الوعيد الشديد من الله تعالى ولمن؟ لنبيه ﷺ فيما لو تنازل عن شيء من أمور الدين ولوكان قليلا، وحاشاه من أن يقع منه شيء من ذلك، لكن في ذلك عظة لمن ظن من أتباعه أنه يملك حق التنازل عن شيء مما أمر الشرع بالتزامه، أو موافقة أهل الجاهلية في أي زمان أومكان في شيء مما هم عليه من الضلال ولو كان يسيرا.

والواقع يشهد أن المشاركين من الإسلاميين في المجالس البرلمانية تقع منهم مخالفات وتنازلات خطيرة تبدأ من مبدأ قبول الإسلاميين لدخول البرلمان، وتنتهي بتحالفهم مع الأحزاب العلمانية واندماجهم معها، بعد الاتفاق مع هذه الأحزاب على تنازلات يبذلها الطرفان للتقريب بين مواقفهم المتباينة مما يجعلهم في النهاية حزبا واحدا.

وبعض ما سنذكره من مخالفات وتنازلات هي بعض ما يقع فيه هؤلاء من أخطاء، ويتبين منها عظيم خطر هذه المشاركة على الدعوة وضآلة المكاسب المتحققة مقارنة بما يترتب عليها من خسائر محققة تصيب الدعوة في الصميم.

تقوم العملية الدستورية على إرجاع السلطات إلى الأمة باعتبارها مصدر السلطات

---

(1) سورة الإسراء (٧٣-٧٥)

وتعمل من خلال الاستفتاء على استخراج رأي الأكثرية باعتبارها ممثلا لـرأي الأمـة، بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى، كالدين والعدالة والأمانة، والدول التي تتبع هـذا النظام دول لادينية تفصل الدين عن الحياة، والنظام البرلماني في أصوله ومضامينه ونتائجه ينتمي إلى نظام لاديني، يجحد سلطة الدين ابتداء، ووسائل العمل الإسلامي لابد أن تكون إسلامية، لأن شرف الغاية لايبرر استخدام وسيلة لايقرها الإسلام، وكل شرع يخـالف ماجاء به الإسلام فهو داخل في الطاغوت الذي لابد لمن أراد الاستمساك بالعروة الوثقى من الكفر به، وهذا ما لايتأتى لمن دخل في البرلمان حيث يطلب منه قبل ذلك أداء القسم الدستوري على الولاء للدستور الذي ينص على أن الشعب مصدر السلطات، فهو محادة لله تعالى في أخص حقوقه وهو حق التشريع، وجعل هذا الحق للشعب والاحتكام إليـه في سن الأنظمة والقوانين، وهذا مايتعارض صراحة مع قول الله تعـالى {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون}[1].

يقول الأستاذ أحمد سلام: فهذا اليمين في حقيقته يعني تخلي الإنسـان عـن توحيـده وإسلامه لله، وهناك التباس يقع فيه كثير من الإسلاميين حتى بعض المنتسبين للعلم منـهم، تتسبب فيه عبارة تقحم إقحاما على مواد الدستور في البلاد العربية وهي تقول: إن ديـن الدولة هو الإسلام، أو إن الإسلام هو المصدر الأساس للقوانين، فيظن بعض النـاس أن هذه العبارة كافية لأسلمة هذا الدستور.

والذين يقعون في هذا الوهم يغفلون أو يتجاهلون جملة من الحقائق الحاسمة أهمها:

– أنها مادة قابلة للتبديل، إذا رأت أغلبية البرلمان أن تغيرها.

– أن سلطة الدين في هذا النظام هي أحدى منح إرادة الشـعب، بعكـس النظـام الإسلامي الذي تقوم كل سلطته على إرادة الله.

– أن القيمة الإصلاحية لهذه العبارة قيمة وهمية لارصيد لها في الواقع العملي في حيـاة

---

(١) سورة المائدة (٤٩)

الشعوب المسلمة[1]

أما التحالف مع الأحزاب العلمانية وما ينتج عنه من تنازلات يبذلها الإسلاميون من أجل هذا التحالف فحدث عنه ولا حرج، وتجارب الحركات الإسلامية التي سبق الحديث عنها ــ باستثناء جبهة الإنقاذ في الجزائر ــ شاهد على ذلك.

فجماعة الإخوان المسلمون في مصر شاركت في الانتخابات التي جرت في ٧مايو١٩٨٤م بالتنسيق مع حزب الوفد العريق بعلمانيته وعدائه للإسلام ثم تحالفت مع حزب العمل الإشتراكي، والأدهى من ذلك، ماحدث بعد انتخابات عام ١٩٩٥م التي لم تحصل فيها الجماعة إلا على مقعد واحد في البرلمان، مما دفع الجماعة للإيعاز لبعض المنتمين إليها لتأسيس حزب سياسي لايقوم على أساس ديني، ولإزالة أي شبهة قد تمنع السلطات من الإذن بقيام هذا الحزب فقد قامت فكرة الحزب على أساس التحالف بين أعضاء من الجماعة وبعض النصارى، وأطلق على هذا الحزب حزب (الوسط) بحجة البحث عن قنوات شرعية بديلة يمارس من خلالها الإخوان عملهم على الساحة، وفي لقاء مع الأستاذ مصطفى مشهور ــ المرشد الحالي لجماعة الإخوان المسلمون ــ دارت أسئلته حول موقف الجماعة من هذا الحزب، وكان من ضمن ما جاء فيه مايلي:

سئل عن وجود قنوات شرعية بديلة يمارس من خلالها الإخوان عملهم فقال: سعى بعض شباب الإخوان وتقدموا ببرنامج حزب الوسط، ولم نحظر عليهم عمل هذا، وتقدموا بالفعل إلى لجنة شئون الأحزاب.

وفي سؤال آخر مضمونه: هل حزب «الوسط» يدخل في إطار المساعي التي يقوم بها الإخوان للبحث عن قنوات شرعية للتعبير عن وجودهم وممارستهم لعملهم على الساحة المصرية؟

قال: حزب الوسط تبنى فكرته والقيام به بعض الإخوان ولم يكن هناك حظر على الإخوان للقيام بمثل هذه الأعمال ولكنهم قاموا به كتجربة فإذا تمت الموافقة عليه يكون خيرا، لأننا نود أن يكون عملنا علنيا وخاليا من السرية[2].

---

[1] انظر نظرات في منهج الإخوان المسلمين (١٤٦-١٤٩)

[2] المجتمع العدد (١١٨٦)ص (٢٥-٢٦)

أما طبيعة عمل هذا الحزب والأفكار التي يقوم عليها فتتضح من خلال اللقاء الـــذي جرى مع المهندس أبو العلا ماضي وكيل المؤسسين لهذا الحزب والذي كان من ضمـــن أسئلته ما يلي:

ما هي الفلسفة الرئيسية للحزب الجديد؟

جـ: فكرة الحزب تتلخص في أن التيار الإسلامي المعتدل المنتشـــر في جميـــع القـــرى والنجوع والمدن المصرية، وله تأثيره المعروف في الساحة السياسية أراد أن يقـــدم حزبـــا مدنيا يحمل المشروع الإسلامي الحضاري الذي يبين هوية الأمة بمسلميها وأقباطها تحـــت اسم «الوسط» وبالتالي فهو وسطي الفكرة والسلوك، لا هو يمين ولا هو يسار، بل هـــو تعبير عن هوية الأمة.

هل الحزب الجديد له توجه إسلامي معلن وواضح؟

جـ: حسب قانون الأحزاب السياسية فإنه لا يجوز قيام حزب سياسي علـــى أســـاس ديني، فهو إذن ليس حزبا دينيا، ولكنه حزب يحمل مشروعا حضاريا متمـــيزا في إطـــار مدني.

هل الحزب له صلة بحركة الإخوان المسلمون أي أنه أحد أجنحتها أو يعمل في إطارها؟ أم هناك اعتراض من الإخوان على تأسيس الحزب؟

جـ: كثير من المؤسسين ينتمون إلى فكرة الإخوان المسلمون لكنه كحزب لا يجوز لـــه أن يكون على صلة بأي كيان آخر هو فقط يقوم على التقاء إرادة المؤســـسين وعلـــى توافقهم على هذا البرنامج وعلى هذه الآلية وبالتالي فليست لنا صلة مباشرة بالجماعـــة، وأعتقد ليس هناك اعتراض لأن هذا يدخل في دائرة المباح ولا أعتقد أن الموضوع أثـــار خلافا أو اعتراضا[1].

فأي تميع لقضايا الإسلام فوق هذا التمييع؟ وأي تنازل عن أساسيات العقيدة فـــوق هذا التنازل؟ وأي فوائد ستجنى للإسلام من حزب تلتقي أفكار مؤسسيه مع النصـــارى، وهل يظن عاقل أن صليبيا سيكون مدافعا عن قضايا الإسلام، مطالبا بتحكيم الشريعة.

([1]) المجتمع العدد (١١٨٥)ص (٤١)

لكن الذي يغلب على الظن أن هذا التصرف مبعثه إما الجهل بأسسيات الدين ومقتضيات العقيدة، أو الرغبة في الرئاسة والوصول إلى السلطة مهما كانت الوسيلة المتبعة ومهما بلغت فداحة الثمن الذي سيدفع.

أما حزب السلامة في تركيا (الرفاه حاليا) فقد تحالف مع حزب الشعب الجمهوري عام ١٩٧٣م وحزب الحركة القومية والإصلاح الديمقراطي في انتخابات علم ١٩٨٩م، وفي انتخابات ١٩٩٥م تحالف مع حزب الطريق القويم الحزب العريق بعلمانيته وقدم تنازلات متتالية على حساب تعاليم الإسلام هدفها إرضاء المؤسسة العسكرية المدافعة عن العلمانية إضافة إلى ما أعلن عنه نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه في المؤتمر العام للحزب في ١٠/١٠/١٩٩٣م من أن الحزب لم يعد قاصرا على الإسلاميين فقط بل أصبح لكل الشعب التركي، فالتحق به علويون ونصارى، وطالب نجم الدين أربكان بتطبيق الدستور السويسري في تركيا.

وكل هذه التنازلات التي بذلها الحزب دعته إليها الرغبة في كسب أكبر عدد ممكن من الناخبين ومسايرة الأحزاب العلمانية الأخرى والظهور أمامها بمظهر المتسامح، ويمكن أن يوصف الحزب بعد هذه التطورات بأنه حزب علماني له توجه إسلامي.

وهذه التنازلات التي مر ذكرها لاتعدو كونها نماذج يسيرة، ربما وقع من بعض الأحزاب التي لم يرد الكلام عنها، أشد منها خطورة وإضرارا بقضايا الإسلام، وهي تدل دلالة واضحة على أن الديمقراطية وما يتفرع عنها من أنظمة وإن خدعت بشعاراتها البراقة بعض الإسلاميين، ليست الوسيلة الصحيحة أو الجائزة للتمكين للإسلام، فسنة الله لا تتغير ومن السذاجة الظن بأن التمكين للإسلام يمكن أن يكون بمخالفة شرعه وصدق الله تعالى حيث يقول: { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}[1]

([1]) سورة النور (٥٥)